إعجاز القرآن



تأليف

دكتور حسين نصار
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الفصل الأول

توفر دواعى المعارضة

عرف علماء الإسلام أن إعجاز القرآن يقوم على عجز العرب عن الإتيان بمثيل له ، على الرغم من التحدى القرآنى إلى ذلك .

ولذلك حاولوا أن يبينوا أن كل الظروف تجمعت لتدفعهم إلى القيام بهذا العمل ، من تحد صريح وواضح ، ودعوة إلى مفاهيم جديدة ، وشخصية عربية قوية دعتهم إلى الاستماتة فى المقاومة ، وأهمية المعارضة فى إبطال أمر هذا الداعية .

وفيما يلى أرصد هذه الدواعى التى توفرت لديهم ، والتى أنا مضطر إلى إفراد بعضها بفصول مستقلة ، لأن الحديث فيها طال وتشعب كثيرا .

أهمية المعارضة

ـ المعارضة أفسد لأمر محمد

قال الجاحظ : سورة واحدة أو آيات يسيرة كانت أفسد لأمره[١] ، وعبد الجبار : لو كانت المعارضة وقعت لكان إظهارها والاحتجاج بها أدل على فساد حاله[٢] .

ـ المعارضة أسرع فى تفريق أصحاب محمد

قال الجاحظ : سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أسرع فى تفريق أتباعه[٣] .

---

(١) الإتقان ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٣٩/١ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ٢/١ . موسى لاشين ٢٤٥ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٥ .

(٣) الإتقان ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٣٩/١ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ٢/١ . صقر ٦ . موسى لاشين ٢٤٥ . عليان ١٢٣ .

وذهب الباقلانى إلى أن فى المعارضة تفريق جمع محمد ، وتشتيت أسبابه ، ورجوع من صدق به على أعقابه ، وعودته فى مذهب أصحابه الأولين[١] .

ـ الكلام أنقض لقول محمد

ذكر ذلك الجاحظ[٢] . وقال أيضا : سورة واحدة أو آيات يسيرة كانت أنقض لقول محمد[٣] . وصرح عبد القاهر بأن دعوى محمد فى التحدى لو أُبطلت انتقض عليه تدبيره[٤] .

ـ لو عارضوا محمدا لأثبتوا كذبه

عبر الجاحظ فى « الحجج » عن ذلك بقوله : إن عارضتمونى بسورة واحدة فقد كذبت فى دعواى ، وصدقتم فى تكذيبى[٥] . وروى عنه السيوطى : سورة واحدة أو آيات يسيرة كانت .. أبلغ فى تكذيبه[٦] . وفى الحجج أيضا ما يؤكد هذا التعبير إذ قال إن الكلام أبلغ فى تكذيبهم إياه[٧] .

وذهب الباقلانى إلى أن فى المعارضة تكذيب قول محمد[٨] .

---

(١) إعجاز ٢١ . إعجاز الخطيب ١/١٧٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . وانظر عبد الجبار ٣٣٩ . أبو موسى ٢٨ .

(٢) رسائل ٣/٢٧٤ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١/١٣٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . خلف ١٤٢ . أبو فرحة ١١١ . نيازى ١٢٧ . وانظر معترك ١/٢ .

(٣) الإتقان ٢/٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . وانظر صقر ٦ .

(٤) الشافية ٥٨٠ .

(٥) رسائل ٣/٢٧٣ ــ ٤ . إعجاز الخطيب ١/١٣٤ـ٥ . حويش ٢٥٦ـ٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦٠ . خلف ١٤٢ . وانظر الرازى ٢/١٢٠ . الحمصى ٢٥ . فقيهى ١٩ .

(٦) الإتقان ٢/٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ ، ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . خلف ١٤٢ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ١/٢ . موسى لاشين ٢٤٥ . عليان ١٢٣ .

(٧) رسائل ٣/٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١/١٣٥ . حويش ٢٥٧ . نيازى ١٢٧ .

(٨) إعجاز ٢١ ، ٤٣ ، ٢٤٨ . إعجاز الخطيب ١/١٧٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . وانظر الدباغ ٧ .

إبطال دعوى محمد

نفى الجاحظ وقوع المعارضة فقال : لم يَرُم ذلك أحد ولا تكلفه ، ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ، ولا ادعى أنه قد فعل ، فيكون ذلك الخبر باطلا[١] . واتبعه البلاقلانى فذهب إلى أن المعارضة كانت تبطل أمر محمد[٢] . وأضاف عبد الجبار أنها كانت تبطل أمره من كل وجه[٣] . وصرح عبد القاهر بأن دعوى محمد فى التحدى لو أُبطلت بَطل أمره كله[٤] .

تشكيك بعض المسلمين

قال الجاحظ : لو تكلف بعضهم ذلك – يريد المعارضة – فجاء بأمر فيه أدنى شبهة ، لعظمت القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساء وأشباه النساء[٥] ؛ ولألقى ذلك للمسلمين عملا ، ولطلبوا المحاكمة والتراضى ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال[٦] . وتبعه الباقلانى فذكر أنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى إدخال الشبهات على قلوب المحامين عنه[٧] .

توهين أمر محمد

ذهب الباقلانى إلى أن فى المعارضة توهين أمر محمد[٨] .

دحض حجة محمد

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة – لو تمت – تدحض حجة محمد[٩] . وعبر الآلوسى عن ذلك بانهيار حجته[١٠] . وقال عبد القادر عطا : لو نجح العرب فى معارضة القرآن لأسقطوا – على الفور – حجة محمد على أنه رسول يبلغ عن ربه دعوة الإسلام الخاتمة[١١] .

---

(١) حجج ٢٥١/٣ . سلطان ٢١٣ – ٤ . وانظر عبد الجبار ٢٦٠/١٦ . العلوى ٣٧١/٣ ، ٣٨٤ . الدباغ ٧ .
(٢) إعجاز ٢٢ . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ .
(٣) المغنى ٢٥٣/١٦ . قرآن الخطيب ٢١٣ .
(٤) الشافية ٥٨٠ . سلطان ١٣٢ .
(٥) الحيوان ٨٩/٤ . العمارى ٧٤ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٦ .
(٦) الحيوان ٨٩/٤ . العمارى ٧٤ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٦ .
(٧) إعجاز ٢٤٨ .
(٨) إعجاز ٢١ . إعجاز الخطيب ١٧٧/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . أبو على ٢٨ . وانظر الدباغ ٧ .
(٩) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١٧٨/١ . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . وانظر الطوسى ٤٥٦/٥ . الدباغ ٧ .
(١٠) روح ٢٩/١ . وانظر قطب ٤٨ . الكومى ١٧ .
(١١) أسرار ٢٥٥ . عظمة ٩٤ .

إفساد دلالة محمد

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كان من شأنها أن تفسد دلالة محمد[١] أو تبطلها[٢] .

قطع المحامين عن محمد

ذهب الباقلانى إلى أنهم لو كانوا عارضوه لتوصلوا إلى قطع المحامين دون محمد عنه أو تنفيرهم عليه[٣] .

الدفاع عن دين المشركين

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كانت تتضمن الذب عن أديان العرب القديمة[٤]، والذهبى إلى أن من شأنها أن تدفع البطلان عن الآلهة[٥] .

التخليص من حكم محمد

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة التى تكذب تحدى محمد كانت تخلص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكم محمد[٦] .

التخليص من وصف محمد لهم بالضلال

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كانت تضمن إخراج الكفار أنفسهم من تضليل محمد إياهم[٧] .

التخليص من تسفيه آرائهم

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كانت تضمن إخراج الكفار أنفسهم من تسفيه محمد رأيهم[٨] ، والذهبى إلى أنها كانت تدرء السفاهة والجهالة عن أنفسهم[٩] .

غناء المعارضة عن القتال

ذهب الباقلانى مرة إلى أن المعارضة كانت تغنيهم عن تكبد القتال[١٠] . ومرة إلى أنها كانت تضمن لهم التخلص من محاربة محمد ومقارعته[١١] . وصرح الصابونى بأن المعارضة كانت أنفع لهم من الحرب[١٢] .

---

(١) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١/١٧٨ . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ .
(٢) إعجاز ٢٨٨ . (٣) إعجاز ٢٤٨ .
(٤) إعجاز ٤٣ . وانظر أبو موسى ١٨١ . (٥) الوحى ٢٢ .
(٦) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١/١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . (٧) إعجاز ٤٣ .
(٨) إعجاز ٤٣ . وانظر أبو موسى ١٨١ . (٩) الوحى ٢٢ .
(١٠) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١/١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . وانظر عائشة ٧٠ .
(١١) إعجاز ٤٣ ، ٢٤٩ . (١٢) التبيان ٩٤ .

الاستغناء عن بذل النفوس

ذهب الباقلانى إلى أن القوم لو كانوا عارضوه لاكتفوا بذلك عن بذل النفوس فى وجه عداوته[١] .

الاستغناء عن التعرض للخطر

ذهب الباقلانى إلى أن القوم لو كانوا عارضوه لاكتفوا بذلك عن الإخطار بالأموال والذرارى فى وجه عداوته[٢] .

الاستغناء عن نصب الأرواح

ذهب الباقلانى إلى أن القوم لو كانوا عارضوه لاكتفوا بذلك عن نصب الأرواح فى وجه عداوته[٣] .

غناء المعارضة عن الرضا بالسبى

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كانت تغنى الكافرين عن تسليم الأهل والذرية للسبى[٤] .

غناء المعارضة عن الجدل

ذهب الباقلانى مرة إلى أن المعارضة كانت تغنيهم عن إكثار المراء والجدال[٥] ، ومرة إلى أنها كانت تضمن لهم التخلص من منازعة محمد[٦] ، وثالثة إلى أنهم كانوا يستغنون بكلام ـ هو طبعهم وعادتهم وصناعتهم ـ عن طول مناقشته ومجاذبته[٧] .

غناء المعارضة عن الجلاء

ذهب الباقلانى إلى أن المعارضة كانت تغنى الكفار عن الجلاء عن الأوطان[٨] .

بلوغ الوطر

وأبهم عبد الجبار القول مرة فقال : لو عارضوه لبلغوا الوطر والمراد[٩] .

التخليص من الإسلام

ورأى عبد الجبار فى المعارضة التخلص من الشريعة[١٠] .

---

(١) إعجاز ٢٤٨ ــ ٩ . وانظر أبو موسى ٢٨ . (٢) إعجاز ٢٤٩ .
(٣) إعجاز ٢٤٩ . (٤) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .
(٥) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .
(٦) إعجاز ٤٣ . (٧) إعجاز ٢٤٩ .
(٨) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .
(٩) المغنى ٢٤٦/١٦ ، ٢٥٥ . (١٠) المغنى ١٦ / ٢٦٠ .

تقوية أحوال الكفار

وقال عبد الجبار : لو صحت المعارضة لقويت الكفار بها ، وظهرت، لأجلها[١] .

قلب حال محمد

ورأى عبد الجبار فى المعارضة قلب حال محمد ومراده[٢] .

اختلال حال محمد

ورأى عبد الجبار فى المعارضة ــ لو أُنجزت ــ اختلال حاله[٣] .

توهين أحوال المسلمين

رأى عبد الجبار فى المعارضة توهين حال المسلمين[٤] .

اضطراب نفوس أصحاب محمد

ورأى عبد الجبار فى المعارضة اضطراب نفوس أصحابه عند وقوعها[٥] .

إطفاء أمر محمد

ورأى الطوسى فى المعارضة إطفاء أمره[٦] . وقال السيد أحمد صقر متأثرا بالجاحظ : معارضته بسورة واحدة أو آيات يسيرة أفعل فى إطفاء أمره من مناجزته[٧] .

أبلغ حجة

أعلن القرطبى : لو قدروا على المعارضة لكان أبلغ فى الحجة .

المعارضة أشد تأثيرا

وأعلن القرطبى : لو قدروا على المعارضة لكان أشد تأثيرا[٨] .

إحداث فتنة

قال محمد رشيد رضا : لو وجد له معارض أتى بسورة مثله ، لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم[٩] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١/٤٨١ . قرآنه ٢١٧ .
(٢) المغنى ٢٥٣/١٦ ، قرآن الخطيب ٢١٣ .
(٣) المغنى ١٦ / ٣٣٩ .
(٤) المغنى ٢٦٠/١٦ .
(٥) المغنى ٣٣٩/١٦ .
(٦) التبيان ٤٥٦/٥ .
(٧) مقدمة الباقلانى ٦ .
(٨) جامع ٧٧/١ .
(٩) المنار / ١٦٥ .

تحطيم دعوة محمد

وأعلن السيد أحمد صقر أن معارضته بسورة واحدة أو آيات يسيرة كانت أنجع في تحطيم دعوته[١] .

زعزعة مركز محمد

قال نعيم الحمصي : لو وجدت المعارضة الصالحة لزعزعت مركز محمد السياسي والديني[٢] .

القضاء على سلطان القرآن

قال نعيم الحمصي : لو وُجدت معارضة يصح أن تساوى القرآن وتقاربه لقضت على سلطان القرآن[٣] . وقال أيضا : لو وجدت المعارضة الصالحة لقضت على مكانة القرآن[٤] .

عظم قيمة المعارضة

قال الحمصي لو وجدت معارضة يصح أن تساوى القرآن وتقاربه لكان لها من القيمة أضعاف ما للقرآن[٥] .

هدم أصل الإسلام

ذكر محمد أبو زهرة أن أعداء الإسلام كانوا يرون فى المعارضة هدم الأصل[٦] .

منع انتشار الإسلام

ذكر أبو زهرة أيضا أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان وثمة معارضون للقرآن فى جد لا لهو فيه ولا عبث[٧] .

الغناء عن هجاء محمد

صرحت د . عائشة عبد الرحمن بأن الإتيان بسورة من مثل القرآن كان يغنى عن خوض المعركة ضد الإسلام بسلاح الكلمة ، وإجهاد القرائح فى هجاء المصطفى بقصائد مطولات[٨] .

---

(١) مقدمة الباقلانى ٦ .
(٢) فكرة ٢٧ . انظر فقيهى ٢٠ .
(٣) فكرة ٢٥ . وانظر فقيهى ١٩ .
(٤) فكرة ٢٧ . وانظر فقيهى ٢٠ .
(٥) فكرة ٢٥ . وانظر فقيهى ١٩ .
(٦) و(٧) المعجزة ٧٢ .
(٨) الإعجاز ٧٠ .

الغناء عن الاضطهاد

وصرحت د. عائشة عبد الرحمن بأن سورة واحدة كانت تعفيهم من التورط في حملة الاضطهاد السفيهة الشرسة التى أرهقوا بها من أسلم منهم[١] .

الغناء عن قطع الأرحام

ذكر ذلك محمد محمد أبو موسى[٢] .

المعارضة سبيل الغلبة

قال أحمد خلف الله : المعارضة هى السبيل الوحيد للغلبة[٣] ، ولا وجه أبلغ لهم فى التشفى من الدعوة وصاحبها إلا ما يجرى مجرى المعارضة[٤] .

الغناء عن خلع الآلهة ، ونبذ مألوف العادات ، وتسفيه الأحلام ، واستباحة الأموال والدماء .

ذكر ذلك أبو موسى[٥] .

التمكين للعقائد والعادات القديمة

رأى الذهبى أن قوم كل رسول توفرت فيهم الدواعى للمعارضة حتى يمكّنوا لعقائدهم وعاداتهم فى الأرض بعد أن أصبحت كلها فى مهب ريح الحق المدمر للباطل[٦] .

تعقيب

نخلص من هذه الجولة بأن الباقلانى أورد من العناصر أكثر من غيره ، يليه عبد الجبار ، ثم الجاحظ ، ثم بقية الكتاب . ولكن هذا الحصر يعتمد على ظاهر التعبير ، لأن الكثرة الغامرة من هذه العناصر تؤول إلى مدلولات قليلة ، تتركز فى إبطال أمر الإسلام والداعية إليه ، والدفاع عن الدين القديم ، وتخليص المؤمنين به مما اضطرتهم إليه الدعوة الجديدة .

ونخلص بأن الجاحظ كان أوفرهم حظا من مرددى عباراته نصا أو معنى ، يليه الباقلانى .

---

(١) الإعجاز ٧٠ .
(٢) الإعجاز ٢٨ .
(٣) القرآن ١٤٠ .
(٤) القرآن ١٣٨ .
(٥) الإعجاز ١٨١ .
(٦) الوحى ٢٢ .

شخصية العربى

أشار المفكرون إلى أن العرب كانوا يتحلون بصفات تسوقهم إلى عدم الإذعان ، وإلى بذل كل جهد لتلبية التحدى الذى واجههم به القرآن .

وإليك ما ذكره الجاحظ من صفات ، وما كان لها من صدى عند من تلاه :

كثرة العدد :

على حين كان محمد فردا واحدا[١] . وتبعه القاضى عبد الجبار فوصفهم بالجمع العظيم وبوفور العدد[٢] ، والزمخشرى بأنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عددا من رمال الدهناء[٣] ، والزرقانى بالأمة[٤] ، ومحمد الغزالى بالألوف[٥] .

الاستعداد

قال الجاحظ : بعث الله محمدا أشد ما كانت العرب عُدّة[٦] . وأشار السيد أحمد صقر إلى استكمالهم عُدّتهم[٧] .

البيان :

أكثر الجاحظ من التعرض لهذه الصفة ، ونثر حديثه عنها فى مواضع متعددة . فقال : الكلام سيد عملهم[٨] . فقد فاض بيانهم وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا فى ... كل ما لاح لعين وخطر على قلب[٩] . وقال : الكلام أحصر عندهم ، وأيسر [أخفّ] مؤونة

---

(١) رسائل ٣/٢٧٣ ، ٢٧٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ، ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٦ . لاشين ٢٣٠ ، خلف ١٤٢ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ . وانظر الإيجى ٢٤٤ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٤٠ .

(٣) الكشاف ١ / ٩ - ١٠ ، ٢٤٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٧٧ . وانظر الرافعى ١٧٠ .

(٤) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ . (٥) نظرات ١٥٣ .

(٦) الإتقان ٢ / ٣٢٦ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . الصباغ ٥٤ لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . (٧) مقدمة الباقلانى ٦ .

(٨) رسائل ٣ / ٢٧٣ ، ٢٧٧ . الإتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ، ١٣٩ . طبارة ٢٨ . حويش ٢٥٦ . الصباغ ٥٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ ، ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . سلطان ٦١ خلف ١٤٢ . أبو فرحة ١١١ . نيازى ١٢٧ . وانظر معترك ١ / ٢. الرافعى ١٧٠ ، ٢٠٠ . طبارة ٢٥ . (٩) رسائل ٣ / ٢٧٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠. خلف ١٤٢ . نيازى ١٢٧ . وانظر الباقلانى ٤٣ .

عليهم[١] . وقال : كان أغلب الأمور على دهر محمد ، وأحسنها عندهم ، وأجلها في صدورهم : حسن البيان ، ونظم ضروب الكلام ، مع علمهم له ، وانفرادهم به .. وشاعت البلاغة فيهم[٢] . وأخيرا أشار إلى كثرة كلامهم[٣] .

ووصفهم محمد بن جرير الطبرى بالبراعة فى الفصاحة والبلاغة والذرابة[٤] .

والتفت حمد بن محمد الخطابى إلى أن الله وصفهم فى كتابه بالجدل واللدد ـ أى شدة الخصومة ـ فقال : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون ﴾[٥] وقال : ﴿ لتنذر به قوما لدا ﴾[٦] .

وتبع محمد بن الطيب الباقلانى الجاحظ فوصفهم بالمعرفة بوجوه الفصاحة[٧] ، والعلم بطريق وضع النظم والنثر . وأضاف : تكامل أحوالهم فيه[٨] ، حتى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا الغاية[٩] ، التى ليس وراءها متطلع ، ولا فوقها منزع[١٠] . كما تبع الطبرى فوصفهم بالذرابة والسلاقة مرة[١١] ، وبالتفاخر والتنافر فى اللَّسَن والذلاقة والذرابة أخرى[١٢] .

ونعتهم عبد الجبار ذات مرة بالبصيرة[١٣] . ويبدو أنه أراد ـ فى مرة أخرى ـ أن يوضحها فذكر أنهم عُرفوا بالبصيرة فيما يتصل بالكلام والخطابة[١٤] .

---

(١) رسائل ٣ / ٢٧٤ ، ٢٧٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ـ ٥ . حويش ٢٥٧ . لاشين ٤٣٠ . نيازى ١٢٧ . وانظر الرافعى ١٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧. خلف ١٤٢ . أبو موسى ٣٦٤ .

(٢) رسائل ٣ / ٢٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . وانظر الباقلانى ٢٣ . الرازى ٢ / ١١٥ . عبد الحميد ٢٣١ . أبو موسى ١٨١ .

(٣) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . أبو موسى ٣٦٤ . وانظر حميدة ٣٤ .

(٤) جامع ١ / ٣٧٣ . وانظر الباقلانى ٢٢ ـ ٣ ، ٦٤ ومن تبعه . والذرابة وبقية الكلمات التى ذكرها الباقلانى بمعنى طلاقة اللسان وحدّته .

(٥) سورة الزخرف ٥٨ .

(٦) سورة مريم ٩٧ . بيان ١٩ ـ ٢٠ . فقيهى ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٦٠ . لاشين ٤٣٣ . وانظر الباقلانى ٢١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . الرافعى ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢٠٠ . دراز ٨٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٧ . نيازى ١٣٩ . لاشين ٤٥٧ . الدباغ ٧ . أبو على ١٠١ .

(٧) إعجاز ٢٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ .

(٨) إعجاز ٦٤ .

(٩) إعجاز ٣٠٣ . وانظر عبد الجبار ٢٤٦ ـ ٧ . الرازى ٢ / ١١٥ . العلوى ٣ / ٣٦٩ .

(١٠) إعجاز ٢١ .

(١١) إعجاز ٢٢ ـ ٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ . وانظر عياض ١ / ٥٠٠ .

(١٢) إعجاز ٦٤ .

(١٣) المغنى ١٦ / ٢٤٠ .

(١٤) المغنى ١٦ / ٢٤٦ .

وسمى على بن محمد الماوردى عصر البعثة : عصر الفصاحة والبلاغة[١] .

ووضعهم محمد بن الحسن الطوسى فى الذروة العليا من الفصاحة ، والغاية القصوى من البلاغة[٢] .

ونعتهم عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى بأنه كان فيهم الذين يُدِلّون بفصاحة اللسان والبراعة والبيان[٣] .

وأطلق عليهم محمود بن عمر الزمخشرى : أمراء الكلام ، وزعماء الحوار[٤] : وعبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية : أرباب الفصاحة ، وَمِظِنّة المعارضة[٥] ، ووصفهم بسلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وَمْيز الكلام[٦] .

وجعلهم عياض بن موسى اليحصبى أرباب البيان ، وفرسان الكلام ، قد خُصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الامم[٧] ، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يُؤتَ إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب . جعل اللّه لهم ذلك طبعا وخِلْقة ، وفيهم غريزة وقوة . فلهم فى البلاغة المحجة البالغة ، والقوة الدافعة ، والِقْدح الفالج ، والمَهْيع الناهج . لا يشكّون أن الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم ، قد حَوَوا فنونها واستنبطوا عيونها[٨] .

ونعتهم محمد بن أحمد القرطبى بأرباب البلاغة واللّحَن ، وعنهم تُوخذ الفصاحة واللسن[٩] .

واكتفى محمد بن أحمد بن جزى بأن ذكر بأن العجز قد وقع ، مع فصاحة العرب فى زمان نزول القرآن ، وتصرفهم فى الكلام[١٠] .

وذكر أبو حيان عجز العرب ، وهم الفصحاء البلغاء ، المجيدون حَوْك الكلام من النثار والنظام ، والمتقلبون فى أفانين البيان ، المشهور لهم بالإحسان[١١] .

وأعلن عبد الرحمن بن أحمد الإيجى (٧٥٦ / ١٣٥٥) أن البلاغة بلغت - فى عهد الرسول - إلى الدرجة العليا ، وكان بها فخارهم حتى علقوا القصائد السبع بباب الكعبة تحديا بمعارضتها : وكتب السير تشهد بذلك[١٢] .

---

(١) أعلام ٥٧ . (٢) التبيان ١ / ١٠٤ . (٣) دلائل ٤٧٥ .
(٤) الكشاف ١ / ٩٦ . (٥) المحرر ١ / ٦٢ . الزركشى ٢ / ٩٧ . وانظر شبهات ٢٨ .
(٦) المحرر ١ / ٦١ . (٧) الشفا ١ / ٥٠٠ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧٦ . الجندى ٣٩ .
(٨) الشفا ١ / ٥٠٠ القدح الفالج : السهم الفائز . المهيع الناهج : الطريق الواسع الواضح .
(٩) الجامع ١ / ٧٧ . اللحن : الفطنة . (١٠) التسهيل ١ / ٧٢ . الزركشى ٢ / ٩٧ .
(١١) البحر ١ / ١٠٢ . (١٢) المواقف ٣٥٤ .

وذهب إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير إلى أن الفصاحة كانت من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب[١] .

وجعلهم محمد رشيد رضا فرسان البلاغة[٢] ، قد علا كعبهم فيها ، ورسخ عرقهم فى أساليبها وفنونها[٣] : وجعل عصرهم أرقى عصور الفصاحة[٤] ، العصر الذى ارتقت فيه دولة الكلام ارتقاء لم تعرف مثله الأيام[٥] . حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون ، ويباهون ويفاخرون ، ويعقدون لذلك المجامع ، ويقيمون الأسواق ، ثم يطيرون بأخبارها فى الآفاق[٦] .

وأكثر مصطفى صادق الرافعى الحديث عن هذا الجانب وأطاله ودسّه فى كل مكان . فكان مما قال : ليس فى الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة . فما كان فيهم كالبيان آنقَ منظرا ، وأبدع مظهرا ، وأمدّ سببا إلى النفس ، وأرَدّ عليها بالعاقبة . ولا كان لهم كذلك البيان أزكى فى أرضهم فرعا ، وأقوم فى سمائهم شرعا ، وأوفر فى أنفسهم ريعا ، وأكثر فى سوقهم شراء وبيعا[٧] .

وقال : كان العرب قد بلغوا - لعهد القرآن - مبلغهم من تهذيب اللغة ، ومن كمال الفطرة ، ومن دقة الحس البيانى ، حتى أوشكوا أن يصيروا - فى هذا المعنى - قبيلا واحدا ، باجتماعهم على بلاغة الكلمة ، وفصاحة المنطق[٨] . أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التى هى أكبر أمرهم . ووصفهم بالخطباء اللّدّ ، والفصحاء اللُّسن[٩] .

وصرح السيد أحمد صقر بأن اللّه بعث محمدا فى زمن سما فيه شأن البيان ، وحلّت مكانته بين أهله ، وعُرفوا باللّسن والفصاحة ، وقوة العارضة فى الإعراب عن خوالج النفوس ، والإبانة عن مشاعر القلوب[١٠] .

وأورد نعيم الحمصى أن أكثر العلماء لاشك عندهم فى أن العرب كانوا قد بلغوا - فى ذلك الحين - من الفصاحة والبيان غاية كبيرة ، واستقامت تعابيرهم إفرادا وتكبيرا ، وتمت لهم أدوات الفصاحة على ما يقضى به قانون الارتقاء والنشوء فى

---

(١) التفسير ١ / ٤٤٧ . الحمصى ١٥١ . (٢) المنار ١ / ١٥٩ . وانظر الصابونى ٩٠ .
(٣) المنار ١ / ١٦٣ . (٤) المنار ١ / ١٥٩ . وانظر الزرقانى ١ / ٦٧ . النبأ ٤٠٨٣ . فقيهى ١٦ . طبارة ٢٥ . نيازى ٤/١١٣ .
(٥) المنار ١ / ١٦٣ . وانظر الرافعى ١٥٨ . (٦) المنار ١ / ١٦٣ .
(٧) إعجاز ١٥٩ . (٨) إعجاز ١٦٨ . (٩) إعجاز ١٧٠ . (١٠) مقدمة الباقلانى ٥ .

بيئتهم ، بدليل أدب المعلقات : وأن قريشا كانت - من بين جميع القبائل - أكثرها فصاحة[١] .

ثم تساءل : ولكن هل صحيح أنهم - كما صورهم بعض العلماء - كانوا قد بلغوا القمة فى البلاغة والبيان ، وأن من جاء بعدهم فى العصور الإسلامية كان عالة عليهم ، ودُونهم بيانا وقدرة على التعبير ، أو أن الأمر على العكس من ذلك . فكانوا مرحلة تمهيدية لمن جاء بعدهم من الكتاب والشعراء والخطباء فى العصرين الأموى والعباسى وبخاصة الأخير : الذى كان أدباؤه أكثر مرونة وجولانا فى ميادين الفكر والبيان ؟

ثم أجاب : أظن أن القول الأخير هو الأصح . وهو لا يقدح فى فكرة إعجاز القرآن لأن العلماء قالوا بأنه معجز أبد الدهر ، وبأن فضله يظهر على كل نص أدبى متقدم أو متأخر حين يقارن به[٢] .

وسار د. محمد عبد الله دراز فى ركاب سائر العلماء فقال : ما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربى ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوى . وهل بلغت المجامع اللغوية فى أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية - فى ذلك العصر - من العناية بلغتها : حتى أدركت هذه اللغة أَشُدّها ، وتم لهم - بقدر الطاقة البشرية - تهذيب كلماتها وأساليبها ؟ ما هذه الجموع المحشودة فى الصحراء ؟ وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ إنها أسواق العرب ، تعرض فيها أنفس بضائعهم ، وأجود صناعاتهم . وما هى إلا بضاعة الكلام ، وصناعة الشعر والخطابة ، يتبارون فى عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها ، والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس . يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم . وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب[٣] .

وأعلن محمد حنيف فقيهى أن معجزة النبى جاءت من جنس الفن الذى اشتهر به العرب[٤] ، وبلغوا به الذروة ، وهو فن البيان[٥] .

وأشار مناع القطان إلى طول باعهم فى الفصاحة والبلاغة[٦] ، ثم قال : ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول التى

---

(١) فكرة ١٣ ، ٢٤ . (٢) فكرة ١٣ - ٤ . (٣) النبأ ٨٣ - ٤ .
(٤) نظرية ١٦ . وانظر الزرقانى ٩٤ . (٥) نظرية ١٦ . وانظر الدباغ ٧ .
(٦) مباحث ٢٦٥ . وانظر إسماعيل ٣٢٩ .

رقت بلغة العرب ، وهذبت لسانها ، وجمعت خير ما فى لهجاتها من أسـواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر ، حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكـلام بالبيـان فى لغة قريش التى نزل بها القرآن[١] .

وأعلن عبد الكريم الخطيب : الذى كان يرصـد مجـرى الحيـاة العربيـة قبيـل البعثة النبوية كان يرى أن أوضح ظاهرة فى حياة هذه الأمة ، وأقوى قوة عاملـة فيهـا هـى «الكلمة » .

فالكلمة ـ فى حياة الأمة العربية ـ هى تاريخ أمـة بأسـرها . هـى عقلهـا المفكـر ، وهى قلبها النابض ، وهى مشاعرها المتدفقة ، وهى خيالها المنطلـق . هـى كـل شـىء عندها . تمسك بوجودها كله ، وتستولى على كل خالجة منها .

فما عرفت الحياة أمة من الأمم كانت الكلمة مالكـة زمامهـا ، ومصرّفـة أمرهـا . ومنطلق حياتها ، ومسبح آمالها وآلامها ، كالأمة العربية ، منذ جاهليتها إلى أن طلـع عليها الإسلام ، ونزل عليها القرآن[٢] .

وذهب عفيف عبد الفتاح طبارة إلى أن العرب كانت مفطورة على حب البلاغـة والأدب والشعر والخطابة ، يقيمـون فـى كـل سـنة مواسـم يتبـارى فيهـا الشـعراء ، وينشدون أشعارهم فى (عكاظ) ، وهناك شعراء فحول يحكمون بينهم .

وهذه الفنون من القول اشتهرت بها العـرب ، وكـانت أسمـى مـيزاتهم لأمريـن : أولا ـ أن حياة الصحراء تدعو إلى التأمل وإثارة العواطف وإنماء الخيال ، وهـى أمـور تلهم الشاعرية وتوحى ضروب القول .

ثانيا ـ أن حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفـاخر والتخـاصم والحـروب المستمرة ، لذلك كانوا بحاجة إلى الشاعر البليغ الذى يرفع منزلة قبيلته ويعلى من شأنها ، ويحط من قيمة القبيلة الأخرى المخاصمة . من هنا كثر اهتمامهم بالخطابة والشعر ، فرفعـوا منزلة الشاعر المفلق ، والخطيب البليغ .

وذكر أنها كانت تعدّ البيان أكبر فخرها ، وأجمل صنعها ، وأعظم همها[٣] .

واليقين الذى لا يقبل الجدل ـ عند موسى شاهين لاشين ـ أن العرب ـ فـى عهـد النبى ـ كانوا أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، لا يجاريهم ـ فى إتقان لغتهم العربيـة ،

---

(١) مباحث ٢٦٦ . وانظر قمحاوى ٢ / ١٧٠ .

(٢) إعجاز الخطيب ١ / ٨٧ .

(٣) روح ٢٥ .

وفهم أسرارها ـ من سبقهم ولا من لحقهم[١] ، أولى الرأى والعقل والبلاغة والفصاحة[٢] .

ووصفهم محمد على الصابونى مرة بأئمة الفصاحة[٣] ، ومرة بأهل البيان واللّسن ، وأمراء الفصاحة والبلاغة ، دلت أشعارهم ونطقت خطبهم وحكمهم على براعتهم وأنهم حازوا قصب السبق فى مضمار الفصاحة والبيان . كما أثبتت الأيام أنهم من ذوى القدرة والاستطاعة على أن يبرّزوا فى الشعر والنثر ، وأن يحلقوا فى سماء الفصحى ، وهى لغتهم الأساسية التى بها يتفاخرون ويتبارون ، ويعقدون المنتديات ، ويجتمعون فى المحافل ، ليستمعوا [إلى] أروع القصائد والخطب ، ويصوغوا أجمل الألفاظ والعبارات . وكانت قدرتهم موفورة ، واستطاعتهم مشهورة[٤] .

ووصفهم د. عمر الملاحويش بفرسان ميدان الكلام وأساطين البيان[٥] ، لأنهم كانوا قد بلغوا الذروة فى فنون الكلام : نظمه ونثره[٦] ، وعدوا المثل الأعلى فى البلاغة والفصاحة[٧] .

ونعتهم محمد الصباغ بذوى الفصاحة وأولى البلاغة[٨] ، وأئمة البيان والفصاحة[٩].

وكان العرب ـ عند د. عبد اللّه محمود شحاته ـ فصحاء ، بل أفصح الناس لسانا ، وأبلغهم بيانا ، ولهم أسواق يتقارضون فيها الشعر . وإذا استجادوا قصيدة علقوها فى جوف الكعبة ، فسميت تلك القصائد بالمعلقات[١٠] .

وسماهم عبد القادر أحمد عطا أئمة الفصاحة والبلاغة[١١] .

ولا يرتاب التاريخ ـ فى رأى د. داود العطار ـ أن العرب العرباء بلغت من البلاغة فى الكلام مبلغا لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدمة عليهم ، والمتأخرة عنهم ، ووطئوا موطئا لم تطأه أقدام غيرهم فى كمال البيان ، وجزالة النظم ، ووفاء اللفظ ، ورعاية المقام ، وسهولة المنطق .. قدرة فى البلاغة لا تدانى ولا تضارع ،

---

(١) اللآلئ ٢٤٤ . (٢) اللآلئ ٢٤٥ . (٣) التبيان ٩٠ .
(٤) التبيان ٩٤ . (٥) تطور ٢٠٦ . وانظر عليان ١٢٣ .
(٦) تطور ٧٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ .
(٧) تطور ٢٣٩ . (٨) لمحات ٥٠ . (٩) لمحات ٦٤ .
(١٠) علوم ١٣١ ، ١٥٤ . (١١) أسرار ٢٣٣ .

وقوة فى البيان لا تضاهى ولا تبارى ، وسرعة فى البداهة لا تجارى[١] .

وكانوا - فى رأى صابر حسن محمد أبى سليمان - فى الذروة العليا من البلاغة والتحكم فى زمام القول ، وجودة القريحة ، وصفاء السليقة[٢] . أئمة البيان والفصاحة[٣] .

وكانوا - فى رأى د. محمد حسين الذهبى - فرسان البلاغة وأمراء البيان[٤] .

(ب) وجود الأدباء

أشار الجاحظ فى « حجج النبوة » إلى ما كان فى العرب وقريش من الشعراء والخطباء والبلغاء[٥] ، وفى موضع آخر من الكتاب نفسه إلى كثرة شعرائهم[٦] ، وتفوق خطبائهم[٧] . بل بلغ به القول إلى أن الله بعث محمدا أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا[٨] .

ويجاوز الخطابى مجرد وجود الخطباء إلى وصفهم ، فأعلن أنه كان فى العرب الخطباء المصاقع[٩] ، والشعراء المفلقون[١٠] .

وذكر عياض أنهم كان منهم :

البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ؛ والحضرى ذو البلاغة البارعة ، والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل ، والتصرف فى القول القليل الكلفة ، الكثير الرونق ، الرقيق الحاشية[١١] .

وأشار الزركشى إلى كثرة الخطباء فيهم والبلغاء[١٢] ، وجعلهم أفصح

---

(١) موجز ٥٨ . (٢) مورد ٩٩ . (٣) مورد ١٠٧ . (٤) الوحى ٢١ .

(٥) رسائل ٣ / ٢٥١ ، ٢٧٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٦ . أمين ١٤٨ . لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦٠ خلف ١٤٢ . وانظر الجرجانى ٤٧٥ . صقر ٦ . إسماعيل ٣٢٩ .

(٦) رسائل ٣ / ٢٧٩ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ - ٩ . أمين ١٤٨. الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر صقر ٦ .

(٧) رسائل ٣ / ٢٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ .

(٨) الإتقان ٢ / ٣٢٦ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٣ .

(٩) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٦٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠. وانظر الزركشى ٢ / ٩١ . معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٥ . عليان ١٢٣ .

(١٠) بيان ١٩ فقيهى ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١/١٦٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠ .

(١١) الشفا ٥٠٢ . (١٢) البرهان ٢ / ٩١ . وانظر الإتقان ٢ / ٣٢٥ .

الفصحاء[١] . وأشار السيد أحمد صقر إلى كثرة خطبائهم وشعرائهم[٢] . وعفيف عبد الفتاح طبارة إلى كثرة البلغاء[٣] .

ورأى د. محمد عبد السلام كفافى وعبد الله الشريف أن الجزيرة العربية كانت — إبان البعثة النبوية — عامرة بالشعراء والخطباء والبلغاء[٤] .

(جـ) إصدار الأجناس الأدبية المتنوعة

اكتفى الجاحظ فى أحد المواضع من « حجج النبوة » بالقول بأن العرب فى عصر النبوة نظموا ضروب الكلام[٥] ، وفصّل فى موضع آخر منه فذكر أنهم كانت لهم أصناف النظم ، وضروب التأليف ، كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور[٦] . وتعرض لذلك ثانية فى النص الذى نقله السيوطى فقال إنهم كان لهم القصيد العجيب والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، والأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور[٧] .

وقال الباقلانى : معلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم ، والأسباب التى لا يحتاج إليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ، ونجد من يعينه على نقله عنه[٨] .

ونعتهم الزمخشرى بالحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكين على الافتنان فى القصيد والرجز[٩] .

وذكر عياض أنهم قالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القُلّ والكُثْر ، وتساجلوا فى النظم والنثر[١٠] .

اختلاف العلل

وصفهم الجاحظ بذاك[١١] . ولعله أراد بذلك ما عبر عنه عبد الجبار فى قوله : اختلاف أحوالهم فى شدة العداوة لمحمد ، وتفاوتهم فيها ، وتباين أمرهم معه[١٢] .

---

(١) البرهان ٢ / ٩١ . (٢) مقدمة الباقلانى ٦ . (٣) روح ٢٨ . (٤) فى علوم ١٣٧ .

(٥) رسائل ٣ / ٢٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . (٦) رسائل ٣ / ٢٧٣ . إعجاز الخطيب ١٣٤/١ . حويش ٢٥٦ — ٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . نيازى ١٢٧ .

(٧) الإتقان ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . الصباغ ٥٤ . لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . (٨) إعجاز ٦٤ .

(٩) الكشاف ١ / ٩٦ - ٧ . (١٠) الشفا ١ / ٥٠٣ .

(١١) رسائل ٣ / ٢٧٣ ، ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ . لاشين ٤٣٠ - ١ . سلطان ٦١ . أبو موسى ٣٠ . خلف ١٤٣ . نيازى ١٢٧ . وجعلها خلف مرة ١٤٢ : اختلاف النحل . (١٢) المغنى ١٦ / ٣٣٧ .

العقل

أكثر الجاحظ فى « حجج النبوة » من وصف العرب بالعقل ، فذكر فى موضع شدة عقولهم[١] ، وفى موضع ثان ما كان فيهم من الدهاة والحلماء وأصحاب الرأى والمكيدة والتجارب والنظر فى العاقبة[٢] . و لم يقف عند هذه الإشارة ، بل تجاوزها إلى أنه كان فيهم العدد الكثير من العقلاء والدهاة والحلماء[٣] .

وركز الخطابى نظره على قريش خاصة فوصفهم برزانة الأحلام[٤] ، ووفارة العقول والألباب[٥] .

واكتفى الطوسى بأنهم كانوا عقلاء ألبّاء[٦] .

وردد عبد القاهر الجرجانى الحديث عن عقول أهل ذاك العصر ، فقال ذات مرة : كان فيهم الذين يُدلّون بقوة القرائح والأذهان ، والذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب[٧] . ووصف - فى مرة أخرى - أحلامهم بالرجاحة ، وعقولهم بالفضل[٨] . بل بلغ به الأمر إلى أن جعلهم أرجح أهل زمانهم عقولا ، وأجزلهم رأيا ، وأثقبهم بصيرة[٩] .

ووصفهم محمد صبيح بأنهم مجتمع حى قادر على التفكير[١٠] . وذكر الحمصى أن أكثر العلماء كانوا يعتقدون أن قريشا كانت أرجح القبائل أحلاما[١١] .

واكتفى موسى شاهين لاشين بوصفهم بأولى الرأى والعقل[١٢] ، ومحمد على الصابونى بأولى النهى والألباب ، ونفى عنهم النقص فى العقول[١٣] .

ونعتهم د. رشدى عليان وقحطان عبد الرحمن الدورى بأنهم كانوا على بصر وخبرة وتجارب وذكاء[١٤] .

---

(١) رسائل ٣ / ٢٧٧ . (٢) رسائل ٣ / ٢٧٣ . حويش ٢٥٦ . لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦٠ .

(٣) رسائل ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . خلف ١٤٣ . أبو موسى ٣٠ . وجعلها الحكماء : حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ .

(٤) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٦٠ . لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠ .

(٥) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٦٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠. وانظر عبد الجبار ٢٤٠ ، ٢٤٦ . (٦) التبيان ١ / ١٠٤ .

(٧) دلائل ٤٧٥ . (٨) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

(٩) الشافية ٥٨١ . (١٠) القرآن ١٢٢ .

(١١) فكرة ١٣ . (١٢) اللآلئ ٢٤٥ . (١٣) التبيان ٩٤ . (١٤) علوم ١٢٣ .

أعراب

وصفهم الجاحظ بذلك وهو يدلل على عدم استعدادهم للإذعان[١] .

أصحاب جاهلية

وصفهم الجاحظ بذلك للبرهنة على عدم استعدادهم للإذعان[٢] .

الأنفة

قال الجاحظ عن العرب : أشد خلق اللّه أنفة[٣] وكرر عبد الجبار الإشارة إلى أنفتهم ، فاكتفى مرة بأن وصفهم بها[٤] ، ومرة بأنهم اشتهروا بها[٥] ، وثالثة بأن لهم طريقة معروفة فيها[٦] .

ووصفهم الماوردى بقوة الأنفة[٧] . والزمخشرى بلقاء الخطط دون المناضلة عن أحسابهم[٨] ، والرازى بأنهم كانوا فى الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل ، يريد فى ظنهم[٩] .

وأشار العلوى إلى عظيم أنفتهم[١٠] ، ود. الحسينى أبو فرحة إلى أنهم كانوا آنف شيء[١١] .

الحمية :

قال الجاحظ : العرب أفرط خلق اللّه حمية[١٢] .. وقال الباقلانى : الحمية

---

(١) رسائل ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٣ .

(٢) رسائل ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١٣٥/١. حويش٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . سلطان ٢١٤ ، خلف ١٤٣ .

(٣) رسائل ٣ / ٢٧٥ . الإتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ ، ١٣٩ . طبارة ٢٨ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . الصباغ ٥٥ . لاشين ٤٣١ ، ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٣ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ١ / ٢ . الإتقان ٢ / ٣٢٧ . اللآلئ ٢٤٥ . شجاتة ١٥٤ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٥٣ . وانظر الطوسى ١٠٤/١. الجرجانى ٥٧٨ . الزرقانى ٢ / ٢٣٣ . صقر ٦ . الحمصى ٢٤ . فقيهى ١٩ . القطان ٢٦٦ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢ / ٢٠ . خلف ١٣٩ . قمحاوى ٢ / ١٧٠ .

(٥) المغنى ١٦ / ٢٤٠ . وانظر الحمصى ٩٤ .

(٦) المغنى ١٦ / ٢٤٦ ، ٢٦٧ .

(٧) أعلام ٧١ .

(٨) الكشاف ١ / ١٠ والخطط : عزائم الأمور وشدائدها . إعجاز الخطيب ١ / ٢٧٧ .

(٩) مفاتيح ٢ / ١١٥ . عبد الحميد ٢٣١ .

(١٠) الطراز ٣ / ٣٧٠ .

(١١) مأدبة ١١٠ .

(١٢) رسائل ٣ / ٢٧٥. إعجاز الخطيب ١٣٥/١ . حويش٢٢٥، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . سلطان ٢١٤ ، خلف ١٤٣ .

حميتهم[١] ، وعاد إليها ثانية فاكتفى بوصفهم بها مجردة[٢] .

ووصفهم الماوردى بشدة الحمية ، يأتى الرجل منهم - بسبب كلمة - على القبيلة[٣] ، والعلوى بكثرة الحمية[٤] ، وأحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢ / ١٣٧٢ - ١٤٤٩) بأشد شيء حمية[٥] .

الحقد :

وصف الجاحظ العرب بأنهم أثبتُ الناس حقدا[٦] .

عدم نسيان ما يفعله غيرهم بهم أولهم :

قال الجاحظ : العرب أذكر الناس لخير أو لشر[٧] . وقال : العرب أطلب خلق الله بطائلة[٨] ، أى بعداوة أو ثأر .

دفع الشر :

قال الجاحظ : العرب أنفى الناس للشر[٩] .

احتقار العجز :

قال الجاحظ : العرب أهجى الناس بالعجز[١٠] .

تمجيد القوة :

قال الجاحظ : العرب أمدح الناس بالقوة[١١] .

---

(١) إعجاز ٢١ . (٢) إعجاز ٤٣ . وانظر الطوسى ١ / ١٠٤ . الجرجانى ٥٧٨ . الرافعى ١٥٩ . الحمصى ٢٤ . فقيهى ١٩ . القطان ٢٦٧ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٠٨ ، ٢ / ٢٠ خلف ١٣٩ . سلطان ٩٠ . العطار ٥٨ . قمحاوى ٢ / ١٧٠ .

(٣) أعلام ٧١ . (٤) الطراز ٣ / ٣٧٠ .

(٥) الإتقان ٢ / ٣٢٦ . وانظر أبو فرحة ١١٠ . (٦) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ .

(٧) رسائل ٣ / ٢٧٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ ، ٢١٤. نيازى ١٢٧ . (٨) رسائل ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١٣٥ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٣ .

(٩) رسائل ٣ / ٢٧٤ . حويش ٢٥٧ . وجعلها : أبقى الناس للشر : إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . سلطان ٦١ . (١٠) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ .

(١١) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ .

الطموح :

وصف الجاحظ العرب بأنهم أبعد الناس مطلبا[١] .

الهمم :

وصف الجاحظ العرب بُبعد الهمم[٢] ، والباقلانى بأن الهمم الكبيرة هممهم[٣] . واكتفى عبد الجبار بنعتهم مرة بذوى الهمم فقط ، وأخرى باختلاف الهمم[٤] . ونعتهم عبد القاهر الجرجانى بذوى الهمم العلية[٥] .

الإباء :

كرر عبد الجبار الإشارة إلى إباء العرب ، فذكر مرة أنهم اشتهروا به[٦] ، ومرة أخرى بأن لهم طريقة معروفة فيه[٧] . ووصفهم الجرجانى بذوى الأنفس الأبية[٨] . ود. محمد عبد الله دراز بأباة الضيم الأعزاء[٩] .

بذل الجهد فى حراسة الرياسة :

وصفهم بذا عبد الجبار[١٠] .

ترك الرضا بالانقياد والمتابعة :

وصفهم بذا عبد الجبار[١١] .

قوة الرأى :

وصفهم بذا عبد الجبار[١٢] . وجعلهم الجرجانى أجزل أهل زمانهم رأيا[١٣] .

قوة العزيمة :

وصفهم بذا عبد الجبار[١٤] .

---

(١) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ .

(٢) رسائل ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ . أبو موسى ٣٠ .

(٣) إعجاز ٢١ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٤٠ . وانظر العطار ٥٨ .

(٥) الشافية ٥٧٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

(٦) المغنى ١٦ / ٢٤٠ .

(٧) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . خلف ١٣٩ .

(٨) الشافية ٥٧٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ . سلطان ١٣٢ .

(٩) النبأ ٨٥ .

(١٠) المغنى ١٦ / ٢٤٦ ، ٢٥٣ . خلف ١٣٩ .

(١١) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . خلف ١٣٩ .

(١٢) المغنى ١٦ / ٢٤٠ .

(١٣) الشافية ٥٨١ .

(١٤) المغنى ١٦ / ٢٤٠ .

النفار مما يقتضى العار :

وصفهم بذا عبد الجبار[١] ، وقال : إن حالهم فى ذلك كان أبلغ من حال سائر الناس ، حتى كان الواحد منهم يتحمل الأخطار العظيمة ، ليسير من الذم يلحقه فى قرى وضيافة ، ويبذل المهجة فى اليسير من عيب يلحقه[٢] .

المعرفة :

أعلن عبد القاهر الجرجانى أن العرب فى عصر البعثة كانوا أكمل أهل زمانهم معرفة[٣] . وهو حكم غريب .

التدين :

جعل عبد القاهر الجرجانى من الأمور التى تحلى بها العرب ، وكانت تدفعهم إلى مقاومة محمد : أنهم كان لهم دين ونِحْلة[٤] . وذكر العلوى أن الأصنام كانت أحب إلى العرب من أنفسهم[٥] .

التطرف :

وصف الزمخشرى العرب بالاشتهار بالإفراط فى المضادة والمضارة ، وإلقاء الشراشر على المعازّة والمعارّة ، وركوب الشطط فى كل ما يرومونه[٦] .

الحفاظ :

وصفهم الرافعى بأهل الحفاظ[٧] .

أهل النفوس التى تُصب كالمعانى فى الألفاظ :

كذا وصفهم الرافعى[٨] . ولست أدرى ماذا أراد .

توفر النبوغ :

ذكر محمد عبد العظيم الزرقانى أنهم كانوا يدعون أن النبوغ موفور فيهم[٩] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٧ . خلف ١٢٩ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٦٧ . خلف ١٣٩ .

(٣) الشافية ٥٨١ .

(٤) الشافية ٥٨٠ إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ .

(٥) الطراز ٣ / ٣٧٠ .

(٦) الكشاف ١ / ١٠ . إعجاز الخطيب ١/٢٧٧.
والمضادة : المعاداة ، والشراشر : الأثقال . والمعازة والمعارة : المعاداة أيضا .

(٧) إعجاز ١٥٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٠٨ .

(٨) إعجاز ١٥٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٠٨ .

(٩) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ .

الصراحة والشجاعة :

وصف الزرقانى الشعب العربى بأنه كان مطبوعا - أيامئذ - على الصراحة فى الرأى ، لا يعرف النفاق ولا الذبذبة . وكانوا - فوق ذلك - شجعانا ، يأنفون الذل ، ويعافون الضيم ، مهما كلفتهم سجاياهم هذه من بذل مال وسفك دماء[١] .

العزة :

وصفهم بها السيد أحمد صقر[٢] .

العناد :

وصفهم نعيم الحمصى بكثرة العناد بناء على ما خلعه عليهم الزمخشرى من صفات[٣] .

الصَّلف والكبرياء :

ذكر مناع القطان أن العرب كانوا على صلف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفا وكبرا ، مضرب مثل فى التاريخ الذى سجل لهم أياما نُسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة ، أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة[٤] .

العزائم والعصبية :

وصفهم بذا د. داود العطار[٥] .

---

(١) مناهل ٢ / ٢٣٣ . وانظر شحاتة ١٥٤ .
(٢) مقدمة الباقلانى ٦ . وانظر دراز ٨٥ .
(٣) فكرة ٩٤ .
(٤) مباحث ٢٦٦ وانظر قمحاوى ٢ / ١٧٠ .
(٥) موجز ٥٨ .

تعقيـــــب

نخلص من هذا بأن الجاحظ أول من عنى بالكشف عما امتلكت الشخصية العربية من صفات ، كان من شأنها أن دفعتهم إلى مقاومة الدين ، وأن تدفعهم إلى معارضة القرآن .

وأورد من ذلك صفـات متعـددة ، دارت فـى الكتـب بعـده نصـا ومعنـى . فقـد وجدت قبولا واسعا . وأخص منها بالذكر الأنفـة والحميـة ، وهمـا الصفتـان اللتـان اشتهر بهما العربى فى كل مكان .

ولا يفوقهما فى الرواج إلا صفة البيان . وهى من الصفات التى عرف العربى بها أيضا . فلم يقتصر الأمر فيها على الترداد ، بـل كـثر الحديـث وتنـوع ، حتـى فـاقت غيرها بشكل لافت للنظر . وأهم سبب لذلك - فى ظنى - أنهـا القـاعدة التـى بنيـت عليها معجزة القرآن .

وقد فاق عبد الجبار الجاحظ فى عدد الصفات التى التفت إليها ، غير أنه لم يجد من المتابعين له غير خلف .

وخان الفكر الجرجانى فخلع على العرب صفة كمال المعرفة ، التى لم يقـره أحـد عليها .

وجرف التعبير الرافعى إلى وصف غامض أشد الغموض .

دواع أخرى للمعارضة

يخرج قارئ الأقوال التى تفوه بها الجاحظ بأنه كان يعتقد اعتقادا جازما أن دواعى كثيرة توفرت لدى كفار العرب لمعارضة القرآن ، غير أنه لم يفه بتعبير «توفر الدواعى » أما أول من استخدمه فى النصوص التى تجمعت لدىّ فهو الرمانى ، الذى جعل من « ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة » إحدى جهات الإعجاز[١] . ومنذ هذا التاريخ صار هذا التعبير الصيغة الشائعة على الألسنة[٢] .

ولكن ذلك لا يعنى أن الكاتبين لم يستعملوا تعبيرات أخرى تؤدى المعنى نفسه ، مثل عبارتى زوال الموانع[٣] ، والعلم بأن دواعيهم قويت إلى إبطال أمره لدلائل ظهرت لا تجوز الشبهة فيها ، اللتين استخدمهما عبد الجبار[٤] ، وترادف الحوافز إلى مناهضته عند السيد أحمد صقر[٥] : وتوفر الأسباب الباعثة على المعارضة وتضافرها عند د. محمد عبد الله دراز[٦] ؛ وعدم بقاء عامل من عوامل المعارضة ــ لو كانت ممكنة - إلا هاج وأرعد ، ولا بقية من نخوة الانتصار للنفس والمعتقد إلا ثارت وغبَّرت عند محمد الصادق عرجون[٧] : وحصول المقتضى للمباراة والمعارضة وقيامه، وانتفاء ما يمنع من المعارضة عند محمد على الصابونى[٨] .

وأورد فيما يلى ما نصوا على أنه كان من عوامل المعارضة ، وما ذكروا أنه كان يهون المعارضة عليهم معا .

---

(١) النكت ٦٩ ، ١٠١ ، ١٧٩ . صقر ١١ ، ١٢ . فقيهى ١٤٦ . ضيف ١٠٣ . آلوسى عبد الحميد ٢٦٢ . عبد القاهر لمطلوب ٢٤٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٨ . أبو موسى ٢٩ ، ٨٥ . انظر الماوردى ٧١ .

(٢) عبد الجبار ١٦ / ٢٢٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ، ٣٣٧ . العلوى ٣ / ٣٧٠ ، ٣٧٧ ، ٣٩١ . الحمصى ٢٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٨٣ . خلف ١٣٨ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٥ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٦٨ .

(٥) مقدمة الإعجاز ٦ .

(٦) النبأ ٨٦ .

(٧) القرآن ١٤٦ .

(٨) التبيان ٩٣ - ٤ .

ـ نزول القرآن باللغة العربية

عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : الكلام كلامهم(١) .

وجمع الطبرى بين اللغة والبيان حين تصور من يسأل : إنك ذكرت أن اللّه عنى بقوله : ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ من مثل هذا القرآن . فهل للقرآن من مثل فيقال: ائتوا بسورة من من مثله ؟

وكان جوابه : إنه لم يَعن به : ائتوا بسورة من مثله فى التأليف ، والمعانى التى بايَن بها سائرَ الكلام غيرَه . وإنما عنى : ائتوا بسورة من مثله فى البيان ، لأن القرآن أنزله اللّه بلسان عربى ، فكلام العرب ـ لاشك ـ له مثلٌ فى معنى العربية . فأما فى المعنى الذى باين به القرآن سائر كلام المخلوقين فلا مثلَ له من ذلك الوجه ، ولا نظير ولا شبيه .

وإنما احتج اللّه عليهم لنبيه بما احتج به له عليهم من القرآن ، إذ ظهر عجز القوم عن أن يأتوا بسورة من مثله فى البيان ، إذ كان القرآن بيانا مثل بيانهم ، وكلاما نزل بلسانهم . فقال لهم جل ثناؤه : وإن كنتم فى ريب من أن ما أنزلت على عبدى من القرآن من عندى ، فأتوا بسورة من كلامكم الذى هو مثله فى العربية ، إذ كنتم عربا ، وهو بيان نظير بيانكم ، وكلام شبيه كلامكم .

فلم يكلفهم أن يأتوا بسورة من غير اللسان الذى هو نظير اللسان الذى نزل به القرآن . فَيقْدروا أن يقولوا : كلفتنا ما لو أحسناه أتينا به ، وإنا لا نقدر على الإتيان به لأنا لسنا من أهل اللسان الذى كلفتنا الإتيان به . فليس لك علينا بهذا حجة . لأنا ـ وإن عجزنا عن أن نأتى بمثله من غير ألسنتنا لأنا لسنا من أهله ـ ففى الناس خلقٌ كثير ـ من غير أهل لساننا ـ يقدر على أن يأتى بمثله من اللسان الذى كلفتنا الإتيان به(٢) . . .

وسار الباقلانى فى الركاب ، وصرح بأن اللّه أنزل القرآن بلسانهم الذى يتخاطبون به ، وأنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى رده :

---

(١) حجج ٣ / ٢٧٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . خلف ١٤٢ . حويش ٢٥٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ . وأتى به غير منسوب : الزركشى ٢ / ١١٠ .

(٢) جامع ١ / ٣٧٤ . وانظر الحمصى ٦٠ .

إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم .

أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنهم لا يبين لهم وجه الإعجاز فيه ، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

أو بغير ذلك من الأمور ، وأنه – إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه – وجبت الحجة عليهم[١] .

ومن العبث تتبع من ذكر هذا الداعى ، لأن جميع من كتبوا فى الإعجاز ذكروه . ولكن أشير إلى نص مكى بن أبى طالب فى اختصاره لكتاب نظم القرآن للجرجانى، لأنه وضح فيه المماثلة توضيحا تاما وشاملا ، قال : « قال المؤلف : أنزله بلسان عربى مبين ، بضروب من النظم مختلفة على عادات العرب ... والنظر كله جار على لغة العرب . ولا يجوز أن ينزله على نظم ليس من لسانهم ، لأنه لا يكون حجة عليهم[٢] » .

التحدى بموضع القدرة

ذكر ذلك الجاحظ ، إذ قال : تحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه[٣] ، يريد أكثر بلاغة .

وتحول هذا القول عند عبد الجبار إلى تحداهم بأمر يختصون به ، أنه من أعظم مفاخرهم ، لأنه الذى يصولون به على سائر الناس ، وهو الفصاحة والتصرف فيها[٤] .

وعلى أية حال فمدلول هذا القول موجود عند كل من عالج الإعجاز ، لأنه أحد أركان المعجزة .

اعتياد المفاخرة

وصف الجاحظ العرب بأكثر الخلق مفاخرة[٥] :

والباقلانى بأنهم كانوا يتنافسون فى القول أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد

---

(١) إعجاز ١٣ ، ٢١ .
(٢) الزركشى ٢ / ٩٢ .
(٣) حجج ٣ / ٢٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(٥) الاتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . الصاوى ١٩٧. إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . طبارة ٢٦ . أمين ١٤٧ . حويش ٢٢٥ ، ٢٢٨ . الصباغ ٥٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ١ / ٢ . موسى لاشين ٢٤٥ .

التبجح[١] ، ويتنافرون فى الفصاحة ، وتجرى بينهم — فيها — الأسباب المنقولة فى الآثار . على ما لا يخفى على أهلها[٢] ، وكان ذلك أمرا قريبا ، هو عادتهم فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم[٣] .

ووصفهم عبد الجبار بأنهم كانوا يتبارون ، ويتحدى بعضهم بعضا ، فى الكلام الفصيح ، من منظوم ومنثور[٤] ، وكان ذلك إحدى عادات سلفت لهم فى التحدى والمباراة والمنازعة فى مثل ذلك[٥] .

وردّ الطوسى التحدى إلى ما هو متعارف بينهم فى تحدى بعضهم بعضا ، كمناقضات امرئ القيس وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، وجرير والفرزدق وغيرهم[٦] .

وذهب عبد القاهر الجرجانى إلى أن المعارضات عادة بشرية - لا عربية فقط — إذ إن المتعارف من عادات الناس التى لا تختلف ، وطبائعهم التى لا تتبدل ، أن لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها . كيف وإن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يَبْأى [يفخر] بنفسه ، ويُدل بشعر يقوله ، أو خطبة يقول بها ، أو رسالة يعملها ، فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل ، ويبذل ما لديه من المُنّة ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ، ببعض العلل وبنوع من التمحل[٧] .

وعبر الزمخشرى عن هذه الطبيعة عند العرب ، فقال : إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وإن رماهم بمأثرة رموه بمآثر[٨] ، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز[٩] .

---

(١) إعجاز ٤٣ .
(٢) إعجاز ٦٤ . وانظر المغنى ٢٧٢ . رضا ١ / ١٦٣ . الرافعى ١٧٢ . نظرات ١٥٣ . سلطان ٩٠ . أبو زهرة ٦٢ .
(٣) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . وانظر العلوى ٣ / ٤٠٥ . الرافعى ١٧٢ . الحمصى ١٣١ . نظرات ١٥٣ . البوطى ١٥٤ . أبو موسى ١٨١ .
(٤) المغنى ١٦ / ١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . وانظر خلف ١٣٨ .
(٦) التبيان ٥ / ٤٥٧ ، ٦ / ٥١٧ .
(٧) الشافية ٥٧٧ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٤ - ٥ . وانظر عتر ١٦٩ .
(٨) الكشاف ١ / ١٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٧٧ .
(٩) الكشاف ١ / ٩٦ .

وذكر الرافعى أن الكلام كان يدفعهم إلى المنافرة ، ويبعثهم على المفاخرة[١] ، وكان سر عادتهم أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، ثقة بقوة الطبع ، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم ، يستعلون به ، وهم مجبولون عليه فطرة ، ولهم فيه المواقف والمقامات فى أسواقهم ومجامعهم[٢] .

وعاد هبة الدين محمد على بن حسين الحسينى الشهرستانى (١٣٠١ — ١٣٨٦ / ١٨٨٤ - ١٩٦٧) إلى كون هذه طبيعة بشرية . فأعلن أنا نرى الناس - فى عهدنا — مطبوعين على استحباب الشهرة والأثرة ، وطلب التفاضل والتفاخر . فإذا رأوا أحدهم يبغى التفوق عليهم بصناعته ، اندفعوا - بكل قواهم — إلى مباراته ، وجدوا لكى يأتوا بخير منه ، وقد فطر البشر على مثل هذا الشعور . والشعب العربى المعاصر للنبى كان - ولا ريب - منطويا على هذا الشعور تماما[٣] .

ورجع دراز إلى التعبير الأدبى فقال : ما هذه الجموع المحشودة فى الصحراء ؟ وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ إنها أسواق العرب ، تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم . وما هى إلا بضاعة الكلام ، وصناعة الشعر . يتبارون فى عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها ، والمفاخرة بها . ويتنافسون فيها أشد التنافس . يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم ، وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب[٤] .

وقال عفيف عبد الفتاح طبارة : كانوا يقيمون - فى كل سنة - مواسم ، يتبارى فيها الشعراء ، وينشدون أشعارهم فى مكان يطلق عليه اسم (عكاظ) . وكان هناك شعراء فحول يحكمون بينهم[٥] . ولما كان من عادة العرب أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة بالكلام ، والمقارضة بالقصيد والخطب ، لهذا تحداهم القرآن فى آيات كثيرة[٦] .

---

(١) إعجاز ١٦٩ .
(٢) إعجاز ١٧٢ . وانظر أمين ١٤٧ .
(٣) نظرات الغزالى ١٥٣ .
(٤) النبأ ٨٤ .
(٥) روح ٢٥ .
(٦) روح ٢٦ . وانظر البوطى ١٥٤ .

سهولة المعارضة

عبر الجاحظ عن سهولة المعارضة على العرب فى عدة صور من التعبير . فقال مرة: الكلام أحصر عندهم ، وأيسر مؤونة عليهم[١] ؛ ومرة : الحيلة فى أمره يسيرة، والمأخذ فى أمره قريب[٢] ؛ وثالثة : تحبير الكلام أهون من القتال ومن إخراج المال[٣]؛ ورابعة : المؤونة فيها أخف عليهم[٤] ؛ وخامسة : تحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه[٥] ؛ وسادسة : سهولة ذلك عليهم[٦] .

ووصف الخطابى المعارضة بالسهل الدمث من القول[٧] . وتعرض لها الباقلانى مرات فاكتفى فى إحداها بوصفها بالقريبة السهلة عليهم[٨] . وفى أخرى بالأمر الخفيف[٩] . وأطال فى مرة ثالثة فوصفها بأهون سعيهم ، ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين ، أو ينقطع دونه وتين ، أو يشتمل به خاطر[١٠] .

وذكر الطوسى أن المعارضة كانت أيسر مما تكلفوه[١١] ، والقرطبى أنهم لو قدروا عليها لكان أهون كثيرا[١٢] ، والزرقانى أن محمدا ، فى تحديه ـ دخل عليهم من أيسر الطرق فى نظرهم[١٣] ، وهبة الدين الحسينى أن رب الإنسان لم يخلق للإنسان عملا ـ بعد التفكير ـ أيسر لديه من الكلام[١٤] .

---

(١) حجج ٣ / ٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ـ ٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . خلف ١٤٢ . (٢) حجج ٣ / ٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥. حويش ٢٥٧ . خلف ١٤٢ . وانظر الباقلانى ٢٠ .
(٣) حجج ٣/٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١/١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ . خلف ١٤٣ . (٤) حجج ٣ / ٢٧٧ .وانظر الدباغ ٧ .
(٥) حجج ٣ / ٢٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ .
(٦) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٢ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . وانظر عبد الجبار ٢٤٦ . الماوردى ٧١ . العلوى ٣ / ٣٧١ ـ ٢ . حميدة ٣٤ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٤ . (٧) بيان ١٩ .
(٨) إعجاز ٢١ ـ ٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ ، ١٧٨ . الصابونى ٩٤ .
(٩) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . الصابونى ٩٤ .
(١٠) إعجاز ٢١ . أبو موسى ١٨١ . (١١) التبيان ٥ / ٤٥٦ .
(١٢) الجامع ١ / ٧٧ . (١٣) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ .
(١٤) نظرات الغزالى ١٥٣ .

ووصف الصابونى الإتيان بمثيل للقرآن بسلوك أيسر الطرق ، وولوج أقرب الأبواب لرد دعوى محمد ، وذلك عن طريق ما برعوا فيه ، واشتهروا بجودته وإتقانه، ألا وهو البيان فى النطق ، والفصاحة فى اللسان(١) .

- التقريع

ردد الجاحظ ذلك وهو ينكر إذعان الأعراب دون بذل الجهد فى المعارضة . فاكتفى مرة بذكر تقريع محمد لهم مجردا(٢) ، وأضاف مرة التقريع للعجز(٣) ، ومرة التقريع بالنقص(٤) . ولكن العبارة التى اشتهرت منه ، ورددها المؤلفون بعده هى التقريع بالعجز(٥) . ووصف الباقلانى هذا التقريع مرة بالشدة(٦) ، ومرة بالطول(٧) . ووصفه عبد الجبار بالعظم(٨) . وقال : نعلم أن من قرعه غيره بالعجز عن أمر أتى به - ولا مانع - أن ذلك التقريع يحرك طبعه ، إذا كان عالما به(٩) .

وذكر عياض أن الله لم يزل يقرعهم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ(١٠) ، ومحمد بن سليمان البلخى المعروف بابن النقيب (٦١١ - ٦٩٨ / ١٢١٤ - ١٢٩٨) أنهم ندبوا إلى المساجلة والمجاراة فأمسكوا وأحجموا ، وقُرِّعوا بقوارع التوبيخ والتقريع فركبوا خيول العجز(١١) .

---

(١) التبيان ٩٤ .
(٢) حجج ٣/٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١/١٣٥ . حويش ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . شحاتة ١٥٦ . وانظر الباقلانى ١٧ ، ٢٣ ، ٤٣ ، ١١٣ ، ٢٨٧ . عبد الجبار ٢٦٥ . الطوسى ١/١٠٤ . دلائل ٣٨ . الرازى ٢/١٢٠ . الرافعى ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ . صقر ٦٨ . الحمصى ١٦٧ ، ١٨٩ . إعجاز الخطيب ١/١٧٨ ، ٢٣٣ ، ٣٠٨ . عرجون ١٤٥ . البوطى ١٥٣ - ٤ . أمين ١٤٧ . حويش ٢٨٦ . خلف ١٤٣. الرومى ٩٧ - نيازى ١٤٠ ، ١٥٨ .
(٣) الإتقان ٢/٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . خلف ١٤٣ . أبو فرحة ١١٠ . وانظر عبد الجبار ١٦/٢٦٦. إعجاز الخطيب ١/٢٣١ .
(٤) الإتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . طبارة ٢٨ . الصباغ ٥٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ .
(٥) حجج ٣ / ٢٧٥ ، ٢٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ ، ١٣٨ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ ، ٤٣٣ سلطان ٢١٤ . وانظر عبد الجبار ٢١٦، ٢٦٦. الشافية ٥٧٧ . صقر ٥ . العطار ٥٨ .
(٦) إعجاز ٦٤ .
(٧) إعجاز ٢٨٩ .
(٨) المغنى ١٦ / ٢٧٥ . عائشة ٧١ . وانظر الطوسى ٥ / ٤٥٧ .
(٩) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(١٠) الشفا ١ / ٥٠٤ - ٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .
(١١) مقدمة ٥١٣ .

ووصف الرافعى ما وُجِّه إليهم من تقريع بالكثرة[١] . وأعلن البوطى أن آيات التحدى ظلت مسجلة فى كتاب الله ، تقرع آذان الأدباء ، والشعراء ، والبلغاء ، على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، فى كل عصر وقرن[٢] .

- التوقيف

وردد الجاحظ هذا القول ، وبصياغات متعددة أيضا ، فاكتفى مرة بالتوقيف مجردا[٣] . وأضاف مرة التوقيف على النقص[٤] ، ومرة التوقيف على العجز[٥] ، وأخيرا التنقيص على النقص[٦] . ووضحه السيد أحمد صقر فعبر عنه بالكشف عن النقص[٧] .

- التذكير والتنبيه

قال الجاحظ : لونسوا المعارضة ما تركهم حتى يذكرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم ، بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف[٨] .

- هجاء أصحاب محمد شعراء الكفار ، ومنازعة خطبائهم

ذكره الجاحظ فى الدواعى[٩] .

- إزاحة العلل

أراد الجاحظ بذا الإذن للكفار بالكذب ، قال فى « حجج النبوة » : لو لم يكن النبى - ﷺ - تحداهم بالنظر والتأليف ، و لم يكن أيضا أزاح علتهم ، حتى قال تعالى: ﴿ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ وعارضونى بالكذب[١٠] ... وقال فى

---

(١) إعجاز ١٩٨ . (٢) من روائع ١٥٥ . (٣) حجج ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ .

(٤) حجج ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١. سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٣ .

(٥) الاتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . طبارة ٢٨ . الصباغ ٥٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٧ .

(٦) حجج ٣ / ٢٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ .

(٧) مقدمة الباقلانى ٥ . وانظر أبو موسى ٣٦٤ . (٨) حجج ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٢٥ - ٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ .

(٩) رسائل ٣ / ٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . (١٠) حجج ٣ / ٢٧٧ . حويش ٢٥٨ .

«الإتقان» : فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالو له : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال : فهاتوها مفتريات[١] .

وذكر الباقلانى بين الأمور التى تتيح للكفار الإتيان بمثيل للقرآن : التمكين منه، أراد بذلك عدم وضع العراقيل - المدركة وغير المدركة - التى تحول بينهم وبينه ، أى ما سماه الجاحظ إزاحة العلل[٢] . وأعتقد أن هذا ما سماه عبد الجبار كون المعارضة مقدورة وزوال العلل[٣] .

العداء والبغض

ذكر الجاحظ فى الدواعى التى رأى أنها كان من شأنها أن تدفع الكفار إلى المعارضة : شدة العداوة ، يريد للإسلام[٤] ؛ وعبد الجبار عداء الكفار لمحمد ، وزيادة أحوالهم - فى العداوة ، وبذل الجهد فى طلب الإفساد والغلبة - قوة على الأوقات[٥]، ووجود من يعادى محمدا ممن يرجع إلى فصاحة ومعرفة بعد أيامه ، عصرا بعد عصر[٦] ، أو بعبارة أخرى : قيام المعاداة فى كل عصر ، فى طبقة من المكذبين والمنافقين[٧] ، والرازى : كون العرب فى غاية العداوة له[٨] ؛ وابن كثير شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه[٩] ، والسيد أحمد صقر التهاب قلوبهم بنار عداوته[١٠] ؛ وعبد اللّه دراز : كونهم أعداء ألداء[١١] وعبد الكريم الخطيب كون نفوسهم مستعِرة حقدا وحنقا ، وصدورهم ممتلئة غيظا وشنآنا[١٢] ؛ وعفيف عبد الفتاح طبارة إضمارهم العداء للدعوة الإسلامية[١٣] ، ومحمد الصادق عرجون : عدم بقاء شىء من ساكن العداوة - مع التقريع والوعيد المرعب - إلا تحرك[١٤] ؛ والبوطى ما

---

(١) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤. عبد الفتاح لاشين ٤٣٣. شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠. وانظر الزمخشرى ٢٣٩/١ .
(٢) إعجاز ٢٥١ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٥ .
(٤) رسائله ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ . أبو موسى ٣٠ . وانظر ابن كثير ١ / ٦٠ .
(٥) المغنى ١٦ / ٣٣٧ . وانظر طبارة ٢٨ .
(٦) المغنى ١٦ / ٢٥٥ .
(٧) المغنى ١٦ / ٢٧٧ .
(٨) مفاتيح ٢ / ١٢٠ .
(٨) التفسير ١ / ٦٠ .
(١٠) مقدمة الباقلانى ٦ .
(١١) النبأ ٨٥ .
(١٢) إعجاز ٢ / ١٥ .
(١٣) روح ٢٨ .
(١٤) القرآن ١٤٦ .

كان يعتلج فى صدور العرب من الحقد والكراهية لهذا الذى جاءهم به محمد[١] ؛ ومصطفى الدباغ استفحال العداء عند العرب[٢] .

ـ اجتماع الكلمة

وصف الجاحظ العرب باجتماع الكلمة : يريد على حرب الإسلام[٣] .

ـ الحرب

ذكر الجاحظ الحرب عاملا من عوامل المقاومة مرتين قال فى « حجج النبوة » : قتل منهم ، وقتلوا منه[٤] . وقال فى رواية « الإتقان » : دعاهم بالحجة . فلما قطع العذر ، وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف . فنصب لهم الحرب ونصبوا له ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم[٥] .

وجعل الباقلانى منها تضمين أحكام القرآن استباحة دمائهم[٦] . وأتى عبد القاهر الجرجانى بجملة الجاحظ الأخيرة بعد أن حورها إلى قتل صناديدهم وكبارهم[٧] . وبعد أن سبك فهد بن عبد الرحمن الرومى عبارتى الجاحظ فى عبارة واحدة ، أضاف أنه قتل منهم أحب الناس إليهم[٨] .

ـ رفع شأن القرآن

عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : لو لم يكن تحداهم من كل ما قلنا ، وقرعهم بالعجز عما وصفنا ، وهل هذا إلا بمديحه له ، وإكثاره فيه ، لكان ذلك سببا موجبا لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه[٩] .

---

(١) من روائع ١٥٤ . (٢) وجوه ٧ . (٣) رسائل ٣ / ٢٧٧ .

(٤) حجج ٣ / ٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٣ ـ ٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . أبو موسى ٣٦٤ . نيازى ١٤٢ . وانظر ابن عطية ٩/١٩١ . الرومى ٩٨ .

(٥) ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . وانظر الزمخشرى ١ / ١٠ ـ ١١ . معترك ١ / ٢ . أبو موسى ٣٦٤ . الرومى ٩٨ .

(٦) إعجاز ٢٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . وانظر أبو موسى ١٨١ .

(٧) الشافية ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ .

(٨) خصائص ٩٨ . (٩) رسائل ٣ / ٢٧٧ . وانظر الداعى السابق .

وعبر الباقلانى عن ذلك بذكر محمد ، فيما يتلوه - تعظيم شأنه ، وتفخيم أمره ، حتى تلا قوله تعالى : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[١] وقوله : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده : أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ، فاتقون ﴾[٢] ... إلى غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم شأن القرآن . فمنها ما يتكرر فى السورة فى مواضع منها . ومنها ما ينفرد فيها . وذلك مما يدعوهم إلى المباراة ، ويحضهم على المعارضة ، وإن لم يكن متحديا إليه[٣] .

ولعل عبد الجبار بن أحمد الأسدآبادى كان ينظر إلى قول الجاحظ حين قال : لا فرق بين أن يعلن محمد التحدى ، وبين أن يظهر من قصده أنه يدعى النبوة ، ويظهر المزية بذلك ، فى أنه كان يجب - لو أمكنهم أن يأتوا بمثله - أن يعارضوه ، ولا يعدلوا للأمور التى لا تؤثر فيه مما تكلفوه ، لأن هذه الطريقة واجبة فيما يقع فى التنافس وإن لم يبلغ حد النبوة . فكيف يجوز أن يعدلوا عنه ؟ [٤] .

- صفات القرآن الذاتية

عبر الجاحظ عن ذلك بقوله : لو لم يكن النبى ﷺ تحداهم بالنظر والتأليف ... لقد كان فى تفضيله له وتركيبه ، وتقديمه له واحتجاجه ، وما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه[٥] .

الرغبة فى إطفاء أمر محمد

وصف الجاحظ الكفار بالخروج من ديارهم فى إطفاء أمره[٦] . وجعلها د. الحسينى أبو فرحة إصفاء نوره ، وإخفاء أمره[٧] .

الرغبة فى توهين ما جاء به محمد

وصف الجاحظ الكفار بالخروج من ديارهم فى توهين ما جاء به[٨] ، وأطلق عبد الجبار على هذه الرغبة توهين حال محمد[٩] .

---

(١) سورة الإسراء ٨٨ . (٢) سورة النحل ٢ .
(٣) إعجاز ٢٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٩ . نيازى ١٤٠ - ١ . (٤) المغنى ١٦ / ٢٤١ .
(٥) رسائل ٢ / ٢٧٧ . (٦) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . وانظر الطوسى ١ / ١٠٤ ، ٥ / ٤٥٦ .
(٧) مأدبة ١١٠ . (٨) رسائل ٣ / ٢٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . (٩) المغنى ١٦ / ٢٤١ ، ٣٣٧ . وانظر الرازى ٢ / ١١٧ .

الزراية على الأديان

أضاف الخطابى هذا الداعى[١] . ولا يبعد عنه قول عبد الجبار أن محمدا سفّه آلهتهم وطريقتهم فى الدين[٢] ، وما سماه الماوردى الأصنام[٣] ، وعياض ذم الآلهة[٤] ، وعبد الكريم الخطيب السخرية من الآلهة[٥] ، ومحمد أبو زهرة ذكر الأوثان بغير ما يؤمنون[٦] ، والصابونى التهكم الشديد اللاذع بالآلهة والأصنام[٧] ، ود. عمر الملاحويش عيب الآلهة[٨] ، ود. حسن ضياء الدين عتر التنديد بالأصنام وإهانة المقدسات[٩] ، ود. رشدى عليان تسفيه عباداتهم[١٠] ، والذهبى تحقير الآلهة[١١] . ولذلك أعلن الأخير أن دواعى المعارضة توفرت لدى الكفار حتى يدفعوا البطلان عن آلهتهم ، ويمكّنوا لعقائدهم وعاداتهم فى الأرض بعد أن أصبحت كلها فى مهب ريح الحق المدمر للباطل[١٢] . وأعلن د. فهد الرومى أنه شنأ معتقداتهم[١٣] .

تسفيه أحلام الكفار

جعله الخطابى من الدواعى[١٤] . وتابعه عبد الجبار مرة ، وشرحه مرة أخرى فقال : نسب عقولهم - فيما تعاطوه - إلى الضعف[١٥] . وأضاف إليه الزرقانى فجعله تسفيها لأحلامهم وأحلام أمثالهم من آبائهم[١٦] . وأعتقد أن هذا التسفيه هو ما أراده عبد الكريم الخطيب بالتسخيف[١٧] ، والصابونى بالتهكم الشديد اللاذع بعقولهم[١٨] ، ود. عليان بالسخرية من عقولهم[١٩] . ولذلك حكم الذهبى بأن الدواعى توفرت لديهم حتى يدرؤوا السفاهة والجهالة عن أنفسهم[٢٠] .

---

(١) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . (٣) أعلام ٧١ .
(٤) الشفا ١ / ٥٠٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .
(٥) إعجاز ٢ / ١٤ . وانظر الصابونى ٩٣ . (٦) المعجزة ٧٠ . (٧) التبيان ٩٣ .
(٨) تطور ٢٧٤ . (٩) بينات ١٥٤ . (١٠) علوم ١٢٢ .
(١١) الوحى ٦٧ . (١٢) الوحى ٢٢ . (١٣) خصائص ٩٧ .
(١٤) بيان ١٩ . فقيهى١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . حويش ٢٧٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٦٦ . الماوردى ٧١ . عياض ١ / ٥٠٥ . الرافعى ١٥٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ ، ٣٠٨ ، ٢ / ١٤ . الصابونى ٩٣ ، ٩٥ . عائشة ٥٢ . عتر ١٥٤ . أبو موسى ١٨١ . الذهبى ٢٢ ، ٦٧ . الرومى ٩٧ . (١٥) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٦٦ . وانظر الحمصى ١٩ .
(١٦) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ . (١٧) إعجاز ٢ / ٢١ .
(١٨) التبيان ٩٣ . (١٩) علوم ١٢٢ . (٢٠) الوحى ٢٢ .

- تسفيه محمد آراء الكفار

جعله الخطابى أحد الدواعى[١] . وقصر الباقلانى التسفيه على آرائهم فى ديانتهم[٢] .

- إظهار محمد النكير للكفار

أضاف الخطابى هذا الداعى[٣] .

تكرار التحدى

جعل الباقلانى من دواعى المعارضة : تكرار محمد - فيما جاء به - ذكر عجزهم عن مثل ما يأتى به[٤] ، وعبد الجبار تكرار القرآن على الأسماع من جهة محمد[٥] ، وابن كثير تحدى محمد لهم - فى مكة والمدينة - مرات عديدة[٦] : ود. البوطى إفراغ التحدى فى قوالب مختلفة من اللفظ والأسلوب ومختلف أشكال التحدى[٧] ؛ ود. بكرى شيخ أمين تحديهم على صور وأشكال[٨] ؛ ود. فهد الرومى تكرير التحدى والزيادة فيه[٩] .

التأنيب

جعله الباقلانى من دواعى المعارضة[١٠] . ووصفه الرافعى بالكثرة[١١] .

الدعوة إلى ترك الدين إلى آخر

جعل الباقلانى من دواعى المقاومة استعظام العرب ما بدههم به القرآن من خلع الآلهة[١٢] ؛ وعبد الجبار[١٣] إبطال ما كانوا يتعاطون من الديانة فى عبادة الأصنام وغيرها، وجمع وجوه المذلة لهم بالثبات على طريقتهم ، وتعريفهم أنواع العز

---

(١) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ .
(٢) إعجاز ٢٠ ، ٤٣ . وانظر الباقلانى ١٦ / ٢٦٦ .
(٣) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ .
(٤) إعجاز ٢٣ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٦٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٨٠ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٣٧ . (٦) التفسير ١ / ٥٩ - ٦٠ .
(٧) من روائع ١٥٣ . (٨) التعبير ١٤٧ . (٩) خصائص ٩٤ .
(١٠) إعجاز ٢٣ إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ . وانظر الرافعى ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٩٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٠٨ . البوطى ١٥٤ . أمين ١٤٧ . الرومى ٩٧ .
(١١) إعجاز ١٩٨ . (١٢) إعجاز ٢٠ . أبو موسى ١٨١ .
(١٣) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٦٦ .

بالانتقال إلى شريعة محمد ؛ وعبد القاهر ادعاء محمد النبوة ، وإخباره أنه مبعوث من الله إلى الخلق كافة ، وبشير بالجنة ، ونذير بالنار ، نسخ به كل شريعة تقدمته ، ودين دان به الناس شرقا وغربا ، وأنه خاتم النبيين ، فلا نبي بعده ، إلى سائر ما صدع به[١] ؛ والعلوى تكليف العرب ترك أديانهم ، وخلع الأنداد والأصنام من بين أظهرهم ، وكانت أحب إليهم من أنفسهم من أجل الدين[٢] ؛ والرافعى تنكيس الأصنام[٣] ، والزرقانى الثورة على العقائد[٤] ؛ والصابونى المجىء بدين جديد[٥] ؛ وحويش أمرهم بالتحول عما كانوا قد ألفوه من عبادات ، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من عقائد[٦] ؛ والذهبى إبطال آلهتهم والدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ معتقداتهم الفاسدة[٧] ؛ والرومى تحطيم الأصنام[٨] .

جعل محمد القرآن دلالة على نبوته وصدقه

ذكر ذلك الباقلانى[٩] . ووافقه عبد الجبار فذكر أن محمدا جعل القرآن شعاره ودثاره[١٠] ، وابن تيمية الذى جعل من دواعى المعارضة دعوى محمد لرسالة ، وأن من آمن به دخل الجنة ، ومن لم يؤمن به دخل النار[١١] .

تكاليف الدين الجديد

ذكر الباقلانى بين دواعى مقاومة الكفار للإسلام ما فرضه عليهم من تكاليف شاقة ، وعبادات متعبة[١٢] . وعبر عنه عبد الجبار بتحمل الكلفة والمشقة[١٣] ، والانصراف عن سَنَن الراحة واللذة[١٤] : فى إلزام الكلف على النفس[١٥] ؛ والعلوى بإيجاب الإسلام ما يتعب الأبدان ... ويشق على القلوب تحمله[١٦] .

---

(١) الشافية ٥٧٨ - ٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ . وانظر الصابونى ٩٣ . عائشة ٥٢ .
(٢) الطراز ٣ / ٣٧٠ . (٣) إعجاز ١٥٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٠٨ .
(٤) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ . (٥) التبيان ٩٣ .
(٦) تطور ٧٧ . (٧) الوحى ٢٢ . (٨) خصائص ٩٧ .
(٩) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٣٧ ، ٢٤٦ . الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ . الصابونى ٩٣ . عائشة ٧١ . عليان ١٢٢ .
(١٠) المغنى ١٦ / ٢٣٧ . (١١) التفسير ٢ / ١٥٦ . (١٢) إعجاز ٢١ .
(١٣) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . (١٤) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . (١٥) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(١٦) الطراز ٣ / ٣٧٠ .

استباحة الأموال

جعل الباقلانى من دواعى مقاومة الإسلام : تضمين أحكام القرآن استباحة أموال الكفار وتحكيم الغير فيها[١] ، وعبد الجبار دعوة الإسلام إلى مفارقة الأموال أو الإلزام بالحقوق فى المال ، مع حرص العرب على حفظه[٢] ، وعبد القاهر التدبير فى إخراجهم من أموالهم[٣] ، والعلوى إيجاب ما ينقص الأموال على العرب[٤] .

استباحة الدماء

جعل الباقلانى من دواعى المقاومة تضمين أحكام القرآن استباحة دماء الكفار[٥]، وابن تيمية أن قتل رجالهم أبيح له[٦] .

سبى الذرية

جعل الباقلانى من دواعى المقاومة عند الكفار تضمين أحكام الإسلام سبى ذريتهم[٧] .

تضليل الآباء

جعله الباقلانى أحد دواعى المقاومة[٨] . ويقرب منه عد الرافعى الإزراء عليهم وعلى آبائهم الأولين من الدواعى[٩] ، وقول محمد أبو زهرة : ذكر آبائهم بغير ما يحبون[١٠] . وقول د. فهد الرومى : الإزراء على الآباء[١١] .

طرح العادات

ذكر الباقلانى من دواعى مقاومة محمد مطالبته الكفار بالعدول عن إلفهم وعادتهم[١٢]. وعبر عبد الجبار عن ذلك مرة بمفارقة العادة والطريقة[١٣] . والصرف

---

(١) إعجاز ٢٠ - ١ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . أبو موسى ١٨١ . وانظر عياض ١ / ٥٠٥ . ابن تيمية ٢ / ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٦٦ .

(٣) الشافية ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ .

(٤) الطراز ٣ / ٣٧٠ .

(٥) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . أبو موسى ١٨١ .

(٦) التفسير ٢ / ١٥٦ .

(٧) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . وانظر الجرجانى ٥٨٠ . ابن تيمية ٢ / ١٥٦ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ ، ١٣٥ .

(٨) إعجاز ٢٠ .

(٩) إعجاز ١٥٩ ، ١٦٦ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٠٨ .

(١٠) المعجزة ٧٠ .

(١١) خصائص ٩٧ .

(١٢) إعجاز ٢٠ . أبو موسى ١٨١ .

(١٣) المغنى ١٦ / ٢٤٦ ، ٢٥٣ . وانظر الرافعى ١٥٩ .

عنها[١] ، ومرة العدول عن العادات فيما يتصل بالدين والنفس والمال[٢] ، والرافعي بمفارقة الشرائع والعادات[٣] ، والزرقاني بالثورة على العقائد والعادات والأخلاق[٤]، وعبد الكريم الخطيب بالدعوة إلى الانخلاع عن معتقدات وعادات تمكنت من نفوسهم ، وسكنت قلوبهم[٥] ود. عائشة عبد الرحمن مرة بتقويض أوضاع اقتصادية واجتماعية توارثوها خلف عن سلف ، واستقرت عليها حياتهم من قديم الدهور والأحقاب ، وتهيأ بها لقريش ثراؤها ونفوذها الديني والتجاري على قبائل العرب ، ومرة بتهديد مصالحهم ، وتقويض ما ألفوا من أوضاع[٦] ، وأبو موسى بنبذ مألوف عاداتهم[٧] ، والذهبي بنبذ المعتقدات الفاسدة والعادات السيئة[٨] ، والرومي بتكليفهم خلاف ما اعتادوه ، وأمرهم بما لم يألفوه[٩] .

الخضوع لمحمد

جعل الباقلاني من دواعي المقاومة إظهار القرآن أمرا يوجب الانقياد لطاعة محمد، والتصرف على حكم إرادته ، والانخراط في سلك الأتباع بعد أن كانوا متبوعين[١٠]. وعبر عبد الجبار عن ذلك بتعبيرات متنوعة ، مثل طلب الانقياد لمن يدعي النبوة[١١] ، والالتزام بأمره ونهيه[١٢] ، والدخول تحت الطاعة والشريعة والمذلة[١٣] ، وجعل القرآن موجبا لاتباعه وطاعته والانقياد له[١٤] ، وزوال الأتباع[١٥] ، ومفارقة الرياسات أو إبطالها [١٦] ، ولهم طريقة معروفة في بذل الجهد في حراسة الرياسة ، وترك الرضا بالانقياد والمتابعة[١٧] .

علو شأن محمد

وضع الباقلاني بين الدواعي إلى مقاومة محمد : أن أمره كان يتزايد حالا فحالا ،

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . (٢) المغنى ١٦ / ٣٣٧ . (٣) إعجاز ١٦٦
(٤) مناهل ١ / ٦٧ . الصابوني ٩٥ . (٥) إعجاز ٢ / ١٤ . (٦) الإعجاز ٥٢ .
(٧) الإعجاز ١٨١ . (٨) الوحي ٢٢ . (٩) خصائص ٩٧ .
(١٠) إعجاز ٢٠ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٦٦ . ابن تيمية ٢ / ١٥٦ . العلوى ٣ / ٣٧٠ .
(١١) المغنى ١٦ / ٢٤٠ . (١٢) المغنى ١٦ /٢٤٠ .
(١٣) المغنى ١٦ /٢٤٠ - ١ ، ٢٧٢ . عائشة ٧١ .
(١٤) المغنى ١٦ / ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٣٣٧ . وانظر الصابوني ٩٣ .
(١٥) المغنى ١٦ / ٢٥٣ . (١٦) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٦٦ .
(١٧) المغنى ١٦ / ٢٤٦ .

ويعلو شيئا فشيئا[١] . وعبر عبد الجبار عن ذلك بتحقق الكفار من نقصان عددهم ، وزيادة عدد محمد ، وضعف حالهم ، وقوة حاله ، على الأيام والأوقات[٢] ، ومحمد رشيد رضا باستفحال قوة محمد[٣] ، ود. عبد الله محمود شحاتة بأنهم — على رغم المطاولة - ينتقلون من عجز إلى عجز ، ومن هزيمة إلى هزيمة ، وهو .. ينتقل من فوز إلى فوز ، ويخرج من نصر إلى نصر[٤] .

إدراك محمد آماله

جعل الباقلانى من دواعى المقاومة : إدراك محمد آماله فيهم ، ونجاح ما سعى له[٥] .

استطالة محمد على الكفار

ذكر الباقلانى من دواعى المقاومة : استطالة محمد على الكفار بأنهم عاجزون عن مباراته ، ضعفاء عن مجاراته[٦] .

تسليط الغير

ذكر الباقلانى من دواعى المقاومة تسليط الغير على جملة أحوال الكفار[٧] .

العجز عن عيب القرآن

ذكر الباقلانى من دواعى المقاومة : العجز عن القدح فى آية محمد ، والطعن بما يؤثر فى دلالته[٨] .

التغريب على الكفار

جعل الباقلانى من دواعى المقاومة تغريب محمد على الكفار بما جاء به[٩] .

توفر القدرة على المعارضة

وصف عبد الجبار العرب بأن القدرة على المعارضة القولية كانت موجودة لديهم[١٠]، والصابونى بأنهم لم يكونوا فى عجز من قدرتهم ، أو نقص فى عقولهم،

---

(١) إعجاز ٢١ ، ٢٣. إعجاز الخطيب ١/١٧٧ — ٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧. نيازى ١٣٩ - ٤٠ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٦٧ ، ٣٣٧ . (٣) المنار ١١ / ٣٠٣ .
(٤) علوم ١٥٤ . (٥) إعجاز ٢٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ .
(٦) إعجاز ٢٣ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ .
(٧) إعجاز ٢١ . وانظر حفظ الرياسات .
(٨) إعجاز ٢١ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ .
(٩) إعجاز ٢٠ . (١٠) المغنى ١٦ / ٢٦٥ .

بل كانت قدرتهم موفورة ، واستطاعتهم مشهورة(١) .

تحرك الطباع

جعله عبد الجبار أحد دواعى المقاومة(٢) .

زوال الشبه

جعل عبد الجبار زوال كل شبهة من الأمور التى تمكن الكفار من المعارضة وتيسرها لهم(٣) .

العجز عن مساواة محمد

جعل عبد الجبار ذاك من دواعى المقاومة(٤) .

إيجاب الحدود والقتل

جعل عبد الجبار إيجاب الحدود والقتل وغيرهما مما يقوى دواعى المقاومة(٥) .

منع التوارث عند اختلاف الدين

جعل عبد الجبار من دواعى المقاومة : منع التوارث بين أهل ملتين(٦) .

قطع الأرحام

ذكر عبد الجبار من دواعى المعارضة : قطع الإسلام أحكام الأنساب باختلاف الدين(٧) .

إبطال حرمات الكفار

أدخله عبد الجبار فى دواعى المقاومة(٨) .

الأمر بمجانبة الشهوة واللذة

وضع عبد الجبار ذلك بين دواعى المعارضة(٩) .

المساواة بين المسلمين

أدخل عبد الجبار فى الدواعى : تشريع القرآن أن المؤمنين يد على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم(١٠) .

---

(١) التبيان ٩٤ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٢ . عائشة ٧١ . سلطان ٩٠ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٤٧ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٦٧ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٧٦ .
(٦) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(٧) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(٨) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .
(٩) المغنى ١٦ / ٢٥٣ .
(١٠) المغنى ١٦ / ٢٦٦ .

الترهيب

ذكر عبد الجبار التخويف بالنار عند التمسك بالكفر من عوامل المعارضة[١] .

الترغيب

جعل عبد الجبار الترغيب فى الجنة عند العدول عن الكفر وحده من عوامل المقاومة[٢] .

ضعف حال محمد

جعل عبد الجبار من العوامل إلى المقاومة : كون محمد مستضعفا بينهم ، لم تتقدم له رياسة على قريش[٣] .

عروبة محمد

رأى عبد الجبار أن كون محمد من قومه العرب وأبناء جنسه من شأنه أن يجعل دواعى المقاومة أقوى[٤] . ووافقه الطوسى الذى عبر عن ذلك بكونه وُلد بين أظهُرهم ، ونشأ معهم ، ولم يفارقهم فى سفر ولا حضر ، ولا يخفى عليهم حاله لشهرته وموضعه[٥] .

حفظ الرياسات

أدخل عبد الجبار ذلك ضمن الدواعى خوفا من ضياعها[٦] ، ود. السيد أحمد خليل الخشية من أن يضيع من أيديهم سلطان القيادة والقوة[٧] .

الرغبة فى إبطال أمر محمد

جعل عبد الجبار ذلك أحد دواعى المقاومة[٨] ، بل رأى أن دواعيهم إلى إبطال أمره قد بلغت النهاية مرة[٩] ، واكتفى بوصفها بالقوة فى مرة ثالثة[١٠] ، وأتى بدلائل هذه القوة فى مرة رابعة[١١] . وذكر الفخر الرازى مرة أنهم كانوا - فى محبة

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . (٣) المغنى ١٦ / ٢٤٠ ، ٢٦٦ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٦٦ . (٥) التبيان ١ / ١٠٤ .
(٦) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٧٢ . عائشة ٧١ . سلطان ٩٠ . وانظر الشافية ٥٨٠ . العلوى ٣ / ٣٧٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ . (٧) دراسات ١٥٠ .
(٨) المغنى ١٦ / ٢٢٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ - ٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٧ ، ٣٣٧ . القرآن للخطيب ٢١٣ .
(٩) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . (١٠) المغنى ١٦ / ٢٤٧ ، ٢٦٧ . (١١) المغنى ١٦ / ٢٦٨ .

إبطال أمره - فى الغاية[١] ، وأنهم كانوا فى غاية الحرص على إبطال أمره مرة أخرى[٢] .

وذهب العلوى إلى أنه - لاشك - أن الإنسان إذا استنزل غيره عن رئاسته ، ودعا إلى طاعته ، فإن ذلك الغير يحاول إبطال أمره بكل ما يقدر عليه ، ويجد إليه سبيلا[٣].

وذكر ابن تيمية أن الكفار كانوا من أحرص الناس على إبطال قول محمد ، مجتهدين بكل طريق يمكن : تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسألونهم عن أمور من الغيب حتى يسألوه عنها ... وتارة يجتمعون فى مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال[٤] ؛ والإيجى أن الخصوم كانوا أحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه[٥] ، كما وصف حسين فؤاد طلبة الكفار بشدة الحرص على إبطال دعوته[٦] .

الرغبة فى تفريق جمع محمد

جعل عبد الجبار الرغبة فى ذلك أحد دواعى الكفار للمقاومة[٧] .

الرغبة فى عيب محمد .

صرح عبد الجبار بأن الرغبة فى القدح فى حال محمد كانت أحد الدواعى التى توفرت لدى الكفار[٨] .

إزالة المذلة والعار والوصمة

جعلها عبد الجبار من دواعى المقاومة[٩] .

- التبكيت

ذكره ابن حزم[١٠] : وجعل له السيد أحمد صقر قوارع[١١] .

---

(١) مفاتيح ٢ / ١١٥ . عبد الحميد ٢٣١ .
(٢) مفاتيح ٢ / ١٢٠ .
(٣) الطراز ٣ / ٣٧٠ .
(٤) التفسير ٢ / ١٥٣ .
(٥) المواقف ١ / ٣٤٩ .
(٦) القرآن ٨٧ .
(٧) المغنى ١٦ / ٣٣٧ .
(٨) المغنى ١٦ / ٢٢٠ ، ٢٤١ .
(٩) المغنى ١٦ / ٢٧٢ . سلطان ٩٠ .
(١٠) الفصل ٣ / ٢٥ وانظر الزمخشرى ١ / ٢٣٩ . أبو حيان ١ / ١٠٤ . الآلوسى ١١ / ١١٨ .
(١١) مقدمة إعجاز ٦ .

المحاجّة

جعلها الطوسى أحد دواعى المعارضة[١] . كذلك وصف محمد أبو زهرة قريشا بشدة الملاحاة لمحمد[٢] .

التوبيخ

عده الطوسى من دواعى المعارضة[٣] . وذكر عياض أن اللّه وبخهم غاية التوبيخ[٤].

الغيظ

ذكر عبد القاهر الجرجانى أن الغيظ من مقالة محمد بلغ حدا تركوا معه أحلامهم[٥]. ووصف عبد الكريم الخطيب صدور الكفار بأنها كانت مستعرة حنقا، وممتلئة غيظا ... موغرة والنفوس ضائقة ، والنار مؤججة[٦] .

الإخراج من الديار

جعل عبد القاهر من دواعى مقاومة الكفار : تدبير محمد فى إخراجهم من ديارهم[٧] . وعبر عياض عن ذلك باستباحة الأرض والديار[٨] .

تأليب الناس على العرب

ذكره عبد القاهر الجرجانى[٩] .

التهكم

أضافه الزمخشرى إلى دواعى المعارضة[١٠] . ولا يبعد عنه ما سماه عبد الكريم الخطيب مرة بالاستهزاء والسخرية مجردين[١١] ، ومرة بالسخرية من الآلهة[١٢] ، وثالثة الاستهزاء بقريش ، والتسخيف الجماعى والفردى لها[١٣] ؛ وقول الصابونى

---

(١) التبيان ٥ / ٤٥٧ . (٢) المعجزة ٧٠ .

(٣) التبيان ١ / ١٠٤ . وانظر ابن النقيب ٥١٣ . الحمصى ١٨٩ .

(٤) الشفا ١ / ٥٠٥ . الخطيب ١ / ٤٨٧ . (٥) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ٢٦٦ .

(٦) إعجاز ٢ / ١٥ . (٧) الشافية ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ ، ١٣٥ .

(٨) الشفا ١ ، ٥٠٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .

(٩) الشافية ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . سلطان ١٣٢ . (١٠) الكشاف ١ / ٢٤٥، ٢٤٧ . وانظر أبو حيان ١ / ١٠٦ . رضا ١ / ١٦٣ . دراز ٨٤ . الرومى ٩٤ .

(١١) إعجاز الخطيب ٢ / ١٤ . (١٢) إعجاز الخطيب ٢ / ١٤ .

(١٣) إعجاز الخطيب ٢ / ٢١ .

بأن محمدا جعلهم أضحوكة بين الناس ، إلى جانب قوله إنه واجههم بالتهكم الشديد اللاذع بعقولهم وآلهتهم وأصنامهم[١] ؛ وقول د. رشدى عليان السخرية من عقول العرب[٢] .

التساهل

ذكر الزمخشرى أن اللّه لجأ إلى المساهلة وإرخاء العنان ليتيح للكافرين تلبية التحدى بالمعارضة[٣] .

وكان أبو حيان على حق فى قوله بأن التحدى طلب منهم الإتيان بمطلق سورة . فلم يقترح عليهم الإتيان بسورة طويلة ، فيتعنتوا فى ذلك . بل سهّل عليهم وأراح بطلب الإتيان بسورة ما . وهذا هو غاية التبكيت والتخجيل لهم[٤] .

ويمكن أن نعد من باب التساهل ما ذكره الصابونى من أن القرآن دعاهم أن يستعينوا بمن شاءوا ، ويكملوا ما ينقصهم بأهل الأديان ، ويستحضروا عدتهم بالاتصال بالسحرة والكهان ، وبمن شاءوا من طرائف الإنس والجان[٥] .

الإثارة

ذكر ابن عطية أن القرآن لجأ إلى إثارة همم الكفار ، وتحريك نفوسهم ليعارضوا القرآن ، ليكون عجزهم - بعد ذلك - أبدع[٦] . وذكر محمد رشيد رضا أن الآيات كانت تثير حميتهم[٧] ونخوتهم ، وتهيج غيرتهم ، وتغريهم بتكلف المعارضة[٨] :

ووصف د. محمد عبد اللّه دراز سورة البقرة بأنها إلهاب وأى إلهاب للعرب للمعارضة[٩] .

ورأى عبد الكريم الخطيب أن القرآن ذهب فى التحدى إلى أبعد مما يمكن أن يتصوره العقل - فى هذا الموقف — من صور الإثارة الصارخة التى تهيج النفوس الساكنة ، وتوغر الصدور السليمة[١٠] .

---

(١) التبيان ٩٣ . (٢) علوم ١٢٢ . (٣) الكشاف ١ / ٢٤٥ .
(٤) البحر ١ / ١٠٤ . (٥) التبيان ٩٤ . (٦) المحرر ١/٢٠٤ . أبو حيان ١/١٠٦ .
وأتى به دون نسبة : القرطبى ١ / ٢٣٤ . الرومى ٩٤ . ونسبة إلى القرطبى : الصابونى ٩٣ .
(٧) المنار ١ / ١٦٢ . وانظر أبو زهرة ٧٠ .
(٨) المنار ١/١٦٢ - ٣ . وانظر الصابونى ٩٣ .
(٩) النبأ ٨٥ . (١٠) إعجاز ٢ / ١٥ .

بل لم يقف عند الإثارة الجماعية بقريش ، تلك الإثارة التى ربما توزعت مَعرَّتها بين أفراد الجماعة ، فخفّ أثرها ، حين ينظر بعضهم إلى بعض ، فإذا هم — فى هذا البلاء - على سواء . بل عمد إلى الإثارة الفردية ، فتخير النفر الذين تراهم قريش سادتها ووجوهها فجاء بهم على الملأ حفاة يمرغهم فى التراب ، ويلطخهم بالوحل والطين[1] .

ووصف عرجون آيتى سورة البقرة بأنهما أقوى ما جاء فى التحدى ، لما فيهما من القطع بعجز المتحدين مع التقريع والتهديد بالوعيد المرعب ، البالغ حدا لا يبقى معه شيء من ساكن العداوة إلا تحرك ، ولا عامل من عوامل المعارضة — لو كانت ممكنة — إلا هاج وأرعد ، ولابقية من نخوة الانتصار للنفس والمعتقد إلا ثارت وغبَّرت[2] .

وذهب د. البوطى إلى أن القرآن أنهضهم إلى المعارضة بالتقريع والتحميس ومختلف أشكال التحدى[3] .

ووصف داود العطار التحدى بالمثير المهيج[4] . وأبان الذهبى أن القرآن أثار اهتمامهم بالمعارضة ، وبعث فيهم الرغبة الملحة فى قبول التحدى والعمل على حطمه[5] . وأعلن د. فهد بن عبد الرحمن الرومى أن القرآن ألهب صدور خصومه واستفزهم للمعارضة[6] .

حط الأعلام

جعل عياض من دواعى المقاومة : حط أعلام العرب[7] ، وفسر العلوى ذلك بحط الرئاسة[8] .

تشتيت النظام

عد عياض ذاك أحد دواعى المقاومة[9] .

ذم الكفار

جعل عياض ذاك من دواعى المقاومة[10] .

---

(١) إعجاز ٢ / ٢١ . (٢) القرآن ١٤٥ - ٦ . (٣) من روائع ١٥٣ .
(٤) موجز ٥٩ . (٥) الوحى ٦٧ . (٦) خصائص ٩٤ .
(٧) الشفا ١ / ٥٠٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ . (٨) الطراز ٣ / ٣٧٠ .
(٩) الشفا ١ / ٥٠٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .
(١٠) الشفا ١ / ٥٠٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ .

المجىء بقاصمة الظهر

ذكر ابن النقيب من الأمور التى كان من شأنها أن تحثهم على المعارضة مجىء القرآن بقاصمة الظهر وفادحة القهر[١] .

المطالبة بعداوة الأصدقاء وصداقة الأعداء

جعل العلوى ذاك من دواعى المقاومة[٢] .

الرغبة فى الحط من قدر محمد

جعل العلوى من الدواعى التى توفرت لدى العرب الرغبة فى إبطال أبهة محمد - صاحب الدعوة الجديدة - وإبطال رونقه ، وإزالة بهائه[٣] .

- اتّباع النهج العربى

روى الزركشى أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ / ١١٨١ - ١٢٦٢) أورد سؤالا فى كتاب « المجاز » : فإن قلت : فلم لم يأتِ القرآن جميعه بالأفصح والأملح ؟ وقال : فيه إشكال يسَّر الله حلّه . ولكنه لم يروه .

ثم روى : قال القاضى صدر الدين موهوب بن موهوب الجزرى (٥٩٠ - ٦٦٥/ ١١٩٤ - ١٢٦٧) وقد وقع لى حلُّ هذا الإشكال بتوفيق الله تعالى ، فأقول: البارئ - جلت قدرته - له أساليب مختلفة على مجارى تصريف أقداره . فإنه كان قادرا على إلجاء المشركين إلى الإقرار بنبوة محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾[٤] . ولكنه - سبحانه - أرسل رسوله على أساليب الأسباب والمسببات ، وجارى العوائد الواقعة من أهل الزمان . ولذلك تكون حروب الأنبياء سجالا بينهم وبين الكفار . ويبتدئ أمر الأنبياء بأسباب خفيفة ، ولا تزال تنمى وتشتد . كل ذلك يدل على أن أساليبهم فى الإرسال على ما هو المألوف والمعتاد من أحوال غيرهم .

إذا عُرف ذلك كان مجىء القرآن بغير الأفصح والأملح جميعه ، لأنه تحداهم بمعارضته على المعتاد . فلو وقع على غير المعتاد ، لكان ذلك نمطا غير النمط الذى أراده الله فى الإعجاز .

---

(١) مقدمة ٥١٢ - ٣ .
(٢) الطراز ٣ / ٣٧٠ .
(٣) الطراز ٣ / ٣٧١ .
(٤) سورة الشعراء ٤ .

ولما كان الأمر على ما وصفنا جاء القرآن على نهج إنشائهم الخطب والأشعار وغيرها ، ليحصل لهم التمكن من المعارضة ثم يعجزوا عنها . فيظهر الفَلَج بالحجة ، لأنهم لو لم يتمكنوا لكان لهم أن يقولوا : قد أتيت بما لا قدرة لنا عليه . فكما لا يصح من أعمى معارضة المبصر فى النظر . لا يحسن من البصير أن يقول : غلبتك - أيها الأعمى - بنظرى فإن للأعمى أن يقول : إنما تتم لك الغلبة لو كنتُ قادرا ، وكان نظرُك أقوى من نظرى ، فأما إذ أفقدُ أصل النظر فكيف تصح المعارضة(١) .

ويجب أن أنبه إلى أن أكثر علماء المسلمين يرفضون رأى صدر الدين ، ويرون أن القرآن كله طبقة واحدة ، وهى أعلى طبقات الفصاحة .

إبطال قول محمد

وصف ابن تيمية الكفار بأنهم كانوا من أحرص الناس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن(٢) .

إطفاء نور الإسلام

وصفهم السيوطى بأنهم كانوا أحرص الناس على إطفاء نوره ، وإخفاء أمره(٣) .

إخفاء أمر الإسلام

وصفهم السيوطى بالحرص على ذاك(٤) .

تنجيم القرآن

قال مصطفى صادق الرافعى : لولا نزوله متفرقا - آية واحدة إلى آيات قليلة - ما أفحمهم الدليل فى تحديهم بأقصر سورة منه . إذ لو أنزل جملة واحدة - كما سألوا - لكان لهم فى ذلك وجه من العذر يُلبس الحق بالباطل ، وينفّس عليهم أمر الإعجاز ، ويهوِّن فى أنفسهم من الجملة بعض ما لا يهون من التفصيل ، لأنهم قوم لا يقرؤون ولا يتدارسون . ولكن الآية أو الآيات القصيرة تنزل فى زمن يعرفون مقداره بما ينزل فى عقبها ، ثم هم يعجزون عن مثلها فى مثل هذا الزمن بعينه ، وفيما يُربى عليه ويُضعف ، وعلى انفساح المدة وتراخى الأيام - بعد ذلك إلى نفَس

---

(١) البرهان ٢ / ١٢٢ - ٣ . (٢) التفسير ٢ / ١٥٣ . خلف ١٦٠ .
(٣) معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . أبو فرحة ١١٠ .
(٤) معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ .

من الدهر طويل ، أمرٌ هو يشبه ـ في مذهب الإعجاز ـ أن يكون دليل التاريخ عليه ، وأنه ليس فى طبعهم البتة ، لا قوةً ولا حيلة[١] .

وذكر الصابونى أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بذلك ، بل نزل مفرقا ، فى ثلاث وعشرين سنة ، بين كل مجموعة وأخرى زمن متسع للمعارضة ، وللإتيان بمثله ، لو كان فى مقدورهم ذلك[٢] .

البدء بالسور القصير :

قال الرافعى : أكثر ما أنزل .. فى امتداد الوحى ، واستمر ـ بعد ذلك ـ من لدن كان رسول اللّه يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى إلى أن هاجر من مكة ـ إنما هو من قصار السور ، على نسق يترقى إلى الطول فى بعض جهاته . وذلك ـ ولا ريب ـ مما تتهيأ فيه المعارضة بادئ الرأى ـ إذا كانت ممكنة ـ لأنه مفصّل آيات ، ثم لقرب غايته ممن ينشط إلى معارضته والأخذ فى طريقته ، دون ما يكون ممتد النسق بعيد الغاية ، فتصدِف النفس عن جملته الطويلة ، ويُخْلف نشاطها فيه ، لأن للقوة النفسية حدا ، إذا حُملت على ما وراءه كان من طبعها أن تنتهى إلى ما دونه . وهذا أمر يعرفه من يرى شاعرا يعدّ أبيات القصيدة الرائعة قبل أن يقرأها ، أو كاتبا ينظر فى أعقاب الرسالة الجيدة ، ولما يأخذ فى أوائلها . وهلمّ مما يجرى هذا المجرى[٣] .

الاستفزاز

ذكره الرافعى[٤] .

التحقير

عد الرافعى من دواعى المقاومة : تصغير شأن الكفار وتحقيرهم[٥] .

الانتصار لأعز شيء

جعله الزرقانى أحد دواعى المقاومة[٦] . وصرح دراز بأن محمدا أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم[٧] . وذهب د. فهد الرومى إلى أن القرآن أصاب منهم موضع العزة والشرف[٨] .

---

(١) إعجاز ١٣ .　(٢) التبيان ٩٥ . وانظر عليان ١٢٣ .　(٣) إعجاز ١٤ .
(٤) إعجاز ١٧٣ . وانظر دراز ٨٥ . أمين ١٤٧ . الذهبى ٦٧ . الرومى ٩٤ .
(٥) إعجاز ١٩٨ .　(٦) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ .
(٧) النبأ ٨٥ .　(٨) خصائص ٩٤ .

الحرص على تبهيت محمد والغلبة عليه

جعل الزرقانى من دواعى المقاومة أن الكفار كانوا أحرص ما يكونون على تعجيز محمد وتبهيته ، والغلبة عليه والظفر به[١] .

الدفاع عن الكرامة

جعله الزرقانى من دواعى المقاومة[٢] . ولا يبعد عنه ما سماه عرجون الانتصار للنفس[٣] .

التعيير

عده السيد أحمد صقر من الدواعى ، وجعل له مقارع تصدم رؤوس الكفار[٤] .

التعالى

جعل عبد الكريم الخطيب من دواعى المقاومة : ما جاء به القرآن ، ودخل به فى مجال المعركة ، من تعالٍ وتشامخ وتسامٍ[٥] .

التعجيز الفاضح

ذكر محمد على الصابونى أن من شأن اقتران التحدى بالتعجيز الفاضح ، فى الحاضر والمستقبل ، كما فعل القرآن ، أن يثير الحمية ويغرى بالمعارضة[٦] .

الإحساس بأثر القرآن

أضافه منير سلطان إلى دواعى المعارضة[٧] .

الخوف من استجابة قومهم

أضافه منير سلطان أيضا[٨] .

العناء

جعل مصطفى الدباغ استفحال عناد العرب أحد عوامل المعارضة[٩] .

---

(١) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ .
(٢) مناهل ١ / ٦٧ . الصابونى ٩٥ .
(٣) القرآن ١٤٦ .
(٤) مقدمة الباقلانى ٦ .
(٥) إعجاز ٢ / ١٥ .
(٦) التبيان ٩٣ .
(٧) إعجاز ٤٦ .
(٨) إعجاز ٤٦ .
(٩) وجوه ٧ .

تعقيب

ما زال الجاحظ أقدم الباحثين عن دواعى المقاومة بعامة ومعارضة القرآن بخاصة ، وأكثرهم دورانا فيما جاء بعده من كتب ، ومن أوفرهم عدد عناصر .

ويبرز فى هذا المجال الباقلانى ، وينافس عبد الجبار فى عدد ما ذكر كل منهما . ولكن الباقلانى يجد من يتبعه ، ويعدم عبد الجبار ذاك .

وتبرز دواع كثر الحديث عنها كثرة واضحة ، مثل التقريع والإثارة واعتياد المفاخرة . وسبب الكثرة فى الداعى الأخير ارتباطه المباشر بالمعجزة . وعلى الرغم من هذا الرواج ، فإنه لا يضارع بعض الدواعى الأخرى التى اضطررت — بعد الإشارة إليها - إلى الإقلاع عن تتبعها ، لأنها موجودة عند كل من كتب عن الإعجاز يقينا . ويأتى على رأس هذه الدواعى نزول القرآن باللغة العربية وعلى نهج فصحاء العرب فى التعبير عن أنفسهم .

ويلفت النظر فى دواعى المقاومة أن كثيرا من المؤلفين عنوا بالأمور الجزئية ، التى يمكن إدراجها تحت دواع عامة ، دون أن تفقد شيئا من دلالتها .

ألوان المقاومة

أرصد فى هذا الفصل ألوان المقاومة التى واجه بها العرب الدعوة الإسلامية ، لا لأبين هذه المقاومة أو شدتها ، وإنما لأن هذه المقاومة كانت ـ أو صارت ـ من الدواعى التى تدفع العرب إلى معارضة القرآن .

العداء

ذكر الجاحظ فيما واجه به الكفار دعوة محمد أنهم بادَوْه بالعداوة[١] . والباقلانى أنهم عدلوا عن المعارضة إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التى ليس عليها مزيد فى المنابذة والمعاداة[٢] ، وعبد الجبار أنهم بذلوا مجهودهم فى المعاداة[٣] ، وعبد الحسيب طه حميدة بأنهم قنعوا بالعداوة[٤] ، ود. محمد حسين الذهبى أنهم وقفوا من محمد موقف المعادى الشرس[٥] ، وعبد الكريم عبد الله نيازى أن قريشا ناصبته العداء[٦] .

ادعاء القدرة على المعارضة

قال الجاحظ : ادعوا القدرة ، بعد المعرفة بعجزهم عنه ، وهو قوله عز ذكره : ﴿وإذا تُتْلى عليهم آياتنا قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾[٧] .

الحيلولة دون سماع القرآن

روى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (٥٨ ــ ١٢٤/ ٦٧٨ ــ ٧٤٢) أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق الثقفى خرجوا ليلة ليستمعوا من محمد وهو يصلى من الليل فى بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر

---

(١) حجج ٣ / ٢٧٤ . وجعله الصاوى الجوينى ١٩٧ وسلطان ٦١ : بادروه بالعداوة . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ . وانظر الدباغ ٧ . نيازى ١٠٥ .

(٢) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٨ ، ٣٣٧ .

(٤) مع القرآن ٣٤ .

(٥) الوحى ٢٢ .

(٦) القرآن ١٠٥ .

(٧) سورة الأنفال ٣١ . حجج ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ ، ٤٥٧ . وانظر الباقلانى ١٩ ، ٢١ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٧ .

تفرقوا . فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا . وتكرر منهم ذاك ثلاث ليال. وفى الليلة الأخيرة قال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا[١] .

ولم يكتفوا بذلك بل يدل خبر النضر بن الحارث وإسلام الطفيل بن عمرو الدوسى أنهم - هم وغيرهم من القرشيين - بذلوا كل جهد لمنع الناس - والغرباء عن مكة بخاصة - من الاستماع إلى محمد[٢] .

وقال الرومى إنهم بذلوا وسعهم لمنع وصول القرآن إلى آذانهم وآذان الآخرين أيضا[٣] .

الطعن على القرآن

خشى الجاحظ أن يظن ظانّ - بعد أن يقرأ كلامه - أن العرب أسرعوا إلى قبول القرآن دون أية مقاومة . فأعلن : لم يُقَل : إن القوم قد تركوا مساءلته فى القرآن ، والطعن فيه ، بعد أن كثرت خصومتهم فى غيره .

ويدلك على ذلك قوله عز وجل : ﴿ وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾[٤] . وقوله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدِّله ﴾[٥] . وقوله : ﴿ وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ﴾[٦] .

وخص الجاحظ الزنادقة بفقرة خاصة ، فذكر أنهم كانوا يصنعون الآثار ، ويولدون الأخبار ، ويبثونها فى الأمصار ويطعنون فى القرآن ، ويسألون عن متشابهه ، وعن خاصه وعامه ، ويضعون الكتب على أهله[٧] .

مجادلة الكفار محمدا

ذكر الجاحظ أن الكفار حاجّوه فى المواقف[٨] ، والباقلانى مرة أنهم أكثروا المراء

---

(١) ابن هشام ١ / ٣٣٧ . صبيح ٤٠ . (٢) ابن هشام ٢ / ٢١ ــ ٣ . مطلوب : اتجاهات ١١٩ - ٢٠ . ومناهج ٤٠ - ١ . وانظر صبيح ٣٧ . عائشة ٥٢ - ٣ . شحاتة ١٣٢ ، ١٣٧ - ٩ .
(٣) خصائص ٩٨ . (٤) سورة الفرقان ٣٢ . (٥) سورة يونس ١٥ .
(٦) سورة الفرقان ٤ . رسائل ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . نيازى ١٢٨ .
(٧) رسائل ٣ / ٢٧٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٧ . وانظر أبو على ٤٣ . (٨) رسائل ٣/٢٧٤ . الصاوى ١٩٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . لاشين ٤٣٠. سلطان ٦١ .

والجدل[١] ، ومرة أنهم أطالوا المناقشة والمجاذبة[٢] . واكتفى ثالثة بالمنازعة[٣] .

مخاصمة الكفار محمدا .

ذكر الجاحظ أن الكفار خاصموه فى المواسم[٤] .

هجاء الكفار محمدا

قال الجاحظ : هجوه من كل جانب[٥] ، ووصف من هجوه منهم بالكثرة[٦] .

معارضة الكفار شعراء أصحاب محمد وخطباء أمته

ذكر ذلك الجاحظ[٧] .

الحرب

ذكر ذلك الجاحظ فى عبارات متعددة . فقال ذات مرة : ناصبوه الحرب ، فقتل منهم ، وقتلوا منه[٨] . وقال فى مرة ثانية : نصب لهم الحرب ونصبوا له[٩] . واكتفى فى ثالثة بالتعبير بالقتال[١٠] . وكنى عن ذلك بعبارات أخرى تأتى مستقلة .

---

(١) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . لاشين ٤٥٦ .
(٢) إعجاز ٢٤٩ . (٣) إعجاز ٤٣ . وانظر أبو زهرة ٧٢ . (٤) رسائل ٣ / ٢٧٤ . الصاوى ٦١ ، ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ . حويش ٢٥٧ . لاشين ٤٣٠ . سلطان ٦١ .
(٥) رسائل ٣ / ٢٧٤ . الصاوى ٦١ ، ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ، ١٣٩ . أمين ١٤٨ . حويش ٢٥٧ . لاشين ٤٣٠ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٧٧ . سلطان ٩٠ .
(٦) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الصاوى ١٩٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩. أمين ١٤٨ . حويش ٢٥٧ . الصباغ ٥٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر عائشة ٧٠ .
(٧) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . الصاوى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨. أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . ولكن العبارة تحرفت عند الخطيب مرة واحدة (١/ ١٣٤) إلى : وهاجى أصحابُه شعراؤهم ، ونازعوا خطباؤهم . وتبعه فى ذلك حويش ٣٣٠ .
(٨) حجج ٣ / ٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٤ ــ ٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . خلف ١٤٢ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ ، ١٤٢ . وانظر الخطابى ١٩ ، ٣١ . الباقلانى ٢٢ ، ٤٣ ، ٢٤٩ . الماوردى ٧١ . الطوسى ٥ / ٤٥٦ . أبو حيان ٦ / ٧٨ . معترك ١ / ٢ . فقيهى ١٥٥ . دراز ٨٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٣ ، ١٥٩ ، ١٧٨ . حميدة ٣٤ . الصابونى ٩٤ . حويش ٢٧٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ . أبو موسى ٣٠ . الرومى ٩٨ . نيازى ١٠٥ . (٩) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ ، ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١١ . أبو موسى ٣٦٤ . وانظر الخطابى ١٩. الزمخشرى ١ / ١٠ - ١١ . القرطبى ١ / ٧٧ . معترك ١/ ٢ . صقر ٦ . الرومى ٩٨ . (١٠) حجج ٢٧٦/٣ . إعجاز الخطيب ١٣٦/١ ، ١٥٥/٢ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ . وانظر الباقلانى ٢٠، ٤٣ . الماوردى ٧١ . عبد الجبار ٤٦٦ . معترك ١/١ . ابن عطية ٦١/١، ١٩١. الغزالى ١٥٤ . القطان ٢٦٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ ، ٤٦٦ - ٧ .

وأطلق عليها الخطابى : منابذة الكفار محمدا الحرب[١] ، التى أدت إلى هلاك النفوس وإراقة المهج[٢] ؛ وعبد الجبار : العدول إلى الحرب[٣] ؛ وبذل المجهود فى المحاربة[٤] ؛ والماوردى : سفك الدماء فى المحاربة[٥] ؛ والطوسى : الصيرورة إلى الحرب وقتل الآباء والأبناء[٦] ؛ والجرجانى : مطاولتهم الحرب ، التى قتل فيها أولادهم وأعزتهم ، ونُهكت عشيرتهم[٧] ؛ ورشيد رضا : سوق الخميس [الجيش] بعد الخميس من صناديدهم إلى يثرب لقتال محمد ومن آمن به[٨] ؛ وفقيهى : الإقبال على المحاربة[٩] ؛ والخطيب : المقابلة فى ساحة القتال[١٠] : وحميدة : الإقبال على الحروب تغاديهم وتراوحهم ، فتقتل صناديدهم وزعماءهم ، وتعركهم عرك الرحا بثفالها[١١] .

وصرح محمد على الصابونى بأنهم ذاقوا ويلات الحرب ، وخاضوا غمارها ، حتى شربوا كؤوس الأسى ، وتجرعوا الموت الزؤام[١٢] .

وأعلنت د. عائشة عبد الرحمن أن العرب صَلُوا نار الحرب سنين عددا ، أكلت فلذات أكبادهم ، وحصدت رؤوس صناديدهم[١٣] ؛

واعتمد د. حسن ضياء الدين عتر على قول الخطابى : تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل[١٤] ، وفسره فقال : عدلوا عن السهل الدمث من القول إلى ركوب متن كل صعب وذلول ، وتكلف الوعر المضنى من الفعل ، بخوض غمار الحروب[١٥] .

---

(١) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥. إعجاز الخطيب ١/١٥٩. عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠. وانظر الباقلانى ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ .

(٢) بيان ١٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . حويش ٢٧٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . أبو موسى ٣٠ . وانظر الماوردى ٧١ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٩٠ . عائشة ٥٣ . وانظر فقيهى ١٩ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٦٨ . وانظر الماوردى ٧١ . القرطبى ١ / ٧٧ . العلوى ٣ / ٣٧٧ . الحمصى ١٣١ . فقيهى ١٩ .

(٥) أعلام ٧١ .وانظر أساس البلاغة حـ . ابن عطية ١ / ٦١ . رضا ١ / ١٦٣ . أبو موسى ١٨١ .

(٦) التبيان ٥ / ٤٥٦ . وانظر الجرجانى ٥٨٠ .

(٧) الشافية ٥٨٠ . وانظر سلطان ١٣٥ .

(٨) المنار ١ / ١٦٣ .

(٩) نظرية ١٦٢ .

(١٠) إعجاز ٢ / ١٥٥ .

(١١) مع القرآن ٣٤ .

(١٢) التبيان ٩٤ .

(١٣) الإعجاز ٧٠ .

(١٤) بيان ١٩ . أبو موسى ٣٠ .

(١٥) بينات ١٧٣ .

وذكر داود العطار أنهم خاضوا الحروب[١] ، التى وصفها د. رشدى عليان وزميله بالضارية[٢] . وأعلن مصطفى الدباغ أنهم حاربوا الرسول بكل الوسائل ، من منابذة وعداء وحرب[٣] .

بذل الكثير

اكتفى الجاحظ مرة بالإبهام فاقتصر على أن الكفار أطبقوا على بذل الكثير ، وهو يبين ما تكبدوه فى مقاومتهم للإسلام[٤] .

بذل النفوس

وذكر الجاحظ مرة أن الكفار بذلوا مُهَجهم[٥] فى سبيل إطفاء نور الإسلام ، وفى مرة أخرى ذكر أنهم بذلوا نفوسهم[٦] ، وهى بالمعنى نفسه . وأعلن الخطابى أن النفوس هلكت ، والمهج أريقت من أجل المقاومة[٧] .

استهلاك الأموال

جعل الجاحظ هذا العنصر أحد الألوان التى تجشمها المشركون من أجل مقاومة الإسلام . وعبر عنه مرتين ببذل المال[٨] ، ومرة باستهلاك الأموال[٩] ، وثالثة بإخراج الأموال[١٠] ، ورابعة بإنفاق الأموال[١١] .

---

(١) موجز ٥٥ ، ٥٩ . (٢) علوم ١٢٣ .

(٣) وجوه ٧ . (٤) حجج ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٣ .

(٥) حجج ٣/٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٨ . إعجاز الخطيب ١/١٣٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . حويش ٢٢٥ . وانظر عبد الجبار ١٦/٢٤١ ، ٢٦٨ . الرازى ٢/١٢٠ . أبو موسى ٢٨ .

(٦) حجج ٣ / ٢٧٧ . الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩. حويش ٢٥٧ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . خلف ١٤٢ . أبو فرحة ١١١ . وانظر الباقلانى ٢٤٨ ـ ٩ . عبد الجبار ١٦ / ٢٦٨ . الماوردى ٧١ . الطوسى ١ / ١٠٤ ، ٥ / ٤٥٦ . الرازى ٢ / ١١٥ ، ١٢٠ . معترك ١ / ٢ . رضا ١١ / ٣٠٣ . موسى لاشين ٢٤٥ . رازى عبد الحميد ٢٣١ . العطار ٥٩ . عليان ١٢٣ . (٧) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ .

(٨) حجج ٣ / ٢٧٤ ، ٢٧٧ . الصاوى ١٩٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٤١ ، ٢٦٨ . الطوسى ١ / ١٠٤ ، ٥ / ٤٥٦ . الرازى ٣ / ١١٥ . رضا ١١ / ٣٠٣ . حويش ٢٢٥ . رازى عبد الحميد ٢٣١ . العطار ٥٩ .

(٩) حجج ٣ / ٢٧٤ . الصاوى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . وانظر الماوردى ٧١ .

(١٠) حجج ٣ / ٢٧٦ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٢ .

(١١) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . موسى لاشين ٢٤٥ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر عليان ١٢٣ .

وذكره **الخطابى تحت** اسم ذهاب الأموال[١] ، والباقلانى تحت اسم الإخطار بالأموال[٢] . وعبد الجبار تحت اسم تعريض المال للتلف[٣] ، والجرجانى تحت اسم غُنْم الأموال[٤] ، والسيوطى تحت اسم استباحة الأموال[٥] .

وعبر د. عبد الله دراز عن ذلك بالفقر[٦] .

الخروج من الديار

جعل الجاحظ هذا العنصر أحد وجوه مقاومة الكفار . وعبر عنه بالخروج من الديار[٧] ، والخروج من الأوطان[٨] . وسماه الباقلانى : الجلاء عن الأوطان[٩] ، وعبد الجبار مفارقة الأوطان[١٠] . وجمع صقر فجعله الخروج من الأوطان والديار[١١] .

وعبر عنه د. منير سلطان بالتشريد[١٢] .

قطع الأرحام

ذكر الخطابى بين الأمور التى أدت إليها الحرب بين المسلمين والمشركين : قطع الأرحام[١٣] . ولكن الباقلانى أفرد ذلك بالذكر[١٤] . وسمى عبد الجبار هذا العنصر :

(١) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . حويش ٢٧٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣. أبو موسى ٣٠ .

(٢) إعجاز ٢١ ، ٢٤٩ . وانظر الرافعى ١٧٤ . صقر ٦ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٨ .

(٤) الشافية ٥٨٠ .

(٥) معترك ١ / ٢ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . وانظر أبو فرحة ١١٠ .

(٦) النبأ ٨٨ .

(٧) رسائل ٣ / ٢٧٤ . الصاوى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٥٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . نيازى ١٢٧ .

(٨) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . الصباغ ٥٤ . لاشين ٤٣١ ، ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ . أبو فرحة ١١١ . وانظر معترك ١ / ٢ . عليان ١٢٣ .

(٩) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . لاشين ٤٥٦ .

(١٠) المغنى ١٦ / ٢٤١ ، ٢٦٨ . وانظر الرازى ٢ / ١٢٠ .

(١١) مقدمة إعجاز ٦ .

(١٢) إعجاز ١٣٥ .

(١٣) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ . حويش ٢٨٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣. أبو موسى ٣٠ . وانظر الجرجانى ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ .

(١٤) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . أبو موسى ١٨١ .

(١٥) المغنى ١٦ / ٢٤١ ، ٢٦٨ . وانظر الرازى ٢ / ١٢٠ .

(١٦) أبو موسى ٢٨ .

(١٧) خصائص ٩٨ .

مفارقة العشيرة[١٥] ، ومحمود شاكر : قطع شواجر الأرحام[١٦] ، ود. فهد الرومى : مناوأة العشيرة[١٧] .

المطالبة بالمعجزات الحسية

ذكر الباقلانى بين الأمور التى واجه بها الكفار محمدا : أنهم طالبوه بالآيات ، والإتيان بالملائكة ، وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ، ليظهروا عليه بوجه من الوجوه[١] .

المجاهدة

ذكر الباقلانى أن المشركين جاهدوا محمدا[٢] . ولما كان هذا اللفظ له مدلوله الإسلامى الخاص ، فإننى أعتقد أنه محرف عن (جاهروا) ، وهى الكلمة الموجودة فى إحدى نسخ الإعجاز المخطوطة ، وفى المراجع الأخرى ، وعند بعض من اقتبس عبارة الباقلانى[٣] . ويريد بذلك جاهروه بالحرب .

الإقدام على الأخطار

ذكر الباقلانى أن المشركين أخطروا بنفوسهم فى مقاومتهم للإسلام[٤] ، وعبد الجبار مرة التعرض للخطر[٥] ، ومرة العدول إلى الأمور الشاقة التى تتضمن الخطر على النفس[٦] ، ومرة الإقدام على ما يتضمن الأخطار[٧] ؛ والجرجانى الإخطار بالمهج والنفوس[٨] . والتعرض لشبا الأسنة ، واقتحام موارد الموت[٩] ، والرازى بارتكاب ضروب المهالك والمحن[١٠] ، وعبد الكريم الخطيب تعريض النفوس للموت[١١] .

---

(١) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . وانظر الطوسى ٦ / ٥١٩ . أبو حيان ٦ / ٧٨ . رضا ٦ / ٦٢ . الحمصى ١١ - ٢ ، ١٩ - ٢٠ ، ٢٠٢ ، ٤١٠ . عرجون ١٣٧ ، ١٤٥ . البوطى ١٥٢ . الصباغ ٥١ . شحاتة ١٣٠ . عتر ٩١ . عطا ٢٣٤ . أبو سليمان ١٠٠ .

(٢) إعجاز ٢٢ . (٣) إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ .

(٤) إعجاز ٢١ - ٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧١ . الرافعى ١٧٤ . صقر ٦ . أبو موسى ١٨١ . (٥) المغنى ١٦ / ٢٦٨ . وانظر الخطيب ٢ / ١٥٥ .

(٦) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . خلف ١٣٩ - ٤٠ .

(٧) المغنى ١٦ / ٢٥٥ . (٨) الشافية ٥٨٠ .

(٩) دلائل ٣٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٣٣ . حويش ٢٨٦ . نيازى ١٥٨ .

(١٠) مفاتيح ٢ / ١١٥ . عبد الحميد ٢٣١ . وانظر دراز ٨٥ .

(١١) إعجاز ١ / ١٣٣ - ٤ ، ٢ / ١٥٥ . وانظر عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ .

نَصْب الأرواح

كذا ذكر الباقلانى فى ألوان المقاومة التى أبداها المشركون[١] . ويبدو أنه عنى إقامتها وتعريضها للأخطار .

استخدام السلاح

عبر الباقلانى عن القتال الذى نشب بين المشركين ومحمد بأن المشركين بذلوا له السيف[٢] ، والزمخشرى مرة بأن محمدا جرد لهم الحجة أولا والسيف آخرا ، فلم يعارضوا إلا السيف وحده[٣] ، ومرة بأنهم أعرضوا عن المعارضة بأسلات ألسنتهم ، وفزعوا إلى المقارعة بأسنة أَسَلهم ، وسفك دمائهم بأسيافهم[٤] ؛ وابن عطية بلجوء المحادّين منهم إلى السيف[٥] : والسكاكى بالإعراض عن المعارضة بالحروف إلى المقارعة بالسيوف ، وعن المقاولة باللسان إلى المقاتلة بالسنان[٦] ، والسيوطى بتحكيم السيف فى الأعناق[٧] ، وهبة الدين الحسنى بالاندفاع إلى مقابلته بالأسنة دون الألسنة ، وبالحراب دون الكتاب[٨] ، ونعيم الحمصى انصرفوا عن الحرب الكلامية إلى حرب السيف والرمح[٩] . ود. محمد عبد اللّه دراز بأنهم ما كان جواب التحدى عندهم إلا أن ركبوا متن الحتوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف[١٠] ، ومناع القطان بأنهم عرضوا رقابهم للسيوف[١١] ، والصابونى بأنهم اختاروا طعن الرماح ووقع النبال[١٢] ، ود. رشدى عليان بأنهم تقارعوا بالسيوف[١٣] .

وواضح - إلى جوار وحدة الفكرة العامة التى تكون إطارا لجميع الأقوال - تأثر السكاكى والحسينى ودزاز خطى الزمخشرى فى عبارته الثانية .

الإخطار بالذرارى

---

(١) إعجاز ٢٤٩ . (٢) إعجاز ٢١ . وانظر الرافعى ١٧٤ .
(٣) الكشاف ١ / ١١ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٣٦٦ ، ٢ / ١٥٥ .
(٤) أساس البلاغة جـ . رضا ١ / ١٦٣ .
(٥) المحرر ٩ / ١٩١ . وأورده أبو حيان ٦ / ٧٨ غير منسوب .
(٦) مفتاح ١٠٣ . وانظر الحمصى ٢٧ . فقيهى ١٩ . عليان ١٢٣ .
(٧) معترك ١ / ١ . الإتقان ١ / ٣٢٦ . وانظر أبو فرحة ١١٠ .
(٨) نظرات الغزالى ١٥٤ . (٩) فكرة ٢٧ . وانظر فقيهى ١٩ .
(١٠) النبأ ٨٥ . (١١) مباحث ٢٦٧ . وانظر قمحاوى ٢ / ١٧١ .
(١٢) التبيان ٩٤ . (١٣) علوم ١٢٣ .

ذكر ذلك الباقلانى[١] .

الرضا بالسبى

ذكر الباقلانى فى الأمور التى تكبدها الكفار ، وكانت المعارضة تغنيهم عنها : تسليم الأهل والذرية للسبى[٢] . واكتفى ابن عطية بذكر الرضا بالسباء دون أن يخص أهلا أو ذرية[٣] . وذكر القرطبى سبى الحريم والأولاد[٤] ، والسيوطى سبى الذرارى والحرم[٥] .

الوقيعة فى محمد

عدها عبد الجبار من ألوان المقاومة[٦] .

إرادة محمد وأتباعه بالشر

ذكر الجرجانى أن الكفار أرادوهم بأنواع الشر[٧] .

مواجهة محمد بالقبيح

ذكر عبد القاهر أنهم لاقوه بكل قبيح[٨] ، ود. فهد الرومى أنهم حاربوه بإلصاق الشبهات فيه ، وافتراء الكذب عليه[٩] .

لقاء محمد بالأذى

ذكر عبد القاهر أن الكفار لقوه بكل أذى ومكروه ، وأنهم أفرطوا فى أذاه[١٠] . وعبد الكريم الخطيب أنهم تعرضوا له بالأذى، وأخذوه بالبأساء والضراء[١١] .

الكيد لمحمد وأتباعه

ذكر الجرجانى أن الكفار كادوه وكلَّ من تبعه بضروب المكايدة[١٢] .

الوقوف لمحمد بالطرق

---

(١) إعجاز ٢٤٩ .

(٢) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١. عبد الفتاح لاشين ٤٥٦. وانظر الحمصى ١٨٩ - ٩٠ .

(٣) المحرر ١٩١/٩ . وأتى به غير منسوب : أبو حيان ٦ / ٧٨ . وانظر دراز ٨٨ . سلطان ١٣٥ .

(٤) جامع ١ / ٧٧ .

(٥) معترك ١ / ١ - ٢ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . أبو فرحة ١١٠ .

(٦) المغنى ١٦ / ٢٧٧ . سلطان ٩٠ . وانظر العطار ٥٥ .

(٧) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

(٨) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

(٩) خصائص ٩٨ .

(١٠) الشافية ٥٧٩، ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ - ٧ .

(١١) إعجاز ٢ / ١٤ .

(١٢) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

ذكر الجرجانى أنهم وقفوا له بكل طريق(١) .

السفه على محمد

أعلن الجرجانى أن الكفار جعلوا أول جوابهم لمحمد ومعارضتهم إياه : التسرع إليه ، والسفه عليه(٢) ، وعبد الحسيب طه حميدة أنهم ــ عندما لم يجدوا السبيل إلى التحليق مع القرآن ـ قنعوا بالسفه(٣) .

كشف الحُرَم

ذكر ابن عطية أن الكفار ـ فى معارضتهم لمحمد ـ رضوا بكشف الحرم(٤) .

التكذيب

ذكر عياض أن الكفار خادعوا أنفسهم بالتشغيب بالكذب ، والإغراء بالاقتراب، والمباهتة والرضا بالدنيئة(٥) .

العناد

ذكر القرطبى أن المشركين عدلوا إلى العناد لما أفحموا عن جواب محمد(٦) . ووصفهم الشوكانى بالتشبث بأذيال العناد البارد(٧) ؛ وحميدة بالعدول إلى المهاترة والعناد(٨) ؛ ود. نيازى بأن قريشا أحاطت بقلوب أبنائها أغلفة غلاظ حتى لا ينفذ إليها تأثير القرآن وسحره وروعته وبلاغته(٩) .

الاستهزاء

ذكر الزركشى أن الكفار عدلوا إليه لما عجزوا عن المعارضة(١٠) .

المكابرة

ذكر الشوكانى أن الكفار لجؤوا إلى المكابرة المجردة عن الحجة عندما عجزوا عن المعارضة(١١) .

تخريب البيوت

---

(١) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ . (٢) الشافية ٥٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ .
(٣) مع القرآن ٣٤ . (٤) المحرر ٩ / ١٩١ . وأتى به غير منسوب : أبو حيان ٦ / ٧٨ .
(٥) إعجاز الخطيب ١ / ٢٨٧ ـ ٨ . (٦) الجامع ١ / ٧٧ . وانظر الزركشى ٢ / ٩١ . معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . البوطى ١٥٣ . طلبة ٦٧ . أبو فرحة ١١٠ . الدباغ ٧ .
(٧) فتح ٢ / ٤٦٢ . (٨) مع القرآن ٣٤ . (٩) القرآن ١٠٥ .
(١٠) البرهان ٢ / ٩١ . وانظر معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . أبو فرحة ١١٠ .
(١١) فتح ٢ / ٤٦٢ . وانظر طلبة ٦٧ ، ٨٧ .

ذكر محمد رشيد رضا أن الكفار - فى مقاومتهم للإسلام - خربوا بيوتهم بأيديهم[١] .

الفقر والذل

ذكر د. محمد عبد الله دراز ذلك فيما عاناه الكفار لأنهم رأوه أهون عليهم من المعارضة[٢] .

العنت

ذكر أبو الخشب أن القرآن سجل صنوف العنت التى قابلوا محمدا بها ، والظنون التى ظنوها فيه ، والتهم التى كالوها له[٣] ؛ ومنير سلطان أن محمدا تلقى ألوانا من العنت ، وصنوفا من العذاب ، إذ راح الكفار يهاجمونه بضراوة ، ويهاجمون مبعثه ورسالته وبرهان نبوته ودليلها[٤] .

حمل محمد على ترك الدعوة

ذكر عبد الكريم الخطيب أن قريشا حاولت أن تحمل محمدا على ترك دعوته بكل وسيلة[٥] .

إغراء محمد

ذكر عبد الكريم الخطيب أن قريشا عرضت على محمد المال الكثير من مالها ، ونزلت له عن سلطانها ليكون هو صاحب السلطان ، ليترك الدعوة[٦] . وذكر د. فهد الرومى أن الكفار ساوموه بالمال والملك والجاه فأبى[٧] . ووضح د. عبد الكريم نيازى ما أجمله الرومى بالخبر الذى رواه فى قوله : انتدبت قريش عتبة بن ربيعة لكى يذهب إلى محمد ، يفاوضه فى ترك هذه الدعوة على أن يجمعوا له الأموال حتى يصير أغنى قريش ، أو يجعلوا له الرياسات التى يصبح بها أرفعهم مقاما ، وأعزهم ملكا ، أو يتلمسوا له الطب حتى يبرأ من هذا الذى يأتيه[٨] .

المهاترة

ذكر عبد الحسيب طه حميدة أن الكفار لما عجزوا عن المعارضة عدلوا إلى المهاترة وقنعوا بالسفه[٩] .

---

(١) المنار ١ / ١٦٣ .
(٢) النبأ ٨٨ . وانظر الخمصى ١٨٩ ، ١٩٠ .
(٣) القرآن ١١٠ - ١ .
(٤) إعجاز ٤٥ - ٦ .
(٥) إعجاز ١ / ٣٦٦ .
(٦) إعجاز ١ / ٣٦٦ .
(٧) خصائص ٩٧ - ٨ .
(٨) القرآن ١٠٦ .
(٩) مع القرآن ٣٤ .

منع الدعوة من النجاح

وصف البوطى الكفار بأنهم كانوا فى بحث دائب للوقوف على وسيلة لمنع دعوة محمد من السير فى طريق النجاح[١] .

وقال د. فهد بن عبد الرحمن الرومى : لم يدع خصوم محمد سبيلا للقضاء على دعوته إلا سلكوه ، ولم يتركوا وسيلة لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا عملوا بها[٢] .

إفساد أمر محمد

وصف البوطى الكفار بأنهم كانوا فى بحث دائب للوقوف على وسيلة مالإفساد أمر محمد[٣] .

اضطهاد المسلمين

ذكرت د. عائشة عبد الرحمن أن العرب تورطوا فى حملة الاضطهاد السفيهة الشرسة التى أرهقوا بها من أسلم منهم[٤] . وقال داود العطار إنهم لجؤوا إلى وسائل العنف والوقيعة بمحمد ، وتعذيب المسلمين[٥] .

حشد القوى

ذكر داود العطار أن العرب استنفروا المشركين ، وحشدوا قواهم من أجل مقاومة الإسلام[٦] . ووصفهم د. محمد محمد موسى بأنهم احتشدوا لمواجهة هذا الأمر بكل ما لديهم[٧] .

النفور

ذكر داود العطار ما استطاعوا - مع التحدى المثير - إلا النفور[٨] .

المقاطعة

ذكر د. فهد الرومى أن قريشا تواصت بمقاطعة محمد وعشيرته ، وحبس الزاد عنهم ، حتى يموتوا جوعا ، أو يسلموه إليهم[٩] .

---

(١) من روائع ١٥٤ .
(٢) خصائص ٩٧ - ٨ .
(٣) من روائع ١٥٤ .
(٤) الإعجاز ٥٣ ، ٧٠ .
(٥) موجز ٥٥ .
(٦) موجز ٥٥ .
(٧) الإعجاز ٢٨ .
(٨) موجز ٥٩ .
(٩) خصائص ٩٧ - ٨ .

الفتنة

ذكر د. فهد بن عبد الرحمن الرومى من أنواع المقاومة التى أبدوها : فتنة محمد عما أوحى إليه ، والركون إلى دينهم[١] .

تعقيـــب

لم أذكر فى هذا الفصل إلا ما ورد فى كتب علوم القرآن من ألوان المقاومة ، وإن كانت كتب السيرة النبوية والتاريخ تفيض بما ذكرته من ألوان وبغير ما ذكرت .

ويلمح الناظر فى عناوين هذه الألوان أن كثيرا منها يتجمع فيؤول إلى لون واحد . ولكننى فرقت بينها لأبين مدى شيوع كل منها فيما بعده من كتب .

ونتبين ظاهرة جديدة هى أن عبد الجبار كاد يختفى ، فلم يضف لونا جديدا إلا واحدا فقط . وحل محله - أو كاد - عبد القاهر الجرجانى . ومع ذلك بقيت الغلبة للجاحظ ثم الباقلانى .

---

(١) خصائص ٩٧ .

الفصل الثانى

إثبات العجز عن معارضة القرآن

كان إثبات عجز العرب عن المجىء بما يماثل القرآن ، للرد على تحديه ، ركنا رئيسيا فى الكتابة عن الإعجاز . وقد فرض هذا على الكتاب أن يبحثوا أولا عن أخبار عدم مجىء أحد من العرب بهذا المثيل ، وأن يثبتوا ثانيا صحة هذه الأخبار ، وأن يبرهنوا ثالثا على أن هذا كان بسبب عجز العرب عن المعارضة وليس لأسباب أخرى .

إعلان عدم المعارضة

كان الجاحظ أول من تصدى للبحث عن أخبار عدم مجىء العرب بمثيل للقرآن .

قال فى رسالة « حجج النبوة » : لم يَرُم ذلك أحد ولا تكلفه ، ولا أتى ببعضه ، ولا شبيه منه ، ولا ادعى أنه قد فعل ، فيكون ذلك الخبر باطلا[1] ...

تحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يَقْدرون على أكثر منه ... حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامِّهم كما تبين لأقويائهم وخواصّهم . وكان ذلك من أعجب ما آتاه نبيا قط[2] .

وقال فى النص الذى أورده السيوطى : لم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر[3] .

فكلما ازداد تحديا لهم ... تكشَّف عن نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا[4] .

---

(١) رسائل ٣/٢٥١ . العمارى ٢٨ ، ٧٥ . سلطان ٦٠، ٢١٣ . نيازى ١٢٣ . وانظر معترك ١/٢ .
(٢) رسائل ٣ / ٢٧٩ ـ ٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٨ .
(٣) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٤ . وانظر معترك ١ / ٢ . موسى لاشين ٢٤٥ . حميدة ٣٤ .
(٤) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . وانظر إسماعيل ٣٢٩ .

وروى الجرجانى عنه أنه قال فى كتاب النبوة : لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة ، قصيرة أو طويلة ، لتبين لـه – فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها . أنه عاجز عن مثلها . ولو تُحدِّى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها .

وأبى الجرجانى أن يكون هذا القول من الجاحظ لغوا أو لغطا(١) .

وروى عبد الجبار عن شيوخ المعتزلة أنهم يرون أن علم العرب بفضل القرآن وخروجه فى قدر الفصاحة عن العادة ، هو الذى قعد بهم عن المعارضة(٢). ووافقهم على هذا القول(٣) .

وصرح الخطابى : معلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور [التى رأى أنها تميز القرآن]، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قُوى البشر ، ولا تبلغه قُدَرهم. فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته فى شكله(٤) .

وعلل ذلك بمعرفتهم باستحالة المعارضة ، قال : إنما كاعوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعَّدهم منه . وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ، ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم . فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا ﴿ فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾(٥) .

وعلى الرغم من كل ما جاء به الخطابى من أخبار وحجج تدافع وتفند ، كان رأيه الذى استهل به كتابه وانطلق منه أن الأمر فى الإعجاز أبْين من أن نحتاج إلى أن يدل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر لترك المعارضة ، ومن لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه(٦) .

وعلل الباقلانى ضرورة العجز فصرح بأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالته(٧) .

---

(١) دلائل ٢٥١ ، ٣٨٩ . نيازى ١٢٣ . وانظر حويش ٢١٢ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٨٥ . (٣) المغنى ١٦ / ٢٨٣ .
(٤) بيان ٢٥ .
(٥) سورة الأعراف ١١٩ . بيان ٣١ . فقيهى ١٦٢ .
(٦) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . (٧) إعجاز ٢٨٨ .

وذهب ابن حزم الظاهرى إلى أن اللّه أعجز ـــ عن مثل نظمه ـــ جميع العرب وغيرهم من الإنس والجن ، وأن هذا أمر لا ينكره أحد مؤمن ولا كافر ، وأن المسلمين أجمعوا على ذلك[١] .

وصرح الطوسى الشيعى بأنهم بذلوا أموالهم ونفوسهم فى إطفاء أمره ، ولم يتكلفوا معارضته بسورة ولا خطبة ، فدل ذلك على صدقه[٢] .

وقال الزمخشرى : أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء ، وأبكم به من تُحدى به من مصاقع الخطباء . فلم يتصدَّ للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم . ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم ، على أنهم كانوا أكثر من حصى البطحاء ، وأوفر عددا من رمال الدهناء ... فما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على المراكب ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب[٣] .

وقال الرازى : وُجد مَخْبر قوله تعالى : ﴿ لن تفعلوا ﴾ على ذلك الوجه ، لأن من أيامه ﷺ إلى عصرنا هذا ، لم يخلُ وقت من الأوقات ممن يعادى الدين والإسلام ، وتشتد دواعيه فى الوقيعة فيه ، ثم إنه ـــ مع هذا الحرص الشديد ـــ لم توجد المعارضة قط[٤] .

وقال ابن تيمية : عُلم أنهم لم يعارضوه ، ولا أتوا بسورة مثله ، ومن حين بُعث وإلى اليوم ، الأمر على ذلك ، مع ما عُلم من أن الخلق كلهم كانوا كفارا قبل أن يُبعث ، ولما بُعث إنما تبعه قليل[٥] .

وأعلن الزركشى أن الحجة قامت على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة ، كما قامت الحجة فى معجزة عيسى بالأطباء ، وفى معجزة موسى بالسحرة[٦] .

ووصف محمد عبده خبر العجز بالتواتر فقال : جاءنا الخبر المتواتر أنه ـــ مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدى ـ أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت

---

(١) الفصل ٣ / ٢٥ . وانظر الصابونى ١٠٠ . (٢) التبيان ١ / ١٠٤ .
(٣) الكشاف ١ / ٩ - ١١ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٧٦ - ٧ .
(٤) مفاتيح ٢ / ١٢٠ . (٥) التفسير ٢ / ١٥٣ .
(٦) البرهان ٢ / ٩٧ - ٨ .

للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العَلىّ على جميع الأحكام[(١)] .

ووصف مصطفى صادق الرافعي - بأسلوبه الأدبى الفضفاض الذى يشوبه شىء من غموض - وصف القرآن بأنه معجزة من معجزات التاريخ العلمى فى الأرض ، لم يتفق له - فى ذلك - شبيه من أول الدنيا إلى اليوم ، ولن يتفق[(٢)] ؛ وما أشبهه فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه - بصورة كلامية من نظام هذا الكون ، الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو - بعدُ - لا يزال عندهمَ على كل ذلك - خلقا جديدا ، ومراما بعيدا، وصعبا شديد[(٣)] ؛ فهو معجز بالمعنى الذى يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن . فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا ، وليس إلى ذلك مأتى ولاجهة . وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلاهية ، يشاركها فى إعجاز الصنعة وهيئة الوضع ، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها . وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان ، إذ كان الإنسان - فى تركيبه - هو الصورة الروحية للعالم كله . فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز فى أثره الإنسانى ، ومعجز كذلك فى حقائقه . وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شىء . فهى باقية ما بقيت[(٤)] .

أما أن القرآن لا يُعارض بمثل فصاحته وتركيبه ، وبمثل ما احتواه ، ولو اجتمعت الإنس بما يعرفونه ، وأمدهم الجن بما لا يعرفونه ، وكان بعضهم لبعض ظهيرا ، فذلك هو الحق الذى لا جمجمة فيه ، ولا يستعجم على كل بليغ له بصر بمذاهب العرب فى نعتها وحكمة مذاهبها فى أساليب هذه اللغة ، وقد تفقه بالبحث فى ذلك والكشف عن دقائق ، وكان يجرى من هذه الصناعة البيانية على أصل ، ويرجع فيها إلى طبع .

---

(١) رسالة ١٣٧ .
(٢) إعجاز ١٢٤ .
(٣) إعجاز ١٣٩ . القطان ٢٦٥ .
(٤) إعجاز ١٥٧ .

وإن شعور أبلغ الناس بضعفه عن أسلوب القرآن ليكون على مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع واستفاضة المادة ، وتمكنه من فنون القول ، وتقدمه فى مذاهب البيان . فكلما تناهى فى علمه تناهى كذلك فى علمه بالعجز(١) .

وقال عبد الكريم الخطيب : كون القرآن معجزا أمر مفروغ منه لايجادل فيه أحد، ولا يختلف عليه أحد ، حتى أولئك الذين يضمرون للإسلام عداوة وبغضة ، ويتربصون به العثرات والزلات .

فقد قامت الأدلة القاطعة من شهادة التاريخ العربى وغير العربى على أن العرب قد عجزوا عن معارضة القرآن ، ولم يقف له أحد من بلغائهم وفصائحهم ...

هذه حقيقة مسلم بها ، والتعرف على دلائلها أمر ميسور لمن طلبه ، من شواهد التاريخ ، أو من القرآن نفسه ، على الوجه الذى سجله القرآن فى حينه ، ونادى به متحديا الإنس والجن ، فأخزى المعاندين والكافرين(٢) .

وقال محمد أبو زهرة : عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه ، لا يرتاب فيه مؤمن ، ولا يجحده ، ولا يمارى فيه إلا من يهمل عقله ، ويسقط من حساب المفكرين . فعلى ذلك تواترت الأخبار ، واتفقت الأمصار ، لا فرق بين عدو وولى(٣) .

ووصف أحمد خلف عجزهم أمام التحدى القرآنى بالعجز المطلق(٤) .

وأعتقد أن هذا الفصل لا يحتاج إلى تعقيب . فرأى جميع المسلمين منفق على عجز العرب عن معارضة القرآن . وإنما يتباين تعبيرهم عن هذا العجز ، تبعا لقدراتهم الأدبية ، وأساليبهم الفنية . ولا يشذ عن هذا الإجماع إلا القائلون بالصرفة بل بعضهم .

عدم جواز ترك المعارضة

كان الجاحظ أول من تصدى لإثبات أن عدم مجىء العرب بمثيل للقرآن كان بسبب عجزهم عن ذلك لا لأى شىء آخر . وقد آتى فى هذا الصدد بالشواهد الآتية :

---

(١) إعجاز ١٩٣ .
(٢) إعجاز ١ / ٧٩ ، ١٥٩ ، ٢ / ١٥٥ .
(٣) المعجزة ٧٣ .
(٤) القرآن ١٣٨ .

١ - جاء في حجج النبوة : لا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم ، واختلاف عللهم ، والكلام كلامهم ... فقد هجوه من كل جانب ... وبادوه العداوة ... ثم لا يعارضه معارض و لم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر[١] .

٢ - وكرر الفكرة نفسها ثانية فقال : محال في التعارف ، ومستنكر في التصادق ، أن يكون الكلام أحصر عندهم ... وهو أبلغ في تكذيبهم [إياه] وأنقض لقوله ... فيجتمعوا على ترك استعماله والاستغناء به ، وهم يبذلون مهجهم في إطفاء أمره ، ولا يقولون - بل لا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم ، والحيلة في أمره يسيرة ، والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطبائكم كلاما في نظم كلامه ، كأقصر سورة يخذلكم بها . بل لونسوا ما تركهم حتى يذكّرهم ، ولو تغافلوا ما ترك أن ينبههم . بل لم يرض بالتنبيه دون التوقيف . فدل ذلك العاقل على أن أمرهم في ذلك لا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم ، وإما أن يكون غير ذلك[٢] .

٣ - وقال مستنكرا : هل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز ، ثم لا يبذلون مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم ، وهم أشد خلق الله أنفة ؟ [٣] .

٤ - وقال : كيف ضاع ذاك منهم ، وسقط عن جماعتهم نيفا وعشرين سنة ، مع كثرة عددهم ، وشدة عقولهم ، واجتماع كلمتهم ، وهذا أمر جليل الرأى ، ظاهر التدبير[٤] .

واستلهم الرماني من الجاحظ رأيه بأن توفر الدواعي إلى المعارضة - مع عدم وقوعها - يدل على العجز عنها[٥] .

---

(١) رسائله ٣/٢٧٣ - ٤ . إعجاز الخطيب ١/١٣٤ حويش ٢٥٦ - ٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٠ . خلف ١٤٢ . سلطان ٦١ . نيازى ١٢٧ .

(٢) رسائله ٣/٢٧٤ . الصاوى الجوينى ١٩٧ . إعجاز الخطيب ١/١٣٤ - ٥ . حويش ٢٥٧ - ٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . خلف ١٤٢ . نيازى ٢٧ . وانظر الطوسى ٥/٤٥٦ - ٧ . الجرجانى ٥٧٩ - ٨٠ . نيازى ١٥٨ .

(٣) رسائله ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٥ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ . سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٢ .

(٤) رسائله ٣ / ٢٧٧ .

(٥) النكت ١٠١ . صقر ١٢ . فقيهى ١٤٨ . الحمصى ١٣٢ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٩ - ٤٠ . سلطان ٧٥ . نيازى ١٣٠ . وانظر الجرجانى ٥٧٧ ، ٥٨٠ . ابن تيمية ٢ / ١٥٤ . العلوى ٣ / ٣٧١ ، ٣٨٢ . الآلوسى ٢٧ / ٣٧ . والفصل المماثل في الإعجاز .

وتساءل الخطابى متعجبا ومستنكرا : كيف يجوز على العرب وقريش خاصة - مع رزانة أحلامهم ، ووجود الخطباء المصاقع والشعراء المفلقين ، وقدرتهم الجدلية ، ووقوع الحاجة ، ولزوم الضرورة أن يغفلوا المعارضة ، ولا يغتنموا الفرصة فيها ، لولا عدم القدرة عليها .

وعد هذا أبين الوجوه دلالة ، وأيسرها مؤونة ، ومقنعا لمن تنازعه نفسه(١) .

وتبعهما الباقلانى فقال :

كيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ... فيعدلون عنها إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التى ليس عليها مزيد فى المنابذة والمعاداة ، ويتركون الأمر الخفيف ؟!

هذا مما يمتنع وقوعه فى العادات ، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء(٢) .

وقال - بعد أن ذكر تعظيم محمد شأن القرآن ، وتنافسهم على الفصاحة - : لن يجوز - والحال هذه - أن يتغافلوا عن معارضته - لو كانوا قادرين عليها - تحداهم أو لم يتحدهم إليها(٣) .

وقال أيضا : معلوم - من حالهم وحميتهم - أن الواحد منهم يقول فى الحشرات والهوامّ والحيات ... والأمور التى لا يؤبه لها ، ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون فى ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح ، فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحة ، والعبارات الفصيحة ، مع تضمن المعارضة لتكذيبه ، والذب عن أديانهم القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم ، وتضليله إياهم ، والتخلص من منازعته ثم من محاربته ومقارعته : ثم لا يفعلون شيئا من ذلك ، وإنما يحيلون أنفسهم على التعاليل ، ويعللونها بالأباطيل ؟ هذا محال(٤) .

---

(١) بيان ١٩ - ٢٠ . صقر ١٣ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ - ١٦٠ .

(٥٢) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ /١٧٨, . الصابونى ٩٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . وانظر العلوى ٣ / ٢-٣٧١ .

(٣) إعجاز ٢٣ - ٤ .

(٤) إعجاز ٤٣ - ٤ ، ٢٤٨ . وانظر المغنى ١٦/ ٢٥٣ .

ورأى عبد الجبار أن محمدا تحداهم بطريقة

النبوة دون طريقة الملك والقهر بالسلطنة ، لأنه - حين ادعى النبوة — لم يكن له عَدد ولا عُدد ، ولاله من الحال ما يقتضى ادعاء الملك . ولذلك جعل الذى يُلزم الانقياد له : هو المعجزة ، التى هى القرآن ؛ والذى يدعو إلى إبطال أمره : هو الذى يدعو إلى المعارضة ، لأن الإبطال المطلوب يقع بها دون غيرها .

وكل أمر حل هذا المحل فليس بجائز أن يخفى على العقلاء : فيظنوا أن الدواعى إلى أحدهما دون الدواعى إلى الآخر ، بل العلم الضرورى يقع بأن الأمر المطلوب واحد .

فمتى علمنا - والحال هذه - قوة الدواعى إلى إبطال أمره ، أو علمنا قوة الدواعى إلى المعارضة ، فالمعنى واحد ، واللفظ مختلف .

وقد علمنا أن دواعيهم قويت إلى إبطال أمره ، لدلائل ظهرت ، لا تجوز الشبهة فيها ، وهى بذلهم المهج ... فكل ذلك وأشباهه منهم يدل على أنهم عدلوا عن المعارضة للتعذر[١] .

وقال الرازى : لو كان فى وسعهم ، وإمكانهم الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به[٢] .

وصرح ابن تيمية : عدم الفعل - مع كمال الداعى - يستلزم عدم القدرة فلما كان دواعى العرب وغيرهم على المعارضة تامة ، وانتفت المعارضة ، عُلم عجز جميع الأمم عن معارضته[٣] . وصرح : معلوم أنهم لو كانوا قادرين عليها لفعلوها . فإنه — مع وجود هذا الداعى التام المؤكد - إذا كانت القدرة حاصلة — وجب وجود الفعل[٤] .

وصرح العلوى : إنما قلنا : إن كل من توفرت دواعيه إلى الشىء - ولم يوجد مانع منه - ثم لم يتمكن من فعله ، فإنه يكون عاجزا ، لأنه لا معنى للعجز إلا ذاك[٥] .

وقال محمد رشيد رضا : أفلم يكن الأجدر بمداره قريش وفحولها ، وغرر بنى معدّ وحجولها ، أن يجتمعوا على تأليف سورة ببلاغتهم التى كانوا يتبارون فيها

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٤ - ٥ ، ٢٦٧ - ٨ .
(٢) مفاتيح ٢ / ١٢٠ .
(٣) التفسير ٢ / ١٤٢ .
(٤) التفسير ٢ / ١٥٤ .
(٥) الطراز ٣ / ٣٧١ .

بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم ، ويؤثروا هذا على سوق الخميس بعد الخميس من صناديدهم إلى يثرب لقتال محمد ومن آمن به فى بدر وأحد ووراء الخندق ، لو كان ذلك مستطاعا لهم ؟

ومثل هذا يقال فى اليهود الذين كانوا بجواره فى المدينة ، فأمنهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم . فأبوا إلا إعانة مشركى قومه عليه حتى اضطروه إلى قتالهم ، وإخراج بقية السيف من ديارهم .

فلا شك أن الله قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرتقى البشر إليها ، وهو-تعالى جده - العالم بمبلغ استطاعتهم ، والمالك لأعنة قدرتهم ...

ثم نلاحظ أيضا أن القرآن - بهذا الأسلوب - قد تحدى به كل من بلغه من العرب، على تفرق ديارهم وتنائى أقطارهم ، وأرسل الرسول إلى الأطراف يدعو الناس إلى الإيمان به . فعمت الدعوة وبلغت مبلغها ، و لم ينبرِ أحد للمعارضة .

ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه ، وإحساس كل بليغ بالضعف فى نفسه عن الانبراء لمباراته ، والتسامى لمحاكاته ؛ وعلى أن الله جعله فوق القُدَر ، خارقا لما يُعتاد من كسب البشر[١] .

وصرح سيد قطب : لو كان فى الطاقة تكذيب التحدى القرآنى ما توانوا عنه لحظة[٢] .

وأعلن نعيم الحمصى أن المؤلفين أجمعوا على أن العرب كانوا من الحمية والأنفة بحيث لا يقبلون مثل هذا التحدى ، وأن أسبابهم من حيث الفصاحة والبيان والرغبة لمناهضته كانت كافية لأن يجدوا فى القول سعة لو استطاعوا[٣] .

واستدل عبد الكريم الخطيب على العجز بأنه لو كان شىء من المعارضة التى تردّ التحدى القرآنى قد وقع ، لما كان للقرآن وجه يلقاهم به متحديا مرة ، ومرة ، ومرات[٤] .

وقال داود العطار : لما لم يعارضه العرب - مع شدة حاجتهم إلى المعارضة ، وقوة دواعيهم - علمنا أنها متعذرة عليهم[٥] .

---

(١) المنار ١ / ١٦٣ - ٤ .
(٢) فى ظلال ٤٨ .
(٣) فكرة ٢٤ . وانظر فقيهى ١٩ .
(٤) إعجاز ١ / ١٨٠ .
(٥) موجز ٥٩ .

تعذر التواطئ على ترك المعارضة

كذلك تعددت أقوال الجاحظ فى إعلان استحالة اتفاق الجمع الكبير على إهمال المعارضة . قال فى « حجج النبوة » : لا يجوز أن يطبقوا على ترك المعارضة وهم يقدرون عليها ، لأنه لا يجوز على العدد الكثير العقلاء الإطباق على بذل الكثير ، وصون اليسير .

وهذا من ظاهر التدبير ، ومن جليل الأمور ، التى لا تَخفَى على الجهال ، فكيف على العقلاء وأهل المعارف ؟ فكيف على الأعداء ؟ لأن تحبير الكلام أهون من القتال، ومن إخراج المال[(١)] .

وروى السيوطى عنه أنه قال : محال أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البين ، مع التقرير بالنقص . والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة[(٢)] ؟

وقال : كما أنه محال أن يطبقوا ثلاثا وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه ، وهم يعرفونه ، ويجدون السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه[(٣)] .

وتبعه الباقلانى فقال : لو كان الكفار قادرين على معارضة القرآن ، والإتيان بمثل ما أتى به محمد لم يجز أن يتفق منهم ترك المعارضة ، وهم على ما هم عليه ، من المعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته[(٤)] .

وقال عبد الجبار : فإن قال قائل : فجوزوا ـ فيمن اعترف واستجاب ـ أن يكون معترفا بالعجز عما يمكنه ، ويعلم من نفسه خلافه .

ـ قيل له : إن الجمع الكبير لا يجوز عليهم ذلك ، كما جوزناه على الواحد والعدد اليسير ، لاسيما إذا حصل مع ذلك الداعى إلى خلافه ، لأن المتعالم من حالهم

---

(١) رسائله ٣ / ٢٧٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٦ . حويش ٢٢٥ ، ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ ـ ٢ . سلطان ٢١٤ . خلف ١٤٣ . أبو موسى ٣٠ .

(٢) الإتقان ٢ / ٣٢٧ ـ ٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . طبارة ٢٨ . الصباغ ٥٤ ـ ٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٧ ـ ٨ . أبو فرحة ١١١ .

(٣) الإتقان ٢ / ٣٢٨ . الرافعى ١٧٦ . الحمصى ٢٩ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . طبارة ٢٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٨ .

(٤) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٨ . نيازى ١٤٠ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٧١ .

- مع كثرتهم - أنهم كانوا يريدون إبطال أمره ثم انقادوا للاستجابة . فصارت دعواهم مطابقة لشاهد حالهم[١] .

- على أنا نعلم من حال كثير ممن أظهر الاستجابة أنه لم يكن مصافيا ، بل كان منافقا أو فى حكم المنافقين .

- وصح أيضا أنه قد كان فيهم من تغير قلبه لموجدة وغيرها ، عند كثير من الأسباب[٢] .

والدواعي - في مثلهم - تقوى إلى إبطال أمره بأكثر مما تقوى الدواعى فى الأصل[٣] . وقد علمنا - مع ذلك - عدولهم عن حديث المعارضة أصلا إلى غيرها من الأمور . وذلك يدل على ما قلناه من العجز[٤] .

وعقب د. عمر الملاحويش على ما قال الجاحظ ، فقال : ذلك هو رأى الجاحظ فى إقامة الحجة على وقوع الإعجاز بالقرآن . وهو رأى يقوم على حجج مشرقة وأدلة قاطعة . وإن الذين أقاموا الحجة على إعجاز القرآن من هذا الوجه ، إنما نظروا إلى رأى الجاحظ ، واعتمدوا عليه ، وداروا حوله . ومنهم الباقلانى فى كتابه «إعجاز القرآن » والزركشى فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » وغيرهما ممن له رأى فى إعجاز القرآن[٥] .

ومهد عبد الفتاح لاشين لأقوال الجاحظ - حين أوردها - بقوله : لو كان فى استطاعتهم أن يصمدوا ، لما فروا هذا الفرار المشين ، ولما رضوا أن يعرضوا أنفسهم للموت[٦] .

الاستدلال بعجز محمد عنه

وحكى عبد الجبار أن شيوخه استدلوا على عجز العرب عن الإتيان بمثيل للقرآن بعجز النبى نفسه ، قال : استدل شيوخنا على إبطال زعم العرب بالقدرة على معارضة القرآن بأنه ﷺ كغيره فى بَوْن ما بين كلامه وبين القرآن . فلا يصح أن يقال : إن محمدا أتى به لمزيته فى الفصاحة ، وحال كلامه كحال كلام غيره ، فى

(١) المغنى ١٦ / ٢٧١ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٧١ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٧١ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٧١ - ٣ . عائشة ٧١ .
(٥) تطور ٤٣٤ .
(٦) بلاغة ٤٣٠ .

أن القرآن يفوقه ، ويفضل عليه . وبينوا أنه لا يمكن أن يقال : تَعمَّل [تكلَّف] زمانا ، وسائر كلامه ارتجله ، وذلك لأن المتقدم فى الفصاحة : يقارب المرتجل من كلامه المسموع عنه ، بل ربما فاقه البعض منه ، على ما جرت به العادة ، إذا كان ممن يمكنه الارتجال كما يمكنه التعمل .

وبينوا بطلان قول القائل : إنما فارق القرآن سائر كلامه ، لأنه كان يعتمد أن يأتى به على الحد الذى يَبين معه من القرآن ، ليتم تلبيسه وتمويهه . وذلك لأن المتعالم من حاله ﷺ أنه كان يقصد فى كثير من مقاماته أن يأتى بالكلام الفصيح . فلا يصح ما ادعوه .

وبعد ، فإن من يقصد إلى ذلك أيضا لابد من أن يقع فى كلامه ما يقارب الأمر الذى يعمله . وهذا مجرب من أحوال المتقدمين ، حتى إن بعضهم إذا اعتاد طريقة فى الفصاحة المتقدمة ، لا يواتيه الكلام المتوسط والركيك إلا بعد جهد وتكلف . وإنما يصح ذلك فى أمور مخصوصة ، دون العوارض ، التى يخرج فيها إلى ضروب من الكلام ، لا يصح إيراده على طريق الروية ، ويخالف ما يحكى عن واصل بن عطاء وغيره ، من إخراجه الراء من كلامه ، لأن ذلك أمر مخصوص . فالتعمل فيه يصح .

وبعد فكلام رسول اللّه ـ قبل ادعاء النبوة ـ فى الفصاحة معروف قدره . ولا يجوز أن يقال فى تلك الأحوال : كان يتعمل لما قاله السائل . على أنه لو تعمل لذلك ، كان كلامه المرتجل يقاربه وإن لم يساوه وكذلك كلام غيره[1] .

وتبعه الباقلانى عندما خشى أن يتعنت متعنت فيقول : لعل محمدا أن يكون تعمَّل للقرآن ، وتصنَّع لنظمه ، وشبَّه عليك الشيطان ذلك من خبثه .

ورد قائلا : تثبَّت فى نفسك ، وارجع إلى عقلك ، واجمع لبك ، وتيقَّن أن الخُطب يُحتشَد لها فى المواقف العظام ، والمحافل الضخام ، أولا يُتجَّوز فيها ، ولا يُستهان بها ؟ والرسائل إلى الملوك مما يشمَّر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الإخلال ؟ وكيف تعرض للتفريط ؟ فستعلم - لا محالة ـ أن نظم القرآن من الأمر الإلاهى ، وأن كلام النبى من الأمر النبوى[2] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٧٥ - ٦ .

(٢) إعجاز ١٣٦ .

وقال فى موضع آخر : إن كان لك فى الصنعة حظ ، أو كان لك فى هذا المعنى حس ، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم ، أو فى العربية بقسط - وإن قل ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب - فما أحسب أن يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول فى خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ، ويتساقط إليك من ألفاظه .

أقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا ، وأمدا مديدا ، وميدانا واسعا ، ومكانا شاسعا(١) .

واعتمد فى نفى أن يكون القرآن من تأليفه على المقارنة بين القرآن وكلام محمد وغيره من فصحاء العرب . فبعدما فرغ من التفرقة بين القرآن والحديث النبوى قال: فإذا أردت زيادة فى التبين ، وتقدما فى التعرف ، وإشرافا على الجلية ، وفوزا بمحكم القضية ، فتأمل ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبى واحد ، وسبكها سبك غير مختلف . وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشاعرين . وذلك أمر له مقدار معروف ، وحد - ينتهى إليه - مضبوط(٢) .

فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج ، ولجملته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت ؛ نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى . وتأملته مرة ثانية ، فتراعى بُعْد موقعه ، وعالى محله وموضعه ؛ وحكمت بواجب من اليقين ، وثَلَج الصدر بأصل الدين(٣) .

ورد عبد الجبار على من قالوا : إنهم لم يعارضوه لأن محمدا تعمَّل زمانا طويلا ثم عاجلهم بالتحدى والتقريع(٤) .

فبدأ بتسجيل أن هذا القول تسليم منهم بأنهم لم يعارضوا القرآن(٥) .

ثم قال : إن الذى قدمناه يسقط ذلك ، لأنه لم يتحدها بمثل كل القرآن حتى يتعذر عليهم ذلك إلا بزمان طويل(٦) .

---

(١) إعجاز ١٣٥ - ٦ . انظر الزرقانى ١ / ٧٨ .
(٢) إعجاز ١٣٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ .
(٣) إعجاز ١٣٧ .
(٤) المغنى ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٦٢ .
(٦) المغنى ١٦ / ٢٧٦ .

ولأن الفصيح يتمكن من الارتجال والتحمل فى مقدار من الكلام ، على سواء[١].

ولأن المقارب كالمماثل فى أنه يبطل مزية القرآن[٢] .

ولأنه - لو كان الأمر كذلك - كان يجب فيما تقدم من الشعر وغيره — أن يوجد ما يحتج به مما تعمل القوم له[٣] .

ولأنهم كانوا متمكنين مدة من الزمان من التعمل لوأرادوه[٤] .

ولأن تعمُّل ذلك أسهل - لو أمكنهم - من سائر ما تحملوه[٥] .

وتعرض دراز لهذه المسألة أيضا فقال : أما أن محمدا كان هو أفصح العرب ، وكان له فى هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم ، فذلك مالا نمارى — بل لا نمترى - فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية . غير أننا نسأل :

ما مبلغ التفاوت بينه وبينهم ؟

أكان مما يتفق مثله فى مجارى العادات بين بعض الناس وبعض فى حدود القوة البشرية ، أم كان أمرا شاذا خارقا للعادة بالكلية ؟

فأما إذا كان كما نعهد شبيها بما يكون فى العادة بين البليغ والأبلغ ، فلا شك أن هذا النحو من العلو : إن حال بينهم وبين المجيء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه .

ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير أن يحتذوه على التمام ، لم يكن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب .

وأما إن قيل : إن التفاوت بينه وبين سائر البلغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، لاختصاصه - من بين العرب ومن بين الناس - بفطرة شاذة لا تنتسب إلى سائر الفطر ، فى قليل ولا كثير ، إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ، فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن من الإنسان ماليس بإنسان، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان . ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه فى الشيء بعد الشيء ، وفى الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك فى كل عصر ففى

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٥) المغنى ١٦ / ٢٧٦ .

عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ففي بعض فنونه .

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقا أن يجيء بشيء من مثله : من كان أشْبه بهذا الإنسان مزاجا ، وألصق به رحما ، وأكثر عنه أخذا وتعلما ؛ أو لكان جديرا بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرؤوه واستظهروه، وتذوقوا معناه وتمثلوه ... أن يُدنوا أسلوبهم شيئا من أسلوبه ، على ما تقضى به غريزة التأسى ، ولكن شيئا من ذلك كله لم يكن .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآنى صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدى ما انطبع منها على أسلوب القرآن، لأن الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين ، ونحن نرى الأسلوب القرآنى فنراه ضربا وحده ، ونرى الأسلوب النبوى فنراه ضربا وحده ، لا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلّقات الطير فى جو السماء لا تستطيع إليها صعودا . ثم نرى أساليب الناس فنراها - على اختلافها - ضربا واحدا ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوا ، ومنها ما يشتد عَدْوا . ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات » السماوية .

نعم قد تقرأ القطعة من الكلام النبوى ، فتطمع فى اقتناصها ومجاراتها ، كما تطمع فى اقتناص الطائر أو مجاراته . وقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها: أمن كلمات النبوة هى أم كلمات الصحابة أو التابعين . ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوى بمزيد الفصاحة ، ونقاء الديباجة ، وإحكام السرد . ولكنه يدِقُّ على غير المنتهين فى هذا الفن . وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه فى تميز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع .

أما الأسلوب القرآنى فإنه يحمل طابعا لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجمع طامعا يطمع أن يحوم حول حماه[1] .

---

(١) النبأ ٩٦ - ١٠٠ . الحمصى ٣٧٥ .

غناء المعارضة عما تكبدوه

واستلهم الخطابى أقوال الجاحظ أيضا . فرأى أن المعارضة لو كانت فى وسعهم وتحت أقدارهم - لم يتكلفوا الأمور الخطيرة ، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل على هذا مالا يفعله عاقل ، ولا يختاره ذو لب ... فكيف كان يجوز - على قول العرب ، ومجرى العادة ، مع وقوع الحاجة ، ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ، ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأن يضربوا عنه صفحا، لولا عدم القدرة عليه ، والعجز المانع منه[1] .

وسار على الدرب الباقلانى فرأى أن تحدى محمد لهم ، وجعله القرآن دلالة على نبوته ، وتضمينه استباحة دمائهم وأموالهم وسبى ذريتهم دليل عجزهم عن الإتيان بمثله .

فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب هو عادتهم فى لسانهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ...

فلما لم تحصل هناك معارضة منهم ، عُلم أنهم عاجزون عنها . والدليل على ذلك أن العدو يقصد إلى دفع قول عدوه بكل ما يقدر عليه من المكايد[2] .

وقال : لما لم يفعلوا شيئا من المعارضة ، مع طول المدة ، وتزايد أمر محمد حالا فحالا ، وهم على القدح فى آيته ، عُلم أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته[3] .

وتبعهم الماوردى فقال : تحداهم أن يأتوا بسورة مثله ، فصبروا على نغص العجز، مع شدة حميتهم ... ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا ، وكان فى مقدورهم داخلا - وقد جعله حجة لهم فى رد رسالته - لعارضوه ، ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم فى قتاله[4] ...

---

(١) بيان ١٩ - ٢٠ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ١٥٩ - ٦٠ . عائشة ٧٠ . حويش ٤٤٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٣ . خلف ١٤٠ . أبو موسى ٣٠ .

(٢) إعجاز ٢٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .

(٣) إعجاز ٢٢ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٧ . الحمصى ١٠٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٧ . نيازى ١٣٩ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٦١ .

(٤) أعلام ٧١ . وانظر الغزالى ١٥٤ .

وقال عبد القاهر الجرجاني : لولا أنهم - حين سمعوا القرآن ، وحين تُحدوا إلى معارضته - سمعوا كلاما لم يسمعوا - قط - مثله ، وأنهم رازوا أنفسهم ، فأحسوا بالعجز عن أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه ، لكان محالا أن يدعوا معارضته ... وأن يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت[1] .

وصرح الزركشي : لو قدروا على المعارضة لفعلوا ، ولما عدلوا إلى العناد تارة ، والاستهزاء أخرى . فتارة قالوا : سحر ، وتارة قالوا : شعر ، وتارة قالوا : أساطير الأولين ، كل ذلك من التحير والانقطاع[2] .

وصرح محمد رشيد رضا : لو قدر أحد على الإتيان بسورة مثله أو قريب منه ، لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ، ولا سيما بعد استفحال قوته ، واضطرارهم إلى بذل أموالهم وأنفسهم في مكافحته[3] .

وقال أحمد خلف الله : لو وجدوا إلى المعارضة أي سبيل لتلقفوه كما تتلقف الأرض الجدباء القَطْر ، لأن المعارضة هي السبيل للغلبة ، ولا يحصل منها - من الضرر - ما يحصل من العنف . ولا يجوز أن يعدلوا عنها إلى غيرها من المهالك التي لا تغني عن الحق شيئا إلا لعجزهم عن التحدي . وما لجؤوا إلى العنف والقوة ، وركبوا كل مركب فيه خطر ، إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على الكواكب ، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب[4] .

وقال مصطفى الدباغ : لا يعقل أن يجنحوا للأمر الصعب ، ثم يتركوا الأمر الأخف بدحض حجته ، وإبطال أمره بمعارضتهم للقرآن[5] .

وقال د. محمد محمد أبو موسى : احتشد الجيل الذي نزل فيه القرآن لمواجهة هذا الأمر بكل ما لديهم حتى بذلوا مهجهم ... وكان يمكن أن يختصروا ذلك كله بمثل سورة الكوثر . وكان ذلك يكون أبين في رد مقالته ﷺ بل وأجدر بأن يرجع من آمن به ، إلا أنهم ما راموا ذلك ولا طمعوا فيه . وهذا ... دل دلالة بينة على أن ما سمعوه ليس مما يدخل في طوق البشر[6] .

---

(١) دلائل ٣٨ . إعجاز الخطيب ٢٣٣/١ . حويش ٢٨٦. نيازي ١٥٨ . وانظر نهاية الرازي ٧٨ .
(٢) البرهان ٢ / ٩١ . وانظر معترك ١ / ١ . الإتقان ٢ / ٣٢٦ . أبو فرحة ١١٠ .
(٣) المنار ١١ / ٣٠٣ . (٤) القرآن ١٤٠ . (٥) وجوه ٧ . (٦) الإعجاز ٢٨ .

الرد على ادعاء القدرة

أورد الباقلاني ادعاء بعضهم القدرة على الإتيان بمثيل للقرآن ، ذلك الادعاء الذى حكاه اللّه فى قوله : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ .

ثم عقب عليه قائلا : يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم .

وقد يمكن أن يكون قاله منهم أهل الضعف فى هذه الصناعة دون المتقدمين فيها .

وقد يمكن أن يكون هـذا الكلام إنما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك أورده اللّه مورد تقريعهم ، لأنه - لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم - لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز ، والضمان إلى الوفاء .

فلما لم يفعلوا ذلك - مع استمرار التحدى - عُلم عجزهم[1] .

وصرح أيضا : لو كان فى مقدور البشر معارضة القرآن ، لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات . فكيف وهناك دواع لانتهاء لها ، وجوالب لاحد لكثرتها[2] .

وأفاض عبد الجبار فى مناقشة هذه القدرة المدعاة .

واكتفى مرة بالقول بأن أمية بن خلف قال ، بعدما ضاق ذرعه : لـو شئنا لأتينا بمثله ، ظنا منه بأن محمدا تحداهم به من جهة ما فيه من أساطير الأولين[3] .

وروى فى مرة أخرى أن الوليد بن المغيرة - عندما سمع القرآن على نية البحث عما يمكن الاعتماد عليه فى مقاومة النبى - وصف القرآن بأنه سحر . وعقب عبد الجبار على هذا الموقف قائلا : لو كان الوليد يتمكن من المعارضة لم يكن ليقول ذلك :

ولكان لهم أن يقولوا : إذا كان ما أتى به محمد سحرا ، فما الذى يمنع من مثله ؟

وكيف يجوز أن ينسب القرآن إلى السحر إلا وقد ضاق به ذرعه وصدره ، حتى نسبه إلى أمر يعتقد القوم تعذره عليهم .

وكيف يجوز أن يظهر لبيد الزهد فى قول الشعر - وهو متقدم فيه - عند القرآن ؟

فإذا ثبت فى القوم أنهم لم يخرجوا عن هذه الطبقات ، فكيف يصح أن يقال : إن معارضة القرآن كانت ممكنة لهم - أو لبعضهم - و لم يقدموا عليها ، مع شدة الحاجة إليها ، ومع أنها البغية .

---

(١) إعجاز ٤٣ .   (٢) إعجاز ٢٤٨ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٤٣ .

ولئن جاز هذا ، ليجوزنّ - فى الشديد العطش - والماء له معرض - أن يعدل إلى غيره ، مما فيه مشقة ، ولا يصل به إلى المراد والبغية . وما حل هذا المحل ينافى طريقة العقل . فمن أجازه على القوم ، فقد نسبهم إلى أنهم كانوا بلا رأى ، ولا معرفة بالعادات ، ولا عقل ، ولا علم . والعلم الضرورى قد ثبت أنهم بخلاف ذلك[١] .

وأورد فى مرة ثالثة هذا الادعاء ، ثم رد عليه بما يلى :

- ادعاء الفعل وإمكانه لا يمنع من الاستدلال على تعذره بأن لا يقع مع توفر الدواعى . يبين ذلك أن من توفرت دواعيه إلى الكتابة ، يُعلم تعذرها عليه ، إذا لم يفعلها ، وإن قال : لو شئت لفعلتها . فليس الادعاء يمنع من صحة ما ذكرناه[٢] .

- المتعالَم من حال المدعى أن دواعيه تقوّى إلى الفعل ، لئلا يخالف دعواه . فإذا لم يفعل كانت الدلالة أقوى[٣] .

- يبين ذلك أن كل واحد منا يتمكن من أن يدعى ما يعلم أنه لا يمكنه أن يأتيه[٤].

فإن قال : فكيف استجاز ذلك مع ظهور كذبه ؟

قيل : لا يمتنع على الواحد والعدد اليسير أن يدعى ما يعلم خلافه : على طريق البهت والمكابرة ، لبعض الأغراض[٥] .

فلو قلنا : إنه لما ضاق ذرعه أورد ما يُعلم فيه كذبه وقلة مبالاته بالعاقبة ؛ لجاز[٦].

ولو قلنا : إنه أراد بقوله ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، لا فى قدر فصاحته وبلاغته ، لكن فى بعض الوجوه التى يمكنه - معها - أن يأتى بالمعارضة ؛ لصح ، لأنه قد يجوز أن يموه أنه يمكنه أن يأتى بمثل طريقته ، فى بعض الوجوه ، كما موه النضر بن الحارث بأنه يأتى بمثله فى تضمنه لأخبار من تقدم . فلذلك طلب أخبار رستم واسفنديار وغيرهما من بلاد الفرس[٧] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٨ - ٩ . عائشة ٧١ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٠ . عائشة ٧١ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٧٠ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٧٠ . عائشة ٧١ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٧٠ . عائشة ٧١ .
(٦) المغنى ١٦ / ٢٧٠ .
(٧) المغنى ١٦ / ٢٧٠ - ١ .

النقل المتواتر

وعقد الباقلانى فصلا من كتابه لبيان وجه الدلالة على أن القرآن معجز[١] . سعى فيه إلى ما سماه أصلين :

الأول : أن القرآن المتلو المدون فى المصاحف هو الذى جاء به محمد ، وتلاه على من فى عصره ثلاثا وعشرين سنة .

والأصل الثانى : أن اللّه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعهم على عدم الإتيان به ثلاثا وعشرين سنة ، فلم يأتوا[٢] .

وذكر أن الذى يدل على ذلك النقل المتواتر الذى يقع به العلم الضرورى ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين[٣] .

وأعلن نعيم الحمصى أن اعتقاد الناس قرونا وأجيالا بأنه فوق الطاقة كافٍ لأن يبرهن أن أحدا لم يستطع الإتيان بمثله[٤] .

حب التنافس

أعلن الباقلانى أنه لن يجوز أن يتغافلوا عن معارضة القرآن ــ لو كانوا قادرين عليها ـ وهم يتنافسون على الفصاحة ، ويتفاخرون بينهم ، وينافر شعراؤهم بعضهم بعضا[٥] ؛ ورشيد رضا : لم يتصد أحد منهم للمعارضة ، مع أنهم كانوا فى عصر ارتقت فيه دولة الكلام ارتقاء لم تعرف مثله الأيام ، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون ، ويباهون ويفاخرون ، ويعقدون لذلك المجامع ، ويقيمون الأسواق ، ثم يطيرون بأخبارها فى الآفاق[٦] .

ورأى د. عتر أنهم لو كانوا قادرين على معارضته ، لم يجز ــ بمقتضى الطبيعة البشرية ـ أن يتفق منهم ترك المعارضة ، لأن العدو يقصد لدفع قول عدوه بكل ما يقدر عليه من الوسائل والأحابيل[٧] .

---

(١) إعجاز ١٦ - ٣٢ .
(٢) إعجاز ١٦ - ٨ .
(٣) إعجاز ١٨ . الحمصى ٧٤ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٥ ــ ٦ . أبو موسى ١٨١ .
(٤) فكرة ٤٢ .
(٥) إعجاز ٢٣ - ٤ .
(٦) المنار ١ / ١٦٣ .
(٧) بينات ١٦٩ .

الاستشهاد بالتراث

قال الباقلانى : لو كان القرآن مقدورا للعباد ، لكان قد اتفق - إلى وقت مبعثه - من هذا القبيل ما كان يمكنهم أن يعارضوه به : وكانوا لا يفتقرون إلى تكلف وضعه، وتعمُّل نظمه فى الحال .

فلما لم نرهم احتجوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به فقالوا لمحمد : هذا أفصح مما جئت به وأغرب منه أو هو مثله؛ عُلم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل ، وأنه لم يوجد له نظير(١) .

وقال عبد الجبار : فإن قال قائل : لا ندعى أنهم ابتدءوا معارضته بل نقول : إن جميع ما تقدم من كلامهم ، وما حصل فى الوقت ، معارضة له . وإنما يصح أن يقال ذلك فيما يحتاج - فى معارضته - إلى أمر مخصوص . فأما إذا كان الواقع على طوال الدهر معارضة له ، فقد أغنى ذلك عن المعارضة لأنكم - فى هذه الطريقة - بمنزلة من يقول : لم يعارضوه فى قيامه وقعوده ...

قيل له : إن أردت - بما أوردته - القدح فى قولنا : إن للقرآن مزية فى الفصاحة ، فقولك مما يُعلَم حظ باضطرار - فساده ، لأن كل من له أدنى خط من العلم بهذا الشأن بعلم المزية .

وإن أردت أن القرآن والكلام مما لا يقع فيه تفاضل ، فقد بينا فساد ذلك فى باب مفرد ، وإن كان العلم بذلك لا يحتاج إلى دلالة .

وهذا يوجب سقوط سؤالك .

على أن ادعاء ذلك يقتضى القدح فى عقول جميع العرب ، لأنهم - على هذا القول بمنزلة من انقاد ، واستجاب لمن ادعى النبوة ، وجعل دلالة نبوته أنه يقوم ويقعد .

على أنه لو كان كذلك ، لكان لا أقل من أن يحتجوا بذلك عليه ، فيقولوا : ما الذى يحوجنا إلى المعارضة فى هذا الأمر ، ونحن - دائما - نورد مثله ، وكلام العرب أجمع مساوٍ له . وعلمُنا بخلاف ذلك يبطل هذا القول . فكيف تضيق صدور كبارهم

---

(١) إعجاز ٢٤ . صقر ٨٦ ، الحمصى ٧٤ . وانظر الجرجانى ٥٨١ - ٥ . إعجاز الخطيب ١/ ٢٦٤ . سلطان ١٣٢ .

فى الفصاحة عند القرآن ، كالوليد بن المغيرة ، ولبيد ، والنضر بن الحارث ، وغيرهم ممن رُوى عنه إعظام شأن القرآن ؟ وكيف يجوز - فى مثل ذلك - أن يعتقد الجمع العظيم - عصرا بعد عصر - أنه تميز من كلامهم ؟

ولو صح ما سأل عنه ، لوجب أن يزيلوا الشبهة بتجديد المعارضة لأن واحدا من الناس : لو جعل دلالة نبوته أن يخطب خطبة طويلة ، وصار له - بتكريرها حالا بعد حال - طائفة متعصبة ، ونشأ فى ذلك الفتنةُ ، لوجب على أهل البصر بذلك أن يجددوا معارضة ذلك إذا كان ممكنا ، لأنه - فى إزالة التمويه والشُّبه - أقرب من التعلق بذكر الخطب الماضية ، لأن للشاهد والحاضر مزية[١] .

الاستدلال بحيرة قريش

واستدل الباقلانى بحيرتهم - مع فصاحتهم وقدرتهم على فن القول - على خروج القرآن عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعا يخرق العادة ، وعلى أن عدم معارضتهم إياه لأنهم علموا بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه[٢] .

ورأى عبد الجبار أن الذى نُقل عن كبار العرب وعلمائهم ، من ضيق الصدر بالقرآن ، وعدولهم - لأجله - من قول الشعر إلى طلب أخبار الفرس ، إلى غير ذلك ، من أدل الدلالة على أن المعارضة لم تقع[٣] .

الاستناد إلى عدم معارضة القصص

وقال الباقلانى : لو كان فيهم تمكُّن من المعارضة لقصدوا القصص ، وعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدى تلك المعانى ونحوها . وجعلوها بإزاء ما جاء به القرآن ، وتوصلوا - بذلك - إلى تكذيبه ، وإلى مساواته فيما حكى وجاء به[٤] .

العادة معارضة المستحسن

وقال الباقلانى : الشىء - إذا استُحسن - اتُّبع ، وإذا استُملح قُصد له وتُعمِّد . وهذا الشىء يرجع إلى الأخذ بالأفضل والتنافس فى التقدم . فلو كان فى مقدور

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٧ - ٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ .
(٢) إعجاز ٤٣ ، ٦٤ . وانظر الجرجانى ٥٨١ - ٥ . الزركشى ٢ / ٩١ . إعجاز الخطيب ١/٢٦٤. سلطان ١٣٢ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٦١ .
(٤) إعجاز ٦١ .

البشر - لهذا الغرض وحده - لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات . فكيف وهناك دواع لا انتهاء لها ، وجَوالب لاحدّ لكثرتها[١] .

متى يحكم على الترك بالعجز

لجأ عبد الجبار - فى أول الأمر - إلى النظر العقلى ، لإثبات أن سبب عدم إتيان العرب بما يماثل القرآن هو العجز وليس أمرا آخر . فقسم الأفعال إلى :

- الأفعال غير المقصودة ، مثل تلك التى يقوم بها الساهى والنائم .

- والأفعال المقصودة ، وهى التى يقوم بها القائم عن عمد ووعى . وهى ما نتناول . ثم قسم عدم القيام بالنوع الأخير من الأفعال قسمين :

- ما كان ذلك لأن الفاعل لا يختاره .

- وما كان ذلك ، مع توفر دواعى القيام به ، وزوال الموانع التى تحول دون ذلك، وسلامة الأحوال ، مما يوجب القيام به ، والسبب الوحيد لهذا القسم هو التعذر ، وإليه ينتمى القرآن[٢] .

الاستدلال بتعظيم علماء المسلمين للقرآن

استند عبد الجبار فى الإيمان بعدم وقوع المعارضة ، وعدم صحة ادعاء وقوعها غير أنها لم تنقل ، استند إلى :

العلم بتعذر المعارضة على فصحاء عصره والأعصار المتقدمة واعتقاد العلماء المسلمين عظم حال القرآن وماله من مزية[٣] .

الرضا بالمعارضة بالمقارب

ورد الماوردى على من قد يقولون : إن العرب ـ إن كانوا قد عجزوا عن معارضته بمثله - فقد كانوا قادرين على معارضته بما يقاربه وإن نقص عن رتبته ، والمعجز ما لم تمكن مقاربته كما لا تمكن مماثلته .

وأورد فى رده جوابين :

أحدهما أن مقاربته تكون بما فى مثل أسلوبه إذا قصر عن كماله ، والأسلوب ممتنع . فبطلت المقاربة ، وثبت الإعجاز .

---

(١) إعجاز ٢٤٨ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٦٤ - ٥ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٦٣ .

والثانى أن المقاربة تمنع من المماثلة ، والتحدى إنما كان بالمثل دون المقارب(١) .

الاستدلال بأحوال العرب وأقوالهم

وعالج عبد القاهر القضية علاجا نظريا وعمليا . فقد أعلن أننا إذا رأينا أحوال العرب وأقوالهم تشهد باستسلامهم بالعجز عن الإتيان بما يماثل القرآن ، وجب القطع بأنه معجز .

ذلك لأنه ليس إلا أحد الأمرين :

فإما أن يكونوا قد علموا مزية القرآن على الصحة ،

وإما أن يكونوا قد توهموها فى نظم القرآن ، دون أن تكون فيه ، وإنما وقع ذلك لغلط دخل عليهم .

ودعوى الثانى من الأمرين سخف . فإن ذلك لو ظُنّ بالواحد منهم لَبَعُد ، لأنه لا يُتصوَّر أن يتوهم العاقل فى نظم كلام جُلُّ مُناه ومنى أصحابه أن يستطيع معارضته ، وأن يقدر على إسكات خصمه المباهى به ـ أنه قد بلغ فى المزية هذا المبلغ العظيم غلطا وسهوا . فكيف بأن يشمل هذا الغلط كلهم ، ويدخل على كافتهم ؟ وأى عقل يرضى من صاحبه بأن يتوهم عليهم مثل هذا الغلط ، وهم من إذا ذاق الكلام عرف قائله من قبل أن يُذكر ، ويسمع أحدهم البيت قد استرفده الشاعر فأدخله فى أثناء شعر له ، فيعرف موضعه ، وينبه عليه ، كما قال الفرزدق لذى الرمة ... إلى ضروب من دقيق المعرفة يَقِل هذا فى جنبها ؟ وإذا لم يصح الغلط عليهم ، ولم يجز أن يُدَّعى أنه كان معهم فى زمانهم من كان بالأمر أعلم ، وبالذى وقع التحدى إليه أقوَم ؛ فقد زالت الشبهة فى كونه معجزا له(٢) .

واستند فى العلاج العملى إلى النقل : أى ما نقله العلماء من أقوال العرب ، وما نقلوه عن أحوالهم ـ فأورد ما قاله الوليد بن المغيرة (٩٥ ق . هـ ـ ١ / ٥٣٠ ـ ٦٢٢) وعتبة بن ربيعة (٢ / ٦٢٤) من الكفار ، وأبو ذر جندب بن جنادة الغفارى (٣٢ / ٦٥٢) من المسلمين فى الإشادة بالقرآن(٣) .

---

(١) أعلام ٧٣ .

(٢) الشافية ٥٨٦ ـ ٧ . سلطان ١٣٣ ـ ٤ .

(٣) الشافية ٥٨١ ـ ٥ . سلطان ١٣٢ . وانظر إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٤ .

ثم ناقش إمكان الاستناد إلى هذه الأقوال ، فقال : اعلم أنه لا يجوز أن يقال - فى هذا وشبهه - إنه لا يكون دليلا حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض حين خلوا بأنفسهم ، فتفاوضوا وتحاوروا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض . وإن كان منه من كلام المؤمنين أو ممن قاله ثم آمن ، فإنه لا يصح الاحتجاج به فى حكم الجدل ، من حيث يصير كأنك تحتج على الخصم برأى تراه أنت ، وبقول أنت تقوله. وذلك أنه إنما يمتنع أن يدل إذا صدر القول مصدر الدعوى والشىء يدفعه الخصم وينكره . فأماما كان مخرج التنبيه على أمر يعرفه ذو والخبرة ، وأطلقه قائله إطلاق الواثق بأنه معلوم للجميع ، وأنه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنقص إلا وهو يُحوِج إلى تسليمه والاعتراف به - شاء أم أبى - فهو دليل بكل حال ، ومن قول كل قائل ، وحجة من غير مَثْنوية [استثناء] ، ومن غير أن يُنظر إلى قائله : أموافق أم مخالف . ذاك لأن الدلالة ليست من نفس القول وذات الصفة بل فى مصدرهما ، وفى أن أُخرجا مخرج الإخبار عن أمر هو كالشىء البادى ، لا يُعمِل أحد بصره إلا رآه(١) .

وإذا صرفنا النظر عن أقوال العرب إلى أحوالهم ، فنجده يقول : إنها دلت — من حيث كان المتعارف من عادات الناس التى لا تختلف ، وطبائعهم التى لا تتبدل — أنْ لا يسلموا لخصومهم الفضيلة ، وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، ولا ينتحلون العجز وهم يستطيعون قهرهم والظهور عليهم . كيف ، وإن الشاعر أو الخطيب أو الكاتب يبلغه أن بأقصى الإقليم الذى هو فيه من يَنْأَى [يفخر] بنفسه ، ويُدلّ بشعرٍ يقوله ، أو خطبة يقوم بها ، أو رسالة يعملها ؛ فيدخله من الأنفة والحمية ما يدعوه إلى معارضته ، وإلى أن يُظهر ما عنده من الفضل ، حتى إنه ليتوصل إلى أن يكتب إليه ، وأن يعرض كلامه عليه ، ببعض العلل ، وبنوع من التمحل . هذا ، وهو لم ير ذلك الإنسان قط ، ولم يكن منه إليه ما يهز ويحرك ويهيج على تلك المعارضة(٢) .

وإن كان المدعى ذلك بمرأى منه ومسمع ، كان ذلك أدعى له إلى مباراته وإلى إظهار ما عنده ، وإلى أن يعرف الناس أنه لا يُقصِّر عنه أو أنه منه أفضل .

---

(١) الشافية ٥٨٥ - ٦ . سلطان ١٣٣ .

(٢) الشافية ٥٧٧ - ٨ ، ٦٢١ - إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٤ - ٥ . سلطان ١٣٢ .

فإن إنضاف إلى ذلك أن يدعـوه الرجـل إلى مُمَاتنتـه ، ويحركـه لمقاولتـه ، فذلـك الذى يُسهر ليله ، ويسلبه القرار ، حتى يستفرغ مجهـوده فـى جوابـه ، ويبلـغ أقصـى الحد فى مناقضته .

وإذا كان هذا واجبا بين نَفْسين لا يروم أحدهما من مباهاة صاحبه إلا ما يجرى على الألسُن من ذكره بالفضل فقط ، فكيف يجوز أن يظهر — فـى صميـم العـرب ، وفى مثل قريش ذوى الأنفس الأبية ... — من يدعى النبوة ... ثم يقول : « وحجتى أن اللّه قد أنزل علىّ كتابا عربيا مبينا ، تعرفون ألفاظه ، وتفهمون معانيه ، إلا أنكـم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله ، ولا بعشر سور منه ، ولا بسورة واحدة ، ولوجهدتم جهدكم ، واجتمع معكم الجن والإنس » - ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه، ويبينوا سَرَفه فى دعواه ، مع إمكان ذلك ، ومع أنهم لم يسمعوا منه إلا ما عندهم مثله أو قريب منه ... [(١)] .

وهل سُمِع قط بذى عقل ومُسْكة استطاع أن يُخْـرس خصمـا لـه قـد اشـتط فـى دعواه بكلمة يُجيبه بها ، فترك ذلك إلى أمور يُسفَّه فيها ، ويُنسَب - معها - إلى ضِيقِ الذّرْع والعجز ، وإلى أنه مغلوب قد أعوزته الحيلة ، وعَسُر عليه المَخْلص ؟ [(٢)] .

أم هل عُرِف - فى مجرى العادات ، وفى دواعى النفوس ومَبْنى الطبائع — أن يَدَع الرجل ذو اللب حجته على خصمه : فلا يذكرها ، ولا يُفصح بها ، ولا يُجلّـى عـن وجهها ، ولا يُريه الغلط فيما قال ، والكذب فيما ادعـى ، لا ، ولا يَدَّعـى أن ذلـك عنده ، وأنه مستطيع لـه ، بـل يجعـل أول جوابـه لـه ومعارضتـه إياه التسـرع إليـه ، والسفه عليه ، والإفراط فى أذاه ؟[(٣)] .

أم هل يجوز أن يخرج خارج من الناس على قوم لهم رياسة ، ولهـم ديـن ونِحْلـة ، فيؤلب عليهم الناس ، ويدبر فى إخراجهم من ديارهم وأموالهم ... وعمدته التى يجد

---

(١) الشافية ٥٧٧ - ٩ ، عبد الفتـاح لاشين ٤٩٠ . إعجـاز الخطيـب ١ / ٢٦٥ — ٦ . عـتر ١٧٢ . سلطان ١٣٢ . وانظر الغزالى ١٥٣ .

(٢) الشافية ٥٧٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ .

(٣) الشافية ٥٧٩ - ٨٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٦ - ٧ .

بها السبيل إلى تأليف من يتألّفه ، ودعاء من يدعوه ، دعوى له ، إذا هى أُبطلت بَطَل أمره كله ، وانتقض عليه تدبيره ؛ ثم لا يُعرَض له فى تلك الدعوى ، ولا يُشغَل بإبطالها ، مع إمكان ذلك ؟

وهل مَثَل ذلك إلا مَثَل رجل عرض له خصم من حيث لم يحتسبه ، فادعى عليه دعوى ، إنْ هى سُمعت كان منها على خَطَر فى ماله ونفسه فأحضر بينة على دعواه تلك . وعند المدَّعَى عليه ما يُبطل تلك البينة أو يعارضها ، وما يحول - على الجملة - بينه وبين تنفيذ دعواه . فيَدَع إظهار ذلك ، والاحتجاج به . ثم يصير الحال بينهما إلى المحاربة ... ولا يقع له فى أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضى الذى قضى لخصمه بَديّا ، فيقول : لقد كانت عندى - حين ادعى ما ادعى - بينة على فساد دعواه ، قد تركتها تهاونا بأمره أو أُنسيتُها أو منع مانع دون عرضها . وها هى هذه قد جئتكم بها ، فانظروا فيها لتعلموا أنكم قد غُررتم .

ومعلوم - بالضرورة - أن هذا الرجل ، لو كان من المجانين ، لما صح أن يفعل ذلك. فكيف بقوم هم أرجح أهل زمانهم عقولا ، وأكملهم معرفة ، وأجزلهم رأيا ، وأثقبهم بصيرة ؟

فهذه دلالة الأحوال[١] .

---

(١) الشافية ٥٨٠ - ١ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٦٧ . عتر ١٧٢ . سلطان ١٣٢ .

تعقيب

طبيعى أن يكون هذا الفصل من أهم الفصول لأنه يحتوى على القاعدة الأساسية التى بنى عليها الإعجاز .

ولذلك نجد الجاحظ ـ أول من تناول شيئا من هذا الفصل ـ فطن إلى أهم فكرة قام عليها الفصل كله ، وهى عدم جوازا دعاء إهمال المعارضة مع الظروف التى توفرت للعرب فى ذلك الوقت . ومن أجل ذلك كثر دورانها عند المؤلفين بعد الجاحظ ، الذى يمكن القول إن كل من جاء بعده أتى بعبارته نفسها أو ما يؤدى معناها .

ويبرز عبد الجبار بوضع المبدأ الرئيسى الذى يجب أن يستند إليه كل من يتصدى لهذه المسألة ، ليصل إلى الحكم الصائب .

أما الباقلانى فيبرز بكثرة الأفكار التى أتى بها ، واتبعه فيها كثيرون .

ويتضح احتكام كل من كتبوا عن هذه المسألة إلى النظر العقلى ، والعادات البشرية ، سواء كان الكاتب من المعتزلة أو من السنة .

واحتوى هذا الفصل على قضية مهمة ، أعنى قضية القول بأن محمدا هو مؤلف القرآن . فقد تعرض لها العلماء فى أثناء حديثهم عن عجز جميع البشر ـ ومحمد منهم ـ عن المجىء بمثل القرآن . وأفاضوا فى الرد عليها هنا ، كما فعلوا ذلك فى فصول خاصة بها .

الفصل الثالث

إبطال دعوى إخفاء المعارضات

يبدو أن هناك من زعم أنه قد وجدت معارضة ـ أو معارضات ـ للقرآن غير أن المسلمين ـ عندما صارت السلطة لهم ـ تمكنوا من القضاء على هذه المعارضات ، وإعدام أخبارها ، فصارت كأنْ لم تكن . ولذلك تصدى المفكرون المسلمون للرد على هذا الزعم .

١ ـ لو تمت لذاعت

وكان أول من فعل ذلك من مصادري : الجاحظ ، مما يدل على قدم هذه الدعوى . قال الجاحظ : لو طمع فيه [طامع] لتكلفه[1] . ولو تكلفه لظهر ذلك[2]. ولو ظهر ذلك لوجد من يستجيده ، ويحامي عليه ، ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض . فدل ذلك العاقل على عجز القوم[3] .

وقد تولد من قول الجاحظ : إن المعارضة لو تكلفها متكلف لظهر ذلك ، كثير من الأقوال تدور في فلكه .

فقد نقل عبد الجبار عن شيوخه : لو كان القوم أتوا بالمعارضة لكان حالها كحال القرآن فيما يقتضي وجوب نقلها ، لأن قرب العهد واحد ، والحاجة والدواعي

---

(١) الحيوان ٤/٨٩ . الإتقان ٢/٣٢٧ . الرافعي ١٧٥ . الحمصي ٢٨ . العماري ٢٨ ، ٧٤ ـ ٥ . أمين ١٤٨ . شحاتة ١٥٦ . سلطان ٦١ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٤ . نيازي ١٢٦ . وانظر معترك ١/٢. حميدة ٣٤ .

(٢) الإتقان ٢/٣٥٧ . الرافعي ١٧٥ . الحمصي ٢٨ . العماري ٢٨ ، ٧٤ ـ ٥ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩. أمين ١٤٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٦ ـ ٧ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٤ . نيازي ١٢٦ . وانظر الماوردي ٧١ . العلوي ٣/٣٧١ ، ٣٨٤ . معترك ١/٢ . القطان ٢٦٧ . موسى لاشين ٢٤٥ . حميدة ٣٤ .

(٣) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . الرافعي ١٧٥ . الحمصي ٢٨ . العماري ٢٨ ، ٧٤ ـ ٥ . إعجاز الخطيب ١/١٣٩ . أمين ١٤٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٤ . شحاتة ١٥٦ ـ ٧ . أبو فرحة ١١٠ . أبو موسى ٣٦٤ . وانظر معترك ١ / ٢ . موسى لاشين ٢٤٥ . حميدة ٣٤ .

فيهما تتفق . فكان يجب أن يُنقلا على حد واحد . فإذا لم يحصل نقلٌ لمعارضة ، علمنا أنه لا أصل لها(١) .

وأفرد عبد الجبار شيخه أبا هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى بالذكر من شيوخه الذين تصدوا لإبطال دعوى كتمان المعارضة ، قال : ذكر شيخنا أبو هاشم أن المعارضة - لو وقعت من القليل - كانت لا تلبث أن تنكشف على الأيام ، إن لم تنكشف فى الحال ، لأن العادة لم تجر فى كتمان مثل ذلك بالاستمرار ...

والمتعالم من حال أسرار الملوك - مع تشددهم فى كتمها - أنها قد انكشفت على الأوقات . فكيف يجوز فى مثل ذلك أن ينكتم أبدا ؟(٢) .

وتبعه الخطابى الذى تعرض للمسألة على صورة سؤال اعتراضى ورد تفنيدى قال : ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ، ولكنه لم يُنقَل إلينا ، وغُيِّب عنا ذكره ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع رسمه ، وامَّحَى أثره ؟

وكان رده : هذا سؤال ساقط .

والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس - خواصهم وعوامهم - من نقل الأخبار ، والتحدث بالأمور التى لها شأن ، وبالنفوس تعلُّق . وكيف يجوز ذلك عليهم فى مثل هذا الأمر العظيم الذى انزعجت له القلوب ، وسار ذكره بين الخافقين(٣) .

والتقط الباقلانى الخيط من الجاحظ وقال : لو كان وُجد له مثل لكان يُنقَل إلينا ولعرفناه ، كما نُقل إلينا أشعار أهل الجاهلية ، وكلام الفصحاء والحكماء من العرب؛ وأدِّى إلينا كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم ، وصنوف فصاحتهم(٤) .

وقال عبد الجبار : لو أن العرب عارضت القرآن لوجب أن ينقل ما لحق النبى ولحق أصحابه من تأثير المعارضة ، كما نقل اليسير مما كان يلحق أمره من

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٢ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٦ . من قضايا ٢١٢ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٣ . سلطان ٧١ .

(٣) بيان ٥٠ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٥٤ ، ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ١٧٩ . من قضايا ١٥ .

(٤) إعجاز ٢٤ . وانظر العلوى ٣ / ٣٨٣ . الحمصى ٤٢ .

الاضطراب عند الحروب وغيرها . فإذا لم ينقل ذلك فليس إلا لأنه لم يكن . وهذا يقتضى نقض العادة . وإن كان ذلك الاختلال قد وقع ثم لم ينقل ، فهو نقض للعادة أيضا[١] .

وقال أيضا : فإن قال قائل : فقد جوزتم أن يكون فى أيام إقليدس وصاحب المجسطى [من الإغريق الاسكندريين] من يساويهما ، فيما ظهر عنهما من العلم ، وإن لم ينقل خبره ، فجوِّزوا مثله فى المعارضة .

قيل له : قد بينا أن المعارضة - لو وقعت - لكان حالها كحال القرآن ، فيما يقتضى نقله ، بل أزيد . فبين - فيما سألت عنه - أن حال غيرهما كحالهما ، فيما يوجب نقل خبره ، ليتم سؤالك . وإنما يتم لك ذلك لو وقع فى الوقت - فيما ألقياه وتعاطياه - من المنافسة مثل ما ذكرناه فى حال القرآن . فكان يجب أن يكون نقل خبر غيرهما كخبرهما . فأما إذا جاز - فى وقتهما - أن لا ينافس فيما تعاطياه ، بل يجوز أن لا يكون حالهما قد ظهرت فى وقتهما كظهورها الآن ، لأنه لا يمتنع فى كثير من العلماء أن يكونوا على ضرب من الخمول ، ثم يظهر حالهم فيما صنعوه ، فكيف يصح ما ادعيته[٢] .

على أنا نجوز - فى أيامهما - من هو مثلهما أو فوقهما ، ولم يصنف ما يجب نقله، بل عوّل على تصنيفهما ، أو لم يكن له إلى ذلك داع ، فلا يجب نقل خبره كوجوب نقل حالهما لهذه المباينة[٣] .

على أنا قد بينا اختصاص المعارضة - لو كانت - والقرآن ، بقرب العهد ووجوب النقل . وليس كذلك حال ما سأل السائل عنه ، لأن بعد العهد ، وقلة الحاجة إلى النقل ، تؤثر فى ذلك . فلا يمتنع إثبات النقل فى بعضه دون بعض ، كما نعلم اختصاص العالمين فى زمن واحد ، ويختص أحدهما بأصحاب ومتعصبين ، فينقل من أمره ما لا ينقل من أمر صاحبه . وهذا معروف من أحوال كثير من العلماء فى أمة نبينا محمد[٤] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٣٩ - ٤٠ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٥ . وانظر فقيهى ١٩ - ٢٠ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٥٦ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٥٦ ، ٣٠٦ - ٧ .

ولهذه الجملة قلنا : إنه لا يمتنع فى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ـ لبعد العهد ، وفقد الحاجة ، وخفة الدواعى ـ أن ينقل خبرهم دون معجزاتهم ، أو معجزاتهم دون شرائعهم ، ولم نجوز مثل ذلك فى شريعة محمد ولا فى سائر أحواله[١].

وعلى الرغم من أن الماوردى ذهب إلى وقوع كتمان في بعض ما يتصل بمحمد ، رفض قضية كتمان معارضة القرآن . فقد صاغ اعتراض القائلين بالكتمان على النحو التالى : فإن قيل : فليس يمتنع أن يكونوا قد عارضوه بمثله فكتم كما كتم ماهُجى به من الأشعار ، وقُرِف به من العار .

ثم قال فى الرد :

لو عارضوه لظهر . ولو ظهر لانتشر ، لأن تكاتم الاستفاضة لا يستطاع لما فى الطباع من الإذاعة ، وفى نفثات الصدور من الإشاعة[٢] ؛

ولقيل : قد عورض فكتم كما قيل : هجى فكتم[٣] .

ولو جاز هذا فى معارضة القرآن لجاز مثله فى معجزة كل نبى ، فيفضى إلى إبطال كل معجز . وهذا مدفوع فى معارضة غير القرآن فكان مدفوعا فى معارضة القرآن[٤] .

وقال الزمخشرى : لو عارضوه بشىء ، لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله ـ فيما عليه مَبْنى العادة ـ محال ، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددا من الذابين عنه[٥] .

وتعرض العلوى للمسألة ، ورد عليها بأربعة أجوبة ، أخذها كلها من المعتزلة وعبد الجبار[٦] .

وصرح عبد الرحمن بن أحمد الإيجى بأن القرآن لم يعارض ، واستدل على ذلك بشىء من كلام الزمخشرى فقال : لو عورض لتواتر [لا] سيما والخصوم أكثر من حصى البطحاء ، وأحرص الناس على إشاعة ما يبطل دعواه[٧] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٦ ، ٣٤٠ . (٢) أعلام ٧١ . (٣) أعلام ٧١ .
(٤) أعلام ٧١ . (٥) الكشاف ١ / ٢٤٨ . (٦) الطراز ٣ / ٣٨٣ - ٤ .
(٧) المواقف ١ / ٣٤٩ .

وذكر الآلوسى أنه ﷺ تحدى مصاقع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا لنقل إلينا ، لتوفر الدواعى إلى نقله[١] .

وتبعه محمد رشيد رضا فقال : لو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعى على نقلها بالتواتر أيضا ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم[٢].

وأجمل نعيم الحمصى ما يتصل بهذه القضية فى قوله : قال بعضهم بأن هذه المعارضة ربما وُجدت ، ولكن المسلمين أهملوها وأخفوها . وأُجيبوا بأنه لو وجدت معارضة يصح أن تساوى القرآن وتقاربه ، لاشتهر أمرها . والأقرب للصواب أن يكون العرب قد حاولوا معارضة القرآن فما استطاعوا ، وجاؤوا بما هو دونه بمراحل[٣] .

وقال : لا يصح أن يقال : إن المسلمين أخفوها أو أنها ضاعت ، لأن الخصوم كانوا يحفظونها لو وُجدت ، ولا يتأتى أن يجهلها المسلمون لو وُجدت لأنها تنقض ما يؤيد عقيدتهم[٤] .

ويجرى قول الجاحظ فى عروق قول محمد حنيف فقيهى : لو كانت لروَّجها المناهضون للنبى أيما ترويج[٥] ؛ ومناع القطان : لأُثر هذا عنهم ، وتطاير خبره فى الأجيال[٦] ؛

ونقل محمد أبو زهرة أن الأفاكين قالوا : إن التاريخ الإسلامى لم يرو غير الذين صدقوا وآمنوا ، فحذفوا ما كانت فيه معارضة للقرآن .

وصرح بأنه يرد هذا القول أمران :

أولهما أنه ما كان يمكن أن يعم الإيمان وثمة معارضون للقرآن فى جد لا لهو فيه ولا عبث .

ثانيهما أن أعداء الإسلام كانوا فى كل زمان ، منذ ظهر محمد إلى أن قبضه اللّه ، ودخل الناس فى دين اللّه أفواجا أفواجا . فالزنادقة كانوا منبثين فى مشارق الأرض

---

(١) روح ١ / ١٩٨ ، ١١ / ١١٩ . (٢) المنار ١ / ١٦٥ . الحمصى ٣١٥ .
(٣) فكرة ٢٤ - ٥ ، ٢٧ . (٤) فكرة ٤٢ .
(٥) نظرية ٢٠ . (٦) مباحث ٢٦٧ . وانظر قمحاوى ٢ / ١٧٠ - ١ .

ومغاربها ، لا يألون المسلمين وبالا . وكان أعداء الإسلام فى أوساط المسلمين وبين ظهرانيهم ، فبثوا فيهم الأفكار المنحرفة ، والأقوال الهادمة ، والمذاهب المخربة . وأولئك ما كانوا ليستروا الكلام الذى عورض به القرآن ، إذ يرون فيه هدم الأصل[١] .

٢ ـ دعوى تزعزع الثقة فى الأخبار

رأى أبو هاشم الجبائى أن تصديق ادعاء كتمان أخبار المعارضات التى تمت يزعزع الثقة بالأخبار القديمة . قال : لو جوزنا مثله ، لم نأمن ـ فى زمن كل متقدم فى الشعر ، وفى زمن كل عالم مبرز ـ أن جماعة شاركوه وساووه ، ومع ذلك انكتم أمرهم البتة فى سائر الأوقات[٢] .

وقال الخطابى : لو جاز فى مثل هذا الشأن ـ مع عظيم خطره ، وجلالة قدره ـ لجاز أن يكون فى العصر نبى آخر ، أو أنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكُتم الخبر فيها فلم يظهر . وهذا مالا يتوهَّم أن يكون لخروجه من سوم الطباع ومجارى العادات[٣] .

والتفت عبد الجبار إلى ما يمكن أن يثيره التصديق بوقوع معارضة غير أنها لم تنقل من مشاكل . قال : لو جاز أن يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل ـ ويجوز ذلك ، مع ما فيه من قلب العقول والعادات ـ ليجوزن أن يقال : إنه قد كان مع رسول اللّه قرآن آخر ، أعظم حالا من هذا القرآن ، حتى صار ـ لعظم حاله ـ بحيث لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا تمكن فيه معارضة ومساواة ، ولم ينقل ، وإن كان قد نقل هذا القرآن[٤] .

بل كان يجب أن يجوز فى زمان محمد : من ادعى النبوة ، وظهرت عليه المعجزات الباهرة ، ونسخ شريعته ، ودل على بطلان أمره ، ولم ينقل شىء من أمره. وبطلان ذلك يقتضى بطلان القول بكون المعارضة ، وأنها لم تنقل ، لأن الطريقة ـ فى بطلانها ـ واحدة[٥] .

---

(١) المعجزة ٧٢ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٧٣ .
(٣) بيان ٥٠ . وانظر عبد الجبار ١٦ / ٢٥٤ ، ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٩ . من قضايا ٢١٥ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٥٤ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٨ ـ ٩ . من قضايا ٢١٥ .
(٥) المغنى ١٦ / ٢٥٤ ، ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٩ . من قضايا ٢١٥ .

وإنما يستحسن ارتكاب مثل ذلك من يستهزئ بنفسه ودينه ، ويستعمل المباهتة . فأما من صدّق نفسه ونصحها وأنصف منها ، فسينزه نفسه عن ارتكاب هذه الجهالات(١) .

ولا فرق بين من ادعى ذلك ، وبين من ادعى أنهم أظهروا إحياء الموتى عند ادعاء تكذيبه وإبطال أمره ، واحتاجوا - مع ذلك - إلى محاربته . ولم ينقل ذلك - وفي نقله مجموع الفوائد - ونقلت المحاربة ، ولا فائدة فيها(٢) .

وكان رد ابن حزم على من ادعى كتمان المعارضات : لو أمكن ما تقول لأمكن لغيرك أن يدعى فى آيات موسى مثل ذلك ، بل يكون أقرب إلى التلبيس(٣) .

٣ - الاستناد إلى عدم إخفاء الفاضل لفضله

قال أبو هاشم لم تجر العادة بأن يتمكن العاقل من فضل باهر ، يساوى به من تقدم كل التقدم ، ويحب كتمانه ، لبعض الأغراض . وإن أوجب ذلك فى وقت لتقيَّةٍ وخوف ، فلابد من أن يحب من بعد . ولا يجوز - فيما حل هذا المحل - أن لا يظهر فى الواحد ، فكيف فى الجماعة(٤) .

واحتذى عبد الجبار بأبى هاشم فذهب إلى أن العادة لم تجر بأن لا يظهر الفاضل فضله ، عند التنافس والتقريع . ومتى كف بعض الفضلاء عن ذلك ، لم يتأس به غيره من أهل الفضل ، لأن الدواعى فى ذلك تصرف الأفاضل عن التأسى ، وتبعث على المباينة ، فى إظهار الفضيلة ، ولولا صحة هذه الطريقة ، لم تكن تظهر فضائل الناس فى علومهم وغيرها(٥) .

وذكر الزرقانى أن القرآن لو كان مصدره نفس محمد لكان من الفخر له أن ينسبه إلى نفسه ، ولأمكن أن يدعى به الألوهية فضلا عن النبوة(٦) .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٤ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٩ . من قضايا ٢١٥ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٥ . (٣) الفصل ١ / ١٨٨ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٧٣ . سلطان ٧١ .
(٥) المغنى ٢٧٣/١٦ . سلطان ٧١ . (٦) مناهل ١ / ٧٩ .

٤ - مبادئ عامة

ولم يقنع عبد الجبار بما وافق فيه غيره ، ولكنه أفاض في الحديث عن هذا العنصر ، وتقليبه على وجوهه المتعددة . فافتتح بوضع مبدأ عام ينطلق منه ، هو أن الشيء لا يمكن عده موجودا إلا إذا وُجدت أخبار عنه . قال : قد بينا - في باب الأخبار - أنا قد نعلم انتفاء الشيء لفقد الخبر ، إذا كان ذلك الشيء - مما لو كان ثابتا - لوجب ظهور الخبر عنه . وهذا كما نعلم أنه ليس بين بغداد وحلوان العراقية مدينة مثل بغداد ، لأنه لو كان لظهر الخبر عنها كظهور بغداد ، لأن الداعي إلى الإخبار عنهما يتفق[١] .

وأعقبه بمبدأ ثان للانطلاق يقول : لا يجوز أن يتساوى أمران فيما يجب له ظهور الخبر عنهما . ويُنقَل خبر أحدهما دون الآخر[٢] .

وبنى على هذين المبدأين أنه : لو كان من تحداهم محمد بمثل القرآن أتوا بالمعارضة، لوجب أن تنقل على وجه يظهر كظهور نقلهم للقرآن وتحديه به[٣] ؛

ولكان من يعادي وينافس يديم نقله وحفظه كالقرآن ، وكان يجب أن يكون ظاهرا ، من قبلُ وفي هذه الحال[٤] .

وبطلان ذلك يبين أن القوم لم يعارضوا القرآن ، وأنهم سلموا له الأمر[٥] .

ولولا صحة ذلك لم نعلم تقدم العلماء والشعراء في الأزمنة المتقادمة[٦] ؛

بل كنا نجوز في أصحاب رسول الله من لم ينقل خبره - ممن هو أشهر بالعلم والفضل - ممن نُقل خبره[٧] ؛

وفي أيام جرير والفرزدق والأخطل - ممن يتقدمهم التقدم العظيم - ولم ينقل خبره[٨] ؛

وفي أيام أبي حنيفة وأصحابه بالكوفة من برز عليهم وتقدمهم ، ولم ينقل

---

(١) المغني ١٦ / ٢٥٠ . (٢) المغني ١٦ / ٢٥٢ ، ٢٥٤ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٨ . من قضايا ٢١٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٦٦ .

(٣) المغني ١٦ / ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٣٣٩ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٦ .

(٤) المغني ١٦ / ٢٥٠ - ١ . وانظر العلوي ٣ / ٣٨٤ .

(٥) المغني ١٦ / ٢٥١ . (٦) المغني ١٦ / ٢٥١ .

(٧) المغني ١٦ / ٢٥١ . (٨) المغني ١٦ / ٢٥١ .

خبره ؛

وكذلك فى أيام أبى الهذيل والنظام بالبصرة .

ومن ارتكب هذه الطريقة فقد رضى لنفسه بالجهالات[١] .

فكيف يصح - مع قوة الدواعى - أن يظفروا بالمعارضة التى فيها إبطال أمر محمد ، ولا تنقل ، وهذه حالها . فقد كان يجب فى المعارضة - كما تظهر - أن تنقل ، وأن لا يختل نقلها من هذا الوجه[٢] .

على أنا نعلم - بعد أيام رسول اللّه ، عصرا بعد عصر - أن فيها من يعادى النبى ممن يرجع إلى فصاحة ومعرفة بهذا الشأن . فقد كان يجب - إن لم تنقل المعارضة - أن يبتدئها من يَحْدُث فى هذه الأعصار ؛ ويجب - إن لم يظهروها - أن تظهر على الأيام ، كما نعلم من حال الأمور التى لا تلبث أن تنكشف ، وإن لم يتع الانكشاف فى الوقت الذى وقعت فيه على حد الظهور .

وبطلان ذلك يبين أن المعارضة لم تقع[٣] .

وكما وقعت الحاجة إليها أُولى ، فالحاجة إليها ماسة على الدوام ، ما دام القرآن منقولا . فكيف يصح - والحال هذه - أن ينقل القرآن ، ولا تنقل المعارضة[٤] ؟

ولو كانت المعارضة قد وقعت ، لكان إظهارها أولى من المحاربة فى طلب ما أرادوه[٥] .

وبعد أن ذكر أن المعارضة حالها كحال القرآن فى وجوب النقل ، استطرد فقال: بل لو قيل : إن الدواعى إلى نقل المعارضة أقوى - لو كانت - منها إلى نقل القرآن ، لصح ذلك ، لأن التنافس فى المعارضة أقوى منه فى الابتداء . وهذا متعالم من أحوال الأمور : المبتدئ بالشيء لا تكون دواعيه كدواعى من ينافس فى المعارضة . وكذلك يجب نقله أقوى من نقل المبتدأ ، لأن العادة جارية فى نقل الشيء أنه فى قوة الدواعى بحسب قوته فى حصوله ووجوده . ومتعالم من حال القوم أنهم بلغوا

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥١ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٣ ، ٢٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٧ . من قضايا ٢١٣ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٥٥ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٩ . من قضايا ٢١٦ . وانظر أبو زهرة ٧٢ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٥٣ .

(٥) المغنى ١٦ / ٢٦١ .

النهاية ، فيما يتصل بإبطال أمر رسول الله ، حتى لم يبق ضرب من ضروب الدواعى إلا وحصلت فيهم . فلابد من أن تكون حالهم فى المعارضة ، وحرصهم عليها أقوى من حال القرآن ، فكذلك القول فى النقل ، لأنه يختص بحصول الظفر به فى الطِّلِبة[١] .

وكذلك الحاجة فيما يرجع إلى الدين تقتضى قوة النقل . فما هو حجة أولى من نقل الشبهة . ولو صحت المعارضة لكانت كالحجة ، وكان القرآن كالشبهة ، لأن بالمعارضة تُعلَم من حاله أنه ليس بمعجز ، وتكون المعارضة - من حيث كشفت ذلك من حال القرآن ودلت عليه - حجة[٢] .

تعذر التواطئ على الكتمان

رد عبد الجبار على افتراض الكتمان بأن القول بالتواطئ عليه مبنى على أن المعارضة لا تمكن إلا من النفر القليل . وأعلن : إنما يصح ذلك لو تحداهم بكل القرآن . فأما إذا تحداهم بمثل سورة منه ، فقد يصح ذلك فى المتوسط فى الفصاحة كما يصح من المتقدم ؛ لأن المتعالم من حال المتوسط أنه قد يساوى المتقدم فى كثير من كلامه ، بل ربما اتفق فى شعره وخطبه القليل ، مما يزيد فى الفصاحة على جميع الكلام الواقع ممن تقدَّمه .

ولهذا الوجه يقع فى كلام المتقدم فى الفصاحة المتوسط والركيك . ولو كان تقدُّمه يقتضى - فى عموم كلامه - التقدم ، لما صح ذلك .

ولذلك نجد المبرز تختلف أحواله فيما يأتيه من الكلام بحسب الاتفاقات . وهذا بيِّن فى سقوط ما ظنه هذا السائل[٣] .

وبعد فالمتوسط إذا أتى بما يقارب القرآن ، كان بمنزلة أن يأتى بما يماثله فى أن التقريع يبطل به . فقد كان يجب أن يفعلوا ذلك ، إن حصل من المتقدمين مواطأة . وقد كان يجب - فى هذا الوقت وفى الأزمان الماضية - أن يأتوا بما يقارب أو يماثل ،

---

(١) المغنى ١٦ / ٥٢ - ٣ ، ٢٥٥ - ٦ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٦ . من قضايا ٢١٢ . عبد الفتاح لاشين ٤٦٧ .

(٢) المغنى ١٦/٢٥٣ . إعجاز الخطيب ١/٤٧٧ . من قضايا ٢١٣ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧١ ، ٣٨٣ . الحمصى ١٣٢ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٧٤ .

لأن المواطأة والسبب فيها قد زال . وهذا الذى قدمناه يبطل ما يتعلقون به من أن الفصاحة لابد من أن تنتهى إلى عدد قليل أو واحد(١) .

٥ - الكتمان لعلة لا يلزم الكشف عنها

وفطن عبد الجبار إلى وجوب إسقاط ما قد يقدمه المعارضون من تعلات لعدم نقل أخبار ما وقع من معارضات ، فقال :

فإن قال قائل : جوِّزوا أنهم عارضوه ، لكنه لم ينقل لعلة من العلل ، لأن الأمور الظاهرة قد لا تنقل لبعض العلل . وإنما لا يجوز مثل ذلك فى البلدان ، وما يجرى مجراها ، لأنه لا علة تقتضى الكف عن نقلها . وأما ما يتعلق به القهر والغلبة ، والرهبة والرغبة ، والمنفعة والمضرة ، والأعراض والدواعى ، **فقد يجوز - لبعض العلل -** أن لا ينقل .

ولا يلزمنا الكشف عن العلة ، لأنا لا نجعل ذلك مذهبا ، فنحتاج أن نبينه . وإنما المقصد - بما نورده - إثبات التجويز ، وأن لا وجه يُقطع به .

قيل له : إنما كان يسوغ ما ذكرته لو لم نذكر الوجه الذى لأجله كان يجب نقل المعارضة .

وقد علمنا أن الوجه الموجب لنقله ، لو كان ثابتا فإذا صح وانكشف ، لم يمكن **دفعه لعلة مجهولة ، على ما سألت عنه .**

هذا إن كان العلم بأنهم لو عارضوه كان يجب نقله وظهوره ووقوع العلم به مكتسبا . فأما إن دخل فى باب الاضطرار ، فالسؤال الذى أوردته أبين سقوطا . لأنه بمنزلة من شككنا فى أن بين حلوان وبغداد مدينة مثل بغداد ، بمثل هذا الكلام .

على أن العلل التى تمنع من نقل الأمور الظاهرة التى قد علم من حال ما يقاربها وجوب النقل لابد من أن تكون ظاهرة كالتواطؤ الذى نذكره فى الأخبار والتخويف إلى ما شاكله . وقد علمنا أن كل ذلك لا يتأتى فى نقل المعارضة . فالسؤال ساقط(٢) .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٧٤ - ٥ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٨ - ٩ .

٦ - الكتمان للمصلحة

والتفت عبد الجبار إلى تأثير المصالح أيضا فقال :

فإن قال : إن الرغبة والمنفعة والمشاركة فى الرياسة هى التى منعت من نقل المعارضة ، لأنهم رأوا أن فى نقلها حرمان ما يرجونه ، فلذلك لم تُنقَل .

قيل له : إن هذا أضعف من الأول ، وما قدمناه يسقطه ، لأنه : لو كان لمثل هذا لا تنقل الأمور الظاهرة ، لأدى إلى التشكك فى أكثر الأخبار ، بأن يقال : إن التعقب والرجاء فى قوة الرياسات وماشاكلهما منع من النقل .

فكيف يصح - مع ذلك - أن نعلم أخبار طوائف مختلفة الأحوال ، مع تعصب كل فريق منهم لصاحبه . فإذا كان ذلك لا يمنع من نقل الأخبار وظهورها ، فكذلك القول فى المعارضة(١) .

وقيل : قد كان فيمن يعد من الفصحاء كثرة ، لا تجوز على مثلهم التواطؤ على عدم النقل ، محبة للمشاركة فى رياسة محمد أو دفعا للمضار(٢) .

٧ - الكتمان للخوف

أما الخوف فقد أفاض فى الرد عليه عبد الجبار :

قال ، فإن قال : هلا جوزتم القول بأنه إنما لم ينقل لغلبة مستجيبى محمد ، وتخوفهم منهم !

قيل له : لا تسل عن هذا من يعرف أحوال العرب ، وأحوال الأخبار ، لأن المتعالم من حال الأخبار أنه لا ينقطع بهذا الجنس من الخوف ، بل لا ينقطع بشىء من الخوف .

أراد بذلك اشتهار العرب بالشجاعة والجرأة بحيث لا يستبد بهم الخوف فيمنعهم عن المعارضة .

وقيل له : الخوف إنما يقتضى ترك الإظهار [أى المعارضة] لا ترك النقل .

وربما دعا المنع إلى الإكثار من النقل . وهذه طريقة معروفة فيما يقع المنع فيه ، من سلطان وغيره ، أنه يكون أقرب إلى الانتشار ، من حيث تقوى الدواعى وتزداد بحصول المنع .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦١ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٢ .

والخوف إنما يقدح فيما لم يتقدم ظهوره . فأما إذا تقدم ذلك فيه ، فلا يقع المنع به .

وقد كان يجب فى المعارضة - لو وقعت - أن تظهر حالها فى من يعاديه ، وقد علمنا أنهم كثرة عظيمة ، بل كانوا أكثر من المستجيبين عددا . فكيف يقال : إن الخوف منع من ذلك ؟

وكيف يصح فى الخوف الذى لا يجرى مجرى المواطأة أن يمنع من نقل الأخبار ؟ وإنما يجرى هذا المجرى بأن يكون صادرا عن سلطان ، فتجمعهم المخافة فى حال أو أحوال . فأما إذا لم يكن كذلك ، فلابد من أن يخاف البعض دون البعض ، أو تختلف الاعتقادات فيه . فلا يجوز — فى مثله — أن يكون مانعا من الأخبار الظاهرة[١].

وبعد فإن المعارضة لو صحت لقويت أحوال الكفار بها ، وظهرت لأجلها أحوالهم فكان يصير سببا للقوة وزوال الخوف .

والمتعالم من حال الخائف : أن يبذل جهده فى التوصل إلى زوال خوفه . فكان يجب - على هذه الطريقة - نقل المعارضة من وجهين :

أحدهما التخلص من الشريعة وإبطال أمر محمد .

والثانى زوال الخوف من مستجيبيه ، لما كان يحصل فيه توهين حالهم ، وقوة أحوال من ينقل المعارضة ، ويحتج بها[٢] .

٨ - الاستشهاد بنقل ما لا يرضى المسلمين

واستشهد عبد الجبار على أقواله بنقل أخبار وقوع أشياء لم يكن المسلمون راضين عنها . قال : وبعد ، فقد نقل سائر ما كانوا يتعاطون ، مما لا يؤثر فى حال محمد وحال القرآن ، كالهجو والتكذيب والوقيعة ونسبته إلى السحر وغير ذلك . فكيف يجوز أن ينقل هذا ، ولا تنقل المعارضة ، مع ما فيها من الفوائد لهم ، لو كانت قد وقعت[٣] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٩ - ٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨٠ . من قضايا ٢١٦ - ٧ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٨١ . من قضايا ٢١٨ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٥٥ ، ٢٦٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٤٧٩ . من قضايا ٢١٦ .

- توجب شهادة أحوالهم أن المعارضة لم تقع منهم ، وذلك لأنه قد نقل أنهم تعاطوا في محاربته ما تكلفوه . فلو كانت المعارضة وقعت ، لكان إظهارها والاحتجاج بها أقرب إلى بلوغ مرادهم منه . فكيف يجوز نقل ما لا يؤثر ، وترك نقل ما يؤثر[١] .

- نقل مالا فائدة فيه من المعارضة الركيكة المحكية عن مسيلمة . فكيف يصح ألا تنقل المعارضة الصحيحة ، مع ما يحصل به من الفائدة لهم . ولنا أن نقدح - بذلك - في قولهم : إن المعارضة قد كانت ، لأنها لو كانت لكان نقلها أظهر من هذا الأمر السخيف الركيك[٢] .

تعقيب

واضح كل الوضوح أن الجاحظ أول من فطن إلى ضرورة الرد على دعوى وجود معارضات قد أُنجزت ، ولكن المسلمين استطاعوا القضاء على كل أثر لها ، وخبر عنها ؛ وأن قولته بأن مثل هذه المعارضة لو تمت لاستحال إخفاؤها ، ولكان لابد أن تظهر أو تشيع أخبار عنها - هذه القولة كانت العمود الفقرى لكل رد جاء بعدها ؛ وأن صاحب كتاب المغنى هو الذى تحمل العبء الأكبر فى الرد ، وعالجه من جوانب متعددة بل من حيث المبادئ التى يجب أن يقوم الرد عليها . فجاءت أقواله أشبه بالرسالة الكاملة فى هذا الشأن .

واختفى الباقلانى أو كاد ، بل كان الخطابى أكثر بروزا منه ، ولقيت أقواله شيئا من الرواج حتى عند المعتزلة .

ويتبين من متابعة أقوال عبد الكريم الخطيب أن ما قاله فى كتاب « مع قضايا القرآن » هو ما سبق أن قاله فى إعجاز القرآن نصا .

وقد اعتمد من قاموا بالرد على الطبيعة البشرية فى حب البوح ، وإظهار الفضل ، وكثرة خصوم الإسلام فى كل مكان ، ونقل أشياء لم يرض عنها المسلمون قديما ، ولا يرضون حديثا ، وما قد يؤدى إليه الإيمان بصدق هذا القول من أثر كبير فى زعزعة كل ما يروى من الأخبار حتى عن الأنبياء ومعجزاتهم .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٥٤ - ٥ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٥٣ - ٤ ، ٢٦٠ ، ٣٤٠. من قضايا ٢١٤ . وانظر العلوى ٣ / ٣٨٣ .

الفصل الرابع

الرد على التعلات

١ ـ عدم معرفة المضمون القرآنى

التفت الجاحظ إلى أن العرب حين لم يجدوا حيلة ولا حجة فى عدم المعارضة ، قالوا لمحمد : أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا .

كما التفت إلى أن القرآن استمر فى التحدى ، فطلب إليهم : هاتوها مفتريات . فلم يرم ذلك منهم أحد[١] .

ويبدو أن الرمانى كان متأثرا بهذا القول عندما ذكر أنهم لما تعللوا بالعلم والمعانى التى فى القرآن ، قال : ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾[٢] .

وقال عبد الجبار : فإن قال قائل : جوزوا ـ إن كانت المعارضة ممكنة ـ أنهم ظنوا أنه يتحداهم بما تضمنه القرآن من الإخبار عن الغيوب . ولولا ظنهم لذلك لما طلب بعضهم إلى بعض أخبار الفرس .

قيل له : إن هذا الوجه مما يدل على النبوة . لكنه ﷺ تحدى بالقرآن لمرتبته فى قدر الفصاحة لا لما ذكرته ، للوجوه التى بيناها من قبل .

ولا يجوز ـ فى العرب ـ أن تنصرف ـ فى هذا الباب ـ عن الطريقة المعتادة لهم فى التحدى إلى طريقة غير معتادة ، لأنهم قد عرفوا أن المنازعة والمباراة ـ فى سائر الكلام ـ كيف تقع ، وأنه لا معتبر فيه بالمعانى ، وإنما يعتبر قدره فى الفصاحة ، إما على كل وجه أو فى نظم مخصوص . وذلك يسقط هذا السؤال[٣] .

---

(١) الإتقان ٢ / ٣٢٧ . معترك ١ / ٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١ / ١٣٩ . أمين ١٤٨ . الصباغ ٥٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ ـ ٤ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرحة ١١٠ . وانظر الباقلانى ٢٠ . الطوسى ٥ / ٤٥٦ .

(٢) النكت ٨٩ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٨١ ـ ٢ ، ٣٤٣ .

وقال الجرجانى : يقال للمعارضين أيضا : أخبرونا عن معانى القرآن ، أهى صنف واحد أم أصناف ؟

فإن قلتم : صنف واحد ،

تجاهلتم ، فقد علمنا الحجج والبراهين ، والحكم والآداب ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والوصف والتشبيه والأمثال ، وذكر الأمم والقرون واقتصاص أحوالهم ، والنبأ عما جرى بينهم وبين الأنبياء ، وما لا يحصى ولا يعدّ .

وإن قلتم : هى أصناف ، كما لابد منه ،

قيل لكم : فقد كان ينبغى لشعراء العرب وبلغائها أن يعمد كل منهم إلى الصنف الذى تنفُذ قريحته فيه فيعارضه ، وأن يجعلوا الأمر - فى ذلك - قسمة بينهم . وفى هذا كفاية لمن عَقَلَ[١] .

وقال : مما يُحيل أن يكون التحدى قد كان إلى ما ذكروه ، ومع الشرط الذى توهموه ، أن العرب قد كانت تعرف المعارضة : ما هى ، وما شرطها . فلو كان النبى قد عدل بهم فى تحديه لهم إلى ما لا يُطالب بمثله ، لكان ينبغى أن يقولوا : إنك قد ظلمتنا ، وشرطت فى معارضة الذى جئت به ما لا يشترط أو ما ليس بواجب أو يشترط ، وهو أن يكون النظم الذى نعارض به فى أنفس معانى هذا الذى تحديت إلى معارضته ؛ فدعْ عنا هذا الشرط ، ثم اطلب فإنا نريك حينئذ مما قاله الأولون وقلناه ، وما نقوله فى المستأنف ، ما يوازى نظم ما جئت به فى الشرف والفضل ويضاهيه ، ولا يَقْصُر عنه .

وفى هذا كفاية لمن كانت له أذن تعِى ، وقلب يعقل[٢] .

وختم هذا الحوار بقوله : هذا وشبهه من القول فى دفعهم - مع تسليم ما ظنوه من أن التحدى كان إلى أن يعبَّر عن معانى القرآن أنفسها - ممكن غير متعذر ، إلا أن الأولى أن يُلزَم الجَدد الظاهر ، وأن لا يُجابوا إلى ما قالوه من أن التحدى كان إلى أن يؤتى - فى أنفُس معانيه - بنظم ولفظ يشابهه ويساويه ، ويُجزَم لهم القول بأنهم تُحدوا إلى أن يجيئوا فى أى معنى أرادوا مطلقا غير مقيد ، وموسَّعا عليهم غير مضيَّق، بما يشبه نظم القرآن أو يقرب من ذلك[٣] .

---

(١) الشافية ٦٠٨ . (٢) الشافية ٦١٠ . (٣) الشافية ٦٠٩ - ١٠ .

وعنى العلوى بالرد على من يقولون : لعل العرب إنما عجزوا ليس لأنهم غير قادرين على المعارضة ، وإنما تأخروا عنها لعدم علمهم بما اشتمل عليه القرآن ، من شرح حقائق صفات الله ، والبعث ، وأحوال الملائكة ، وغير ذلك مما لا مدخل لأفهامهم فى تعقله وإتقانه .

فقال : هذا فاسد لأمرين :

أما أولا فهَبْ أن العرب كانوا غير عالمين بحقائق هذه الأشياء ، لكن اليهود كانوا بين أظهُرهم ، وكان عليهم السؤال عنها ، ثم يكسونها عبارات يعارضون بها القرآن(١).

وأما ثانيا فلأن اليهود أنفسهم كان فيهم فصحاء : فكان يجب ـ مع علمهم بها ـ أن يعارضوه(٢) .

فلما لم تكن هناك معارضة : لا من جهة اليهود ، ولا من غيرهم ، دل على بطلانها وتعذرها(٣) .

كذلك نفى محمود محمد شاكر أن يكون إعجاز القرآن بعلم مالا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشىء من المعانى مما لا يتصل بالنظم والبيان(٤) .

٢ ـ كراهة المطاولة

كان الرمانى أول من حاول الرد على الادعاء بأن كراهة المطاولة هى السبب فى امتناع الكفار عن الإتيان بمثيل للقرآن . فقد تصور صاحب هذا الادعاء يقول : ما يُنكر أن يكونوا عدلوا عن معارضة السور الطوال للعجز ، وعدلوا عن معارضة القصار لخفاء المساواة فى الحكم ؟

ورد عليه قائلا : لا يجوز ذلك لأن الحجة لهم به قائمة ، لو كان الأمر على تلك الصفة . إذ كانت المعارضة ـ فيما جرت به العادة على ذلك ـ وقعت من عصبية قوم لأحد الفريقين ، وعصبية فريق للآخر ، على نحو نقائض جرير والفرزدق ، وقبلهما عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة . فلو كان مما يجوز أن يقع فيه الاختلاف بين الجيدى الطباع لخفاء الأمر فيه ، لم يتركوا المعارضة له والاحتجاج به(٥) .

---

(١) الطراز ٣ / ٣٨٥ ـ ٦ . الحمصى ١٣٢ . (٢) الطراز ٣ / ٣٨٦ . الحمصى ١٣٢ .
(٣) الطراز ٣ / ٣٨٦ . (٤) مقدمة مالك ١٧ ـ ٨ .
(٥) النكت ١٠٤ . فقيهى ١٥٣ .

وقال الخطابى : فإن قيل : إنما عاقهم عن المعارضة كراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه ، والانتقاد له فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين .

قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من البشر ، ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان[١] .

ورد عبد الجبار على قول المعاندين : خبِّرونا عن العرب : لو عارضت ثم اختلفوا، فقال بعضهم : هو مثل القرآن ، وقال بعضهم : ليس بمثل له ؛ إلى من كان يرجع فى إزالة هذا الخلاف ، حتى يصح أن يعلم كون القرآن حجة ؟

فقال : يبطل هذا القول بالاستدلال بالعلم بتركهم المعارضة مع الحرص الشديد عليها .

ثم اختلافهم فى هذا الباب لا يؤثر للوجوه التى قدمناها .

لا يجوز عندنا من الجمع العظيم - فيما يعلمونه باضطرار - أن يختلفوا فيه : فتقول طائفة : إنه على خلاف صفته ، لأن ذلك يوجب :

تجويز كونها جاهلة بذلك ، ولا يصح ذلك لأنه علم اضطرارى مشترك ،

أو يوجب كونها كاذبة . ولا يصح ذلك فى الجمع العظيم . وذلك يبطل ما سألوا عنه[٢] .

وقد يسألون عن ذلك على طريق القدح بأن يقولوا : إنما عدلوا عن المعارضة لتجويزهم - لو عارضوا - أن يقع هذا الاختلاف .

ورد فقال : **قد بينا أن المقارب من المعارضة كالمماثل فى أنه يوجب أن القرآن داخل فى طريقة العادة ، فيخرج عن كونه معجزا[٣] .**

فأما إذا قال قائل : **إنهم خافوا هذا الاختلاف من غير أن تكون المعارضة مقاربة، فقد بينا : أن ذلك مما لا يصح وقوعه من الجمع العظيم ، وبينا أن اختلافهم كاتفاقهم فى أن الاستدلال بالقرآن لا يصح .**

---

(١) بيان ٣٢ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٦٥ . (٢) المغنى ١٦ / ٣٠٠ .
(٣) المغنى ١٦ / ٣٠٠ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧٩ . الحمصى ١٣١ .

وأحد ما اعتمد عليه في هذا الباب أنهم اعترفوا للقرآن بالتقدم في قدر الفصاحة والمزية ، وظهر ذلك عنهم فعلا وقولا . ولولا تعذره عليهم لم يعترفوا بذلك ، لأن الجماعة العظيمة - فيما يتجلى الأمر فيه - لا يجوز أن تكذب . وهذا الاعتراف بيِّن ممن استجاب ، وممن خالف ثم استجاب ، ومن كثير ممن بقي على خلافه(١) .

واكتفى الرازي في رده بقوله بأن الشهود والحكام يزيلون الشبهة(٢) .

وأورد العلوي تعلة من تعلل بأنهم اعتقدوا أن المعارضة لا تحسم دعواه ، ثم حكم عليها بالفساد ، لأنهم في استعمال الحرب كانوا غير واثقين بحصول المطلوب ، لأنهم غير واثقين بالظفر عليه ، بخلاف المعارضة ، فإنهم ليسوا على خطر منها ، لأنهم واثقون ببطلان أمره عند وقوعها(٣) .

٣ - دعوى الاقتصار على الاحتجاج بأهل العصر الأول

لما كان أكثر الحديث في التحدي والعجز عن العرب ، فقد خشي الرماني أن يتخذ بعض الناس ذلك فرصة للاعتراض . فحكى : فإن قال قائل : فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين - وهو عندكم معجز - للجميع - مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟

وأقر الرماني بوقوع الاحتجاج بالعرب الأقحاح وحدهم . وبرر ذلك بأنهم يقيمون الأوزان والإعراب بالطباع ، وأنهم - على البلاغة - أقدر لفطنتهم لما لا يفطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع . فإذا عجزوا عن المعارضة ، فالمولدون عنها أعجز(٤) .

وأعلن عبد القاهر الجرجاني أن الأصل والقدوة في الكلام العرب [القدماء] ، ومن عَداهم تَبَعٌ لهم ، وقاصر فيه عنهم ، وأنه لا يجوز أن يُدَّعى للمتأخرين - من الخطباء ، والبلغاء - عن زمان محمد الذي نزل فيه الوحي أنهم زادوا على أولئك الأولين أو كَمَلوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له . كيف ، ونحن نراهم يُخملون عنهم أنفسهم ، ويبرؤون من دعوى المداناة معهم ، فضلا عن الزيادة عليهم(٥) ؟

---

(١) المغني ١٦ / ٢٨٢ - ٣ ، ٣٠٠ - ١ .
(٢) مفاتيح ٢ / ١١٥ .
(٣) الطراز ٣ / ٣٧٩ . الحمصي ١٣١ .
(٤) النكت ١٠٤ . صقر ١٢ . فقيهي ١٥٣ - ٤ . نيازي ١٣٠ .
(٥) الشافية ٥٧٥ - ٧ ، ٦٠٠ . سلطان ١٣١ .

وإذا نظرنا إلى دلائل أحوالهم وأقوالهم - حين تُلي عليهم القرآن وتُحدوا إليه - وجدناها تفصح بأنهم لم يشكوا فى عجزهم عن الإتيان بمثله ، و لم تحدثهم أنفسهم بأن لهم إلى ذلك سبيلا على وجه من الوجوه(١) .

واعلم أنه - إن خُيِّل إلى قوم من جُهّال الملحدة أنه كان فى المتأخرين من البلغاء كالجاحظ وأشباه الجاحظ من استطاع معارضة القرآن ، فترك خوفا ، أو أنهم فعلوا ذلك ثم أخفوه - لم يتصوَّر تخيلهم ذلك حتى يقتحموا هذه الجهالة التى ذكرتها ، أعنى أن يزعموا أنهم كانوا - عن أنفسهم - أفصح وأبلغ من بلغاء قريش وخطبائهم ... إلا أنهم صانعوا الناس ، فمنعوا أنفسهم الفضيلة ، ونحلوها العرب . وذاك أن محالا أن يعتقدوا فيهم - أعنى فى العرب - ما اعتقده الناس ، وفى أنفسهم ما أفصحوا به من القصور عن مداناتهم ، وشدة الانحطاط عنهم ، ثم أن يستطيعوا ما لم يستطعه العرب ، ويكمُلوا ما لم يكملوا له .

ومن هذا الذى يشك فى بطلان دعوى من بلغ بالمصلّى [الثانى] غاية وقد انقطع السابق ، وزعم فى الناقص الحذق أنه استقل بشىء عىّ به المشهود له بالحذق والتقدم ؟ هذا ما لا يدور فى خَلد ، ولا تنعقد له صورة فى وَهْم(٢) .

وأعلن الرافعى أن حديثه عن عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن لا يؤخذ منه أن غير العرب من المحدثين والمولدين وسائر من يكونون عربا فى اللسان دون الفطرة ، يستطيعون ما لم يتأتَّ لأولئك ، إذ كانوا دونهم ليس لهم إحساس لغوى تستبد به روعة الكلام ، وتصرفه بالكثير عن القليل ، لتمثل الأصل اللغوى الذى ينبغى أن يكون عليه الوضع والبناء ، والذى هو - فى نفسه - حقيقة الإعجاز ، لأنه سر التركيب والنظم . فيقال من ذلك : إن المولدين ومن فى حكمهم تتهيأ لهم معارضة السور القصار والآيات القليلة ، ويتأتون إلى ذلك بالصنعة وما ألفوه من إحكام الرصف ، وإدماج الكلام ، والتغلغل فى طرائق الإنسان ، والتوفر على تحسين بهجته وتزيين ديباجته . فإنهم - مع هذه الوسائل كلها - أبعد من العرب فى أسباب العجز ، وأدنى إلى التقصير ، وأقرب إلى الهجنة ، إذا هم تعاطوه(٣) .

---

(١) الشافية ٥٧٧ . سلطان ١٣١ .

(٢) الشافية ٦٠٠ - ١ .

(٣) إعجاز ٢٠٤ - ٨ .

٤ - دعوى معارضة قصار السور

توهم الخطابى من يقول : ربما حصلت المعارضة منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآى من بعض السور القصار نحو ما حكى عن مسيلمة وغيره .

ورد أن قول مسيلمة كلام خال من كل فائدة ، وليس فيه شىء من أركان البلاغة(١) .

٥ - الانشغال بالحرب

وقدم الخطابى الاعتراض التالى على القول بعجز العرب عن المعارضة ، قال :

فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه ، وجدنا معظم كلامه مبنيا ومؤلفا من ألفاظ مستعملة فى محاورات العرب ، فكيف يُتوهَّم عليهم العجز عن معارضته ، وهم عرب فصحاء ، مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ؟ فلو كانوا أرادوه لسهل ذلك عليهم . وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر ، كان أقوى فى نفوسهم ، وأجدى فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ، ومعاجلته بالإهلاك، استراحةً إلى الخلاص منه .

وكان جوابه : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن ، وذكرنا من شرائطها ، ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال .

وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من البشر ، ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس ، وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان .

ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام ، دون ما يتضمنه من ودائعه التى هى معانيه ، وملابسه التى هى نُظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء فى الأسماء اللغوية ، وهى نوع واحد من الأنواع الثلاثة التى شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبى ...

فأما المعانى التى تحملها الألفاظ فالأمر فى معاناتها أشد ، لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، وبنات الأفكار .

---

(١) بيان ٥٠ - ١ .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعانى . وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعضه . فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

وإذا كان الأمر على ما وصفناه ، فقد علم أنه ليس المفرد بذرب اللسان وطلاقته كافيا لهذا الشأن . ولا كل من أوتى من بديهة وعارضة ، كان ناهضا بحمله ، ومضطلعا بعبئه ، مالم يجمع إليه سائر الشرائط التى ذكرناها ، على الوجه الذى حددناه . وأنّى لهم ذلك ؟ ومن لهم به ؟[1].

ورد عبد الجبار على من زعموا أن محمدا عاجلهم بالحرب فشغلهم عن المعارضة، ومن زعموا أنهم عدلوا إلى الحرب لظنهم أنها أقرب إلى التخلص من دعوة محمد ، ومن زعموا أن محمدا أظهر لنفسه رتبة فى الفصاحة ، فأحبواهم رتبة لهم فى القوة والغلبة . فاستند إلى ما يلى :

- أولا ذلك كلام من سلم أنهم لم يعارضوه[2] .

- كثير مما قدمناه يسقط ذلك[3] .

- كان محمد ، مدة من الزمان ، قبل الهجرة ثم بعدها ، يدعو إلى اللّه ويتحدى ، و لم يكن هناك حرب ولا غيرها . ولو كانت الحرب تشغل ، لكانت إنما تشغل فى حال كونها لا قبلها[4] .

إنما كانت تحصل الحرب ، فى وقت من الزمان ، لا على طريق الدوام . وقد كان يجب أن يشتغلوا بالمعارضة ، لو كانت ممكنة ، فى حال زوال الحرب[5] .

- كان يجب - إن كانت المعارضة ممكنة وانشغلوا عنها بسبب الحرب - أن يحتجوا بكلام الفصحاء المتقدمين .

- كان يجب أن يتمكن منها من تأخر عن محمد ، وقد زالت الحرب ، والمعاداة فى كل عصر قائمة فى طبقة من المكذبين والمنافقين[6] .

---

(١) بيان ٣١ - ٣ . إعجاز الخطيب ١ / ٣٦٥ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٦٢ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٧٦ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧٧ - ٩ ، ٣٨١ . الحمصى ١٣٢ .

(٥) المغنى ١٦ / ٢٧٧ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧٧ - ٣٨١ . الحمصى ١٣٢ .

(٦) المغنى ١٦ / ٢٧٧ .

- المتعالم من حال كثير من الفصحاء أن الحرب تحرك من طبعه فى الفصاحة ، ما يتمكن معه مما لولا الحرب - لم يتمكن . وهذا معلوم من حال شعرائهم ، فيما كانوا يوردون - فى هذه الحال - من الشعر والكلام وغيره[١] .

- استعمال اللسان فى الكلام - مع العلم بكيفيته فى القلب - بمنزلة استعمال السيف وآلات الحرب فى المحاربة . فلم صارت الحرب مانعا من المعارضات ، مع أن الآلات متغايرة ، ولا يتنافى الفعل بها ؟ ولم صارت هذه الآلات ، واستعمالها فى الحرب ، أولى من أن تمنع الكلام الفصيح ؟ هذا ركيك من الكلام[٢] .

- كيف يجوز أن يعدلوا عن المعارضة ، وهى البغية ، إلى أمر ليس هو المطلوب ؟ وفى عبارة أخرى من قوله : إذا جاز أن يعدلوا إلى مالا مدخل للتحدى فيه - وهو المحاربة - فكيف لم يعدلوا إلى ما للتحدى فيه مدخل ، لأن ذلك أقرب إلى مرادهم ، وإلى زوال المضارّ عنهم . ومثل ذلك لا يقع من العقلاء[٣] .

ورد العلوى على هذه التعلة بأن محمدا ما كان يحارب كل العرب . ولا شك أن الفصحاء منهم كانوا قليلين . فكان الواجب على الشجعان الاشتغال بالحرب ، وأن يقعد أهل الفصاحة للاشتغال بالمعارضة[٤] .

وكان يجب عليهم أن يقولوا : إنك شغلتنا بالحرب عن معارضتك ، فاترك الحرب حتى نتمكن منها . وهم لم يقولوا ذلك ، ولا خطر لأحد منهم على قلب . وفى هذا دلالة على أنه لا مانع لهم من المعارضة بحال[٥] .

ووصف عبد الكريم الخطيب هذا القول من المعارضين بأنه ضرب من ضروب الافتراء والتطاول على القرآن ، والزور والبهتان والافتراء على التاريخ ، واللجاج فى العنت ، واستكراه الباطل على أن يلد باطلا .

ثم تساءل : لماذا لم تلجأ قريش إلى السيف من أول يومها مع النبى ؟ ولماذا تطاوله عشر سنين فى مكة من مبعثه إلى هجرته ؟ وهل كان - وهو بين يديها فى مكة - أقوى منه وهو فى المدينة بين المهاجرين والأنصار ؟[٦] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٧٧ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٧٧ ، ٢٧٩ . وانظر العلوى ٣ / ٣٨١ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٧٩ ، ٢٨٢ . وانظر شرح الأصول الخمسة له ٢٨٨ - ٩١ . عبد الفتاح لاشين ٤٦٦ - ٨ . (٤) الطراز ٣ / ٣٨١ . الحمصى ١٣٢ .
(٥) الطراز ٣ / ٣٨١ . (٦) إعجاز ١/٣٦٦ .

٦ - خفاء وجه التحدى

فطن الباقلانى إلى هذا الادعاء ، لكنه لم يرد عليه ، واكتفى بالتعجب منه ، إذ قال ، وهو يتحدث عن مذهب الصرفة : ليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم: أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيبٍ ، لو تعلموه لوصلوا إليه[١] .

ولعله تلا فى هذا الإهمال فى قوله : إن قيل ليس القوم بعاجزين عن الكلام ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم - فى تعذر مثل نظم القرآن - فَقْد العلم بكيفية النظم .

واعتمد فى جوابه على التفرقة بين العلم والممارسة ، فقال : بيّنا - قبل هذا - أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه .

والمفحم قد يعلم كيفية الأوزان واختلافها ، وكيفية التركيب ، وهو لا يقدر على نظم الشعر .

وقد يعلم الشاعران وجوه الفصاحة [بدرجة متساوية] . وإذا قالا الشعر ، جاء شعر أحدهما فى الطبقة العليا ، وشعر الآخر فى الطبقة الوضيعة . وقد يَطّرد فى شعر المبتدئ والمتأخر فى الحذق ، القطعة الشريفة ، والبيت النادر ، مما لا يتفق للشاعر المتقدم .

والعلم بهذا الشأن - فى التفصيل - لا يغنى ، ويحتاج - معه - إلى مادة من الطبع ، وتوفيق من الأصل .

وقد يتساوى العالِمان بكيفية الصناعة والنِّساجة ، ثم يتفق لأحدهما من اللطف فى الصنعة مالا يتفق للآخر .

وكذلك أهل نظم الكلام يتفاضلون ، مع العلم بكيفية النظم ، وكذلك أهل الرمى يتفاضلون فى الإصابة ، مع العلم بكيفية الإصابة .

وإذا وجدت للشاعر بيتا أو قطعة أحسن من شعر امرئ القيس ، لم يدل ذلك على أنه أعلم بالنظم منه ، لأنه - لو كان كذلك - كان يجب أن يكون جميع شعره على ذلك الحد ، وبحسب ذلك البيت فى الشرف والحسن والبراعة . ولا يجوز أن

---

(١) إعجاز ٣١ . الزركشى ٢/٩٤ . عائشة ٦٢ . أسرار عطا ٢٤١ . وانظر الرافعى ١٥٠ .

يعلم نظم قطعة ويجهل نظم مثلها . وإن كان كذلك ، عُلم أن هذا لا يرجع إلى قدره من العلم .

ولسنا نقول : إنه يُستغنَى عن العلم فى النظم ، بل يكفى علمٌ به فى الجملة ، ثم يقف الأمر على القدرة[١] .

وتعرض عبد الجبار لهذه القضية ، فرأى أن حال العرب مع فعلها ليس أقل من حال أهل الصناعات . والمتعالم من حالهم أنه لا تَخفَى عليهم طريقة التحدى والجدال فيه ، وذلك لأن الجدال والمناظرة آلتهما للعلم . فأهل كل صناعة يعرفون ذلك فيما يعلمون - كما يعرفه أهل العلم المتقدمون فيه - على الجملة ، وإن كان أهل العلم من المعرفة ما ليس لغيرهم .

وهذا يبين ركاكة هذا السؤال[٢] .

وعاد إلى ذلك مرة ثانية فتصور من يقول : جَوِّزوا أن المعارضة - وإن كانت ممكنة - فحالُ المراد بالتقريع والتحدى فى القرآن اشتبهت عليهم . فلم يعرفوا ما الذى أريد بـ (مثله) ؟ وفى أى باب يحصلون مساوين له ؟ فلذلك عدلوا عنه .

وأجاب : قد بينا من قبل : أنهم كانوا - بالعادة - يعرفون أن التحدى والتقريع فى باب الكلام - كيف يقع . فلا يجوز أن تدخل عليهم الشبهة فى ذلك .

وبعد ، فإن سائر الوجوه التى عليها يقع التحدى ، كان يمكنهم ، لو لم تتعذر المعارضة عليهم . فقد كان يجب أن يأتوا بالمعارضة ، من كل وجه ، لأن كل وجوه المعارضة كبعض وجوهها ، فى أنه ممكن .

وكان يجب - إذا كان الأمر عندهم غير ظاهر - أن يتشاغلوا بمعرفة الوجه الذى تحداهم به . فقد كان ذلك ممكنا ، ليعرفوا الطريقة التى عليها وقع التحدى .

على أنا قد بينا - من قبل - أن ذلك مما لا يجوز أن يشتبه عليهم ، لأن العلم به ضرورة ، وعلمهم بمراده ﷺ مع المشاهدة وقع باضطرار[٣] .

وذهب ابن حزم إلى أنه من المحال أن يكلف أحد أن يجيء بمثل ما لم يعرفه قط ولا سمعه ، فيلزمه[٤] .

---

(١) إعجاز ٢٩٤ - ٦ . الزركشى ٢ / ٩٤ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٩ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٤٩ ، ٢٨١ ، ٣٤١ .
(٤) الفصل ٣ / ٢٥ .

وليزيد عبد القاهر هذا الوجه وضوحا أجرى الحوار التالى : قال : قولوا الآن : أيجوز أن يكون - تعالى - قد أمر نبيه ﷺ بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله ، من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام عليه ، كانوا قد أتوا بمثله ؟

ولابد من (لا) فى الجواب ، لأنهم إن قالوا : « يجوز » ، أبطلوا التحدى ، من حيث أن التحدى - كما لا يخفى - مطالبةٌ بأن يأتوا بكلام على وصف . ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف ، من غير أن يكون ذلك الوصف معلوما للمُطالَب . ويبطل بذلك دعوى الإعجاز أيضا . وذلك لأنه لا يُتصوَّر أن يقال : إنه كان عجزٌ، حتى يثبت معجوزٌ عنه معلوم . فلا يقوم فى عقل عاقل أن يقول لخصم له : قد أعجزك أن تفعل مثل فعلى ، وهو لا يشير له إلى وصف يعلمه فى فعله ، ويراه قد وقع عليه .

أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : إنى قد أحدثت فى خاتم عملتُه صنعةً أنت لا تستطيع مثلها ، لم تتجه له عليه حجة ، و لم يثبت به أنه قد أتى بما يُعجزه ، إلا من بعد أن يُريه الخاتم ، ويشير له إلى ما زعم أنه أبدعه فيه من الصنعة ، لأنه لا يصح وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شىء ، حتى يريد ذلك الشىء ويقصد إليه ، ثم لا يتأتّى له . وليس يتصوَّر أن يقصد إلى شىء لا يعلمه ، وأن تكون منه إرادةٌ لأمرٍ لم يعلمه فى جملة ولا تفصيل[1] .

ووصم العلوى التعلل بعدم معرفة وجه المثيل المطلوب فى المعارضة بالفساد ، لأمرين : أما أولا فلأنه لو اشتبه عليهم لاستفهموه عما يريد . لكن الأمر فى ذلك معلوم لهم ، فلهذا لم يعالجوه فى شىء من ذلك[2] .

وأما ثانيا فلأن الرسول ﷺ أطلق التحدى و لم يخصه بشىء دون شىء ، اتكالا منه على ما يعلم من ذلك بمجرى العادة واطرادها فى التحدى بين الشعراء والخطباء. فلأجل ذلك لم يكن محتاجا إلى تفسير المقصود[3] .

---

(١) دلائل ٣٨٥ - ٦ ، ٦١٢ . الخطيب ٢٥٩/١ . خلف ١٥٧ . وانظر الزركشى ٩٣/٢ ، ١٠٠ .
(٢) الطراز ٣ / ٣٧٩ - ٨٠ . وانظر الحمصى ٢٤ . فقيهى ١٨ .
(٣) الطراز ٣ / ٣٧٩ - ٨٠ ، ٤٠٥ .

واكتفى الرافعى فى التعليق على هذا الزعم بأنه دليل لا يثبت شيئا إلا عجز قائله وحده[١].

وقال أبو الخشب : لو أنه جاء إليهم من طريق لم يعرفوه ، أو دخل من باب لم يألفوه ، لظلت حجتهم عليه قائمة : ولكان عذرهم مقبولا[٢] .

٧ - علل لم يرد الباقلانى عليها

وذكر الباقلانى عدة حجج اعتل بها العرب لتركهم معارضة القرآن : وهى :

الاستهانة بها .

وافتراء القرآن

كونه أساطير الأولين

كون محمد درس هذه الأساطير على غيره .

ولم يفصل الباقلانى القول فى هذه الحجج ، ولا عنى بالرد عليها ، استهانة بها فيما أظن[٣] لأن القرآن نفسه رد عليها .

وذكر الإيجى الاستهانة أيضا ، فذكر أنه ربما قيل : لعلهم استهانوا به أولا وخافوه آخرا ، لشدة شوكته أو شغلهم ما يحتاجون إليه فى تقويم معيشتهم - عنه .

ورد على هذا القول بأن المعروف المبادرة إلى معارضة من يدعى الأغراض بأمر جليل فيه التفوق على أهل زمانه ، وعدم الإعراض عنها ؛ والقول بغير ذلك سفسطة[٤] .

٨ - الجهل بأن المعارضة تخلصهم

وافترض عبد الجبار أن هناك من قال : جوزوا أن المعارضة ممكنة لكنهم عدلوا عنها ، لأنهم لم يعلموا أنها المخلص مما تُحدوا به ودُفعوا إليه ، لأنهم لم يكونوا أرباب جدل ونظر . فلما لم يعلموا ذلك واشتبه عليهم ، عدلوا إلى المحاربة طلبا لتخلصهم منه .

قيل له : إن العلم بهذا الباب ضرورى لا يجوز دخول الشبهة فيه ، لأن أهل الفصاحة إذا عرفوها ، وعرفوا مقاديرها ، وجرت عادتهم بالتنافس فيها والمباراة

---

(١) إعجاز ١٥٠ .
(٢) القرآن ١١٠ .
(٣) إعجاز ٢٠ .
(٤) المواقف ٣٤٦ - ٧ .

والمنازعة ، فغير جائز أن يخفى عليهم أن المخلص من التحدى الإتيان بمثله . بل ذلك مقرر فى العقول ، لأن المتحدى لابد من أن يكون مصرِّحا بهذه الطريقة . فيكون تصريحه بها أقوى فى معرفتهم من العادة المتقدمة .

ولذلك نجد من ليس بعاقل لا يخفى عليه التحدى ، لأن الصبيان إذا تحدى بعضهم بعضا بالعدو ، والطفر [الوثب] ، والرمى ، إلى غير ذلك مما يتعاطون ، فلن يخفى عليهم أن المخلص من ذلك - إذا تمكنوا - أن يأتوا بمثله . فكيف يجوز أن يخفى ذلك على العقلاء ، المجربين . فإن انضاف إلى ذلك أن يكون التحدى واقعا بالأمر الذى هو من أعظم مفاخرهم وما يتعاطونه ، فهو أقوى فى أنه لا يجوز الاشتباه فيه[1] .

وبعد فإن حال العرب مع فعلها لا يكون أقل من حال أهل الصناعات . والمتعالم من حالهم أنه لا تخفى عليهم طريقة التحدى والجدال فيه . وذلك لأن الجدال والمناظرة آلتهم للعلم . فأهل كل صناعة يعرفون ذلك فيما يعلمون ، كما يعرفه أهل العلم المتقدم فيه ، وإن كان لأهل العلم من المعرفة ما ليس لغيرهم . وهذا يبين ركاكة هذا السؤال[2] .

٩ - الخوف

وقال عبد الجبار : فإن قال : إنى لا أنكر وقوع التحدى من محمد فى القرآن ، لكنه إنما تحداهم به لما قوى أمره ، وظهر حاله ، وكثر أصحابه ، وعاجلهم بالحرب ، فمنعهم الخوف من إيراد مثله .

قيل له : إن الذى يوجب أنه تحداهم أخيرا يوجب القول بأنه تحداهم أولا ، لأن الطريقة واحدة . بل حاله ﷺ فى إظهار القرآن ، وتحديه به ، وادعائه إياه دلالة على نبوته - وهو بمكة - أظهر منه وهو بالمدينة ، لأنه هناك لم يكن وكده إلا إظهار ذلك، مع ما يبينه من العدل والتوحيد والشرائع ، وبالمدينة كلف من المجاهدة ما كلف فكيف يصح ادعاء المعرفة بذلك بالمدينة دون مكة ؟! وكيف يجوز أن يكون القرآن ظهر عليه المدة الطويلة ويُظهره ، ولا يتحدى به أولا ، ثم يتحدى به من بعد ؟! أفليس ذلك فى حكم المناقضة ، التى كان القوم يتعلقون عليه بما دونها . فقد كان يجب أن يظهر عنهم الكلام فى ذلك ، لأنه فى حكم النقض والبدء والتنفير .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٧٨ - ٩ ، ٢٨٧ ، ٣٤١ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٩ .

على أنا قد بينا أن تحديه بالقرآن - في أى حال يثبت - فقد صح المراد ، لأنه كان يجب أن يمكنوا من المعارضة ، وأن لا يعدلوا عنها إلى غيرها ، وأن لا يمنعهم من ذلك حرب ولا غيره[١] .

ولم يقتصر عبد الجبار على أثر الخوف فى تداول أخبار المعارضات ، بل تعدى ذلك إلى أثره على إمكان المعارضة ذاتها .

قال : فإن قال : جوزوا أن المعارضة كانت ممكنة ، لكن القهر والغلبة من محمد ومن المستجيبين له خوّفا من الإتيان بها ، فلذلك عدلوا عنها .

قيل له : فهلا عدلوا عن المحاربة لهذه العلة !

وعن المهاجاة !

وعن الوقيعة فيه ، ونسبته إلى الجنون والسحر ، إلى سائر ما حكى عنهم !

وبعد ، فإنما كثر مستجيبوه بعد ادعاء النبوة بزمان ، لأنه كان قليل العدد كالمستضعف ، حتى خاف وهاجر وطلب النُّصرة . فكيف يصح ما ذكروه ؟[٢] .

على أن الذى تُعُلق به لو صح ، لم يمنع من المعارضة ، فى كثير من الأوقات . فكان يجب أن تحصل فيما بينهم ، وتنكشف وتظهر على الأيام .

وعلى أنه ﷺ فى أحواله أجمع : كان يتحدى بالقرآن ، ويدعو إلى شريعته ، باللين من القول ، على وجه لا يوقع الخوف . فقد كان يجب أن يأتوا بالمعارضة .

وكما أن هذه الأحوال لم تمنع الكثير ، ممن أظهر الاستجابة ، التجمع على طريق النفاق ، فقد كان يجب ألا يمنعهم وغيرهم من المكاشفين من المعارضة[٣] .

فإن قال : قد تقتضى الطباع المحاربة إذا حصل مع التحدى تخوف ومغالبة .

قيل : وإن حصل ذلك ، فالمعارضة أولى من غيرها ، وأشد تقدما من سواها . على أن التخويف - إذا كان تابعا لصحة النبوة ، وصحة النبوة تابعة لإعجاز القرآن - فقد علم العقلاء أن المهم الذى لا يُعَدل عنه : التشاغل بالأمر الذى هو الأصل ، دون الفرع المتعلق به .

يبين هذا أنهم لو بلغوا المراد فى هذا الأصل زال الخوف فى توابعه . وإذا بلغوا

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٣٩ - ٤٠ . عائشة ٦٠ . وانظر العلوى ٣ / ٣٧١ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٧٧ . سلطان ٩٠ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٧٨ .

المراد فى توابعه لم يحصل المراد ، ولا بطلت أحواله ﷺ .

ولو أن عدوا حل بأهل بلد ، ودعاهم إلى المحاربة ، وتوعدهم بالمغالبة على البلد والأحوال ، إن لم يأتوا بمثل كتاب أنشأه ، أو خطبة ارتجلها ؛ فغير جائز أن يكون فى ذلك البلد من يتمكن من مساواته ، فيعدل عنه إلى المحاربة والمدافعة ، لأنها تابعة، والتشاغل بالأصل أولى . فكذلك القول فى شأن القرآن(١) .

واهتدى العلوى به فقال : ما كان محمد - فى أول أمره - بحيث تخاف قهرَه كلُّ العرب ، بل هو الذى كان خائفا منهم(٢) .

واستندت د. عائشة عبد الرحمن فى الرد على هذا التعلل بأن آيات التحدى - عدا آية البقرة - نزلت قبل الهجرة التى تحول فيها محمد إلى المدينة بعد أن بلغت الجولة المكية ذروتها الرهيبة من ضراوة الاضطهاد والأذى والفتنة ، دون أن يؤذن للمسلمين فى قتال . وآية البقرة - آخر آيات التحدى - نزلت فى مستهل العهد المدنى ، من قبل أن يبدأ الصدام المسلح بين الإسلام وأعدائه من وثنيين ومنافقين ويهود(٣) .

١٠ - تلقى محمد عونا غير بشرى

وعنى الماوردى بإحدى قضايا تأليف القرآن . فأورد : إن قيل : ليس عجز كل الإنس عن مثله موجبا لإضافته إلى اللّه ، لجواز أن تكون الشياطين أعانت عليه حتى خرج عن مقدور الإنس ، كما أعانت سليمان على ما عجز عنه الإنس ؟

ثم رد عليه قائلا : عنه أجوبة :

أحدها أن هذا يتوجّه على موسى فى فلق البحر ، وعلى عيسى فى إحياء الموتى ، ويقدح فى جميع النبوات . فلا يجوز لمن أثبته أن يخص به بعض النبوات .

والجواب الثانى أن الشياطين لم يُعرفوا إلا من الرسل . ولولاهم لما علم الناس أن فى الدنيا شيطانا ولا جنا . وقد جهر الرسل بلعنهم ، ودعوا إلى معصيتهم . ولو كانوا أعوانا لدعوا إلى طاعتهم وموالاتهم ، لأن معونة من أطيع وولى أحق من معونة من عصى وعودى .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٧٩ - ٨٠ . (٢) الطراز ٣ / ٣٧١ .
(٣) الإعجاز ٦٠ .

والجواب الثالث أن الشياطين لا يقدرون على ذلك إلا بمعونة اللّه لهم ، وهو لا يعين كاذبا عليه . فإن كان عن أمره ، كان معجزا لأنه من فعله . وعلى هذا كان تسخير سليمان للجن . واللّه غنى عن الشياطين أن يكونوا سفراء إلى رسله وأعوانا لأنبيائه ، وهم ينهون عن طاعته ، ويدعون إلى معصية هذا القرآن(١) .

واتبع الرازى الماوردى ، فأورد الاعتراض التالى : لم لا يجوز أن يقال : إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد ، وخصوه به على سبيل السعى فى إضلال الخلق؟

ثم رد عليه قائلا : إن ذلك لو وقع لوجب فى حكمة اللّه أن يظهر ذلك التلبيس . وحيث لم يُظهر ذلك ، دل على عدمه .

- أجاب - تعالى - عن هذا السؤال الأجوبة الشافية الكافية فى آخر سورة الشعراء، فى قوله : ﴿ قل : هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾(٢) .

١١ - الرغبة فى المصلحة

وكشف الإيجى أن هناك من قال : لعله تركها مواضعة فى إعلاء كلمة محمد ، لينال من دولته حظا .

وأجاب عن ذلك بأنه إذا أتى النبى بما يُعلَم - بالضرورة - أنه خارق للعادة ، وعجز من فى قطره عن المعارضة ، عُلم - ضرورة - صدقُه(٣) .

---

(١) أعلام ٧٤ . (٢) الآيتان ٢٢١ و ٢٢٢ . مفاتيح ٢١ / ٥٤ - ٥ .
(٣) المواقف ٣٤٦ - ٧ .

تعقيب

لما فرغ المفكرون المسلمون من جمع الأقوال التى تعلن أن العرب لم يعارضوا القرآن ، منذ البعثة النبوية وإلى اليوم ، ومن إثبات أن ذلك كان منهم لعجزهم عن هذه المعارضة وجوبا ، ومن إبطال ادعاء أن هناك معارضات قد تمت ولكن السلطة الإسلامية استطاعت أن تقضى عليها وعلى أخبارها ؛

لما فرغوا التفتوا إلى ما اعتل به خصوم الإسلام أو يمكن أن يعتلوا به ، ليدفعوا عن العرب اتهام العجز ، الذى هو - كما رأينا - القاعدة الثابتة للإعجاز .

وقد شارك السنة والمعتزلة بعبء متعادل فى الاضطلاع بهذه المهمة .

الفصل الخامس

زمان العجز

أقدم نص محدد النسبة ، عثرت عليه ، هو ما قاله الطبرى فى أثناء حديثه عن النبى، قال : مؤيدا بدلالة على الأيام باقية[١] ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة[٢] ، وعلى ممر الشهور والسنين دائمة[٣] .

وروى عبد الجبار عن شيوخه ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن العجز كان ما يزال فى عصرهم ، قال شيوخنا لمن أنكر كون القرآن معجزا من الملحدة : فأتوا بمثله فى هذا الوقت ، لأن طريقة الفصاحة لا تتغير فى الأوقات فى جملها[٤] .

ووصف الخطابى العجز بأنه قائم مستمر على وجه الدهر[٥] ، من لدن عصر نزول القرآن إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه[٦] .

وقال الباقلانى : معجزة بقيت بقاء العصرين[٧] ، ولزوم الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد[٨] . وقال : هذه المعجزة مما يقف عليها الأول والآخر وقوفا واحدا ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة[٩] .

---

(١) حامع ١ / ٣ . الحمصى ٦٠ . وانظر المغنى ١٦ / ٢٣٢ . عياض ١ / ٥٣٣ . الزركشى ٢ / ٩٠ . الإتقان ٢ / ٣٢٤ . كفافى ١٣٨ .

(٢) حامع ١ / ٣ .

(٣) حامع ١ / ٣ . وانظر عياض ٥٣٣ .

(٤) المغنى ١٦ / ١٦٤ .

(٥) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . انظر الجرحانى ١٠ . إعجاز الخطيب ١ / ٢٣١ . ونسبه خلف ١٢٦ خطأ إلى الرمانى .

(٦) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ . الخطيب ١/ ١٥٩ . انظر ابن حزم ٤ / ٢١٣ . الرازى ٢ / ١٢٠ . الحمصى ١٠٤ ، ١٢٥ . دراز ٨٥ . الصباغ ٥٦ . خلف ١٦٠ . العطار ٥٦ . وأخطأ خلف ١٥٦ فنسبه إلى الرمانى .

(٧) إعجاز ٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٨٠ ، ١٧٢ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . أبو موسى ١٨٠ .

(٨) إعجاز ٨ . إعجاز الخطيب ١ / ٨٠ ، ١٧٢ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . أبو موسى ١٨٠ . انظر ابن حزم ٣ / ٢٦ . عياض ١ / ٧٣٨ . القرطبى ١ / ٧٢ . ابن تيمية ٢ / ١٤١ ــ ٢ . الإتقان ٢ / ٣٢٤. صقر ٨٩ . الحمصى ١٩١ . دراز ٤٥ . العمارى ٨٩ . موسى لاشين ٤٤؟ . أبو زهرة ١٥ . حميدة ٣٣ . الصباغ ٥٠ . عتر ١٥٠ . عطا : أسرار ٢٣٥ . وعظمة ٥٥ . خلف ١٩٨ . شبهات ٢٨ . شرف الدين ٨٥ .

(٩) إعجاز ٣٠٣ .

واستنتج من قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[١] . أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة ، تقدح فى معجزته أو تعارضه فى طريقه ، وكذلك لا يأتيه من بعده قط أمر يشكك فى وجه دلالته وإعجازه[٢] .

ورد على من قصر العجز على عصر محمد فقط ، فقال : فإن قال قائل : قد يجوز أن يكون أهل عصر النبى قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وإن كان من بعدهم من أهل الأمصار لم يعجزوا .

قيل : هذا سؤال معروف ، وقد أجيب عنه بوجوه ، منها ما هو صواب ، ومنها ما فيه خلل ، لأن من كان يجيب عنه : بأنهم لا يقدرون على معارضته فى الإخبار عن الغيوب إن قدروا على مثل نظمه - فقد سلم المسألة ، لأنا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقدر عليه . فإذا أجاب بما قدمناه وافق السائل على مراده .

والوجه أن يقال : فيه طرق :

منها أنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله ، فمن بعدهم أعجز ، لأن فصاحة أولئك - فى وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول - مما لا يزيد عليه فصاحةُ من بعدهم . وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم . فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا .

ومنها أنا قد علمنا عجز سائر أهل الأعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول . والطريق فى العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد ، لأن التحدى - فى الكل - على جهة واحدة ، والتنافس - فى الطباع - على حد واحد ، والتكليف على منهاج لا يختلف[٣] .

ووصف عبد الجبار القرآن بالمعجزة الباقية[٤] .

وتعرض ابن حزم للقضية التى تعرض لها الباقلانى ، فقدم السؤال : هل الإعجاز متمادٍ أم قد ارتفع بتمام قيام الحجة به فى حياة رسول الله ؟

---

(١) سورة فصلت ٤١ ، ٤٢ .
(٢) إعجاز ١٣ .
(٣) إعجاز ٢٥٠ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٣٢ . انظر الآلوسى ١ / ٣١ . الحمصى ١٣ ، ١٢٤ . حميدة ٣٣ . الصباغ ٥٠ . العطار ٥٢ . شبهات قمحاوى ٢٨ . السلامى ٥٣ . فودة ٢٢٩ . شرف الدين ٥١ . أبو سليمان ٩٨ . الكومى ١٤ .

ثم قال فى جوابه : قال بعض أهل الكلام : إن الحجة قد قامت بعجز جميع العرب عن معارضته . ولو عورض لم تبطل بذلك الحجة التى قد صحت ، كما أن عصا موسى إذ قامت حجته بانقلابها حية ، لم يضره ولا أسقط حجته عودها عصا كما كانت . وكذلك خروج يده بيضاء من جيبه ثم عودها كما كانت ، وكذلك سائر الآيات :

وقال جمهور أهل الإسلام : إن إعجاز القرآن باق إلى يوم القيامة ، والآية بذلك باقية إلى يوم القيامة كما كانت .

وهذا هو الحق الذى لا يحل القول بغيره : لأنه نص قول الله عز وجل - إذ يقول: ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن ... ﴾ .

فهذا نص جلىّ على أنهم لا يأتون بمثله بلفظ الاستقبال[١] . فصح - يقينا - أن ذلك على الأبد ، وفى المستأنف أبدا . ومن ادعى بأن المراد بذلك الماضى فقد كذب، لأنه لا يجوز أن تحال اللغة ، فينقل لفظ المستقبل إلى معنى الماضى ، إلا بنص آخر جلى وارد بذلك أو بإجماع متيقن أن المراد به غير ظاهره أو ضرورة . ولا سبيل فى هذه المسألة إلى أحد هذه الوجوه[٢] .

وجمع الطوسى بين الطبرى وابن حزم فقال : إن (لن) تنفى على التأبيد فى المستقبل[٣] .

وتعرض عبد القاهر الجرجانى لما تعرض له الباقلانى وابن حزم من قبل ، فقال : قول من قال : « إنه يجوز أن يقدر الواحد من الناس بعد انقضاء زمن النبى ، ومُضىّ وقت التحدى ، على أن يأتى بما يشبه القرآن ، ويكون مثله ، لأن ذلك لا يخرج عن أن يكون قد كان معجزا فى زمان النبى ، وحين تُحدّى العرب إليه » قول لا يصح إلا لمن لا يجعل القرآن معجزا فى نفسه ، ويذهب فيه إلى الصرفة .

فأما الذى عليه العلماء من أنه معجز فى نفسه ، وأنه - فى نظمه وتأليفه - على وصف لا يهتدى الخلق إلى الإتيان بكلام هو فى نظمه وتأليفه على ذلك الوصف ؛

---

(١) الفصل ٣ / ٢٦ . خلف ١٩٨ . انظر الطوسى ١ / ١٠٧ . ابن تيمية ٢ / ١٥٢ .
(٢) الفصل ٣ / ٢٥ - ٦ . خلف ١٩٨ . سلطان ٢٠٤ .
(٣) التبيان ١ / ١٠٧ . الطبرسى ١ / ٦٣ . ابن كثير ١ / ٦٠ .

فلا يصح البتة ذاك ، لا فرق بين أن يكون الفعل معجزا فى جنسه كإحياء الموتى ، وبين أن يكون معجزا لوقوعه على وصف . وإذا كان كذلك ، فكما أنه محال أن يكون هاهنا إحياء ميت لا من فِعْلِ اللّه ، كذلك محالٌ أن يكون هاهنا نظمٌ مثل نظم القرآن لا من فِعْله تعالى . فهذا هو .

ثم إنه قول إذا نُقّر عنه انكشف عن أمر منكر ، وهو إخراج أن يكون وحيا من اللّه ، وأن يكون النبى قد تلقاه عن جبريل ، والذهاب إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام ، وكالشىء يُلقَى فى نفس الإنسان ويُهدَى له من طريق الخاطر والهاجس الذى يهجس فى القلب . وذلك مما يستعاذ باللّه منه ، فإنه تطرُّق للإلحاد[١] .

وقرر أن المسلمين اتفقوا على أن القرآن معجزة باقية على وجه الدهر[٢] .

ووصف الزمخشرى القرآن بالمعجز الباقى دون كل معجز على وجه كل زمان[٣]. ونقل عن سيبويه والخليل أن (لن) حرف لتأكيد نفى المستقبل[٤] .

ونعت عياض القرآن بأنه آية باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا[٥] ، ومعجزة لا تبيد ولا تنقطع[٦] ، وآياته تتجدد ولا تضمحل[٧] .

وخالف أبو حيان الزمخشرى فى دلالة (لن) على النفى على التأبيد[٨] ، ووافقه على أن فيها توكيدا وتشديدا[٩] . والحق أن الذى قال بالتأبيد الطبرى والطوسى .

ووصف ابن كثير التحدى بأن محمدا أخبر خبرا جازما قاطعا ، مُقدِما غير خائف ولا مشفق ، أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبد الآبدين ، ودهر الداهرين[١٠] .

ووافق الآلوسى أباحيان فى كون (لن) لا تفيد تأبيد النفى . وذهب إلى أنها لا تقتضى طول المدة أو قصرها[١١] .

وصاغ الرافعى القضية صياغة أدبية ، فقال : إنما الإعجاز شيئان : ضعف القدرة الإنسانية فى محاولة المعجز ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته ، ثم استمرار

(١) دلائل ٦٢٥ . عبد القاهر لمطلوب ٢٥٧ - ٨ . (٢) دلائل ١٠ . الخطيب ١ / ٢٣١ .
(٣) الكشاف ١ / ٨ - ٩ . الحمصى ٩٤ . (٤) الكشاف ١ / ٢٤٨ .
(٥) الشفا ١ / ٥٣٣ . (٦) الشفا ١ / ٧٣٨ . انظر كفافى ١٣٨ .
(٧) الشفا ١ / ٧٣٨ . انظر الكواكبى ٤٤ . (٨) البحر ١ / ١٠٢ . انظر الآلوسى ١٩٨/١ .
(٩) البحر ١ / ١٠٧ . انظر الآلوسى ١ / ١٩٨ . (١٠) التفسير ١ / ٦٠ . الحمصى ١٤٩ .
(١١) روح ١ / ١٩٨ .

هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه . فكأن العالم كله فى العجز إنسان واحد ، ليس له غير مدته المحدودة بالغة ما بلغت . فيصير من الأمر المعجز إلى ما يشبه — فى الرأى — مقابلة أطولِ الناس عمرا بالدهر على مَداه كلّه . فإن المعمَّر دهر صغير . وإن لكليهما مدة فى العمر هى من جنس الأخرى ، غير أن واحدة منها قد استغرقت الثانية . فإن شاركتها الصغرى إلى حد ما ، فما عسى أن تشركها فيما يبقى[١] .

ووصف الزرقانى القرآن بالمعجزة الخالدة[٢] ، المتمتعة بالبقاء إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها[٣] ، أو إلى قيام الساعة[٤] .

وذهب سيد قطب إلى أن العجز عنه قد ثبت[٥] ، وما يزال ثابتا ، ولن يزال[٦] ، ونعيم الحمصى إلى أن القرآن معجز أبد الدهر[٧] ، أو لكل العصور[٨] ، أو معجزة خالدة أبد الدهر[٩] ، أو باقية على الدهر[١٠] ، أو ستبقى خالدة مستمرة[١١]، أو مستمرة شهدها الماضون وسيشهدها الآتون[١٢] ؛ ومناع القطان إلى أن الإعجاز ظل على مر العصور ولا يزال[١٣] ، وعبد الكريم الخطيب معجزة قائمة على الزمن كله[١٤] ، ومحمد الصادق عرجون جميع الأزمنة[١٥] ، وموسى لاشين باقية خالدة[١٦] .

وقال محمد أبو زهرة . لم تكن معجزة محمد حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر ، بل كانت قائمة تخاطب الأجيال ، يراها ويقرؤها الناس فى كل

---

(١) إعجاز ١٣٨ . (٢) مناهل ٢ / ٢٣٢ . انظر صقر ٥ . الحمصى ١٥ . فقيهى ١٦ . نوفل ١١ . القطان ٢٦٥ . الخطيب ١ / ٧٨ ، ٨٣ ، ١٣٣ . موسى لاشين ٢٤٣ ، ٢٤٥ . أبو زهرة ٤ ، ١٥ . الصابونى ٨٥ ، ٨٧ ـ ٨ . شحاتة ١٣٠ ، ١٣٣ . عتر ١٥١ ، ١٩٣ . العطار ٥٢ . طلبة ٨٧ . إيجاز قمحاوى ٢ / ١٦٨ ـ ٩ . فودة ٢٣٠ . داود ٧٦ . نيازى ١٦٦ .

(٣) مناهل ٢ / ٢٣٢ . الصابونى ١٨٨ . انظر أبو على ٣٢ . الكومى ١٥ .

(٤) مناهل ٢ / ٢٣٣ . الصابونى ٩٦ ـ ٧ . انظر حميدة ٣٣ . عتر ١٥١ .

(٥) فى ظلال ١٧٨٥ . (٦) فى ظلال ١٧٨٥ .

(٧) فكرة ١٣ ، ١٤ . انظر فقيهى ١٦ . الخطيب ١ / ١٢٧ . الصباغ ٥٠ . شحاتة ١٣٣ . عتر ١٥١ . خلف ١٥٩ . طلبة ٨٧ . السلامى ٥٣ .

(٨) فكرة ١٥ ، ٧٣ . انظر الصباغ ٥٠ . خلف ١٥٩ . إيجاز قمحاوى ٢ / ١٧٢ .

(٩) فكرة ١٠٨ . انظر الخطيب ١ / ١٧٩ . (١٠) فكرة ١٢٨ .

(١١) فكرة ٢٨١ ، ٢٨٧ . (١٢) فكرة ٢٨١ . انظر فودة ٢٢٩ .

(١٣) مباحث ٢٦٧ . (١٤) إعجاز ١ / ٢١٥ . خلف ١٥٤ .

(١٥) القرآن ١٣٣ . انظو موسى لاشين ٢٤٣ . حميدة ٣٣ .

(١٦) اللآلئ ٢٤٣ . انظر أبو زهرة ٦٥ . العطار ٥٤ . أبو على ٢٤ .

عصر[١] ..وهى حجة إلى يوم الدين[٢] .

ووصف عبد الحسيب طه حميدة القرآن بالمعجزة الخالدة الباقية من بعده إلى يوم تقوم الساعة[٣] : ومحمد على الصابونى بالخالدة خلود الدهر[٤] ، والباقية بقاء الإنسان[٥] ، ود. عمر الملاحويش على مدى العصور[٦] ، أو ستبقى إلى أن يشاء اللّه[٧] ، ومحمد عبد السلام كفافى وزميله بالدائمة[٨] ، والصباغ مهما تقدم الزمان[٩] ، وشحاتة خالدة أبدية[١٠] ، وعتر كل العهود والأعصر[١١] ، أو ثابتة خالدة على مر العصور والسنين والشهور[١٢] ، والعطار باقية تتحدى العصور والدهور[١٣]، أو باقية خالدة ما بقى النوع الإنسانى[١٤] ، وشعبان محمد إسماعيل على مر الأيام والأمكنة والعصور[١٥] ، وفودة لا تبلى ولا تفنى أمد الدهر[١٦] ، وعبد الحليم الجندى على مدار الزمان[١٧] ، وحسن دزح غير محددة بزمان أو مكان[١٨] ، والذهبى خالدة باقية على مدى الدهر[١٩] ،

تعقيب

ويمكن إجمال كل هذه الأقوال فى عبارة مجملة ، تقول إن أصحابها جميعا متفقون على أن العجز عن الإتيان بمثيل للقرآن واقع ما دامت البشرية موجودة . غير أن بعضهم آثر الواقع فصرح بأن العجز كان منذ عصر البعثة إلى العصر الذى يعيش فيه، وآثر بعضهم الاعتقاد فأعلن أن العجز كان وسيكون إلى يوم القيامة ، وآثر بعضهم أن يعبر عن فكرته تعبيرا أدبيا ، أو بمجرد تعبير يخالف من سبقه فى ألفاظه ، وإن اتفقا فى المدلول . لم يشذ عن ذلك إلا جماعة صغيرة قصرت العجز على عصر نزول الوحى وحده .

---

(١) المعجزة ١٤ . انظر شحاتة ١٣٣ .
(٢) المعجزة ١٥ .
(٣) مع القرآن ٣٣ . انظر حويش ٩٢ .
(٤) التبيان ٨٨ . انظر عتر ١٥٠ .
(٥) التبيان ٨٨ . انظر العطار ٥٤ .
(٦) تطور ٧٧ . وانظر البوطى ١٥٥ .
(٧) تطور ٢٠٨ .
(٨) محاضرات ١٣٨ .
(٩) لمحات ٥٠ . انظر عتر ١٥٤ .
(١٠) علوم ١٣٦ . انظر عتر ١٩٣ .
(١١) بينات ١٥٠ .
(١٢) بينات ١٥١ .
(١٣) موجز ٥٢ .
(١٤) موجز ٥٤ .
(١٥) المدخل ١ / ٣٣٠ .
(١٦) المرشد ٢٣٠ .
(١٧) القرآن ١٧ .
(١٨) حوار ٤٧ .
(١٩) الوحى ٦٥ .

الفصل السادس

العاجـــزون

أعلن الطبرى مرة أن جميع الخلق عجزوا عـن معجـزات الأنبيـاء ، وعـاجزون عـن معجزة محمد[١] ، وأعلن فى مرة أخرى : البشر[٢] .

وذهب الرمانى إلى أن القرآن معجز للعرب والعجم[٣] ، والخطابى معجـز للعـرب قاطبـة[٤] ، وللقـوم[٥] ، والبـاقلانى معجـزة عامـة[٦] ، عمـت الثقلـين ـ أى الإنـس والجن[٧] .

وتوهم الماوردى من يسأل : أفيعتبرون عجز العرب العاربـة عنـه دون المولديـن أو عجز الجميع .

ثم أجاب : فيه خلاف بين أهل العلم على وجهين :

أحدهما أن المعتبر فيه عجز الجميع ، ليكون أعم .

والوجه الثانى معتبر فيه عجز العرب العاربة دون المولدين ، ليكون معتبرا بمن يلجأ إلى طبعه ، ولا يعول على تكلفه وتعلمه[٨] .

وذكر عبد القاهر الجرجانى أن القرآن أعجز العرب[٩] ، ونفى أن يكونـوا العـرب المعاصرين لمحمد وحدهم[١٠] .

وقال الزمخشرى بعبارته الأدبية : أبكم من تحدى به من مصاقع الخطباء[١١] . فلـم

---

(١) جامع ١ / ٣٧٣ ، ١٥ / ٢٥٩ . انظر الخطابى ٢٥ . الماوردى ٧٣ . ابن حزم ٥ / ٩٠ . الزركشى ٢ / ١٠٤ . الرافعى ٢٥١ . الحمصى ٧٤ ، ٣٨٩ . الخطيب ١ / ١٥٩ . أبو زهرة ١٥ . الصابونى ٩٨ . الحسن ١٢٩ .

(٢) جامع ١ / ٣٧٩ . انظر الخطابى ٢٤ ـ ٥ . ابن عطية ٩ / ١٨٥ . الزركشى ٢ / ١٠٢ ، ١٠٤. صقر ١٥ . دراز ٧٧ . شاكر ٢٤ . أبو زهرة ١٥ . خلف ١٥٩ . فودة ٢٣٠ . الكومى ١٥ .

(٣) النكت ٧٠ . انظر الخطيب ١ / ١٦٩ .

(٤) بيان ١٩ .

(٥) بيان ٣١ ، ٥٠ .

(٦) إعجاز ٨ . الخطيب ١ / ٨٠ ، ١٧٢ . حويش ٤٥٣ .

(٧) إعجاز ٨ . الخطيب ١ / ٨٠ ، ١٧٢ . حويش ٤٥٣ . أبو موسى ١٨٠ . انظر أبو حيان ٦ / ٧٧ . ابن تيمية ٢ / ١٤١ .

(٨) أعلام ٧٣ .

(٩) دلائل ٥٩٨ ، ٦٢٣ . انظر الزرقانى ١ / ٧٧ . الحمصى ٧٤ . شاكر ٢٤ . القطان ٢٦٧ . الخطيب ١ / ١١٤ ، ١٧٨ ، ٢٧٦ . طبارة ٢٥ . الصباغ ٥٠ .

(١٠) دلائل ٦٢٥ .

(١١) الكشاف ١ / ٩ . الخطيب ١ / ٢٧٦ . انظر أبو حيان ٦ / ٧٧ .

يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم[١] ، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم[٢] ؛ وابن أبى الإصبع : عجّز الفصحاء[٣] ، وبلد الأذكياء[٤] ، وأعيا على البلغاء[٥] ؛ وأبو حيان العالم[٦] ؛ والشوكانى الكفار[٧]؛ ومحمد رشيد رضا أفراد العلماء ، والبلغاء من الإنس والجن وجماعاتهم وجملتهم[٨] . والرافعى العرب وغير العرب[٩] ، والحمصى كل الأمم[١٠] ، أو الناس[١١]، والقطان الإنسانية كافة[١٢] ، والخطيب أعجزت كل متكلم ، وأخرست كل ناطق[١٣] ، ووسعت الناس جميعا : عالمهم وجاهلهم[١٤] ؛ وعرجون : جميع الأمم والشعوب ، من كافة الأجناس ، على اختلاف ألسنتهم ، فى جميع الأزمنة والأمكنة ، أفرادا وجماعات[١٥] ، عامة وخاصة ، أو كل فرد وطائفة وأمة وشعب[١٦] ؛ ود حويش : البشر وغير البشر[١٧] .

تعقيـــب

والحق إن جميع المؤمنين بإعجاز القرآن يعتقدون أن جميع البشر ــ على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأقطارهم وعصورهم ـ عاجزون عن الإتيان بمثيل للقرآن . غير أن بعضهم أطلق القول معبرا عن هذا الاعتقاد ، وبعضهم ركز نظره على العرب ، بل اقتصر بغض هؤلاء ، على العرب دون مولديهم . ولا يعنى هذا النظر قدرة غيرهم على المعارضة ، وإنما يعنى أن عجز هؤلاء ـ مع قدرتهم المشهورة على الفصاحة ــ دليل أى دليل على عجز الآخرين .

---

(١) الكشاف فى ١ / ٩ . الخطيب ١ / ٢٧٦ .
(٢) الكشاف ١ / ٩ . الخطيب ١ / ٢٧٦ . انظر أبو حيان ٦ / ٧٧ . الرافعى ٢٥٢ .
(٣) بديع ٤٨ . (٤) بديع ٤٨ . (٥) بديع ٤٨ .
(٦) البحر ٦ / ٧٧ . انظر الرافعى ١٣٨ . (٧) فتح ٣ / ٢٦٣ .
(٨) المنار ١١ / ٣٠٣ . (٩) إعجاز ٢٠٤ .
(١٠) فكرة ١٥ . انظر القطان . عرجون ١٣٣ . فمحاوى ٢ / ١٧٢ . أبو على ٢٤ .
(١١) فكرة ٤٢ . انظر الخطيب ١ / ١٦٩ . عرجون ١٣٩ . الصابونى ٨٩ . أبو موسى ١٨٠ .
(١٢) مباحث ٢٦٧ . انظر الإيجار ٢ / ١٧٢ . أبو موسى ١٨٠ .
(١٣) إعجاز ١ / ١١٤ . (١٤) إعجاز ١ / ١٦٩ .
(١٥) القرآن ١٣٤ . (١٦) القرآن ١٣٤ . انظر الجندى ١١ .
(١٧) تطور ٩٢ .

إعجاز القرآن



تأليف

دكتور حسين نصار

العميد السابق لكلية الآداب

جامعة القاهرة

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الفصل الأول

إدراك الإعجاز

تدل الأخبار التى وصلت إلينا عن موقف العرب المعاصرين للبعثة ــ من الحيرة فى وصفه ، وإسلام من أسلم عند سماعه ، والإجماع على الاعتراف بسموه الأدبى ــ تدل دلالة جلية على أنهم أدركوا مكانته العليا ، وأنهم عاجزون عن الإتيان بمثيل له ، وإن لم يكتشفوا - أو لم يكشفوا عن - مصدر هذه المكانة .

وكان الجاحظ أول من استثمر هذه الأخبار . فذهب إلى أن تحدى القرآن للعرب وعدم محاولتهم الرد على هذا التحدى ، يدلان العاقل على أن أمرهم لا يخلو من أحد أمرين :

إما أن يكونوا عرفوا عجزهم ، وأن مثل ذلك لا يتهيأ لهم ، فرأوا أن الإضراب عن ذكره والتغافل عنه فى هذا الباب ــ وإن قرعهم ــ أمثل لهم فى التدبير وأجدر أن لا ينكشف أمرهم للجاهل والضعيف .

وإما أن يكون غير ذلك[1] .

ولم يلجأ الجاحظ إلى القطع بأحد الأمرين إلا من باب الجدل ، أما رأيه الحق فواضح كل الوضوح فى قوله : لو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة ، لتبين له ... أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها[2] .

واتفق الأشعرى مع الجاحظ فى إمكان إدراك الإعجاز .

فقد تساءل الباقلانى فى صدر أحد فصوله : هل يُعلم إعجاز القرآن ضرورة . ثم روى جوابا للأشعرى من شقين ، قال : ذهب أبو الحسن إلى أن ظهور ذلك عن النبى يُعلم ضرورة ، وكونه مُعجزا يعلم بالاستدلال . ثم قال إن هذا المذهب محكى عن المخالفين أيضا[3] .

وقدم الباقلانى أيضا سؤالا ثانيا ، وجوابا له من قول الأشعرى . قال فإن قيل : هل تعرفون إعجاز السور القصار بما تعرفون إعجاز السور الطوال ؟ وهل تعرفون إعجاز كل

---

(١) رسائله ٢٧٥/٣ . إعجاز الخطيب ١٣٥/١ . حويش ٢٥٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣١ .

(٢) الجرجانى ٢٥١ ، ٣٨٩ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٤٨/١ .

(٣) إعجاز ٢٥٩ . الزركشى ١١١/٢-٢ . الإتقان ٣٤١/٢. خلف ١٥١ ــ ٢. وانظر معترك ٦/١.

قدر من القرآن بلغ الحد الذى قدرتموه [أقصر سورة] بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها ؟

فالجواب أن شيخنا أجاب عن ذلك بأن كل سورة قد عُلم كونها معجزة بعجز العرب عنها[١] .

واستمر الباقلانى فقال : وسمعت بعض الكبراء من أهل هذا الشأن يقول : إن ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفا[٢] .

ثم كشف عن رأيه الخاص ، فأعلن أن طريقة الأشعرى أسدّ ، وإن كانت الطريقة الثانية لا تنافيها ، لأنه لا يمتنع أن يُعلم إعجازه بطرق مختلفة ، تتوافَى عليه وتجتمع فيه[٣] .

وتحت اختلاف هذه الأجوبة ضرب من الفائدة:

لأن الطريقة الأولى تبين أن ما عُلم به كون جميع القرآن معجزا ، موجود فى كل سورة ، صغرت أو كبرت . فيجب أن يكون الحكم فى الكل واحدا .

والطريقة الثانية تتضمن تعذر معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التى سلكناها فى كتابنا ، من التفصيل الذى بيّناه ، فيما تُعَرف به - فى الكلام - الفصاحة ، وتتبين به البلاغة ، حتى يُعلم ذلك بوجه آخر . فيستوى فى هذا القدر البليغ وغيره فى أن لا يعلمه معجزا حتى يستدل به من وجه آخر ، سوى ما يعلمه البلغاء من التقدم فى الصنعة . وهذا غير ممتنع[٤] .

وصرح نعيم الحمصى أن عبد العليم الهندى ذكر أن حسن بن محمد القمى (٣٧٨ / ٩٨٨) أكد بأن طبيعة المعجزة يمكن أن تعرف ، ولا يمكن أن توصف ، شأن القطعة من الذهب الصافى أو جمال الوجه .

وكل شخص - فى رأيه - يقول غير هذا وينكره . ويحاول أن يبرهن أن الإعجاز كان بالصرفة أو الخروج عن أنواع الكلام المعروفة . أو الخلو من التناقض ، أو الإخبار عن الغيب ، شخص مخطئ مطلقا[٥] .

وذكر الخطابى أن الأكثرين من علماء أهل النظر ذهبوا إلى أن إعجاز القرآن من جهة البلاغة . ولكنه وصم عامتهم بأنهم إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن ، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع

---

(١) إعجاز ٢٥٤ - ٥ . الزركشى ١٠٩/٢ . وانظر الرمانى ١٠٣ ، ١٧٩ .
(٢) إعجاز ٥٥ . الزركشى ١٠٩/٢ . (٣) إعجاز ٢٥٥ - الزركشى ١٠٩/٢ .
(٤) إعجاز ٢٥٥ . (٥) فكرة ٦١ . وانظر ٤٤٨ .

الكلام الموصوف بالبلاغة ؟ قالوا : إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر يعلم مباينة القرآن غيره من الكلام . وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده ...

وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع ، وهشاشة فى النفس ، لا يوجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معا فصيحان ؛ ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علة[1] .

وعلق الخطابى على هذا القول قائلا : هذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام[2] .

وعلى الرغم أنه يعيب هؤلاء العلماء ، فإنه يدلى بقول يدل ظاهره على أن رأيه غير بعيد عن آرائهم . فقد حكم بتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كيفيته[3] .

ولكن يخفف هذا الحكم أننا عندما نستمر فى كتابه ، ونراه يعطينا وجوها متعددة للإعجاز ، ندرك أنه لم يعن به استحالة إدراك وجه الإعجاز ، وإنما الصعوبة فقط .

وسعى الباقلانى إلى الكشف عن أسباب عجز الناس عن إدراك الإعجاز وحيرتهم فيه . فرده مرة إلى تفاوت الناس . فإنهم يتفاوتون ـ عنده ـ فى المعرفة . ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم ، لاتصاله بأسباب خفية ، وتعلقه بعلوم غامضة الغور ، عميقة القعر ، كثيرة المذاهب ، قليلة الطلاب ، ضعيفة الأصحاب . وبحسب تأتّى مواقعه تقع الأفهام دونه ، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه[4] .

ورده مرارا إلى صعوبة النقد . أجمل ذلك مرة فقال : إذا كان نقد الكلام كله صعبا ، وتمييزه شديدا ، والوقوع على اختلاف فنونه متعذرا ، وهذا فى كلام الآدميين ؛ فما ظنك بكلام رب العالمين[5] ؟!

وأبانه أخرى فقال : إذا كان الكلام المتعارَف المتداول بين الناس . يشقّ تمييزه ، ويصعب نقده ، ويذهب عن محاسنه الكثير ، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافا كثيرا ، وتتباين آراؤهم

---

(١) بيان ٢١ ـ ٢ . فقيهى ١٥٧ . العمارى ١٨ . عطا ٢٤٤ . عظمة ٨٤ . أبو موسى ٢٧ .
(٢) بيان ٢٢ . فقيهى ١٥٨ .
(٣) بيان ١٩ . صقر ١٣ . فقيهى ١٥٥ . إعجاز الخطيب ١٥٨/١ . عائشة ١٨ . حويش ٢٧٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٢ . أبو على ٣٧ . أبو موسى ٢٨ .
(٤) إعجاز ٢٩٩ .
(٥) إعجاز ٣٠٠ . اتجاهات مطلوب ١٥٧ .

فى تفضيل ما يفضل منه ؛ فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتى فى مقدورهم ، ولا يَمْثُل بخواطرهم[١] .

وكان السبب الثالث اختلاف جلاء الإعجاز فى المواضع المختلفة . قال : ألا ترى أن الإعجاز فى بعض السور والآيات أظهر ، وفى بعضها أغمض وأدق ؟ فلا يفتقر البليغ فى النظر فى حال بعضها إلى تأمل كثير ، ولا بحث شديد ، حتى يتبين له الإعجاز . ويفتقر فى بعضها إلى نظر دقيق وبحث لطيف ، حتى يقع على الجلية ، ويصل إلى المَطْلب .

ولا يمتنع أن يذهب عليه الوجه فى بعض السور . فيحتاج أن يفزع [يلجأ] فيه إلى إجماع أو توقيف أو ما علمه من عجز العرب قاطبة عنه[٢] .

وليس بممتنع اختلاف حال الكلام حتى يكون الإعجاز على بعضه أظهر ، وفى بعضه أغمض . ومن آمن ببعض دون بعض كان مذموما ، على ما قال اللّه : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟﴾ [٣] .

وقال : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٤] . فظاهره - عند بعض أهل التأويل - كالدليل على أن الشفاء ببعضه أَوْقع ، وإن كنا نقول : إنه يدل على أن الشفاء فى جميعه[٥] .

وحكى الإيجى فى شُبه القادحين فى الإعجاز أنهم قالوا : وجه الإعجاز يجب أن يكون بيِّنا لمن يستدل به عليه ، واختلافكم فيه دليل خفائه[٦] .

ورد عليهم قائلا : الخفاء - وإن وقع فى آحاد الوجوه ، فلا اختلاف بيننا - ولا خفاء - فى أنه - بما فيه من البلاغة ... - معجز . وإنما وقع الخلاف فى وجهه لاختلاف الأنظار ، ومبلغ أصحابها من العلم . ولا يلزم - إذا لم يكن معجزا بالنظر إلى أحد الوجوه - ألا يكون معجزا بجملتها أو بجملة منها[٧] .

وأفاد ابن كثير من بعض كلام الباقلانى فقال : من تدبر القرآن وجد فيه - من وجوه الإعجاز - فنونا ظاهرة وخفية ، من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى[٨] .

ونقف عند هذا الحد ، لأن الأمر الأهم رصد المؤهلات التى رأى العلماء وجوب توفرها فيمن يسعى إلى إدراك الإعجاز .

---

(١) إعجاز ٢٠٣ .

(٢) إعجاز ٢٠٥ ، ٢٥٥ ، الزركشى ٢/٩٩ . الإتقان ٢/٣٣٠ . موسى لاشين ٢٥١ . أبو موسى ٢٤٩ . وانظر ابن كثير ١/٦٠ . قطب ٣٣٩٩ . الحمصى ٢٩ ، ١٤٩ . إعجاز الخطيب ١/١٨٠ .

(٣) سورة البقرة ٨٥ . (٤) سورة الإسراء ٨٢ . (٥) إعجاز ٢٥٦ .

(٦) المواقف ١/٣٥٠ . (٧) المواقف ١/٣٥٣ . (٨) التفسير ١/٦٠ . الحمصى ١٤٩ .

الفصل الثانى

مؤهلات إدراك الإعجاز

سار أبو هاشم الجبائى فى ركاب الجاحظ فذكر فى نقض كتاب الفريد لابن الراوندى ما يدل على أن العلم قد وقع - لمن يعرف الأخبار ــ بأن القوم علموا مزية القرآن فى الفصاحة ، واعتقدوا ذلك فيه ، وأن تركهم المعارضة لأجل معرفتهم بحاله ، وتعظيمهم لشأنه . وذكر أن المتقدمين منهم فى الفصاحة علموا ذلك : وغيرهم بعلم من جهتهم وبخبرهم ، لأن هذا الباب يُعلم بالإدراك[1] وبالأخبار[2] . فكشف بذلك أن لمعرفة إعجاز القرآن طريقين :

١ ـ العلم بأخبار العرب المصرحة بعجزهم .

٢ ـ الإدراك الشخصى عند المتقدمين فى الفصاحة .

وذهب إلى أن العجم يعرفون ـ فى الجملة ــ مزية القرآن بالاستدلال ، وإن لم يعرفوا فصاحة الكلام . ويقوّى ذلك أنهم يعرفون المتقدم فى الفقه ، إذا علموا تسليم الفقهاء له إلى ذلك ، وإن لم يعرفوا الفقه على التفصيل[3] .

واتفق الخطابى مع أبى هاشم فى الفطنة إلى أن من يدركون الإعجاز أو يسعون إلى إدراك إعجازه يتحلون بصفات خاصة ، ويحملون مؤهلات معينة ، تميزهم عن غيرهم .

قال : فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمعة دون البحث عن باطن العلة ، و لم يقنع فى الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول : إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب ، والتأثير فى النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَر الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لابد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف[4] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٩٦ ، ٣١٠ . وانظر الباقلانى ٢٦ . عياض ٥٠٩/١ .

(٢) المغنى ٢٩٦/١٦ ، ٣١٠ .

(٣) المغنى ١٦ / ٢٩٥ ــ ٦ . سلطان ٧٣ . خلف ١٥٢ ــ ٣ . وانظر ابن عطية ١٨٧/٩ .

(٤) بيان ٢٣ .

وحدد أبو هلال العسكرى علم البلاغة ، إذ رأى أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن ، من جهة ما خصه اللّه به من حسن التأليف .

وأبان أن الاعتماد على ما ينقل من أخبار عجز العرب فى معرفة الإعجاز لا يصلح إلا لفئة متخلفة من الناس ، وقبيح بالفقيه المؤتمّ به ، والقارئ المهتدَى بهَدْيه ، والمتكلم المشار إليه فى حسن مناظرته ، وتمام آلته فى مجادلته ، والعربى الصليب والقرشى الصريح : أن لا يعرف إعجاز كتاب اللّه إلا من الجهة التى يعرفه منها الزنجى والنبطى ، وأن يستدل عليه بما استدل الجاهل الغبى(١) .

وأبان الباقلانى المنهج العام الذى يحتاج إليه الدارس لمعرفة الإعجاز فذكر مرة أن معرفة إعجاز القرآن تحتاج إلى تأمل(٢) . ولم يقنع بهذا ، فذكر فى مرة أخرى أنها تحتاج إلى تأمل كثير ، ونظر دقيق ، وبحث شديد أو لطيف(٣) .

وكشف عن الثقافة التى يجب أن يتحلى بها هذا الدارس . فأجمل فذكر مرة أن معرفة إعجاز القرآن تفتقر مرة إلى مراعاة مقدمات ، والكشف عن أمور(٤) ، وذكر مرة أخرى أن باب إدراك الإعجاز مما لا يمكن إحكامه إلا بعد التقدم فى أمور شريفة المحل ، عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ(٥) .

وفصل فقال ذات مرة : لسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه ، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ؛ لأن ذلك مما لا سبيل إليه ، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه من أهل صناعة العربية . قد وقف على جُمَل من محاسن الكلام ومتصرفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين ، ونظر فى شىء من أصول الدين(٦) .

وكان الباقلانى يؤمن أن الإعجاز أمر — وإن دقّ — فله قوم يقتلونه علما ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرّفونه إليك إن شئت ، ويصوّرونه لديك إن أردت ، ويُجلُّونه على خواطرك إن أجبت ، ويُعرفونه لفطنتك إن حاولت . وقد قال القائل :

---

(١) الصناعتين ٩ — ١٠ . عباس ٣٥٥ . وانظر عياض ٥٠٩/١ . الإيجى ٣٥٠/١ . الحمصى ١٢٩ . ضيف ١١٢ . الجندى ١٣ .
(٢) إعجاز ٢٧ ، ٤٣ ، ١٢٦ ، ٢٩٤ .
(٣) إعجاز ٢٢٥ . أبو موسى ١٧٢ ، ١٧٤ .
(٤) إعجاز ٢٧ .
(٥) إعجاز ٥ .
(٦) إعجاز ٥ ، ٧ ، ٢٤ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ . صقر ٦٨ . أبو الخشب ١١٤ .

للحرب والضرب أقـوام لها خُلقـوا   وللدواويـن كُتـاب وحُسّـاب

ولكل عمل رجال ، ولكل صنعة ناس . وفى كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط[١] .

من أجل ذلك صنف الناس إلى فئات :

الفئة الأولى العرب

ردد الباقلانى - فى عدة مواضع من كتابه - القول بأن العرب أدركوا إعجاز القرآن .

فاكتفى مرة بالقول بأن قوم كل نبى أدركوا معجزته ، وأن العرب عرفوا عجزهم عن الإتيان بمثيل له ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ، فجاءهم بما بهرهم ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ؛ وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دقّقوا فيه من سحرهم، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ؛ وكما سخر لسليمان الريح والطير ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة ، وبدائع اللطف[٢] .

وذكر فى مرة أخرى بأن العرب - لما كانت تعرف ما يباين عادتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم - لم يحتج البلغاء منهم تجربة عند سماع القرآن ليدركوا عجزهم عنه[٣] .

واحترس فى موضع آخر ، فأعلن أنهم عرفوا عجزهم ، وإن جهل قوم منهم سببه ، وعلموا نقصهم ، وإن أغفل قوم وجهه[٤] .

واستدل على هذه المعرفة باحتجاج محمد - فى دعواه - بالقرآن ، لأنه لم يُلزمهم تصديقه ، فدخلوا فيه على بصيرة ، دون أن يقول لهم : ارجعوا إلى جميع الفصحاء ، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله ، فقد ثبتت حجتى . وإنما ألزمهم حكمه ، لما رآهم يعلمون إعجاز القرآن ، فقبلوه وتابعوا الحق ، وبادروا إليه مستسلمين ، ولم يشكو فى صدقه .

فمن كانت بصيرته أقوى ومعرفته أبلغ ، كان إلى القبول منه أسبق . ومن اشتبه عليه وجه الإعجاز ، أو خفى عليه بعض شروط المعجزات ، وأدلة النبوات ، كان أبطأ إلى القبول ، حتى تكاملت أسبابه ، واجتمعت له بصيرته[٥] .

وتنبه إلى أن رأيه هذا يمكن أن يثير عدة اعتراضات ، فقال :

---

(١) إعجاز ١٢٥ . خلف ١٤٧ .   (٢) إعجاز ٣٠٣ .   (٣) إعجاز ٢٨٩ .

(٤) إعجاز ٢٨٧ .   (٥) إعجاز ٢٥ .

فإن قيل : لو كان كذلك على ما قلتم ، لوجب أن يكون حال الفصحاء الذين كانوا فى عصر محمد على طريقة واحدة فى إسلامهم عند سماعه .

قيل له : لا يجب ذلك ، لأن صَوارفهم كانت كثيرة .

منها أنهم كانوا يشكّون : ففيهم من يشك فى إثبات الصانع . وفيهم من يشك فى التوحيد . وفيهم من يشك فى النبوة . فكانت وجوه شكوكهم مختلفة ، وطرق شُبههم متباينة . فمنهم من قلّت شبهه ، وتأمل الحجة حق تأملها و لم يستكبر ، فأسلم . ومنهم من كثرت شبهه ، أو أعرض عن تأمل الحجة حق تأملها ، أو لم يكن فى البلاغة على حدود النهاية ، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر ، وراعى واعتبر ، واحتاج إلى أن يتأمل عجز غيره عن الإتيان بمثله . فلذلك وقف أمره .

ولو كانوا فى الفصاحة على مرتبة واحدة ، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة ، لتوافوا إلى القبول جملة واحدة[١] .

وأكد ذلك فى موضع آخر فقال : لا يمتنع أن يلتبس - على من لم يكن بارعا فيهم ، ولا متقدما فى الفصاحة منهم - هذا الحال ، حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى يعرف حال عجز غيره . إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا و لم يشتغلوا بذلك ، تحققا بظهور العجز وتبيُّنا له[٢] .

وعنى فى نص آخر بإبانة الصوارف التى حالت بينهم وبين الإسلام ، إضافة إلى الشك الذى ذكره آنفا . فقال : لا يوسوس إليك الشيطان بأنه قد كان ممن هو أعلم منك بالعربية ، وأَدْرب منك فى الفصاحة ، أقوام وأى أقوام ، ورجال وأى رجال ، فكذبوا وارتابوا . لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز ، ولكن اختلفت أحوالهم . فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين كافر نعمة وحاسد ، وبين ذاهب عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائد عن النظر فى الدلالات ، وناقص فى باب البحث ، ومختلّ الآلة فى وجه الفحص ، ومستهين بأمر الأديان ، وغاوٍ تحت حُبالة الشيطان ، ومقذوف بخذلان الرحمن .

وأسباب الخذلان والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة[٣] .

وجعل الباقلانى العرب المعاصرين له أصنافا :

---

(١) إعجاز ٢٨ - ٩ . أبو موسى ١٨٤ - ٥ . (٢) إعجاز ٤٣ . (٣) إعجاز ٣٠٤ .

١ ـ غير البلغاء : قال : من لم يكن بليغا لا يمكن أن يعلم إعجازه إلا استدلالا[١] .

٢ ـ المتوسطون : وهم من لا يعرفون من هذا الشأن [الفصاحة] ما يعرفه العالى فى هذه الصنعة[٢] أو الذى ليس يبلغ فى الفصاحة المدى الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة ، وما يعدونه فصيحا من غيره[٣] .

وحكم بأن هذا المتوسط ربما حل فى ذلك محل الأعجمى ، فى أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجز المتناهى فى الصنعة عنه[٤] ، أى هو ومن ليس من أهل اللسان سواء ، فلا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بمثل ما يعرف به الفارسى[٥] . وخاطب من يسعى إلى معرفة الإعجاز : إن كنت فى الصنعة مُرْمدا ، وفى المعرفة بها متوسطا ، فلابد لك من التقليد ، ولا غنى بك عن التسليم . إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشادى فيها كالبائن عنها[٦] .

٣ ـ العارفون بواحد من فنون الأدب : قال : كذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحده ، أو الغاية فى معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما ، من غَوْر الإعجاز ما يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب ، ووجوه الكلام ، وطرق البراعة .

وقال عنهم : لا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها دون تحققه لعجز البارع فى هذه العلوم كلها عنه[٧] .

٤ ـ أعلى مراتب المعرفة : مر بنا فى الحديث عن الفئات السابقة شىء من الصفات التى خلعها عليهم الباقلانى . وأضيف إليها وصفه الواحد منهم بمن كان متناهيا فى معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة والفنون التى يمكن فيها إظهار الفصاحة[٨] ، والمتناهى فى الفصاحة والعلم بالأساليب التى يقع فيها التفاصح[٩] ، ومن تناهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها ، وعرف القدر الذى ينتهى إليه وُسْع المتكلم من الفصاحة ، وما يخرج عن الوُسْع ، ويتجاوز حدود القدرة ، ويميز بين جنس الخطب

---

(١) إعجاز ٢٥٢ ، ٢٥٩ . الزركشى ٢/١١٢ . صقر ٨٥ . وانظر معترك ١/٦ . الإتقان ٢/٣٤١ . الحمصى ٧٤ . خلف ١٥١ .
(٢) إعجاز ٢٥ .
(٣) إعجاز ١١٣ ، ١٢٨ ، ٢٥٢ . عبد القاهر لمطلوب ٢٥٣ واتجاهاته ١٥٧ . أبو الخشب ١١٤ .
(٤) إعجاز ١٣ ، ٢٥ . عبد القاهر لمطلوب ٢٥٣ واتجاهاته ١٥٧ . أبو موسى ١٨٥ ، ١٨٧ . أبو الخشب ١١٤ .
(٥) إعجاز ١١٣ . خلف ١٤٩ .
(٦) إعجاز ١٢٦ . خلف ١٤٩ .
(٧) إعجاز ٢٥ ــ ٦ . أبو موسى ١٨٣ ، ١٨٥ .
(٨) إعجاز ٢٦ .
(٩) إعجاز ٢٦ .

والرسائل والشعر ، وبين الشعر الجيد والرديء ، والفصيح والبديع ، والنادر والبارع والغريب كما يميز أهل كل صناعة صناعتهم[١] .

ورأى أن من ينتمي إلى هذه الفئة متى سمع القرآن عرف إعجازه ، لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه ، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو[٢] .

وإن لم نقل ذلك أدى هذا إلى أن يقال : إن محمدا لم يعرف إعجاز القرآن حين أوحى إليه حتى سَبَر الحال بعجز أهل اللسان عنه ، وهذا خطأ من القول [٣] .

واستدل على قوله هذا بإسلام جبير بن مطعم عندما سمع آيات من سورة الطور ، وإسلام عمر بن الخطاب عندما سمع آيات من سورة طه[٤] .

كما رأى أن أَبْيَن من ذلك قول اللّه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجِرْه حتى يسمع كلام اللّه ، ثم أبلغه مأمنه ﴾[٥] فجعل سماعه حجة عليه بنفسه . فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه[٦] .

فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد ، فصاحة القرآن ، وموقع بلاغته ، وعجيب براعته ، فما عليك منه . إنما يخبر عن نقصه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله[٧] .

غير العرب

أراد الباقلاني بهذه الفئة من لسانُه غير العربية من العجم [الفرس] والترك وغيرهم[٨] .

وتحدث عنهم في كثير من المواضع دون أن يفرق بينهم أو يصنفهم فرأى أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجاز القرآن إلااستدلالا[٩] ، أى بأن يَعْلم عجز العرب عنه[١٠] .

---

(١) إعجاز ٢٧ ، ١١٣ ، ١٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٣٠٤ ، العمارى ٦ . اتجاهات مطلوب ١٥٧ — ٨ . عبد القاهر له ٢٥٢ — ٣ . خلف ١٤٧ . أبو موسى ٢٩ ، ١٨٥ .

(٢) إعجاز ٢٦ ، ٢٥١ — ٢ ، ٢٥٩ . أبو موسى ١٨٥ . وانظر الزركشي ١١٢/٢ . معترك ٦/١ . الإتقان ٢ / ٣٤١ . صقر ٨٥ . الحمصى ٨٤ . خلف ١٤٧ ، ١٥١ .

(٣) إعجاز ٢٦ ، ٢٥٢ .

(٤) إعجاز ٢٧ . وانظر حويش ٢١٢ — ٣ .

(٥) سورة التوبة ٦ .

(٦) إعجاز ٢٨ .

(٧) إعجاز ١٢٥ . أبو موسى ١٨٦ . وانظر الباقلاني أيضا ١١٩ — ٢٧ .

(٨) إعجاز ١١٣ . اتجاهات مطلوب ١٥٧ .

(٩) إعجاز ٢٥٩ . الزركشي ١١٢/٢ . صقر ٨٥ . اتجاهات مطلوب ١٥٧ . ونسب السيوطي هذا القول إلى الأشعرى : معترك ٦/١ . الإتقان ٣٤١/٢ . خلف ١٥١ .

(١٠) إعجاز ٢٥ ، ١١٣ .

وفرق ذات مرة بين فئتين منهم فقال : الأعجمى الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأمور زائدة على الأعجمى الذى كان فى ذلك الزمان مشاهدا له ، لأن من هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولا أن العرب عجزوا عنه . وإنما يعلم عجزهم بنقل الناقلة إليه أن محمدا قد تحدى العرب إليه ، فعجزوا عنه . ويحتاج فى النقل إلى شروط[1] .

وذهب عبد الجبار إلى أن العلم بمقادير الكلام فى الفصاحة لا يجوز أن يكون من باب الاستدلال ، وأن العلوم التى معها يتمكن أحدنا من الكلام الفصيح لا تكون إلا ضرورية .

وليس يجوز فى هذا العلم أن يكون من كمال العقل ، لأن أحوال العقلاء تختلف فيه . فهو من باب ما يقع عند سبب وطريق . فإنما يجب أن يتساووا فيه متى اتفقت حالهم فى سببه وطريقه ، كما نقوله فى العلم بالمدركات والصنائع وغيرها .

وهذا العلم بمنزلة العلم بالصناعات . فلابد أن يكون العالم به قد مارس ذلك كما تمارس الصناعات ، أو يجرى مجرى العلم بالحفظ - فلابد من تكرره على السمع - ؛ أو يجرى مجرى العلم بالمدرك . فلابد من إدراكه له . ولا يجوز أن يخرج العلم بالكلام الفصيح عن هذه الوجوه الثلاثة . وكلها تقتضى صحة ما قلناه من أنه يحصل عند سبب وطريق .

فأما العلم بأن أحد الكلامين يباين الآخر فى الفصاحة ، فلابد من أن يكون تابعا لما قدمنا ذكره من العلوم ، وتنضاف التجربة والعادة . فتعرف عند ذلك المباينة كما يعرف أهل الصنائع التفاضل فى صنائعهم .

فليس بواجب - والحال ما قدمناه - أن يكون كل واحد من العقلاء يشارك العرب فى المعرفة بمزية القرآن . وإنما يجب أن يعرف ذلك من يعرف الكلام الفصيح ، ويعرف العادات فيه ، ثم العلم بالمزية التى تخرجه عن طريق العادة ، لأن نفس المزية قد يعرفها أحدنا فى الكلام ، ولا يعرف قدره على التفصيل . وهذا كما يعرف المتقدم فى الشعر من أحواله ما لا يعرفه غيره ، وإن كان مساويا له فى معرفة اللغة ، حتى إن فيهم من يعرف من نقد الشعر ، والمعرفة بسائر أحواله ، ما لا يعرفه غيره ، وإن كان حاله كحاله فى الحفظ الكثير .

---

(١) إعجاز ٢٥٢ .

وهذه الطريقة شبيهة بما نعلم من حال الجواهر النفسية ، لأن أهل البصر بها يعرفون المباينة بين الجوهرين ، وإن كان قدرهما - فى الكبر والوزن - لا يتفاوت ، لأحوال تتعلق بالعادة والتجربة . وكذلك القول فى الحساب وغير ذلك[١] .

وتناول عبد الجبار قضية إدراك غير العرب الإعجاز تناولا جدليا . فقال : إذا صح كون العرب عالمين من حال القرآن بما ذكرناه باضطرار ، فليس يخلو حال غيرهم من وجهين :

إما إن يكون مشاركا لهم فى طريقة هذه المعرفة ، فهو يعلم من حال القرآن ما عرفوه ، فيمكنه الاستدلال بهذا العلم الضرورى .

أو يقصر حاله عن حالهم ، فلابد من أن يعرف مزية القرآن بالخبر المتواتر عنهم ، أو يعلمه بالدليل الذى ذكرناه ، وهو تعذر معارضته عليهم .

فليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يجعل - تعالى - القرآن حجة على الخلق ، ومنهم من لا يعرف مزيته ، والوجه الذى صار عليه معجزا ؟ لأنا قد بينا الحال فيه[٢] .

يبين ما ذكرناه أنهم لو علموا - فى بعض الأنبياء - أنه حمل جسما ثقيلا ، وتعذر على غيره ، لعلموا أنه معجز ، وإن لم يعلم تفصيله . فكذلك يعلمون أنه أتى بكلام مخصوص من جنس كلامهم ، وتعذر عليهم . وهذا القدر يكفيهم[٣] .

ورأى عبد القاهر الجرجانى أن اتفاق المسلمين على اختصاص محمد بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر ، معناه أن البرهان من القرآن لا يزال لائحا مُعْرضا لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول إليه ، والعلم به ممكن لمن التمسه[٤] .

وفرق ابن عطية بين عرب عصره والمعاصرين لمحمد ، فقال : نحن تَبين لنا البراعة فى أكثره ، ويخفَى علينا وجهُها فى مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ ، فى سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، ومَيْز الكلام . ألا ترى مَيْز الجارية نفَس الأعشى ، وميز الفرزدق نفَس جرير من نفس ذى الرمة[٥] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٨٤ — ٥ . (٢) المغنى ١٦ / ٢٩٤ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٩٤ — ٥ . خلف ١٥٢ .
(٤) دلائل ١٠ . إعجاز الخطيب ١/٢٣١ — ٢ .
(٥) المحرر ١/٦١ ، ٧/١٥٢ ، ٩/١٨٧ . الزركشى ٢/٩٧ . الإتقان ٢/٣٣١ . عطا ٢٤٤ — ٥ . عظمة ٨٤ — ٥ .

ووضع الأمر فى موضع آخر فقال : فهمت العرب - بخلوص فهمهـا فـى مَـيْز الكـلام ودربتها به - مالا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة . ففهمـوا العجـز عنـه ضـرورةً ومشاهدة . وعلمه الناس - بعدهم - استدلالا ونظرا . ولكلٍّ حصـل علـم قطعـى ، لكـن ليس فى مرتبة واحدة .

وهذا كما علمت الصحابة شَرْع النبى ﷺ وأعماله مشاهدة علـمَ ضـرورة ، وعلمنـا نحن المتواترَ ذلك بنقل التواتر . فحصل للجميع القطعُ ، لكن فى مرتبتين . وفَهِـم إعجـازَ القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب فى ميز الكلام[١] .

وأجمل عياض ما سبق ، فقال :

كون القرآن من قبل النبى e وأنه أتى به معلوم ضرورة .

وكونه ﷺ متحديا به معلوم ضرورة .

وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة .

وكونه - فى فصاحته خارقا للعادة - معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة . وسبيل من ليس من أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلهـا عـن معارضتـه ، واعـتراف المقرّين بإعجاز بلاغته[٢] .

وكان السكاكى مترددا فى القدرة على إدراك وجه الإعجاز .

فنفى ذلك نفيا صريحا فى قوله : نعم ، للبلاغـة وجـوه متلثمـة ، ربما تيسـرت إماطـة اللثام عنها لتُجلَى عليك . أما نفس وجه الإعجاز فلا[٣] .

ووضح هـذا القـول فـى قولـه : اعلـم أن شـأن الإعجـاز عجيـب : يُـدرَك ولا يمكـن وصفه ، كاستقامة الوزن : تدرك ولا يمكن وصفها ؛ وكالملاحة[٤] .

وذهب فى موضع آخر إلى ما يشى بأن إدراكه ممكن . قال : مدرك الإعجاز - عندى - هو الذوق ليس إلا . وطريق اكتساب الذوق طول خدمة علمى المعانى والبيان[٥] .

---

(١) المحرر ٩/١٨٧ ـــ ٩١ ، ٧/١٥٢ . أبو حيان ٦/٧٨ .

(٢) الشفا ١/٥٠٨ ـــ ٩ .

(٣) مفتاح ٦٥٣ .

(٤) مفتاح ٦٥٣ . الزركشى ٢/١٠٠ . معترك ١/٣ــ٤ . الإتقان ٢/٣٣٤ . الحمصى ١٠٧ . إعجاز الخطيب ١/٣٣٣ . عرجون ١٥٨ . آلوسى عبد الحميد ٢٦٤ . كفافى ١٤١ . العانى ١٨١ . عطا ٢٤٤ . سلطان ٢٠٩ . الجندى ١٣ . وانظر الحمصى ٤٤٨ .

(٥) مفتاح ٦٥٣ . الزركشى ٢/١٠٠ . الإتقان ٢/٣٣٤ . الحمصى ١٠٦ ـــ ٧ . العمارى ١٨ . آلوسى عبد الحميد ٢٦٤ . كفافى ١٤١ . العانى ١٨١ . عطا ٢٤٤ . عظمة ٨٤ . سلطان ٢٠٩ . الجندى ١٣ .

ولم يكتف بذلك بل صرح فى قول رابع بأن الهدف من علمى المعانى والبيان الاستغناء بهما عن قرع باب الاستدلال فى وجه إعجاز القرآن ، وعن تجاذب أيدى الاحتمالات .

ثم أعلن أن قارعى باب الاستدلال اتفقوا على أنه معجز ثم اختلفوا فى وجه الإعجاز على أربعة أقوال ، يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة . ولا طريق إلى هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين ، بعد فضل إلاهى من هبة يهبها بحكمته ، وهى النفس المستعدة لذلك[(١)] .

وذهب ابن خلدون مذهب علماء البلاغة ، فأعلن فى أثناء حديثه عن فن البيان ، بأن ثمرته إنما هى فى فهم الإعجاز من القرآن ، الذى تقصر الأفهام عن دركه . وإنما يدرك بعض الشىء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان ، وحصول ملكته . فيدرك من إعجازه على قدر ذوقه ، فلهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلّغه أعلى مقاما . وذلك لأنهم فرسان الكلام وجهابذته ، والذوق عندهم موجود بأوفر ما يكون وأصحه[(٢)] .

واكتفى المراكشى بعلم البيان . نقل عنه السيوطى : قال المراكشى فى شرح المصباح : الجهة المعجزة فى القرآن تُعرف بالتفكير فى علم البيان ..

لأن جهة إعجازه ليس مفردات ألفاظه ، وإلا لكانت قبل نزوله معجزة .

ولا مجرد تأليفها وإلا لكان كل تأليف معجزا .

ولا إعرابها وإلا لكان كل كلام العرب معجزا .

ولا مجرد أسلوبه وإلا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا — والأسلوب الطريق — ولكان هذيان مسيلمة معجزا ... [(٣)] .

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنه لما كان إعجاز القرآن لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علما وحكما وبيانا للعلم والحكمة ، حار العلماء فى تحديد وجه الإعجاز ، بعد ثبوته بالعلم اليقينى الذى بلغ حد الضرورة فى ظهوره[(٤)] .

ومعرفة مكانة القرآن من البلاغة - عنده - لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظا عظيما من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور ، من مرسل ومسجوع ، حتى

---

(١) مفتاح ٧٦٥ — ٧ . الحمصى ١٠٧ . العمارى ١٨ .
(٢) مقدمته ١٢٧٦ . الحمصى ١٥٦ .
(٣) الإتقان ٣٣١/٢ — ٢ .
(٤) المنار ١٦٥/١ .

صار ملكة له وذوقا ؛ واستعان على فهم فسفته بمثل كتابى عبد القاهر ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، والخصائص لابن جنى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، ومغنى اللبيب لابن هشام . هذه مقدمات البلاغة ، ونتيجتها الملكة ، ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ ، وهى ما كان للقرآن من التأثير فى الأمة العربية ، ثم فيمن حذقها من الأعاجم أيضا[1] .

واحتذى الرافعى قولا للجاحظ فقال : ليس إلا أن تقرأ الآية على العربى أو من هو فى حكمه لغة وبلاغة حتى تذهب فى نفسه مذهبها ، لا تَنِى ولا تتخلف ، على حين أن أكثر المعانى الإنسانية يجىء من النقص فى السياسة البيانية[2] .

وعد الإعجاز هو الحق الذى لا جمجمة فيه ، ولا يستعجم على كل بليغ له بصر بمذاهب العرب فى لغتها وحكمة مذاهبها فى أساليب هذه اللغة ، وتفقّه بالبحث فى ذلك والكشف عن دقائقه ، وكان يجرى عن هذه الصناعة البيانية على أصل ، ويرجع فيها إلى طبع .

وإن شعور أبلغ الناس بضعفه عن أسلوب القرآن ليكون على مقدار شعوره من نفسه بقوة الطبع ، واستفاضة المادة ، وتمكنه من فنون القول ، وتقدمه فى مذاهب البيان . فكلما تناهى فى علمه تناهى كذلك فى علمه بالعجز[3] .

ووصف الإعجاز بأنه أمر ضيق ، كثير الالتواء لمن تلمَّس جوانبه ، واقتحم مَصاعبه .

وما أشبه القرآن فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه ، بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا . ثم هو بعدُ لا يزال عندهم على كل ذلك خَلْقا جديدا ، ومراما بعيدا ، وصعبا شديدا . وإنما بلغوا منه – إذ بلغوا – نَزْرا تهيأت لضَعفه أسبابه ، وقليلا عُرف لقلته حسابه . وبقى ما وراء ذلك من الأمر المتعذر ، الذى وقفت عنده الأعذار ، والابتغاءِ المعجز الذى انحط عنده قدرُ الإنسان لأنه مما سَمَت به الأقدار[4] .

ولعل موقف سيد قطب يفسر ما تحس به من تردد أو تعارض عند بعض العلماء . فإنه يعلن أن الإحساس بالإعجاز يجده الجميع فى أنفسهم . قال : إن فى هذا القرآن سرا

---

(١) المنار ١٦٨/١ .
(٢) إعجاز ٢٧٨ .
(٣) إعجاز ١٩٣ .
(٤) إعجاز ١٣٩ .

خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص فى عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئا ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير ، وأن هنالك عنصرا ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحا ، ويدركه بعض الناس غامضا . ولكنه - على كل حال - موجود .

هذا العنصر الذى ينسكب فى الحس يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟! أهو المعنى الكامن فيها ؟! أهو الصور والظلال التى تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة أم إنها هى وشىء آخر وراءها غير محدود ؟!

ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن كله[١] .

وإذن هو يؤمن بشعور الجميع بالإعجاز ، ويؤمن - فى الوقت نفسه - بصعوبة تحديد هذا الإعجاز . ولكنه على الرغم من هذه الصعوبة كان يؤمن بأن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء ،

وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء ،

وكل من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أو الاجتماعية التى ينشئها البشر،

لا يخالجه شك فى أن ما جاء به القرآن - فى هذه المجالات كلها - شىء آخر ليس من مادة ما يصفه البشر . والمراء فى هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز ، أو غرض يلبس الحق بالباطل[٢] .

وعاد ثانية إلى هذا القول وزاد إيضاحه فى قوله : الذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان .

وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر

---

(١) فى ظلال ٣٣٩٩ .

(٢) فى ظلال ٤٩ .

ومرونة ؛ كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال .

ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ، ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا ، وفى النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها .

والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفنى ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما فى القرآن من إعجاز فى هذا الجانب .

والذين زاولوا التفكير الاجتماعى والقانونى والنفسى ، والإنسانى بصفة خاصة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعى فى هذا الكتاب[١] .

وإذن فهو ليس إعجازا واحدا ، بل أكثر من إعجاز ، ولكل واحد من ألوان هذا الإعجاز خبراؤه الذين يدركونه .

ومع ذلك يجب أن نحتاط فنقول إنه كان يرى - على الرغم من كل ما قال — هيمنة العجز عن بيان حقيقة الإعجاز [الأدبى] ومداه ، وعن تصويره بالأسلوب البشرى[٢] .

ورأى نعيم الحمصى أن القرآن باغت العرب بمميزات فيه ، أدركوا جمالها وعجزهم عن مثلها . ومن هذه المميزات ما يرجع إلى أسلوب القرآن الغريب الذى جاء مخالفا لأساليبهم فى الكلام . وهى المميزات الظاهرة الواضحة التى يمكن حدها والإشارة إليها . ومنها ما هو داخلى يدرك بالذوق ويصعب بيانه وتعليله ، بل قد يكون متعذرا ، لأن القرآن قد حوى صفات الأدب الخالد ومميزاته[٣] .

وذهب عبد الكريم الخطيب إلى أن الكشف عن وجه الإعجاز ، والتعرف على دلائله ، مطلب عزيز أثير[٤] ، لأنها معجزة لا تُرى بالعين ، ولا تلمس باليد . وإنما على الناس أنفسهم أن يسمعوا لهذا القرآن ، وأن يتدبروا آياته . وعندئذ يرون ببصائرهم — لا بأبصارهم - فى كل آية معجزة قاهرة ، تعنو لها الجباه ، وتخضع لها الرقاب[٥] .

وأعلن فى مرة أخرى أن الناظرين فى إعجاز القرآن إنما ينظرون فى آيات معجبة ،

---

(١) فى ظلال ١٧٨٥ — ٦ . (٢) فى ظلال ١٧٨٦ .
(٣) فكرة ٢٩ — ٣٠ ، ٤٤٨ . (٤) إعجاز ١٢٨/١ . (٥) إعجاز ١٢٢/١ .

ويشهدون أمرا لا يمكن أن يقع فى مجال الفكر ، ولا أن يضبط فى قوالب المنطق . وإنما هم - فى مواجهة البيان القرآنى - ينظرون فى سماء تتنزل منها عبقريات الفنون جميعها .

وفرق كبير بين الحقائق العلمية والحقائق الفنية .

فأمر الإعجاز لا يمكن أن تحيط به أنظار الناظرين مهما كثرت ، ولا أن تحدَّه مقولات القائلين وإن تجاوزت الحصر والعد . فكل نظر وتدبر فى آيات القرآن هو وجه جديد من وجوه إعجازه ، ولو كان هذا النظر بعدد أفراد الناس فردا فردا ، وبعدد اختلاف نظرات الفرد حالا حالا ، على امتداد الزمان ، واختلاف الأمم والأوطان[1] .

وعلى الرغم من ذلك ، نراه عندما صاغ رأى الباقلانى يقول : أما من أراد أن يعرف وجه الإعجاز أو وجوهه ، فذلك شأن آخر يحتاج إلى علم بأساليب البيان ، وتمكن من فن القول ، وإلى وجدان سليم ، وحس مرهف . ثم يَلْقى بهذا كله القرآن ، ويردد النظر فى آياته ، هنالك يجد الإعجاز الذى أعجز العرب قاطبة ، وتحدى الإنس والجن جميعا[2] .

وعاد إلى ذلك ثانية فقال : كون القرآن معجزا أمر مفروغ منه ، لا يجادل فيه أحد ، ولا يختلف عليه أحد . وإنما الأمر الذى يحتاج إلى بحث ونظرات — بل إلى كثير من البحث والنظر - هو دلائل الإعجاز ووجوهه ، حيث إن الأمر لا يقع موقع المشاهدة والحس . وإنما هو حقيقة مضمرة فى كلمات القرآن وآياته ، والكشف عنها ليس مما يتيسر لكل طالب . إذ لابد لمن يريد شيئا من هذا أن يكون على علم بمقاييس البلاغة ، وموازين الفصاحة ، وأن يكون - مع هذا - ذا إحساس فنى يُقدره على تذوق الكلام ، والتفرقة بين طعومه ، وإن تشابهت أشكالا وألوانا .

ثم إنه - مع كل هذا - قد يحصل الطالب على مطلوبه ، أو بعض مطلوبه ، وقد لا يحصل ، وقد يقع على الحقيقة أو قريبا منها ، وقد لا يقع[3] .

وذهب محمد الصادق عرجون إلى أن أقرب الطرق لإدراك الإعجاز البيانى فيه ، هو إدمان النظر فى سوره وآياته ، والوقوف مع تعبيراته ، والتأمل فى نظمه ، وإقامة دراسة مستوعبة لآياته - على ضوء هذا النظر - لوضع مبادئ من القواعد المرنة والأصول الأدبية الفسيحة ، تكشف عن بعض وجوه الإعجاز البيانى بطريق فنى محرر[4] .

---

(١) إعجاز ١/١٣١ — ٢ .

(٢) إعجاز ١/١٨٠ . وانظر خلف ١٥٦ .

(٣) إعجاز ٢/١٥٥ .

(٤) القرآن ١٥٧ .

وذهبت د. عائشة عبد الرحمن إلى أن إدراك المعجزة كان ميسرا لكل العرب فى عصر المبعث ، لا ينفرد به بلغاؤهم دون عامتهم ، وحكمت على الباقلانى بالتوهم[١] .

وكان د. عمر الملاحويش ممن فرقوا بين العرب المعاصرين لمحمد والعرب المتأخرين وذهب إلى أن إدراك الأولين للإعجاز كان إدراكا فطريا ، غير مسبوق بدراسة ولا طول نظر فى الكتب . وإنما أدركوا إعجازه بفطرتهم العربية السليمة ، وما حباهم اللّه من ذوق سليم وفصاحة بيان ، ليكونوا أهلا لحمل رسالته والدعوة إليها .

ولكن - بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون فى أرجاء المعمورة بانتشار الإسلام ، وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة بالإضافة إلى ما حمله المسلمون الجدد من غير العرب من ثقافات وعلوم كان لها أثرها فى العقل المسلم — بعد هذا لم يعد إعجاز القرآن يدرك بالفطرة . وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة للغة العربية ، وإحاطة بغريبها ، ومعرفة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو لدى من يريد التصدى لمعرفة إعجاز القرآن ملكة تمكنه من إدراك هذه الناحية فى القرآن ، أى أن إعجاز القرآن - بعد أن كان يعتمد على التذوق الفطرى ، أى بمجرد سماع القرآن يحس به — تحوَّل إدراك هذه الناحية فى القرآن إلى التذوق العلمى ، الذى يجب أن تسبقه ثقافة واسعة تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز فى القرآن .

ومعنى هذا أن الإعجاز - الذى كانت تدركه أكثرية العرب وغير العرب من الذين عاصروا نزول القرآن - أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هى التى بيدها وسائل التذوق الفنى .

ومما لا شك فيه أن وسائل التذوق الفنى والعلمى هذه لم تكن - لدى جميع الناس — على مستوى واحد ، وإنما كانت تختلف من شخص لآخر باختلاف اطلاع كل منهم وسعة أفقه . وبناء على هذا ، فقد اتخذت دراسة الإعجاز صورا مختلفة أثرت فيها هذه النظرة الجديدة تجاه القرآن[٢] .

وذهب د. فهد بن عبد الرحمن الرومى إلى أن إعجاز القرآن أكبر من أن يحيط به أهل عصر ، وأعظم من أن يستوعبه جيل من الأجيال . فلئن أشرف الجيل الأول على قبس من إعجازه ، فإن الأجيال - من بعد - ما تزال تنهل من معينه الذى لا ينضب ، وما تزال وجوه الإعجاز فيه تتجدد حتى لكأنها لا تنفد .

---

(١) الإعجاز ٦١ . (٢) تطور ٢١٣ — ٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ — ١ ، ٢٣٨ . وانظر الصباغ ٦٤ .

فكم من كتاب أُلف عن إعجاز القرآن ،
وكم من ندوة أُقيمت ،
وكم من محاضرة أُلقيت ،
وكم من مؤتمر عُقد لإعجاز القرآن ،
وما زال عطاؤه يفيض ويفيض(١) .

وعاد عبد الكريم نيازى إلى الاعتماد على الذوق ، فقال : إن الذوق الوجدانى لجمال الكلام وروعة النظم ، هو الذى يكشف بعض الإعجاز القرآنى ، وأن الذى يبحث عن الإعجاز من غير أن يستصحب هذا الذوق لن يجد بينه وبين القرآن طريقا يصل منه إلى ما فيه من آيات الإعجاز ودلائله(٢) .

وذهب عبد القادر أحمد عطا إلى أن الإعجاز لا يدرك إلا بعمق الفهم والفقه والتذكر فى كل سورة من سور القرآن ، حتى يدرك الإنسان المستوى الواجب من يقظة العقل والتدبر حين يقرأ القرآن ، إما لاكتشاف آفاق أخرى من آفاق إعجازه التى لا تنتهى ، وإما لإدراك ما أدركه الأولون واستيعابه ، حتى تؤتى القراءة ثمارها من ذلك الكتاب المبارك(٣) .

وأعلن د. داود العطار أنه لا يظن أن أحدا من العلماء والباحثين ، من القدامى والمحدثين ، أحاط علما بما فى القرآن من وجوه الإعجاز (وكيف يستطيع الممكن أن يدرك كلام الواجب) . وغاية ما أدركوه أنفسهم أنهم وقفوا على وجوه للإعجاز فى القرآن ذكروها فى مباحثهم ، وهى قصارى جهدهم ، ومبلغ علمهم .

ومن اليقين أنه كلما تقدم الزمن ، وعكف الباحثون على دراسة القرآن ، ظهرت وجوه إعجاز جديدة لم تكن معروفة من قبل(٤) .

ورأى د. محمد حسين الذهبى أن جوانب الإعجاز التى تتحقق فى القرآن ككل ولا تتحقق فى كل أبعاضه ، فإنها يدركها كل إنسان عربيا كان أو غير عربى ، وهم جميعا متحدَّون بالقرآن جملة(٥) .

---

(١) خصائص ٩٥ ، ٩٨ .
(٢) القرآن ١٦١ .
(٣) أسرار ١٠٤ .
(٤) موجز ٥٧ .
(٥) الوحى ٧٢ .

تعقيب

تكشف هذه الجولة عن وجود إجماع على استحالة الإحاطة الكاملة بأبعاد الإعجاز القرآنى ، وعلى إحساس كل من يقرؤه أو يسمعه بهذا الإعجاز ، وإن كان التعبير عن هذا الإحساس وأسبابه فيه مشقة .

ويتفق من كتبوا فى الإعجاز على أن العرب الذين عاصروا البعثة المحمدية أدركوا هذا الإعجاز بالفطرة . أما من بعدهم من العرب الذين اختلطوا بالشعوب الأخرى فقد قسمهم الباقلانى أربعة أقسام . أما غير البلغاء فلا يدركون الإعجاز إلا عن طريق الأخبار المنبئة بعجز العرب الخلص عن معارضته . وأما المتوسطون فقد يدركون أو بعضهم شيئا من الإعجاز ، وبقيتهم شأنهم شأن القسم السابق . وأما من يعرفون أحد الأجناس الأدبية فإنهم يدركون الإعجاز ، إلا أن إدراكهم لا يصل إلى درجة الطبقة الأخيرة ، طبقة من بلغوا الغاية فى البلاغة والمعرفة .

وقسم الباقلانى غير العرب قسمين : من كان معاصرا لمحمد وشهد العجز بعينيه ، ومن جاءوا - ويجيئون - بعدهم ، واتفق فيهم مع أبى هاشم فى أن معرفتهم بالإعجاز قائمة على سماع أخبار الأولين .

ولما كان الإعجاز البيانى الغالب على أكثر العلماء ، فإننا نستطيع أن نرى - أو نخمن - أنهم متفقون على أن من يسعى إلى إدراك الإعجاز حق معرفته ، يجب عليه أن يديم الاتصال بروائع النصوص العربية ، والممتاز من أساليب التعبير ، ليتكون لديه حس فنى مرهف أو ذوق عال مميز ، وأن يتبحر فى علوم البلاغة الثلاثة ، وأن تتوفر فيه النفس المستعدة والوجدان السليم .

وأضاف الباقلانى الإحاطة بعلم الكلام وأصول الدين ، وعبد الجبار التجربة والتعود .

ولما كان سيد قطب ينظر إلى الإعجاز المطلق فقد رأى أن التبحر فى أى علم — مثل الاجتماع والنفس والقانون - يكشف عما يقابله من الإعجاز .

وتكشف الجولة عن أن الباقلانى كان العلم البارز فى هذا الفصل : عرض ما رأى ، ودافع ، ورد على الاعتراضات ، فأحسن فى كل ذلك .

الفصل الثالث

إثبات الإعجاز

أُورد فى هذا الفصل ما نص العلماء صراحة على أنه برهان يثبت إعجاز القرآن ، وأَفصل ـ بذلك ـ بينه وبين الفصل السابق ، الذى اشتمل على ما عدوه برهانا يثبت عجز العرب عن معارضته دون أن يعقبوا على ذلك بذكر الإعجاز ، على الرغم من إيمانى بأن لا فارق بين الفصلين ، وأن من أثبتوا العجز إنما فعلوا ذلك مقدمة لإثبات الإعجاز .

وقد فعلت هذا لأن الاتفاق يكاد يكون تاما على أن كلمة الإعجاز لم ترد على ألسنة المتكلمين وأقلام الكاتبين إلا فى القرن الرابع . أما أهل القرون الأولى فكانوا يذكرون العجز وما شابهه من كلمات . وكى لا أنسب لأحد قولا لم يفه به نصا ، فعلت ما فعلت .

الرد على الاحتجاج بالكتاب الفذ .

روى الرافعى أن أبا الحسين أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى (٢٩٨ / ٩١٠) قال فى كتاب « الفريد » : إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن ، الذى تحدى به النبى فلم تقدر العرب على معارضته . فيقال لهم : أخبِرونا : لو ادعى مدَّعٍ لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم فى القرآن فقال : الدليل على صدق بَطليموس أو إقليدس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ؛ أكانت نبوته تثبت[1] ؟

وقد تصدى كثيرون لدحض هذا القول ، وكان أولهم أبا هاشم الجبائى .

قال عبد الجبار : فإن قال قائل : أليس إقليدس وصاحب كتاب المجسطى وصاحب العروض وسيبويه وغيرهم قد اختصوا فيما ظهر عنهم من العلوم بما بانوا به من غيرهم ، ولم يدل ذلك على نبوتهم ، ولا صلح منهم التحدى لذلك ؟! . فهلا وجب مثله فى القرآن ، وإن اختص بالمزية ، لأن مزيته ليس بأكثر من مزية ما ظهر من كتب من ذكرناه .

قيل له : إن شيخنا أبا هاشم أجاب عن ذلك بأن هذه المسألة توجب أن هذه الأمور معجزة ، لا أنها تقدح فى إعجاز القرآن ، لأنا قد بينا وجه كونه دلالة ومعجزا . فإن كان الذى أوردوه بمنزلته ، فيجب أن يكون معجزا .

---

(١) إعجاز ١٨٦ ــ ٧ .

وأجاب أيضا بأن التحدى بهذه الكتب لا يصح ، لأنه لو صح لكان إنما يقع التحدى بمعناه لا بلفظه ، ومعناه لا يقع على وجه يتفاضل ، لأن الحساب والهندسة لا يجريان إلا على وجه واحد ، لأن أصله الضرب والقسمة ، والحال فيهما لا تختلف . وإنما يتقدم فيهما المتقدم للدربة ، وفضل المحاضرة والفطنة . فلا يصح أن تقع فيه طريقة التحدى . وليس كذلك الكلام ، لأنه يقع فى قدر الفصاحة على مراتب ونهايات ، فيصح فيه طريقة التحدى(١) .

وأضاف عبد الجبار إلى جواب شيخه أن من ألزم هذا السؤال دل من حاله على قلة فهم بما نقول فى القرآن ، لأنا بينا تحديه ، وتوفر الدواعى إلى إبطال أمر محمد ، وتعذر المعارضة ؛ وإنما يلزم ما سأل عنه لو تساوى مع القرآن فى هذه الوجوه . فمن أين أنه وقع فيه الحرص على الحد الذى وقع فى القرآن ؟

وقد يجوز أن يكون - فى وقت إقليدس - لم يكن له - بما صنعه - من الرياسة ما يقتضى التنافس والحرص .

ثم من أين أنه لم يفعل مثله ، مع تجويزنا - لبعد العهد - أن يكون فى الزمن من كان يفوقه وإن لم يصنف ، أو يكون قد صنف و لم ينقل تصنيفه ، لأن بعد العهد - فيما لا تشتد الحاجة والدواعى إليه - تقتضى جواز أن لا ينقل ما جرى هذا المجرى .

ثم من أين - إن لم يثبت ما ذكرناه - أن الذى صنفه انفرد به ، دون أن يكون تلقّنه من العلماء ، وجمعه من كلامهم كما يجمع العالم كلام غيره ، فيختص بالجمع لا بالإيداع ، على ما نعلمه من حال علماء الإسلام ؛ لأن المتعالم من حال أهل العراق - فى تفريع الفقه - أنهم بانوا من غيرهم ، لا لأنهم أبدعوا ذلك ، لكنهم أخذوه عن الغير ثم بذلوا الجهد فى التفريع . وكذلك القول فى سيبويه فيما جمعه من النحو . فإذا أمكن ذلك فمن أين أنه كالقرآن ؟ (٢) .

وأورد الجرجانى هذا الاعتراض فى صيغ أخرى أتى بها معا ليرد عليها بجواب شامل لجملتها . فذكر أنهم قد يقولون : إنا قد علمنا من عادات الناس وطبائعهم أن الواحد منهم تواتيه العبارة ، ويطيعه اللفظ ، فى صنف من المعانى ، ثم يمتنع عليه مثل تلك العبارة واللفظ فى صنف آخر .

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٠٤ - ٥ . سلطان ٧٣ . (٢) المغنى ١٦

فقد يكون الرجل - كما لا يخفَى - فى المديح أشعر منه فى المراثى ، وفى الغزل واللهو والصيد أنْفذ منه فى الحكم والآداب . وتراه يستطيع فى الأوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثله فى سائر المعانى . وترى الكاتب وهو فى الإخوانيات أبلغ منه فى السلطانيات ، وبالعكس .

هذا أمر معروف ظاهر لا يشتبه . وإذا كان كذلك ، فلعل العجز الذى ظهر فيهم عن معارضة القرآن ، لم يظهر لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم ، ولكن لأنهم لا يستطيعونه فى مثل معانى القرآن[1] .

وذكر أيضا أنهم قد يقولون : لا تصح المطالبة إلا بما يتصوَّر وجوده ، وما يدخل فى حيز الممكن ، وإنا لنعلم من حال المعانى أن الشاعر يسبق فى الكثير منها - إلى عبارة يُعلَم - ضرورة - أنها لا يجىء فى ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى يُقضَى له بأنه قد غلب عليه واستبدّ به ، كما قضى الجاحظ لبشار فى قوله :

كأن مُثار النقع فرق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى مواكبه

... كما غلب عنترة على قوله :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غَرِدا كفعل الشارب المترنم

هَزِجا يحك ذراعه بذراعه فَدْع المُكبِّ على الزناد الأجذم

قال : فلو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنترة فى هذا لافتضح .

وليس ذاك لأن بشارا وعنترة قد أوتيا فى علم النظم جملة ما لم يُؤْت غيرهما ، ولكن لأنه إذا كان — فى مكان - خَبِىء ، فعثر عليه إنسان وأخذه ، لم يبق لغيره مرام فى ذلك المكان . وإذا لم يكن فى الصَّدفة إلا جوهرة واحدة ، فعمد إليها عامد فشقها عنها ، استحال أن يستام هو أو غيره إخراج جوهرة أخرى من تلك الصدفة . وما هذا سبيله فى الشعر كثير لا يخفَى على من مارس هذا الشأن ...[2] .

وكذلك السبيل فى المنثور من الكلام . فإنك تجد فيه - متى شئت - فصولا تعلم أنْ لن يستطاع - فى معانيها - مثلها - فمما لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب : « قيمة كل امرئ ما يُحسنه » ...

ومن أخصّ شىء بأن يُطلب ذلك فيه الكتب المبتدأة الموضوعة فى العلوم المستخرجة .

---

(١) الشافية ٦٠٢ . فقيهى ١٧٩ .

(٢) الشافية ٦٠٢ — ٣ .

فإنه نجد أربابها قد سبقوا - فى فصول منها — إلى ضرب من اللفظ والنظم ، أعيا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيه له . فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويؤدوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هى . وذلك ما كان مثل قول سيبويه فى أول الكتاب : « وأما الفعل فأمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبُنيت لما مضى ، وما يكون ولم يقع ، وما هو كائن لم ينقطع » . لا نعلم أحدا أتى فى معنى هذا الكلام بما يوازيه أو يدانيه أو يقع قريبا منه . ولا يقع فى الوهم أيضا أن ذلك يستطاع . أفلا ترى أنه إذا جاء فى معناه قولهم : والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماض وحاضر ومستقبل . وليس يخفى ضعف هذا فى جنبه وقصوره عنه ...

وإذا كان الأمر كذلك ، لم يمتنع أن يكون سبيل لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل ، وأن يكون عجزهم عن أن يأتوا بمثله فى طريق العجز عما ذكرنا ومثّلنا[١] .

وكان جوابه : اعلم أنهم - فى هذا — كرامٍ قد أضلّ الهدف ، وبانٍ قد زال عن القاعدة . وذاك أنه سؤال لا يتجه حتى يقدَّر أن التحدى كان إلى أن يعبروا عن معانى القرآن أنفسها وبأعيانها ، بلفظ يشبه لفظه ، ونظم يوازى نظمه . وهذا تقدير باطل . فإن التحدى كان إلى أن يجيئوا - فى أى معنى شاءوا من المعانى - بنظم يبلغ نظم القرآن فى الشرف أو يقرب منه . يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ أى مثله فى النظم ، وليكن المعنى مفترى كما قلتم ، فلا إلى المعنى دُعيتم ، ولكن إلى النظم .

وإذا كان كذلك ، كان بيِّنا أنه بناء على غير أساس ، ورمى من غير مرمى ، لأنه قياس ما امتنعت فيه المعارضة من جهةٍ ، وفى شىء مخصوص ، على ما امتنعت معارضته من الجهات كلها ، وفى الأشياء أجمعها[٢] .

فلو كان إذ سَبق الخليل وسيبويه - فى معانى الشعر - إلى ما سبقا إليه من اللفظ والنظم ، لم يسبق الجاحظ - فى معانيه التى وضع كتبه لها - إلى ما يوازى ذلك ويضاهيه ، أو كان بشار — إذ سبق فى معناه - إلى ما سبق إليه - لم يوجد مثل نظمه فيه لشاعر فى شىء من المعانى ؛ لكان لهم فى ذلك متعلّق . فأما وليس من نظمٍ يقال : « إنه لم يسبق إليه » فى معنى ،

(١) الشافية ٦٠٤ — ٥ . نيازى ١٥٥ .
(٢) الشافية ٦٠٦ . إعجاز الخطيب ٢٦٨/١ . وانظر برهان الزملكانى ٥٦ .

إلا ويوجد أمثاله أو خير منه في معان أُخر ، فمن أشد المحال وأبْينه الاعتراض به[١] .

ثـم إن أردت أن تكلمهـم علـى تسـليم ذلـك ، فـالطريق فيـه أن يقـال لهـم علـى أول كلامهم حيث قالوا : « إنا رأينا الرجل يكون في نوع أشعر ، وعلى جودة اللفظ والنظم أقدر منه في غيره » : إنه ينبغي أن تعلموا - أول شيء - أنكم حرفتم كلام الناس في هـذا عن موضعه . فإنا إذا تأملنا الحال في تقديمهم الشاعر في فن من الفنـون ، وجدنـاهم قـد فعلوا ذلك على معنى أنه قد خرَّج في معاني ذلك الفن ما لم يخرِّجه غـيره ، واتسـع لمـا لم يتسع له مَن سواه . فإذا قالوا : هو أنسب الناس ، فالمعنى أنه قد فطن في معاني الغـزل ، وما يدل على شدة الوجد وفرط الحب والهَيمان لما لم يفطن له غـيره ... ولـو كـانوا فـي اللفظ والنظم يذهبون لكان محـالا أن يقولـوا : هـو أنسـب ، لأن ذلـك فـي صفـة اللفـظ والنظم محال . ومن هذا الذى يشك أنْ لم يكن قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أمدح بيت - عند من قال ذلك - من أجل لفظـه ونظمـه ، وأن ذلـك كـان مـن أجـل معناه ؟ هذا ما لا معنى لزيادة القول فيه[٢] .

وأما قولهم : « إنه قد يكون أن يسبق الشاعر في المعنى ... ما هو منحط عنه » ، فإنه ينبغي أن يقال لهم : قد سلمنا أن الأمر كما قلتم وعلمتم . أفعلمتم شاعرا أو غـير شـاعر عمد إلى مالا يُحصَى كثرة من المعاني ، فتأتّى له - في جميعها - لفظ أو نظم أعيا الناس أن يستطيعوا مثله ، أو يجدوه لمن تقدمهم ؟ أم ذلك شيء يتفق للشاعر - مـن كـل مئـه بيـت يقولها - في بيت ؟

وإذا كان لابد من الاعتراف بالثاني مـن الأمريـن ، وهـو أن لا يكـون إلا نـادرا وفـي القليل ، فقد ثبت إعجاز القرآن بنفس ما راموا به دَفْعَه ، من حيث كـان النظـم الـذى لا يُقدَر على مثله قد جاء منه فيما لا يُحصَى كثرة من المعاني .

وهكذا القول في الفصول التى ذكروا أنه لم يوجد أمثالها في معانيها ، لأنها لا تستمر ولا تكثر ، ولكنك تجدها كالفصوص الثمينـة والوسـائط النفيسـة وأفـراد الجواهـر ، تَعُـدّ كثيرا حتى ترى واحدا[٣] .

---

(١) الشافية ٦٠٦ .

(٢) الشافية ٦٠٧ - ٨ .

(٣) الشافية ٦٠٩ .

ورد كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى على هـذا الاعـتراض بقولـه : أين النَّبْع من الغَرَب ، والصَّبر من الضَّرَب ! وهل يحتوى كتاب أو يشتمل خطاب على ما اشتمل عليه كتاب الله من سهولة لفظ وجزالته ، وبلاغـة معنـى وغرابتـه ، وعجـائب لا تنقضى ، وعرائس فى نفائس الحلى تتجلى ، ومن ثـم قـالوا : إن لـه لحـلاوة ، وإن عليـه لطلاوة ، وإن أسفله لمعرق ، وإن أعلاه لمثمر[١] !

ويبدو أن تقى الدين أبا العباس أحمد بن تيمية كان يفند قول ابن الراونـدى ـ دون أن يذكر اسمه ـ عندما اشترط فى المعجز أن يكون مختصا بالأنبياء وقال : يقدر المبرز فـى فـن من الفنون على ما لا يقدر عليه أحد فـى زمنـه فكتـاب سيبويه مثـلا ، وطـب أبقـراط ، وعلم العالم الكبير من علماء المسلمين ، خارج عن عادة الناس ، لا يقدر على مثله عامة الخلق . ولكنه ليس معجزا ، لأنه ليس مختصا بالأنبياء بل هو موجود لغيرهم ، فمـا يقولـه الواحد من هؤلاء قد علمه بسماع أو تجربة أو قياس ، وهى طرق معروفة لغـير الأنبيـاء . أما النبى فقد علمه الله من الغيب الذى عصمه فيه عن الخطأ مالم يعلمه إلا نبى مثله[٢] .

ولجأ الرافعى إلى السخرية فى رده على ابن الراوندى ، فقال : اعجـب لهـذا الجهـل الـذى يكون قياسا من أقيسة العلم . واعجب للكلام الذى يقال فيه : إن هذا كتاب وذلك كتاب ، فكلاهما كتاب ؛ ولما كانا كذلك ، فأحدهما مثل الآخر ؛ ولما كان أحدهما معجزا ، فالثانى معجز لا محالة ؟ وما ثبت لصاحب الأول يثبت بالطبع لصاحب الثـانى . ومـا دمنـا نعـرف أن صاحب الكتاب الثانى لم تثبت له نبوة ، فنبوة صاحب الأول لا تثبت .

لعمرى إن مثل هذه الأقيسة التى يحسبها ابن الراوندى سـبيلا مـن الحجـة ، وبابـا مـن البرهان ، لهى فى حقيقة العلم ـ كأشدّ هذيان عرفه الأطباء قط . وإلا فأين كتاب من كتاب ؟ وأين وضع من وضع ؟ وأين قوم من قوم ؟ وأين رجل من رجل ؟ ولو أن الإعجاز كـان فـى ورق القرآن وفيمـا يخطُّ عليـه ، لكـان كـل كتـاب فـى الأرض ككـل كتـاب فـى الأرض ! ولاطّرد ذلك القياس كله على ما وصفه كمـا يطّـرد القيـاس عينـه فـى قولنـا : إن كـل حمـار يتنفس ، وابن الراوندى يتنفس ، فابن الراوندى يكون ماذا ؟ ولو أن مثل هذه السخافة تسـمى علما تقوم به الحجة فيما يُحتج له ، ويبطل بـه فيمـا البرهـان فيمـا يحتـج لـه ، لمـا بقيـت فـى الأرض حقيقة صريحة ، ولا حق معروف ، ولا شىء يسمى باسمه[٣] .

---

(١) البرهان ٥٦ . (٢) النبوات ١٣ ، ١٤ . (٣) إعجاز ١٨٧ .

وعقب الحمصى على قول ابن الراوندى بأنه قول قوى الحجة ، يدل على سعة تفكير صاحبه ، وامتلاكه أزمّة المنطق ، غير أنه لا يبلغ فى قوته حدّ زلزلة فكرة الإعجاز من أذهان المؤمنين بها . فإن الإيمان الدينى هو الشرط اللازم الكافى للقول بها . فإذا وجد وجدت ، وإذا زال زالت[١] .

تعقيب

نتبين مما سبق أن التوفيق كان حليف أبى هاشم وعبد الجبار والجرجانى لأن الأول اعتمد فى رده على النظر العقلى ، الذى اعتمد عليه الثانى والثالث وأضافا إليه ما يقع فى عملية التأليف البشرى للكتب ، وفى عرف الناس .

وخان التوفيق تماما نعيما الحمصى ، لأنه أقام رده على الإيمان الدينى المجرد ، دون أن يسنده بشيء آخر من واقع الحياة العربية أو مستوى القرآن أو الجدل العقلى .

ولا يبعد الزملكانى عنه كثيرا ، لأنه استند إلى مزايا القرآن ، التى اعتمد عليها من طعن فى إعجازه .

ويعيب الرافعى اعتماده الكبير ، على السخرية والأسلوب الإنشائى .

أما ابن تيمية فقصرت به عبارته . فلو اكتفى بالاستناد إلى إمكانية تعلم ما جاء فى كتب العلم الممتازة واحتذائها ، لكفاه . أما اشتراط إعلان النبوة - مع الكتاب - فيمكن أن يدعيه كل محتال .

الاستدلال بترك المعارضة مع توفر الدواعى

عدّ الرمانى ترك المعارضة - مع توفر الدواعى ، وشدة الحاجة ، وتحدى الكافة - إحدى الجهات السبعة التى يظهر فيها الإعجاز[٢] . وعلل ذلك بأن توفر الدواعى - مع الإمكان - يوجب الفعل لا محالة ، فى واحد أو جماعة[٣] .

والدليل على ذلك أن إنسانا لو توفرت دواعيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه واستحسانه لشربه ، وكلّ داع يدعو إلى مثله ، وهو - مع ذلك - ممكن له . فلا يجوز ألا

---

(١) فكرة ٥٤ . (٢) النكت ٦٩ ، ١٠١ ، ١٧٩ . الإتقان ٢/٣٣٨ . صقر ١١ . فقيهى ١٤٦ ، ١٤٨ . حويش ٢٦٦ - ٢٦٩ ضيف ١٠٣ . آلوسى عبد الحميد ٢٦٢ . عبد القاهر لمطلوب ٢٤٧ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٨ . سلطان ٧٥ . أبو موسى ٢٩ ، ٨٥ . نيازى ١٢٩ . وانظر الباقلانى ٤٨٨ .

(٣) النكت ١٠١ . وانظر فصل إثبات العجز .

تقع شربة منه حتى يموت عطشا ، لتوفر الدواعى كما بيناه فإن لم يشربه — مع توفر الدواعى له - دل ذلك على عجزه عنه[١] .

وقال عبد الجبار : الذى يدل على ذلك أنه ﷺ تحدى بالقرآن ، وجعله دلالة نبوته ، وموجبا لاتباعه وطاعته ، والانقياد له ، فيما يقتضى الكلفة والمشقة ... وهم النهاية فى البلاغة . وقد ظهر من أمرهم أن دواعيهم إلى إبطال أمره قد بلغت الغاية . وعلمنا أنهم - مع هذه الحال - قعدوا عن المعارضة ، وتركوا أن يأتوا بمثله ، مع بلوغهم به الوطر والمراد لو فعلوه ، وعدلوا إلى الأمور الشاقة التى تتضمن الخطر على النفس والمال ، ولا توصل إلى البغية ، لو نالوا منها نهاية المراد . بل ظهر عنهم ما يقتضى الاعتراف بالقصور والعجز . فدل ذلك أجمع على أنه من قبل الله ، وخص رسوله به ، ليدل على نبوته ، لما فيه من نقض العادة ، الذى يوجب كونه معجزا[٢] .

وفى مرة ثانية ردد الأمور التى رأى أنها كانت تدفع العرب إلى معارضة القرآن ثم قال : فكيف يجوز - والحال هذه - أن لا تظهر منهم معارضة فى الحقيقة أو ما يتشبه بالمعارضة ، وهى لهم ممكنة ، ويعدلون - مع ذلك - إلى أمور لا تأثير لها لو بلغوا فيها النهاية - فيما حاولوه ، ولا مطمع لهم فى أن تطعن فى حال محمد فى الوجه الذى يدعيه. أفليس فى ذلك أعظم الدلالة على أن القرآن بهرهم ، حتى علموا - باضطرار - ما يختص به من المزية ، وصاروا - عند سماعه - أولى بمنزلة السحرة عند ظهور قلب العصا حية ، لأنهم إنما اعترفوا لما أعيتهم الحيل فى بلوغ مثله أو ما يقاربه . والعرب ظهر ذلك منها ، فى سائر أحوال محمد .

ولا يجوز ذلك إلا والذى صدعهم به ، وقرعهم بالعجز عنه ، أمر قد تمكن فى النفوس عظم موقعه ، و لم يحتاجوا - عند سماعه - إلى تأمل كبير . وعلموا - عند ذلك — أن الحيلة فى معارضته تضيق ، وأنه لا وجه يبلغون معه حد التشفى إلا ما يجرى مجرى المحاربة وإيصال المكروه إليه .

فلا فرق بين من ينسب الفصحاء - مع تقدمهم وكمال عقولهم - إلى ترك المعارضة مع التمكن ، والعدول عنها إلى الأمور التى لا تؤثر ، وبين من نسبها إلى أنها — مع التمكن

---

(١) التكت ١٠١ . صقر ١٢ . فقيهى ١٤٨ . حويش ٢٦٩ — ٧٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٠ . سلطان ٧٥ — ٦ . نيازى ١٣٠ . وانظر الخطابى ٢٠ .

(٢) المغنى ١٦ / ٢٤٦ . خلف ١٣٩ .

من الكلام - تعدل السكوت ، أو أنها - مع التمكن من الشعر والخطب ووقوع التحدى بهما - تعدل سائر الصناعات التى لا مدخل لها فيما وقع عليه التحدى .

وهذا نسبٌ لهم إلى فقد عقل ، وسخف رأى . بل إن من ليس بكامل العقل لا يجوز مثل ذلك عليه بما شرحناه من قبل .

فهذا وجه بيِّن فى إعجاز القرآن[١] .

ووصل عياض بمعجزات القرآن إلى القمة حين أعلن أن محمدا أكثر الرسل معجزة ، وأبهرهم آية ، وأظهرهم برهانا . وهى فى كثرتها لا يحيط بها ضبط . فإن واحدا منها ، وهو القرآن ، لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر ، لأنه قد تحدى بسورة منه ، فعجز عنها أهل العلم . وأقصر السور الكوثر فكل آية منه أو آيات بعددها وقدرها معجزة . ثم فيها نفسها معجزات[٢] . وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه - كيف كانت معجزة . وزاد آخرون أن كل جملة منتظمة منه معجزة ، وإن كانت من كلمة أو كلمتين[٣] .

واستند د. البوطى فى القول بإعجاز القرآن إلى أنه كان من مقتضى بلاغة العرب المعروفة - مع التحدى ... - أن ينهضوا لمعارضته ومجاراته ، وبفصول من كلامهم البليغ ، على نحو ما كانوا يفعلونه فى أسواقهم الأدبية من المساجلة والمقارضة فى فنون الكلام . ولكنهم - رغم كل هذه الدواعى والمحفزات - لم يفعلوا شيئا .

ثم إن آيات التحدى ظلت مسجلة فى كتاب اللّه ، تقرع آذان الأدباء والشعراء والبلغاء ، على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، فى كل عصر وقرن ؛ فما استطاع واحد فيهم - مهما كان عصره وتاريخه - أن يسجل - إلى جانب هذا التحدى - عملا ما يصح أن يقال إنه قد عارض به القرآن فأتى بشىء حسن .

فهذا من أجْلى الأدلة المادية الملموسة على ثبوت وصف الإعجاز للقرآن ، إذ هو دلالة الواقع خلال التاريخ والقرون[٤] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٣٣٧ - ٩ .
(٢) الشفا ١/٤٩٣ ، ٧٣٥ . وانظر الزرقانى ٢/٢٣١ - ٢ . إعجاز الخطيب ١/٧٩ . الصابونى ٨٧ - ٨ . عتر ١٦١ .
(٣) الشفا ١/٧٣٥ . وانظر الكواكبى ٤٤ . الحمصى ٣١٠ .
(٤) من روائع ١٥٤ - ٥ .

تعقيـــــب

نتبين من هذه الجولة أن الرمانى أتى بكل ما قيل فى هذا الوجه فى عبارة مجملة واضحة تعتمد على النظر العقلى ، ولذلك أراه أكثر الكتاب توفيقا .

ووافقه فى الاعتماد على النظر العقلى عبد الجبار والبوطى .

واتفق عبد الجبار والبوطى على الاستناد إلى مستوى العرب فى البيان الذى كان من شأنه أن يدفعهم إلى المعارضة دفعا .

كذلك اتفق عبد الجبار والبوطى على الاعتماد على الطبيعة البشرية والعادات العربية .

واتفق عياض والكواكبى على كثرة معجزات النبى ، وعلى احتواء القرآن — وحده — على العدد الكثير من الآيات .

وانفرد البوطى بالإشارة إلى طول مدة التحدى .

الاستدلال بالنقل المتواتر

ذهب الباقلانى إلى أن الذى بُنى عليه الأمر فى إثبات معجزة القرآن أنه وقع التحدى إلى الإتيان بمثله ، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدى إليه . فإذا نظر الناظر ، وعرف وجه النقل المتواتر فى هذا الباب ، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه[1] .

وليس : إذا أمكن معرفة الإعجاز من جهة العقل ، امتنع أن يُعرَف من طريق القرآن ، بل يمكن عندنا أن يعرف من الوجهين[2] .

وقال الزركشى : لا خلاف بين العقلاء أن كتاب اللّه معجز[3] .

وذكر السيوطى أنه - تعالى - أخبر أن الكتاب آية من آياته ، قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء ، لفنائها بفنائهم[4] ؛ وأن بعضهم أنهى وجوه إعجازه إلى ثمانين ، والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه[5] ، ولذلك يعجز الخلق عن تحصيلها[6] .

ووصف محمد رشيد رضا الإعجاز بأنه قد ثبت بالفعل ، وتواتر فيه النقل . وحسبك منه وجود مالا يحصى من المصاحف فى جميع الأقطار التى يسكنها المسلمون ، وكذا فى غيرها ؛ ووجود الألوف من حفاظه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهى تحكى لنا هذه

---

(١) إعجاز ١٧ ، ٢٤ . انظر إعجاز الخطيب ١/١٧١ — ٦ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . أبو موسى ١٨١ .

(٢) إعجاز ١٧ — ٨ .

(٣) البرهان ٢/٩٣ . وانظر الإتقان ٢/٣٢٥ .

(٤) معترك ١/١ . (٥) معترك ١/٣ . (٦) معترك ١/١١ .

الآيات فى التحدى بإعجازه . ولو وجد له معارض أتـى بسـورة مثلـه لتوفـرت الدواعـى على نقلها بالتواتر أيضا ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أدبارهم[١] .

وذكر نعيم الحمصى أن أكثر العلماء يرون القرآن معجزة لكل الأمم ولكل العصـور . وحجتهم على ذلك أن العرب ـ يومئذ ـ قد ملكوا ناصية البيان . فإذا كانوا عاجزين عـن المجىء بمثله فغيرهم أعجز[٢] .

وذكر أن كل مـن كتبـوا فـى الإعجـاز اتفقـوا علـى أن القـرآن معجـزة ، وأنـه دليـل النبوة[٣] .

وصرح البوطى بأنه قد أجمـع عامـة البـاحثين مـن علمـاء العربيـة والتشـريع والفلسـفة والفرق المختلفة على إعجاز القرآن[٤] .

وذهب د. عمر الملاحويش إلى أن كل الذين تناولوا دراسة الإعجاز القرآنـى مجمعـون على أن القرآن معجز ، وهو المعجزة الكبرى على صدق رسالة محمـد . ولكـن اختـلاف وجهات النظر كانت منصبة على وجوه هذا الإعجاز ، والقدر المعجز من القرآن[٥] .

تعقيـــب

لا يحتاج هذا العنصر إلى تعقيب لأنه مجرد إعلان لعجز العرب عن معارضـة القـرآن أو كثرة معجزاته ، وإجماع المسلمين أو عقلائهم أو علمائهم ... على هذا الإعجاز .

وإنما يلفت النظر تبرير الباقلانى الاعتماد على النقـول والأخبـار ، وأنـه لا يتنـافى مـع الاعتماد على العقل فى الدفاع والمحاجّة ، بل يزيده تأييدا .

كون القرآن حجة

عقب الباقلانى على قوله تعالى : ﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٦] فقال : أخـبر أنـه أنزلـه ليقـع الاهتـداء به . ولا يكون كذلك إلا وهو حجة[٧] . ثم تفوه بمقولة رددها فى أكثر من موضـع مـن

---

(١) المنار ١/١٦٥ . (٢) فكرة ١٥ ، ٤٢ . (٣) فكرة ١٦ .
(٤) من روائع ١٤٩ . (٥) تطور ٢٢١ .
(٦) سورة إبراهيم ١ . (٧) إعجاز ١٤ . انظر الإتقان ٢/٣٢٥ .

كتابه ، ثم ترددت كثيرا عند الكتاب بعده ، قال : ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة[١]، ويقوم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء[٢] .

الرد على دعوى قدرة الفصيح عليه

وقال الباقلانى : فإن قيل : فإذا كان يجوز - عندكم - أن يتفق فى شعر الشاعر قطعةٌ عجيبة شاردة ، تباين جميع ديوانه فى البلاغة ؛ ويقع - فى ديوانه - بيت واحد يخالف مألوف طبعه ، ولا يُعرف سبب ذلك البيت ، ولا تلك القطعة ، فى التفصيل . وله سبب فى الجملة وهو التقدم فى الصنعة ، لأنه يتفق من المتأخر فيها ؛ فهلا قلتم : إنه إذا بلغ - فى العلم بالصناعة مبالغَه القصوى - كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت ، وسَمْت تلك القطعة ؟ وهلا قلتم : إن القرآن من هذا الباب ؟

فالجواب : أنا لم نجد أحدا بلغ الحد الذى وصفتم فى العادة . وهذا الناس وأهل البلاغة ، أشعارهم عندنا محفوظة ، وخطبهم منقولة ، ورسائلهم مأثورة ، وبلاغتهم مروية ، وحكمهم مشهورة ؛ وكذلك أهل الكهانة والبلاغة ، مثل قس بن ساعدة ... كلامهم معروف عندنا ، وموضوع بين أيدينا ، لا يخفى علينا - فى الجملة - بلاغة بليغ ، ولا خطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مفلق ، ولا كتابة كاتب مدقق .

فلما لم نجد - فى شيء من ذلك - ما يدانى القرآن فى البلاغة ، أو يشاكله فى الإعجاز - مع ما وقع من التحدى إليه المدة الطويلة ... وثبت له - وحده - قصب السبق ، والاستيلاء على الأمد ، وعجز الكل عنه ... رأينا أنه ناقض للعادة ، وخرق العادة إنما يقع بالمعجزات[٣] .

وأفاض الجرجانى فى الرد على هذه الدعوى . فقال : اعلم أن هاهنا بابا من التلبيس أنت تجده يدور فى أنفس قوم من الأشقياء ، وتراهم يومئون إليه ، ويهمسون به ، ويستهوون الغر الغبى بذكره ، وهو قولهم : قد جرت العادة أن يبقى فى الزمان من يفوت أهله حتى يسلموا له ، ولا يطمع أحد فى مداناته ، ويقع الإجماع منهم أنه الفرد

---

(١) إعجاز ٩ ، ١٤ . إعجاز الخطيب ١/١٧٢ ـ ٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . انظر الزركشى ٢/٩٠ . الإتقان ٢/٣٢٥ . شاكر ١٨ . العانى ١٧٦ ـ ٨ . فودة ٢٢٥ - ٦ .

(٢) إعجاز ١٤ . إعجاز الخطيب ١/١٧٤ . انظر الزركشى ٢/٩١ . الإتقان ٢/٣٢٥ . معترك ١/١ . الصباغ ٥١ . عطا : أسرار ٢٣٤ . وعظمة ٥٤ . فودة ٢٢٦ .

(٣) إعجاز ٢٨٦ ـ ٧ ، ٢٩٥ .

الذى لا ينازع . ثم يذكرون امرأ القيس والشعراء الذين قُدِّموا على من كان معهم فى أعصارهم . وربما ذكروا الجاحظ وكل مذكور بأنه كان أفضل من كان فى عصره . ولهم فى هذا الباب خبط وتخليط لا إلى غاية .

وهى نفثة نفثها الشيطان فيهم . وإنما أُتوا من سوء تدبرهم لما يسمعون ، وتسرعهم إلى الاعتراض قبل تمام العلم بالدليل . وذلك أن الشرط فى المزية الناقضة للعادة أن يبلغ الأمر فيها إلى حيث يبهر ويقهر ، حتى تنقطع الأطماع عن المعارضة ، وتخرس الألسن عن دعوى المداناة ، ولا تحدث نفس صاحبها بأن يتصدى ، ولا يجول فى خلد أن الإتيان بمثله يمكن ، ويكون يأسهم منه وإحساسهم بالعجز عنه فى بعضه مثل ذلك فى كله .

وليت شعرى من هذا الذى سلم لهم أنه كان - فى وقت من الأوقات - من بلغ أمره فى المزية ، وفى العلو على أهل زمانه ، هذا المبلغ ، وانتهى إلى هذا الحد ؟ إن قيل : امرؤ القيس ، فقد كان فى وقته من يباريه ويماتنه ، بل لا يتحاشى أن يدعى الفضل عليه .

واستشهد عبد القاهر بما جرى بينه وبين علقمة الفحل ، وبينه وبين الحارث اليشكرى ، وبالخلاف بين الناس فى أشعر الشعراء حتى قال على بن أبى طالب : كل شعرائكم محسن . ولو جمعهم زمان واحد ، وغاية ومذهب واحد فى القول ، لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك . وكلهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فيه . وإن يكن أحدهم أفضل فالذى لم يقل رغبة ولا رهبة : امرؤ القيس ، كان أصحهم بادرة ، وأجودهم نادرة[1].

وقال أيضا : الشرط فى نقض العادة أن يعم الأزمان كلها ، وأن يظهر على مدعى النبوة ما لم يستطعه مملوك قط . وأما تقدم واحد من أهل العصر سائرهم ، ففى معنى تقدم واحد من أهل مصر من الأمصار غيره ممن يضمه وإياه ذلك المصر . لافضل فى ذلك بين الأمصار والأعصار ، إذا حققت النظر ، وإذ ليس بأكثر من أن أحدا زاد على جماعة معدودين فى نوع من الأنواع ، فكان أعلمهم أو أكتبهم أو أشعرهم أو أحذقهم فى صنعة ، وأبهرهم فى عمل من الأعمال . وليس ذلك من الإعجاز فى شىء . وإنما المعجز ما عُلم أنه فوق قوى البشر وقُدَرهم ، إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر ، أو فوق علومهم إن كان من قَبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم .

---

(١) الشافية ٥٩٠ - ٥ . فقيهى ١٧٩ . إعجاز الخطيب ٢٦٨/١ . سلطان ١٣٤ . وانظر الإيجى ٣٥١ .

وإذا كنا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبلغاء الذين تقدموا فى الأزمنة ، وأنهم فجروا لهم ينابيع القول فاستقوا ، ومَثّلوا لهم مُثُلا فى البلاغة فاحتذوا . إذن لم يبلغ شأوٌ ما بلغ ، و لم يَدُرّ لهم من ضروع القول ما دَرّ ، لو أن طباعا لم تشرب من مائهم ، و لم تُغْذ بَجناهم ، و لم يكن حالهم فى الاكتساب منهم ، والاستمداد من ثمار قرائحهم . وتشمُّم الذى فاح من روائحهم ، حال النحل التى تغتذى بأريج الأنوار وطيب الأزهار ، وتملأ أجوافها من تلك اللطائف ، ثم تمجُّها أَرْيا وتقذفها ماذيا [عسلا أبيض] ، إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ فى عِداد عامة زمانهم الذين لم يَرْوُوا ، و لم يحفظوا ، و لم يتتبعوا كلام الأولين ، من لَدُن ظهر الشعر وكان الخطابة إلى وقتهم الذى هم فيه ، و لم يعرفوا إلا ما يتكلم به آباؤهم وإخوانهم ومُساكنوهم فى الدار والمحلة ، أو كانوا لا يزيدون عليهم - إن زادوا — إلا بمقدار معلوم . فمن أعظم الجهل وأشد الغباوة ، أن يُجعَل تقدم أحدهم لأهل زمانه من باب نقض العادة ، وأن يُعَدّ مَعَدَّ المعجز[1] .

وصور سيد قطب إعجاز القرآن صورة معبرة فى قوله : الشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق اللّه جميعا ، وهو مثل صنع اللّه فى كل شىء وصنع الناس . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات . فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز ، كائنا فى دقته ما يكون . ولكن اللّه المبدع يجعل من تلك الذرات حياة ، حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلاهى المعجز ، سر الحياة ، ذلك السر الذى لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر . وهكذا القرآن ، حروف وكلمات ، يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويجعل منها اللّه قرآنا وفرقانا ، والفرق بين صنع البشر وصنع اللّه من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض ، وهو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة[2] .

وصرح د. محمد عبد اللّه دراز بأن القرآن يحوى بين جلدتيه حجة إعجازه . فهو — بطبيعته - يأبى أن يكون من صنع البشر ، وينادى — بلسان حاله — أنه رسالة القضاء والقدر ، حتى إنه لو وُجد مُلقى فى صحراء ، لأيقن الناظر فيه أنْ ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته ، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه .

---

(١) دلائل ٥٩٨ — ٩ . إعجاز الخطيب ٢٦٩/١ . (٢) فى ظلال ٣٨ .

واستدل على ذلك بظواهر بشرية وإلاهية تدل على مدى القدرتين . قال : قدرة الناس - وإن تفاوتت - فإلى حدود محدودة لا تتعداها ، وقدرة الخالق على الممكنات لا حد لها . فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع فى حدود القدرة الإلاهية البتة . ولا ثالث .

مثال ذلك : أن الرجل قد يصرع الرجل ، وقد يصرع الرجلين ، وقد يصرع الآحاد والعشرات . ولكن هل من الناس من يقف فى وجه العالم كله فيقهر الأمم أفرادا وجماعات ؟

والله يأتى بالشمس من المشرق ، فمن ذا الذى يأتى بها من المغرب ؟

وأنت تستطيع أن تطفئ المصباح وأن توقده حين تشاء . ولكن هل يستطيع الناس جميعا أن يطلعوا الشمس قبل وقتها ، أو يؤخروها عن ساعتها ، أو يطفئوا نورها ، أو يأتوا بمثلها ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؟

فذلك العجز العام عن مضاهاة الخَلْق وعن محاكاة الصنعة هو آية كونها ليست من صنع الناس . وذلك هو الطابع الإلاهى والمظهر السماوى ، الذى تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق . وهذا هو المثل الذى نريد أن نطبقه على القرآن[1] .

وقدم عددا من الأسئلة — ناقشها فيما بعد — إلى من يشك فى هذا الإعجاز ، يستوضحه فيها عن أسباب شكه . قال :

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتى بكلام فى طبقة البلاغة القرآنية ، أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعا قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه لم يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزا ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته ؟

أم علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذى أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن - كان وما زال - معجزة بيانية لسائر الناس ، ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزا كذلك لمن جاء به ؟

أم هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدرى : ما أسراره ، وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب[2] .

---

(١) النبأ ٧٧ — ٨ .	(٢) النبأ ٨٠ .

ولما كانت هذه الأسئلة كلها تنبع من إيمان د. دراز بالإعجاز البيانى ، الذى يخرج عن حدود الكتاب الحالى ، فإنى أتتبع ردوده على وجه الإجمال الشديد ، وما اتصل منهـا بما نحن فيه .

نصح دراز صاحب الزعم الأول أن يطيل النظـر فـى أسـاليب العـرب ، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب ، حتى تستحكم عنده ملكة النقد البيانى ، ثم ينظر فى القرآن .

فكل خطوة يخطوها فى هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره ، وتحل عن نفسه عقدة مـن عقد الشك فى أمره ، إذ يرى أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة ، وإحسانا فى تصريـف القول ، ازداد - بقدر ذلك - إنكارا لقوته ، وخضوعا أمام أسلوب القرآن .

فإن أبى المغرور إلا إصرارا على غروره ، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ، وقلنا لـه : أخرِج لنا أحسن ما عندك .

وإن فى التاريخ لعِبَرا تُؤثَر عن أناس حاولوا مثل هذا المحاولة . فجاءوا بكـلام لا يشبه القرآن ، ولا يشبه كلام أنفسـهم ، بـل نزلـوا بـه إلى ضـرب مـن السـخف والتفاهـة بـادٍ عَوارُه ، باقٍ عاره وشناره[1] .

وطلب إلى صاحب الزعم الثانى : ارجع إلى أهل الذكر مـن أدبـاء عصـرك فاسـألهم : هل يقدرون أن يأتوا بمثله ؟

فإن قالوا لك : لو نشاء لقلنا مثل هذا .

فقل : هاتوا برهانكم .

وإن قالوا : لا طاقة لنا به .

فقل : أى شىء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز ؟!

ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟

ينبئك التاريخ أن أحدا لم يرفع رأسه أمام القرآن فى عصـر مـن أعصـاره ، وأن بضعـة النفر الذين أنغضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزى والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيـل النسيان[2] .

ورد على من قال : ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجـا عـن حـدود قدرتهـم ،

---

(١) النبأ ٨١ - ٢ .

(٢) النبأ ٨٣ .

فربما ترك الإنسان فعلا ، هو من جنس أفعاله الاختيارية ، لعدم قيام الأسباب التي تبعث عليه ، أو قلة اكتراث بشأنه ؛ لا عجزا عن الإتيان بمثله .

فقال : الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة . وأى شيء أقوى فى استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذى تعلن فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ ...

بل لقد رأينا هذه الأسباب آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها[1] .

الرد على دعوى أنه من تأليف محمد

وأشار الباقلانى مرة أخرى - فى أواخر الكتاب - إلى موضوع الفصاحة ، فقال : إن قال قائل : إذا كان محمد أفصح العرب - وقد قال هذا فى حديث مشهور ، وهو صادق فى قوله - فهلا قلتم : إن القرآن من نظمه لقدرته فى الفصاحة على مقدار لم يبلغه غيره ؟

ورد عليه قائلا : القدر الذى بينه وبين كلام غيره من الفصحاء كقدر ما بين شعر الشاعرين وكلام الخطيبين فى الفصاحة . وذلك مما لا يقع به الإعجاز .

وقد بينا - قبل هذا - أنا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور وبين نظم القرآن ، تبين من البون بينهما مثل ما بين كلام اللّه وكلام الناس . فلا معنى لقول من ادعى أن كلام النبى معجز ، وإن كان دون القرآن فى الإعجاز[2] .

وإذا قال الخصم : لولا أن كلام محمد معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المعوذتين وبين غيرهما من القرآن ، وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن أم لا ؟

قيل : هذا من تخليط الملحدين ، لأن عندنا أن الصحابة لم يخفَ عليهم ما هو من القرآن . ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآن من غيره ، وعدد السور - عندهم - محفوظ مضبوط - وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه ، لا لأنه نفاه من القرآن ، بل عوَّل على حفظ الكل إياه . على أن الذى يروونه خبر واحد ، لا يُسكَن إليه فى مثل هذا ، ولا يعمل عليه . ويجوز أن يكتب على ظهر مصحفه دعاء القنوت لئلا ينساه ، كما يكتب

---

(١) النبأ ٨٦ .

(٢) إعجاز ٢٩١ . ضيف ١١٤ . سلطان ١١٤ . وانظر فصل الرد على التعلات .

الواحد منا بعض الأدعية على ظهر مصحفه . ونحن لا ننكر أن يغلط في حروف معدودة، كما يغلط الحافظ في حروف وينسى .

ولو كان قد أنكر السورتين - على ما ادعوا - لكانت الصحابة تناظره على ذلك ، وكان يظهر وينتشر . فقد تناظروا في أقل من هذا . وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل ، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه ؟

وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه في المصحف ، فكيف يُقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولَّدة في الإجماع المقدر ، والاتفاق المعروف ؟!

ويجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه ، لأن ابن مسعود خالف في ترتيب السور ، فلم يثبتهما في آخر القرآن[١] .

وقال عبد الجبار : فإن قيل : جوزوا أن يكون الوجه في اعترافهم بتقدمه تقدم محمد في الفصاحة ، على ما روي عنه أنه قال : أنا أفصح العرب ولا فخر . فمزيته حصل للقرآن مزية .

قيل له : فقد كان يجب أن يعترفوا له بذلك ، ليبلغوا به مرادهم في إبطال أمره ، لأن اعترافهم بأن مزيته لأجل فصاحة محمد يوهن حاله ، ويقتضي أن مزيته لالإعجازه ، لكن لتقدمه في الفصاحة . فلما لم يفعلوا ذلك ، مع سهولته ، عُلم أن اعترافهم بفضل القرآن هو لمزيته[٢] .

ورد الإيجي على مسألة اختلاف الصحابة في بعض سور القرآن فقال :

وقالوا : اختلف الصحابة في بعض القرآن حتى قال ابن مسعود بأن الفاتحة والمعوذتين ليست منه ، مع أنها أشهر سوره . ولو كانت بلاغتها بلغت حد الإعجاز لتميزت به فلم يختلفوا[٣] .

وقال : إن الآحاد لا تعارض القاطع .

ثم إنهم لم يختلفوا في نزوله على محمد ، وبلوغه - في البلاغة - حد الإعجاز .

وأما البسملة فالخلاف في كونها آية من كل سورة لا في كونها من القرآن[٤] .

وقالوا : لم يضعوا الآية والآيتين - إذا أتى الواحد بهما عند جمع القرآن - في المصحف

---

(١) إعجاز ٢٩١ - ٣ . وانظر الإيجي ٣٥٠ ، ٣٥٣ . (٢) المغني ١٦ / ٣٠١ .
(٣) المواقف ٣٥٠/١ . (٤) المواقف ٣٥٣/١ .

إلا ببينة أو يمين[١] .

وقال : إن اختلافهم فى موضعه ، وفى التقديم والتأخير . فإن النبى كان يواظب على قراءته فى صلاته .

هذا وإن الخبر المحفوف بالقرائن قد يفيد العلم ، وهو المدعى . ولا علينا أن تثبت بالتواتر أو بالقرائن .

ثم لا يضر عدم إعجاز الآية والآيتين[٢] .

وذكر محمد رشيد رضا أن بعض الناس - حتى من المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهم القرآن وامتيازه من أهل عصرنا - اعترضوا على إعجازه بالبلاغة ، وقال : قال الفريقان : إن لكل بليغ من فصحاء كل أمة أسلوبا يمتاز به ، وأنتم - أيها المسلمون - تقولون : إن محمدا كان أفصح قريش ، وهم أفصح العرب . فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا الأسلوب والنظم القرآنى كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والإسلام بأسلوب خاص ، وكما امتاز شكسبير فى شعراء الإنكليز ، وفيكتور هيغو فى الشعراء الفرنسيس ، فعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن فى بلاغته لا يدل على أنه من الله .

ورد عليهم قائلا : إن هذا الاعتراض يذوب فيزول إذا عُرض على الأشعة التى اقتبسناها من شمس القرآن ، فى إعجازيه اللفظى والمعنوى ، فى أول تفسير هذه السورة [يونس] . ثم فى تفسير الآيتين [١٥ ، ١٦ منها] .

وأما قولهم فى إحدى مقدماته : إن محمدا كان أفصح قريش وأبلغهم فى لغته ، فقد بينا بالثقل الثابت أنه لم يكن - قبل نزول القرآن عليه - يُذكر فى فحول فصحائهم ولا فى وسطهم ، بل لم يكن يعد منهم . وإنما صار كلامه ممتازا بالفصاحة والبلاغة بما استفاده من وحى القرآن ، كما استفاد من دونه منه ، على أنه ظل ككلام غيره من البشر فى البعد عن مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره . وهذا التفاوت لا نظير له فى كلام بلغاء البشر[٣] .

فإن قيل : إن ما يظهر فى السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر فى السور القصيرة .

---

(١) المواقف ١/٣٥٠ - ١ .　　(٢) المواقف ١/٣٥٣ - ٤ .
(٣) المنار ١١ / ٣٠٤ . الحمصى ٣١٩ - ٢٠ .

قلنا : لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصار كغيرها[١] .

وتابع الزرقانى رشيد رضا فى محاولة إبطال دعوى أن محمدا مؤلف القرآن ، فقال فى رده :

أولا : أن كل من أوتى حظا من حس البيان وذوق البلاغة ، يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى فرقا كبيرا ، يمثل الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق .

ولو كان لهذه الدعوى شىء من الوجاهة ، لكان أولى الناس أن يرفعوا عقيرتهم بها هم أولئك العرب الخلص الذين شافههم القرآن ، لأنهم كانوا أحرص على تعجيز محمد وإسكاته للاعتبارات التاريخية المعروفة .

ثانيا : أن القرآن لم يأت الناس من الخلف ، بل جاءهم من أوسع الأبواب ، ودخل عليهم من طريق العرب الخلصاء ذوى اللسن والبيان ، وتحداهم من الناحية التى نبغوا فيها ، وهى صناعة الكلام . وذلك ليظهر أمر اللّه واضحا جليا ، لا لبس فيه ولا غموض ، ولا شبهة ولا شكوك .

ومن هنا نعلم - والتاريخ يشهد - أن القرآن . لو كان مصدره نفس محمد ، لأمكن هؤلاء العرب البارزين فى البيان أن يعرفوا أنه كلامه - بما أوتوا من ملكة النقد ، وما وُهبوا من نباهة الحس والذوق . ثم لأمكنهم أن يجاروه ، ولو شوطا قريبا ، إن لم تمكنهم مجاراته شوطا بعيدا ، لا سيما أن القرآن قد اكتفى منهم بأن يأتوا بسورة من مثل أقصر سوره .

ومعلوم أن النابغة الفذ - فى أى عصر من العصور - يستطيع أقرانه - بيسر وسهولة - أن يحاكوه مجتمعين ومتفردين - فى الشىء القليل ، على فرض أنهم لا يستطيعون معارضته فى الجميع أو الشىء الكثير .

ثالثا : أن هؤلاء الملاحدة غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طهرا ونبلا . وذهلوا عن أنهم يمسون أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقا . والعقل المنصف قال - وما يزال يقول - : ما كان هذا الأمين الصدوق ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على اللّه .

---

(١) المنار ١١ / ٣٠٤ . الحمصى ٣٢٠ .

رابعا : أن هذه الدعوى وليدة الغفلة عن مضامين القرآن العلمية ، وأنبائه الغيبية ، وهداياته الخارجة عن أفق العادة فى كافة النواحي البشرية ، فردية كانت أو اجتماعية . لا سيما أن الآتى بهذا القرآن رجل أمى ، فى أمة أمية كانت فى أظلم عهود الجاهلية .

أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبى من أخطاء فى بعض اجتهاداته ، ومن عتاب نحس تارة بلطفه ، وأخرى بعنفه . ولو كان هذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجل على نفسه ذلك كله[1] .

وتعرض الزرقانى للدعوى - أو الشبهة - الثانية التى تعرض لها رشيد رضا أيضا ، وهى القول بأن ، هذا البعد الشاسع بين القرآن والحديث لم يجىء من ناحية أن القرآن كلام الله والحديث كلام محمد ، إنما جاء من ناحية أن محمدا كان له ضربان من الكلام :

أحدهما يحتفل به كل احتفال ، ويعنى مزيد العناية بتهذيبه وتنميقه وتحضيره ، وذلك هو ما سماه بالقرآن ، ونسبه إلى الله .

وثانيهما يرسله إرسالا غير مَعْنى بتحبيره وتحريره ، وهو المسمى بالحديث النبوى .

وليس ذلك بدعا فيما نرى من آثار الأدباء والبلغاء ، بل نحن نلحظ أن الأديب الواحد يعلو كلامه الصادر عن تأمل وعناية وروية علوا كبيرا عن كلامه المرسل على البديهة ، حتى كأنهما لكاتبين اثنين بينهما بُعد ما بين المشرقين .

وساق الزرقانى فى الرد على هذه الدعوى جوابين :

الجواب الأول أن هذه الشبهة مبنية على قياس فاسد . وهو تشبيه أدباء ذاك العصر الزاهر الذى نزل فيه القرآن ، وسلمت السليقة العربية ، بأدباء هذا العصر المولَّدين الذين فسدت ألسنتهم وتبلبلت ألسنتهم . وشتان ما بين الطبقتين ، ويابُعد ما بين العصرين ! فالتفاوت البعيد بين الكلام المرسل والكلام المحبَّر لم يظهر إلا منذ فسد اللسان العربى ، وتطرقت العجمة إلى المولدين من العرب وأشباههم .

على أن معاناة ذلك العربى القح إذا عانى التنميق والتزويق لم تكن لتزيد كلامه روعة وحسنا ، بل كانت تنزل به بمقدار ما يظن أحدنا أنها تصعد فيه . ولهذا كان العرب يعافون من الكلام ما ظهرت فيه آثار الصنعة والتكلف ، ويعدون ذلك من التفاصح النازل إلى مَهْواة العى والتنطع .

---

(١) مناهل ١/٧٧ - ٨٠ .

وكان النبى أبعد العرب عن هذا التعمل والتصنع والتحبير ، حتى لقد نهى عن ذلك ، وناط به الهلاك والخسران .

الجواب الثانى أن هذه الشبهة تخالف - فى أساسها - ما هو واقع معروف . ذلك أن القرآن منه ما نزل مفاجأة على غير انتظار وتفكير ، وبدون تثبت وتدبير ، وهو أكثره ؛ ومنه ما نزل بعد تشوُّف واستشراف وطول انتظار ، وهو أقله . ومع هذا ، فأسلوبه الأعلى هو أسلوبه الأعلى ، ونظمه المعجز هو نظمه المعجز ، فى الحالين على سواء .

وهذا الذى يقال فى القرآن ، يقال مثله فى الحديث النبوى . فمنه ما كان وليد التفكير والتدبير والمشاورة والمداولة ، كحديثه فى شؤون الحرب والصلح ؛ ومنه ما كان وحى الساعة وإرسال البديهة ، كحديثه الكثير فيما هو ظاهر من أمور الدين . ولكنها — مع اختلافها - لم يختلف فيها الأسلوب النبوى ، بل هو طراز واحد من أرقى الأساليب البشرية ، إن لم يكن أرقاها ، وقلما تلحظ فيه تفاوتا كثيرا[١] .

وكى يناقش دراز هذه القضية جعل المدعوين لمعارضة القرآن :

إما فيهم الأكفاء والأنداد لنبى القرآن فى الفطرة والسليقة العربية ،

أو من هم أكمل منه فيها ،

أو من دونه .

ثم تتبع ما يتوقع من كل واحدة من هذه الفئات فقال : فأما الأعلون فسيجيئون — على وفق سليقتهم - بقول أحسن من قوله .

وأما الأنداد فسيجيئون بشىء مثله .

وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشىء من مثله .

وشىء من هذه المراتب الثلاث : لو تم لكان كافيا فى رد الحجة وإبطال التحدى .

ولم يقنع بهذا بل استمر فى النقاش ، فتصور خصمه يقول : بل أختار أن العرب — على اختلاف مراتبهم فى البيان - لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية . وأزعم أن هذا القصور الذاتى الذى قعد بهم عن مجاراته فى عامة كلامه هو الذى قعد بهم عن معارضة قرآنه . وإذن لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآنى كما لم يكن حجة - عندكم - على قدسية الأسلوب النبوى .

---

(١) مناهل ١/٨٠ — ٤ ، ٢ / ٢٣٤ — ٦ .

وأجابه قائلا : أما أن محمدا كان أفصح العرب ، وكان له - فى هذه الفضيلة البيانية - المقام الأول بينهم غير مزاحم ؛ فذلك ما لا نمارى - بل لا نمترى - فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية .

غير أننا نسأل : ما مبلغ هذا التفاوت الذى كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله فى مجارى العادات بين بعض الناس وبعض فى حدود القوة البشرية ، أم كان أمرا شاذا خارقا للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان - كما نعهد - شبيها بما يكون - فى العادة - بين البليغ والأبلغ ، فلا شك أن هذا النحو من العلو : إن حال بينهم وبين المجىء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه . ولئن أعجزهم هذا القدر اليسير أن يحتذوه على التمام لم يكن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب .

وأما إن قيل : إن التفاوت بينه ﷺ وبين سائر البلغاء كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، لاختصاصه - من بين العرب ، ومن بين الناس - بفطرة شاذة ، لا تنتسب إلى سائر الفطر فى قليل ولا كثير ، إلا كما تنتسب القدرة إلى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ؛

فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن من الإنسان ما ليس بإنسان ، أو هو التسليم بأن ما يجىء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان . ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال فى الشىء بعد الشىء ، وفى الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك فى كل عصر ففى عصور متطاولة ، وإن لم يكن فى كل فنون الكلام ففى بعض فنونه .

فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقا أن يجىء بشىء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجا ، وأقرب إليه هديا وسمتا ، وألصق به رحما ، وأكثر عنه أخذا وتعلما .

أو لكان جديرا بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوه واستظهروه ، وتذوقوا معناه وتمثلوه ، وترسموا خطواته ، واغترفوا من مناهله ، أن يدنو أسلوبهم شيئا من أسلوبه على ما تقضى به غريزة التأسى ، وشيمة نقل الطباع من الطباع .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآنى صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب - على قياس ما أصَّلته من المقدمات - أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدى ما انطبع

منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة لا تكون نفسين . ونحن نرى الأسلوب القرآنى فنراه ضربا وحده . ونرى الأسلوب النبوى فنراه ضربا وحده ، لا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلّقات الطير فى جو السماء لا تستطيع إليها صعودا . ثم نرى أساليب الناس فنراها - على اختلافها - ضربا واحدا ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوا ، ومنها ما يشتد عدْوا . ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك السيارات السماوية[١] .

وقال عفيف طبارة : فإذا رجعنا إلى كتب الأحاديث التى جمعت أقوال النبى وقارناها بالقرآن ، رأينا الفرق واضحا فى كل شىء : فى أسلوب التعبير ، وفى الموضوعات ، فالحديث النبوى تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة فى صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب بإيجاز فى القول ، بخلاف أسلوب القرآن الذى لا يعرف له شبيه فى أساليب كلام العرب .

كما وأن الحديث النبوى تستشعر من خلال أسلوبه بشخصية بشرية وذاتية ، يعتريها الضعف وتعتز بهذا الضعف أمام اللّه ، بخلاف القرآن الذى تتراءى لك من آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة رحيمة . وهذه الذاتية لا تضعف حتى فى المواطن التى تعبر فيها عن الرحمة .

فلو كان القرآن من كلام محمد - كما يدعى البعض - لكانت أقواله والقرآن صنوين ، لأنه من المسلّم به - لدى أهل البصر الأدبى - أنه من المتعذر على الشخص الواحد أن يكون له أسلوبان فى بيانه يختلفان اختلافا كبيرا أحدهما عن الآخر .

فهذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث ، والذى يدركه من له إلمام ببسائط اللغة العربية يشهد بأن القرآن وحى إلاهىّ[٢] .

---

(١) النبأ ٩٦ - ٩ .   (٢) روح ٣١ .

تعقيـــب

على الرغم أن هذا الوجه بدأ الحديث عنه الباقلانى وعبد الجبار ، شارك فيـه المحدثـون أكثر من مشاركتهم فى غيره ؛ وأفاضوا فى تناوله ، وتتبعوا جوانبه المتعددة .

وواضح كل الوضوح اعتماد الجميع ـ قدامى ومحدثين ـ على التباين الكبير بين القـرآن والحديث فى إبطال ادعاء أن محمدا هو مؤلف القرآن .

وعنـى البـاقلانى بـالرد علـى استشـهاد خصـوم إعجـاز القـرآن بـأقوال ابـن مســعود الصحابى ، وأكثر ما اعتمد عليه فى الرد التشكيك فيها .

وعنى رضا والزرقانى فى الرد على من جعل السبب فى التباين بين القرآن والحديث ، احتفال محمد بالقرآن وتحبيره ، دون الحديث .

وقد جرّت الرغبة فى الرد محمــد رشيد رضـا إلى الوقـوع فـى خطـأ غريـب ، حيـث وصف محمدا بأنه لم يكن معدودا من الفصحاء قبل نزول القرآن عليــه . وهـو وصـف لا يتفق فيه غيره معه ، وإن كانوا يوافقونه فى أن هذه الفصاحة صقلها ونماها القرآن .

وكان السبق فى هذا الوجه للزرقانى ودراز اللذين أفلحـا فلاحـا بعيـدا فـى ردودهمـا الكثيرة .

الاستدلال بتحليل روائع أدبية

ومن أجل إثبات الإعجاز والبعد الكبير بينه وبين كل كـلام بشرى ، حلـل البـاقلانى الكلام وكشف عن مراتبه وأنواعه . فوجد فى جملته :

ما تقصُر عبارته وتفضُل معانيه ،

وما تقصر معانيه وتفضل عباراته ،

وما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر .

وينقسم النوع الأخير إلى :

ما يفيدها على جملة ،

وما يفيدها على تفصيل .

وينقسم كل واحد من هذين النوعين إلى :

ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شريفا ، وغريبا لطيفا .

وقد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلّفا ، ومصنوعا متعسَّفا .

وقد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقا ، وبهيجا نضيرا .

وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر .

وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة فى واحد منهما .

وقد يجود المتكلم فى شىء دون شىء .

وقد يعمُّ إحسانُه .

ألا ترى منهم من يجود فى المدح دون الهجو .

ومنهم من يجود فى الهجو وحده ،

ومنهم من يجود فى المزح والسخف ،

ومنهم من يجود فى الأوصاف .

والحكم فى ذلك صعب شديد ، والفصل فيه شأو بعيد . ومتى تقدم الإنسان فى هذه الصنعة ، لم تخفَ عليه هذه الوجوه ، ولم تشتبه عنده هـذه الطرق . فهـو يميز قـدر كـل متكلم بكلامه ، وقدر كل كلام فى نفسه ، ويُحله محلـه ، ويحكـم فيـه بما يستحق مـن الحكم .

والعالم لا يشذّ عنه شيء من ذلك ، ولا تخفى عليه مراتب هؤلاء ، ولا تذهب عليه أقدارهم ، حتى إنه إذا عرف طريقة شاعر فى قصائد معدودة ، فأُنشِد غيرها من شعره ، لم يشكّ أن ذلك من نسجه .

كذلك لا يخفى عليه معرفة سارق الألفاظ ولا سارق المعانى ، ولا من يخترعها ، ولا من يُلم ، ولا من يجاهر بالأخذ ممن يكاتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعا ممن يروّى فيه ، ويجيل الفكر فى تنقيحه ...

وإنما أطلت عليك ، لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغامضه وجليّه ، وقريبه وبعيده ، ومعْوجَّه ومستقيمه .

فكيف يخفى عليهم الجنس الذى هو - بين الناس - متداول ، وهو قريب متناول ، من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ، ويبعد عما هو فى عُرفهم ، ويفوت مواقع قُدَرِهم ؟

وإنما قدمنا ما قدمناه لتعرف أن ما ادعيناه من معرفة البليغ بعلو شأن القرآن ، وعجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، أمر لا يجوز غيره ، ولا يحتمل سواه ، ولا يشتبه على ذى بصيرة .

فإن أراد أحد أن نقرب عليه أمرا ، ونفسح له طريقا له بابا ، ليعرف به إعجاز القرآن ، فإنا نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض عليه الأساليب(١) .

وخرج الباقلانى من هذا القول إلى عرض عدد من خطب النبى وكلام الصحابة والبلغاء ، ختمها بقوله : فتأمل ذلك وسائر ما هو مسطّر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللّسَن ، ثم انظر - بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لُب - فى ذلك ، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين(٢) .

الرد على إمكان تعلم البيان

وقال الباقلانى : إن قيل : البيان قد يُتعلّم !

قيل : إن الذى يمكن أن يتوصَّل إليه بالتعلم يتقارب فيه الناس ، وتتناهى فيه العادات ، فيرمون فيه إلى حد فإذا تجاوزوه وقفوا بعده ، ولم يمكنهم التخطى ، ولم يقدروا على التعدى ، إلا أن يحصل ما يخرق العادة ، وينقض العُرْف . ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوات ، على شروط فى ذلك .

---

(١) إعجاز ١١٩ ــ ٢٧ .   (٢) إعجاز ١٥٤ . اتجاهات مطلوب ١٧٠ . سلطان ١١١ .

والقدر الذى يفوت الحد فى البيان ، ويتجاوز الوهم ، ويشذ عن الصنعة ، ويقذفه الطبع فى النادر القليل كالبيت البديع ، والقطعة الشريفة التى تتفق فى ديوان شاعر ، والفقرة تتفق فى رسالة كاتب ، حتى يكون الشاعر ابن بيت أو بيتين ، أو قطعة أو قطعتين ، والأديب شَهير كلمة أو كلمتين - أمر قليل .

ولو كان كلامه يطّرد على ذلك المسلك ، ويستمر على ذلك المنهج ، أمكن أن يَدَّعى فيه الإعجاز .

ولكنك - إن كنت من أهل الصنعة - تعلم قلة الأبيات الشوارد ، والكلمات الفرائد ، وأُمهات القلائد .

فإن أردت أن تجد قصيدة كلها وحشية ، وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مَرْضية ، لم تجد ذلك فى الدواوين ، و لم تظفر بذلك إلى يوم الدين .

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ، ولفظة بديعة ، وإنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو نحوها . وأَحلْنا أن يتمكنوا من حدّ فى البلاغة ، ومقدار فى الخطابة .

وهذا كما قلناه من أن صورة الشعر قد تتفق فى القرآن ، وإن لم يكن له حكم الشعر[1]...

الرد على دعوى أن سلامة الكلام ليست دليل إعجاز

وخشى الباقلانى أن يقول قائل : قد يَسْلم بعض الكلام من العوارض والعيوب ويبلغ أمده فى الفصاحة والنظم العجيب ، ولا يبلغ عندكم حد المعجز . فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام ؟

ورد عليه قائلا : إنما لم يصح هذا السؤال - مع كون ما نذكر من أشعار فى نهاية الحسن ، ومن خطب ورسائل فى غاية الفضل - لأنا قد بينا أن هذه الأجناس قد وقع التنازع فيها ، والمساماة عليها ، والتنافس فى طرقها ، والتنافر فى بابها . وكان البون بين البعض والبعض فى الطبقة الواحدة قريبا ، والتفاوت خفيفا . وذلك القدر من السبق - إن ذهب عنه الواحد - لم ييأس منه الباقون ، و لم ينقطع الطمع فى مثله .

ولبس كذلك سَمْت القرآن ، لأنه قد عُرف أن الوهم ينقطع دون مجاراته ، والطمع

(١) إعجاز ٢٨٥ .

يرتفع عن مباراته ومساماته ، وأن الكل فى العجز عنه على حد واحد(١) .

الرد على دعوى أنه لو كان معجزا لعرفنا ضرورة

وقال الباقلانى : فإن قيل : لو كان على ما ادعيتم ، لعرفْنا - بالضرورة - أنه معجز دون غيره .

قيل : معرفة الفضل بين وزن الشعر أو غيره من أوزان الكلام لا يقع ضرورة ، ويحتاج فى معرفة ذوق الشعر ووزنه ، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان ، يحتاج إلى نظر وتأمل وفكر وروية واكتساب . وإن كان النظم المختلف الشديد التباين إذا وُجد أُدرك اختلافه بالحاسة ، إلا أن كل وزن وقبيل - إذا أردنا تمييزه من غيره - احتجنا فيه إلى الفكرة والتأمل(٢) .

الرد على الاستشهاد باختلاف المسلمين

وقال الباقلانى : فإن قيل : لو كان معجزا لم يختلف أهل الملة فى وجه إعجازه ،

قيل : قد يثبت الشىء دليلا ، وإن اختلفوا فى وجه دلالته ، كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث العالم من الحركة والسكون ، والاجتماع والافتراق(٣) .

وذهب عبد الجبار إلى أن اختلاف علماء المسلمين فى وجه الإعجاز - بعد اتفاقهم على أن القرآن معجز - لا يقدح فى الإعجاز ، لأنه لا يمتنع أن يُعلم - بالنظر فى الدليل - أنه دليل ، إذا وقع للناظر العلم بالمدلول ، ثم يشتبه الحال فى الوجه الذى يدل عليه .

ولو منع ذلك من كونه دالا لمنع من كون إحياء الموتى دالا ، لا لسبب إلا أنهم اختلفوا فى ذلك أيضا ، وكذلك الأمر فى قلب العصا حية ، بل فى أكثر الأدلة العقلية(٤).

وذكر الإيجى أن القادحين فى إعجاز القرآن - وبخاصة من حيث البلاغة - لهم شُبه ، أوردها ، ورد عليها ، على النحو الآتى :

- قالوا : وجه الإعجاز يجب أن يكون بيِّنا لمن يستدل به عليه ، واختلافكم فيه دليل خفائه(٥) .

وقال : الاختلاف والخفاء ، وإن وقع فى آحاد الوجوه ، فلا اختلاف بيننا ولاخفاء

---

(١) إعجاز ٢٤٧ .
(٢) إعجاز ٢٩٤ .
(٣) إعجاز ٢٩٤ .
(٤) المغنى ١٦ / ٣١٦ - ٧ .
(٥) المواقف ١/ ٣٥٠ .

فى أنه - بما فيه من البلاغة ، والنظم الغريب ، والإخبار عن الغيب ، واشتماله على الحكمة البالغة علما وعملا - معجز . وإنما وقع الاختلاف فى وجهه لاختلاف الأنظار ومبلغ أصحابها من العلم .

وليس إذا لم يكن معجزا بالنظر إلى أحد ما بيناه ، يلزم أن لا يكون معجزا بجملتها ولا بجملة منها .

وكأى من بليغ يقدر على النظم أو النثر ، ولا يقدر على الآخر . ولا يلزم من القدرة على أحدهما القدرة على الجميع ، وليس كل ما ثبت لكل واحد يثبت للكل[١] .

هل يجوز ادعاء النبوة دون بينة

قال عبد الجبار : أيجوز - من جهة العادة - أن يدعى محمد النبوة دهرا طويلا ، ويجدد عليهم العبادات ، ويدعى أنها ترد عن اللّه ، حالا بعد حال ، وأنه - تعالى - يوحى إليه بذلك ، وينسخ شرائع من تقدم ... وهو - مع ذلك - مقتصر على الدعوى ، غير مظهر لدلالة ، وقد ذهبوا عن مطالبة الدلالة من قِبَل النظر فى هذه العبادات والشرائع ، وذهب هو عن ادعاء ذلك ، ليتميز عن غيره ؟

لئن جاز ذلك - والعادة فى الأمور الخفية - فضلا عن عظيمها بخلافه ليدلن - بذلك - على أنه معجز ، لأن نفس ذلك نقض للعادة . وهو أعظم - فى ذلك - من المعجزات[٢] .

تحليل نقض العادة

وقال عبد الجبار : لو لم يكن القرآن - الذى علمنا أن محمدا تحدى به - ناقضا للعادة فيما يختص به من قدر الفصاحة ، لأتوا بمثله ، مع ما عرفناه من أحوالهم فى الفصاحة ، وقوة الدواعى إلى إبطال أمره . ثم لم يقع ذلك منهم - مع زوال كل شبهة - فواجب أن يكون ناقضا للعادة .

وهذه الدلالة مبنية على دعاوى :

منها أنهم لم يعارضوه .

ومنها أنهم إنما لم يعارضوه لتعذر ذلك عليهم .

ومنها أنهم تعذر ذلك عليهم لما يختص به من المزية فى قدر الفصاحة .

---

(١) المواقف ٣٥٣/١ .　　(٢) المغنى ١٦ / ٢٤٢ - ٣ .

ومنها أن هذه المزية لم تجر العادة بمثلها فى كلام الفصحاء .

ومتى تبينت صحة هذه الدعاوى ، لم يبق للمخالف شبهة .

وإنما قلنا : إنه لابد منها ، لأن المعارضة : لو ثبت أنهـا وقعت ، لم يمكنـا أن نبين أن القرآن معجز . بل كان لقائل أن يقول : إذا شاركوه فيه ، وأمكنهم أن يأتوا بمثله ؛ فهـو بمنزلة سائر الأفعال ، التى جرت العادة بالاشتراك فيها . فلو دل على النبـوة ، لـدل سـائر الأفعال عليها .

ولقائل أن يقول : إذا لم يثبت أنهم لم يعارضوه لتعذره ، وأنه أمكنهم ، وإنما عدلـوا عنه لوجه من الوجوه : لإعراض ، أو لشبهة ، أو لإيثار ما هو أولى عندهـم عليـه ، فمـن أين أنه معجز ؟ فلا يمكن إثبات دلالته .

ولقائل أن يقول : متى لم يبين أن تعذره لما له من المزية ، إنما تعـذر عليهـم لأن العـادة قد جرت فى الأصل أن ذلك قد يتعذر على بعض ، ويختص به البعض ، أو لأنـه تعمَّـل له مدة من الزمان ، وصبر عليه إلى غير ذلك مما يذكـر فـى هـذا البـاب ، فلذلـك تعـذر عليهم .

ولقائل أن يقول : إنه تعذر عليهم لما له من المزية ، لكنها لا تبلغ قدرا ينقض العـادة ، بل هى مقاربة لما جرت العادة بمثله ، حتى لا يكاد يتميز عنه . فمن أين أنه معجز ؟

ومتى تبينت صحة الجميع زالت الشبهة أجمع ، لأنه لا شبهة تذكر فى هـذا البـاب إلا وهى داخلة فى إحدى هذه الدعاوى التى ذكرناها[1] .

فإن قيل : أفيجب أن نبين لمزية القرآن هذه حدا ، ليُعلم أنه معجز ، وأنـه خـارج عـن العادة ؟ فإن أوجبتم ذلك فبيِّنوه ، وذلك متعذر . وإن لم يجب ذلـك ، فمـن أيـن الحكـم بأن هذه المزية قد بلغت الحد الذى ليس بمعتاد ، دون أن تكون داخلة فى العادة القليلة أو مقاربة لها ؟ وأى هذه الوجوه قيل ، خرج القرآن من أن يكون معجزا !

قيل له : إنه يكفى أن يُعلم خروجه عن العادة بتعذر مثله على من هو متقدم فى ذلـك الباب ، فيدل ذلك على النبوة . وهذا كما نقول : إن الفعل المحكم الدال علـى أن فاعلـه عالم يكفى فيه أن يكون من صفته خروجه عن صحته من كل قادر كـامل الآلـة . فمتـى علمنا ذلك من حاله ، وأن بعض القادرين قد اختص به دون غيره ، دل علـى أنـه عـامّ ،

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٤٧ – ٨ .

من غير أن نذكر فيه حدا أكبر مما ذكرناه ، فكذلك القول فى دلالة المعجزات[١] .

فإن قال : فيجب - على هذا الموضوع - أن يكون حمل الثقيل ، متى علم منه اليسير من الزيادة ، أن يدل على النبوة ، وأن لا يحتاج إلى تفاوت كثير .

قيل له : لو علمنا أن المتقدمين فى القوى والآلة - فى الزمان والأزمنة - عالجوا حمل ثقيل فتعذر عليهم ، وتأتّى ممن ادعى النبوة ، لدل على النبوة ، وإن كانت الزيادة ليست متفاوتة .

وإنما فارق ذلك حال القرآن ، لأن من له المزية فى القوة والآلة لا يعرف ، ويجوز اختلاف الحال فيه ، كما يعرف من هو متقدم فى الفصاحة ، وذلك لأن التقدم فى الفصاحة يدعو إلى إظهار ما يدل عليه ، والتقدم فى القوة لا يدعو إلى إظهار ما يدل عليه ، إلا على بعض الوجوه . فلذلك فارق أحدهما الآخر[٢] .

ولا فرق بين من اعتبر - فى المزية الخارجة عن العادة - المتفاوت منها دون المرتبة الأولى ، وبين من اعتبر آخر الرتب منها ، ولم يجعل الدلالة على النبوة إلا مالا مرتبة فى بابه أعظم منه .

يبين ذلك أن القرآن لو بلغ - فى مزيته فى قدر الفصاحة وتقدمها - النهاية ، لم يكن ليدل إلا للوجه الذى يدل إذا خرج عن العادة إلى أول رتبة . فصار الحال فى ذلك ما أبطلنا به قول من قال : إن المعجز الكبير هو الذى يدل على النبوات ، والصغير يجوز أن يظهر على الصالحين . فبينا أن دلالة الكبير هو لوجهٍ قائم فى الصغير ، وأن إحياءِ الجسم العظيم كإحياء الجسم الصغير فى هذا الباب . فكذلك القول فيما بيناه من حال القرآن .

ولهذه الجملة قلنا : إنه لا يجب القطع على أنه لا كلام أزيد فى قدر الفصاحة من القرآن ، لأن ذلك - وإن كان مجوَّزا - فحال القرآن - فى دلالته - لا يتغير . وإن كان لا يمتنع - فى بعض القرآن - أن نعلم أنه قد بلغ النهاية ، لأنه إذا صار معناه فى جنسه ، وشرف موقعه ، إلى حد لا مزيد عليه ، وصار اللفظ شريفا مطابقا للمعنى فى أن لا مزيد عليه ؛ فلابد من أن يكون قد بلغ النهاية ، لأنه - وإن كان ما ادعاه مما زاد على العادة قد يتفاوت فى مراتبه - فلابد من أن ينتهى إلى حد لا مزيد عليه[٣] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢١٢ - ٣ .
(٢) المغنى ١٦ / ٣١٣ .
(٣) المغنى ١٦ / ١٩٢ - ٣ ، ٣١٣ - ٤ .

الاستشهاد بأحوال المعاصرين :

وأعلن عبد الجبار أن العرب ـ كانوا النهاية فى الفصاحة فـى زمـن محمـد ــ فـلا يخلـو حالهم :

من أن يكونوا عالمين من حال القرآن بما هو عليه ،

أو شاكّين فيه ،

أو معتقدين لخلافه[١] .

ثم تتبع كل واحد من هذه الأقسام ليبرهن على الإعجاز .

فإن كانوا عارفين بحاله لم يخلوا من وجهين :

إما أن يعلموا أنه فى حكم المعتاد

أو أن يعلموا أنه خارج عن طريق العادة .

فإن كانوا عالمين بأنه فى حكم المعتاد لم يجز أن يتركوا المعارضة البتـة ، لأنـه لا طريـق لدخول الشبهة عليهم مع حصول هذه المعرفة ، ولا يجوز أن يعدلوا عنها إلى أمـر شـاق ، ولا يوصلهم إلى البغية ... وذلك يوجب إخراجهم عن حد العقلاء .

وإن كانوا عالمين بخروجه ، فهو الذى نقوله ، ونقول إنهم لأجله عدلوا عن المعارضة ، وإنه دليل نبوة محمد .

فعلى الوجهين لا يصح زعم الشبهة فى باب المعارضة[٢] .

وإن كانوا شاكّين ، فإنما يصح الشك منهم إذا فسد الطريق التى بها يُعلَم فضل بعـض الكلام على بعض ، لأن من ينسبهم إلى الشك لا يخلو من أن يقول :

إن لهذه المعرفة طريقة عندها تحصل كطرق المعارف الضرورية ،

أولا طريق لها البتة .

فإن كان لا طريق ، وجب ألا يحصل لهم العلم بفضل كلام على كلام ، لأن الطريقـة التى بها يعرف ذلك زائلة منسدة عنهم . والمعلوم من حال المتوسط منا ومنهم أن ذلك لا يخفى عنه ، فكيف حال المتقدمين؟![٣] .

وإن كانت الطريقة التى بها يعلم ذلك حاصلة لهم ، كان يجب أن يعلم العرب ذلك .

وليس يجوز أن نجعل لهم طريق المعرفـة بـالفضل بـين الكلامـين اللذيـن الفصـل بينهمـا

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٨٧ .   (٢) المغنى ١٦ / ٢٨٨ .   (٣) المغنى ١٦ / ٢٨٨ – ٩ .

قريب ؛ ولا يحصل لهم العلم بالفضل ، إذا كان متفاوتا ، لأن المتفاوت أجلى من المتقارب - ولا يجوز فى طريق العلوم الضرورية أن لا يحصل العلم بالأَجْلَى ، ويحصل بما هو دونه . وذلك يبطل القول بأنهم كانوا يشكون فى حال القرآن .

على أنهم لو شكوا فى ذلك ، لكانوا احتجوا على محمد ، لأنه لابد فى الأولة من أن يتمكن المكلّف فى معرفة حالها ، فيبطل ادعاؤه للنبوة ، لأنها إنما تثبت بالمعجز[1] .

وبعد ، فقد كان لهم أن يقولوا لمحمد : أنت أيضا شاكّ فى ذلك ، لأن حالك — فى المعرفة بقدر رتب الفصاحة - كحالنا . فكيف يصح أن تحتج بما أنت فيه شاك ؟! على أن ما ظهر من أحوالهم يدل على أن القوم لم يكونوا شاكين فى أمر القرآن ، لأن استجابة بعضهم تدل على نفى الشك ، وكذلك إعظام من لم يستجب لحال القرآن وعدوله إلى ما عدل إليه . فلا يصح - والحال هذه - أن يكونوا شاكين فى ذلك[2] .

وليس يخلو حالهم - إن كانوا شاكين - من :

أن يكونوا شكوا لمقاربة حاله لحال الكلام الفصيح ،

أو شكوا فيه مع المباينة .

ولا يجوز أن يقال : إنهم شكوا مع المباينة ، لأن ذلك يوجب أنهم لم يعرفوا الفضل بين الكلامين المتباينين ، وفى هذا إخراج لهم من أن يكونوا عقلاء .

فلم يبق إلا أنهم شكوا لتقارب الحال . وهذا يوجب أنهم علموا مقاربة حاله حال المعتاد . فقد كان يجب أن يكون داخلا فى طريقة المعتاد - على ما قدمناه - وأن لا يعدلوا فيه عن معارضة والاحتجاج .

وكل ذلك يبطل القول بأنهم كانوا يشكون فى حال القرآن .

فأما نسبهم إلى أنهم كانوا جهالا بحاله فأعظم فسادا من نسبهم إلى الشك . وكل الذى ذكرناه فى إبطال نسبهم إلى الشك يبطل هذا القول أيضا . يؤكد ذلك أنهم لو كانوا اعتقدوا فيه أنه ليس بصحيح ، لوجب أن يكون اعتقادهم عن شبهة ، يصح معها الشك ، لأن هذه الطريقة واجبة فى الجهل . فإذا بينا أن الشك فى ذلك لا يجوز ، فطريقة الشك فيه زائلة[3] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٨٩ .	(٢) المغنى ١٦ / ٢٨٩ — ٩٠ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢٩٠ .

على أن الشك والجهل إذا جازا فى فضل أحد الكلامين على الآخر ، أو فى مساواتهما إذا تساويا ؛ ليس يخلو من أن يكون :

إنما جاز ذلك عليهم لأن من حق ذلك أن لا يعلمه أحد من العقلاء ، أو جاز عليهم وكان فى العقلاء من يعرف ذلك .

ولا يجوز أن يقال : إن الذين يعرفون ذلك من العقلاء ، غير العرب العلماء بهذا الشأن . فلم يبق إلا أن الذى يجب أن يعرف ذلك هم أهل البصر بذلك . وقد علمنا من حال من كان فى زمن محمد أنهم كانوا من أهل البصر بهذا الشأن . فيجب أن يكونوا عالمين ، وأن يكون هذا العلم مما لا يصح أن يحصل لبعض العرب دون بعض ، مع تقدمهم فى الفصاحة ، كما لا يجوز ـ وهذه حالهم ـ أن لا يفصلوا بين الكلامين الفصيحين ، لأنا نعلم من حالنا أنا نفصل بين ذلك ، وأن حالنا دون حالهم[١] .

وختم هذا الجدل الطويل بالنتيجة التى عمل على الوصول إليها ، وأجملها فى قوله : هذه الجملة تكشف عن أن الحال لا تخرج عن قسمين :

إما العلم بخروج القرآن فى قدر الفصاحة عن العادة ،

أو العلم بأنه غير خارج من ذلك .

وقد بينا بطلان الوجه الثانى بما ذكرناه من أحوالهم ، فالواجب القسيم الأول . وهذا يصحح القول بإعجاز القرآن[٢] .

الرد على الاستشهاد بحوار البشر فى القرآن

وأبان عبد الجبار أن بعض المعاندين تعلقوا بما أورد القرآن من حوارات ، وبخاصة حوار أبى حذيفة بن المغيرة الذى جاء فى الآيات من ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء . فقالوا : إذن فقد أتى أبو حذيفة بقدر سورة قصيرة ، فقد أتى بمثل القرآن . فكيف يصح أن يقال : إنهم لم يعارضوه .

ورد عبد الجبار عليهم بأن ما يقولون بعيد ، وذلك لأنه ـ تعالى ـ خبَّر عن معنى كلامه دون اللفظ ، لأنه لا يمتنع فى الحكاية أن تكون مرة باللفظ ومرة بالمعنى .

ويدل على ذلك أن أبا حذيفة وغيره لم يعارض القرآن ، ولم يكثر منه ، ولم يحتجوا بذلك على محمد .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٩١ .   (٢) المغنى ١٦ / ٢٩٣ .

وهذا كما حكاه عن القرون الماضية ، وإن كانت لغاتهم بخلاف لغة العرب .

وبعد ، فلو ثبت أنه حكى باللفظ لوجب أن لا يكون معجزا ، لأن المعجز من القرآن ما هو من قبل الله[١] .

ولما كان السبب الوحيد للإعجاز عند ابن حزم هو الصدور من الله ، فإنه حكم — عندما تصدى لهذه القضية - بأن نص الحوار الذى تفوه به المشركون هو النص الذى أورده القرآن دون أن يتصرف فيه ، ولكنه عندما يصدر من المشركين لا يكون معجزا ، وعندما أنزله الله على محمد كان معجزا[٢] .

وروى محمد الخضر حسين لإيضاح الحكاية الخبر الآتى : أذكر بهذه المناسبة أنه أقيمت مأدبة للشيخ محمد عبده عندما زار تونس ، وكان من الحاضرين الشيخ سالم أبو حاجب . فحكى حكاية اقتضى الحال أن يعيدها الشيح محمد عبده للحاضرين . فقال له الشيخ : قد أعدتها بأحسن مما قلته أنا . والشيخ محمد عبده لم يزد فى الحكاية معنى لم يقله الشيخ ، وإنما حكاها بألفاظ أفصح من عبارة الشيخ أبو حاجب وأبلغ[٣] .

الرد على دعوى ضرورة وجود مثله فى العربية

وقال عبد الجبار : فإن قيل : أليس القرآن نزل بلغة العرب ، فلابد من أن يكون فى كلامهم مثله ، حتى يكون نازلا بلغتهم . فكيف يصح - مع ذلك — القول بأنه خارج - فى قدر فصاحته - عن العادة ؟

قيل : ليس المراد بأنه نزل بلغتهم إلا أن الكلمات التى يشتمل القرآن عليها فى لغتهم ، قد تواضعوا عليها . فأما على هذا النظام المخصوص فليس فى اللغة ، كما أن شعر من ابتدأ الشعر ليس فى اللغة على هذا الحد ، وإن لم يخرج عن أن يكون منطوقا من لغة العرب .

ولو جاز - بمثل هذا الوجه - إخراجه عن العادة ، لوجب أن لا يكون للشاعر المتقدم فضله على المفحم وغيره لهذه العلة ؛ ولا لمن ينسج الديباج فضله على غيره ، لأن المنسوج يؤلف من الغزول المختلفة الألوان . وهذا فى غاية الركاكة[٤] .

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٦٢ .
(٢) الفصل ٣ / ٢٨ — ٩ . العمارى ٩٣ .
(٣) بلاغة ٥٧ .
(٤) المغنى ١٦ / ٢٠٤ .

تعقيـــــب

يتضح أن عبد الجبار اعتمد على النظر العقلى فى أغلب ردوده ، وأنه حاول أن يتناول كل ما يواجه الإعجاز من شكوك ، وأن يضع المبادئ التى تكفل سلامة الرد ، حتى إنه شرح مصطلح الإعجاز وأبان الأبعاد التى يؤدى إليها . كذلك اعتمد فى بعض الردود على الطبيعة البشرية .

الاستشهاد بالحديث النبوى

وأتى عياض بالحديث الذى رواه أبو هريرة ، ويقول : « ما من نبى إلا أُعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىّ . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

وأعلن معنى الحديث عند بعضهم أن سائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم ، وعدمت بعدم ذواتهم ، ومعجزة محمد لا تبيد ولا تنقطع ، وآياته تتجدد ولا تضمحل ؛ وأن غير واحد من العلماء ذهب إلى معنى آخر هو كون معجزة محمد وحيا وكلاما لا يمكن التخيل فيه ولا التحيل عليه ولا التشبيه . فإن غيرها من معجزات الرسل قد رام المعاندون لها بأشياء طمعوا فى التخييل بها على الضعفاء ، كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مما يخيله الساحر أو يتحيل فيه . والقرآن كلام ليس للحيلة ، ولا للسحر ولا للتخييل فيه عمل .

ولكنه فضل المعنى الأول ، وحكم عليه بأنه الظاهر والصحيح[1] .

وقال ابن كثير فى شرح النصف الثانى من الحديث : أى الذى اختصصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلاهية ، فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء[2] .

---

(١) الشفا ٧٣٨/١ ــ ٩ . وانظر الإتقان ٣٢٤/٢ . موسى لاشين ٢٤٤ . الصباغ ٥٠ . عطا : أسرار ١٣٥ . وعظمة ٥٥ . أبو حمدة ١٨ ــ ٩ . شرف ٥١ . أبو سليمان ٩٨ .

(٢) التفسير ١/ ١٦٠ ــ ١ .

وعلق ابن خلدون على الحديث بقوله : اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن . فإن الخوارق في الغالب - تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو - بنفسه - الوحي المدعَى ، وهو الخارق المعجز . فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له — كسائر المعجزات — مع الوحي . فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه .

وهذا معنى قوله ﷺ : « ما من نبي ... » . يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة — وهو كونها نفس الوحي — كان الصدق لها أكثر لوضوحها . فكثر المصدق المؤمن ، وهو التابع والأمة[١] .

وذكر عبد الكريم الخطيب أن الرسول يكشف — في هذا الحديث — عن المعجزة القرآنية بأنها معجزة عقلية ، هي وحي يوحى ، أي شيء يدرك بعين البصيرة ، فيهتدى إليه العقل من خلال الإشارات الخفية ، واللمحات البعيدة ، التي تتجمع - من خيوطها — شواهد الحق على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر .

وليس المقصود بالوحي هنا الوحي الذي نزل عليه بالقرآن ، وإنما هو الوحي الذي ينزل على قلوب الناس من القرآن حين يستمعون إليه أو يقرؤونه . فالوحي معناه هنا الإشارة الدالة ، واللمحة الموحية .

وليس في القرآن آية من آياته تخلو من إشارة دالة ، أو لمحة موحية ، تتولد منها حقيقة كاملة ، تنطق بأن هذا القرآن هو كتاب الله .

ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة ، إذ هي رسالة إلى كل إنسان ، ووحي إلى كل عقل ، لا يحصرها زمان ، ولا يحدها مكان[٢] .

وذكر عبد القادر عطا أن العلماء قالوا في شرح الحديث : إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها . ومعجزة القرآن باقية إلى يوم القيامة . وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات ثابت . فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر أنه سيكون ، ليدل على صحة دعواه .

والمعجزات كانت حسية ، تشاهد بالأبصار . ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة . فيكون من يتبعه فيها أكثر . فما يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهديه . وما

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٠٣ . الرافعي ٢٨٨ . إعجاز الخطيب ٨٠/١ — ١ . وانظر شحاتة ١٣٧ . عتر ١٤٩ .

(٢) إعجاز ٨٢/١ .

يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا[١] .

تعقيـــب

أتى عياض للحديث بمعنيين فضل أولهما ، وهو رأى إذا رجعنا إلى فصل الموازنة بين المعجزات ، نجد إجماعا عليه . وعلى الرغم من ذلك لم يطرح العلماء المعنى الثانى وإنما قبلوه وتداولوه بعد التحوير الذى أجراه ابن خلدون عليه .

البرهنة العقلية

واعتمد الرازى على النظر العقلى فى إثبات إعجاز القرآن . فأعلن أن ذلك يمكن بيانه من طريقين :

الأول : أن يقال : إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة :

إما أن يكون مساويا لسائر كلام الفصحاء ،

أو زائدا عليه بقدر لا ينقض العادة ،

أو زائدا عليه بقدر ينقض العادة .

والقسمان الأولان باطلان ، فتعيَّن الثالث . وإنما قلنا : إنهما باطلان ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه ، إما مجتمعين أو منفردين . فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول ، فالشهود والحكام يزيلون الشبهة . وذلك نهاية فى الاحتجاج لأنهم كانوا ـ فى معرفة اللغة ، والاطلاع على قوانين الفصاحة ـ فى الغاية ، وكانوا ـ فى محبة إبطال أمره ـ فى الغاية ، حتى بذلوا النفوس ... وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح فى قوله ، والمعارضة أقوى القوادح . فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها . فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم ، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا . فهو إذن تفاوت ناقض للعادة . فوجب أن يكون معجزا[٢] .

---

(١) عطا : أسرار ٢٣٥ . عظمة ٥٥ .

(٢) مفاتيح ٥٢ / ١١٥ . عبد الحميد ٢٣١ .

الطريق الثانى أن نقول : إن القرآن لا يخلو :

إما أن يقال : إنه كان بالغا - فى الفصاحة إلى حد الإعجاز ، أو لم يكن كذلك .

فإن كان الأول ، ثبت أنه معجز .

وإن كان الثانى ، كانت المعارضة - على هذا التقدير - ممكنة . فعدم إتيانهم بالمعارضة - مع كونها ممكنة ، ومع توفر الدواعى على الإتيان بها - أمر خارق للعادة . فكان ذلك معجزا . وثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه(١) .

وحكم الرازى على الطريق الثانى بأنه أقرب إلى الصواب(٢) .

وسار ابن تيمية على نهج الرازى فصرح بأن الأمر لا يخلو : إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة ، أو عاجزين .

فإن كانوا قادرين ، ولم يعارضوه بل صرف اللّه دواعى قلوبهم ، ومنعها أن تريد معارضته - مع هذا التحدى العظيم - أو سلبهم القدرة التى كانت فيهم قبل تحديه - فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل : معجزتى أنكم كلكم لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب . فإن المنع من المعتاد كإحداث غير المعتاد . فهذا من أبلغ الخوارق . .

وإن كانوا عاجزين ، ثبت أنه خارق للعادة .

فثبت - بذلك - كونه خارقا للعادة على تقدير النقيضين : النفى والإثبات .

فثبت أنه من العجائب الناقضة للعادة فى نفس الأمر(٣) .

ولم يكتف ابن تيمية بهذا التنظير ، بل أعلن الإعجاز فى أكثر من موضع دون أن يسوق براهين عليه ، مثل قوله : كونه معجزا يُعلم بأدلة متعددة ، والإعجاز فيه من وجوه متعددة . فتعددت دلائل إعجازه ، وتنوعت وجوه إعجازه . وكل وجه من الوجوه فهو دليل إعجازه(٤) ، وقوله : والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة . وهى أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ، ويسميها من يسميها من النظار معجزات ، وتسمى دلائل النبوة ، وأعلام النبوة ، ونحو ذلك(٥) .

---

(١) مفاتيح ٢ / ١١٦ - ٧ ، ٢١ / ٥٤ . الحمصى ١٠٢ ، ١٠٦ . عبد الحميد ٢٣٢ - ٣ .
(٢) مفاتيح ٢ / ١١٦ ، ٢١ / ٥٤ . عبد الحميد ٢٣٣ .
(٣) التفسير ٢ / ١٥٦ .
(٤) التفسير ٢ / ١٤٢ .
(٥) التفسير ٢ / ١٤٤ .

وقال العلوى : الإتيان بمثل كل واحدة من سور القرآن لا يخلو حاله : إما أن يكون معتادا . أو غير معتاد .

فإن كان معتادا ، كان سكوت العرب - مع فصاحتهم وشدة عداوتهم لمحمد ، ومع توفر دواعيهم على إبطال أمره والقدح فى دعواه ، بمبلغ جهدهم وجدهم ، يكون - لا محالة - من أبهر المعجزات ، وأظهر البينات على عجزهم عن الإتيان بمثل سورة منه .

وأما إن لم يكن معتادا ، كان القرآن معجزا ، لخروجه عن المألوف والمعتاد .

فثبت بما ذكرناه أن القرآن - سواء كان خارقا للعادة أو لم يكن خارقا - فإنه يكون معجزا[١] .

وعقب نعيم الحمصى على هذا القول بأن صاحب الطراز يبدو فيه مناصرا لرأى الصرفة ، إلى جانب الرأى بخرق القرآن للعادة ، دون أن يبين سبب خرقه للعادة . بيد أنه لا يجوز الاعتماد على هذا القول لأن هذا الدليل جدلى . ولا يقنع أحدا أن يقول : إما أن يكون معتادا أو غير معتاد . وكان عليه أن يسعى لتقرير الحقيقة وإثباتها علميا . فهل وقع التحدى والعجز أوْلا أوَّلا ؟ ثم هل للقرآن مميزات واضحة على غيره من الكلام أو ليس له ذلك ثانيا بدلا من اللجوء إلى مثل هذه الحجة المطاطة[٢] .

وأرى أن الحمصى خانه التوفيق فى هذا الاعتراض ، على حين أن الحجة التى أتى بها العلوى هى التى تصلح فى مقام الجدل . وما طلبه الحمصى من العلوى له مقام آخر لم يقصر العلوى فيه .

واتبع ابن كثير طريقة التصنيف العقلى فى البرهنة على الإعجاز فأعلن : قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة ، فقال : إن كان هذا القرآن معجزا فى نفسه ، لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ، فقد حصل المدَّعَى ، وهو المطلوب .

وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ، ولم يفعلوا ذلك - مع شدة عداوتهم له - كان ذلك دليلا على أنه من عند الله ، لصرفه إياهم عن معارضته ، مع قدرتهم على ذلك .

وعقب ابن كثير على هذه الطريقة : هذه الطريقة - وإن لم تكن مرضية لأن القرآن - فى نفسه - معجز ، لا يستطيع البشر معارضته - إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة

---

(١) الطراز ٣ / ٣٨٦ - ٧ . الحمصى ١٣٣ . (٢) فكرة ١٣٣ .

والمنافحة عن الحق[1] .

تعقيـــب

حلى أن الرازى اعتمد على ما سبق من أقوال لعبد الجبار ، وأن ابن تيمية والعلوى وابن كثير اعتمدوا على الرازى . وكان ابن كثير أصرحهم فنسب القول إلى بعض المتكلمين .

وحلى أن الكثير من الآخذين بهذه البرهنة العقلية كانوا بصدد الحديث عن الصرفة ، وقبولها فى مجال الجدل ، كما صرح ابن كثير .

الاستدلال بالعدول إلى التعرض للقتل

ورأى العلوى فى العدول عن المعارضة إلى تعريض النفس للقتل ، مع كون المعارضة عليهم أسهل ، دليلا على ما أحسوا به من العجز من أنفسهم عنها ، فثبت كون القرآن معجزا[2] .

الرد على ادعاء عدم معرفة التحدى

وذكر العلوى أن للملاحدة - لعنهم الله وأبادهم - أسئلة ركيكة على كون القرآن معجزا ، ولابد من إيرادها ، وإظهار الجواب عنها . وجملة ما أورده أسئلة ثمانية[3] . ولما كان بعضها قد سبق الإتيان به ، أكتفى هنا بما لم يسبق منها :

السؤال الأول : نعلم - بالضرورة - أن أهل الهند والصين والروم وسائر الأقاليم البعيدة ما كانوا يعلمون وجود محمد فى الدنيا ، فضلا عن أن يقال : إنهم عالمون بتحديه بالقرآن . وباطل أن يكون واصلا إلى بعضهم ، لأنهم - ولو عجزوا عن المعارضة - فإنه لا يكفى فى صحة دعوى النبوة ، عجزهم عن معارضته ، لأنهم بعض الخلق ، وعجز بعض الخلق لا يكون عجزا لجميعهم ، وإلا لزم فى بعض الحذاق فى صناعته إذا تحدى أهل

---

(١) التفسير ١/٦١ . الحمصى ١٥٠ .

(٢) الطراز ٣ / ٣٧٢ .

(٣) الطراز ٣ / ٣٧٢ .

قريته ، ثم عجزوا عن ذلك ، أن يكون نبيا لمكان دعـواه . وهـذا ظـاهر الفسـاد . وهـذا يبطل ما ذكرتموه من التحدى بالقرآن .

وجوابه من وجهين :

أما أولا فلأنا نعلم - بالضرورة - أن العرب الذين قرع أسمـاعَهم التحـدى ، وخوطبـوا به ، كانوا - لا محالة - أقدر على معارضتـه مـن غـيرهم ، لاختصـاصهم بما لم يختـص بـه غيرهم من سائر الأقاليم من الفصاحة والبلاغة . فلما عرفنا عجزهم ، كـان غـيرهم - لا محالة - أعجز من ذلك لما ذكرناه .

وأما ثانيا فهب أن خبر تحديه بالقرآن ما وصل إلى كل العالم فى زمانه ، لكـن لاشـك فى وصوله إليهم الآن ، مع إنهم لم يعارضوه . وفى هذا دلالة على صحة نبوته .

ويؤيد ما ذكرناه أنا نرى من يصنف كتابا فى أى علمٍ كان ، ويظن أنه قد أتـى بـاليد البيضاء ، فلا يلبث إلا مقدار ما يصل إلى الأقـاليم والبـلاد ، ويحصـل - بعـد ذلـك . مـا يبطله ، ويدل على تناقضه وضعفه على القرب لأجـل شـدة الحـرص علـى ذلـك . وهـذا ظاهر فى جميع التصانيف كلها .

فلو كان ثم معارضة توجد للقرآن ، لكانت قد حصلت فى هـذه الأزمـان المتمادية ، والسنين المتطاولة : ولا شك فى بلوغه لهذه الأقاليم التى زعمتـم . وفـى هـذا بطـلان مـا زعمتموه[١] .

ورأى الحمصى أنه لا يمكن أن يكـون التحـدى لم يبلـغ العـرب ، نظـرا إلى أنـه وقـع مبكرا ، وأن محمدا ظل بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا وعشرين سنة ، وأن آيات التحدى نزلت فى فواصل زمنية متباعدة[٢] .

الرد على ادعاء عدم توفر الدواعي

وقال : العلوى : السؤال الثانى : لا نسلم توفر دواعيهـم إلى المعارضـة . وبيـان ذلـك بأوجه ثلاثة :

أما أولا فلعلهم اعتقدوا أن المعارضة لا تبلغ - فى حسم الشغب ، وإبطال أمره - مبلـغ الحرب . فلا جرم عدلوا إلى الحرب .

وأما ثانيا فلأنا لا نمنع أن يكونوا عدلوا إلى الحرب ، لأنهم لو عارضوا لكـان الخـلاف

---

(١) الطراز ٣ / ٣٧٥ - ٧ . الحمصى ١٣١ . (٢) فكرة ٢٤ ، ٧٤ .

غير منقطع بوقوعها ، لجواز أن يقول قوم : إنها معارضة ، ويقول قوم آخرون : إنها ليست معارضة ، ويتوقف فريق ثالث ، لالتباس الأمر فيه . فيشتد الخرف ويعظم الخطب. وفى أثناء ذلك الخلاف لا يمتنع اشتداد شوكة محمد . فلأجل الخوف من ذلك ، عدلوا إلى الحرب .

وأما ثالثا فلأنه يحتمل أن يكون عدولهم عن المعارضة ، لأن التحدى إنما وقع بمثله ، و لم يعرفوا حقيقة المماثلة : هل تكون بالفصاحة أو البلاغة أو بالنظم أو بهذه الأمور كلها، أو فى الإخبار عن العلوم الغيبية ، أو فى استخراج الأسرار الدقيقة ، أو غير ذلك مما يكون القرآن مشتملا عليه . فلهذا عدلوا عن المعارضة .

فصح بما ذكرناه أن دواعيهم إلى المعارضة غير متوفرة لأجل هذه الاحتمالات التى ذكرناها .

وواضح أن ما ذكره العلوى من اعتراضات لا يؤدى إلى عدم توفر دواعى المعارضة ، وإنما يؤدى إلى ترك المعارضة .

ومع ذلك ، فالأمر المهم أن العلوى أخذ يفند هذه الاعتراضات جملة ثم واحدا بعد الآخر . ولما كان تنسيق هذا الكتاب يجبرنى على تفريق الردود الفردية على المواضع المناسبة لها ، أكتفى بأن أورد هنا رده عليها مجتمعة .

قال : إنا قد أوضحنا توفر دواعيهم إلى معارضته بما لا مَدْفع له إلا بالمكابرة .

ويؤيد ما ذكرناه ويوضحه أن الأمر المطلوب إذا كان لتحصيله طرق كثيرة ، وكانت معلومة فى نفسها ، ثم بعضها يكون أسهل وأقرب فى تحصيل المقصود — فإنا نعلم من حال العاقل اختيار الطريق الأسهل . وقد علمنا - بالضرورة - أن أسهل الطرق - فى دفع من يدعى مرتبة عظيمة على غيره - معارضتها بمثلها ، إن كانت المعارضة ممكنة .

ونعلم أن هذا العلم الضرورى حاصل لكل العقلاء ، حتى نعلم أن طفلا من الأطفال لوادعى على غيره من سائر الأطفال شَيَلان حجر ، أو طَفْر جدول ، أو رمى غرض ، فإنهم يتسارعون إلى معارضته بمثل دعواه . فإذا كان هذا حاصلا فى حق الأطفال . فكيف من بلغ حالة عظيمة من الحنكة والتجربة[1] .

---

(١) الطراز ٣ / ٣٧٧ — ٩ .

الرد على دعوى تأخر المعارضة

السؤال الثالث : سلمنا أنه لا مانع لهم من المعارضة ، وأن دواعيهم متوفرة إليها . فلِم قلتم باستحالة تأخر المعارضة والحال هذه ؟

وبيان ذلك أن الفعل ـ عند توفر الدواعى وزوال الموانع ـ لا يخلو الحال هناك : إما أن يجب الفعل أولا يجب .

فإن وجب ، لزم الجبر ، وهو فاسد عندكم .

وإما أن لا يجب الفعل ـ والحال ما قلناه ـ فلم يلزم من توفر الداعى وزوال الموانع وجود المعارضة ـ وعند هذا لا يكون تأخرهم عنها دلالة على عجزهم عنها ، لجواز كونهم قادرين عليها ولا يلزم وقوعها .

ثم أجاب عن هذا الاعتراض بقوله : قد تقرر فى القضايا العقلية ، وثبت بالأدلة القطعية ، أن القادر متى توفرت دواعيه على الفعل ، ولم يكن هناك مانع ، فإنه يجب وقوعه ، ومتى خَلَص الصارف ، فإنه يتعذر وقوعه . وهذا معلوم بأوائل العقول لاشك فيه[1] .

وخطأ الزعم بوجوب الجبر ، لأن الجبر ـ عنده ـ له معنيان :

أحدهما أن الفعل واجب على معنى أن عدمه مستحيل ، وهذا هو الذى يبطل الاختيار ، ونحن لا نعتقده .

وثانيهما أن يكون الغرض بالوجوب هو أولوية الوقوع والحصول ، لا على معنى أنه يستحيل خلافه ، ولكن على معنى أنه أحق بالوجود عند تحقق الداعية ... ومع هذا التوجيه لا يبطل الاختيار .

وعلى كلا الوجهين ، فإنا نعلم توفر دواعيهم إلى تحصيل المعارضة ، وأنه يجب وقوعها وحصولها منهم ، إذا كانت ممكنة . فلما لم تقع ـ مع توفر الداعى ـ دل على أن الوجه فى تأخرها عدم الإمكان لا محالة[2] .

الرد على ادعاء وجود معارضات رائجة

السؤال الرابع : سلمنا أنها لو كانت واقعة لاشتهرت اشتهارا عظيما ، لكنا لا نسلم أنها غير مشتهرة . بل قد وقع هناك معارضات للقرآن . فإن العرب قد عارضوه بالقصائد

---

(١) الطراز ٣٨٢/٣ . وانظر الحمصى ١٣٢ . (٢) الطراز ٣ / ٣٨٢ ـ ٣ .

السبع . وعارضه مسيلمة الكذاب بكلامه الذى يحكى عنه . وعارضه النضر بن الحارث بأخبار الفرس وملوك العجم . وعارضه ابن المقفع من كلامه ، وقابوس بن وشمكير والمعرى . فكيف يقال : إن المعارضة ما وقعت ؟

وأجاب على هذا الاعتراض بقوله : إن النظار من أهل الفصاحة والبلاغة مجمعون على أن المعارضة بين الكلامين إنما تكون معارضة إذا كان بينهما مقاربة ومداناة بحيث يلتبس أحدهما بالآخر ، أو يكون أحدهما مقاربا للآخر . وكل عاقل يعلم — بالضرورة — أن هذه القصائد السبع ليس بينها وبين القرآن مقاربة ولا مداناة ، بحيث يشتبه أحدهما بالآخر . وكيف لا وهذه القصائد من فن الشعر ، والقرآن ليس من فنون الشعر فى وِرْد ولا صَدَر . فلا يجوز كونها معارضة له[1] .

وأما ما حُكى عن النضر بن الحارث فإنما نقل حكايات ملوك العجم ، وليس من أسلوب القرآن . فلا يكون معارضا له .

وأما ما يحكى عن مسيلمة الكذاب فهو بالخلاعة أحق منه بالمعارضة ، لنزول قدره ، وتمكنه فى الحماقة[2] .

و لم يتعرض العلوى بالرد على بقية الأدباء الذين نُسبت إليهم معارضات للقرآن . وفى اعتقادى أنه سكت اكتفاء بقوله الأول بأن المعارضة تكون عندما تكون المقاربة بين الكلام بحيث يلتبس بعضه ببعض .

ورأى الحمصى أن هذه الأسئلة التى جاء بها العلوى ، وعنى بالرد عليها ، ليست ذات قيمة كبيرة ، وأنه إنما ذكرها ليبين ألوان المناقشة والجدل فى هذا الموضوع ، الذى كثيرا ما تناقش فيه البديهيات على غير طائل ، كمناقشته هنا : هل حصل التحدى أو لم يحصل ؟ وهل فهموا منه معنى المماثلة أولا ؟

ثم لا أدرى إذا كانت هذه الأسئلة كان يضعها الملحدون والمخالفون حقيقة أو أنها كانت من وضع المؤلف أو غيره من العلماء ، ليردوا عليها ويبينوا قدرتهم فى الجدل[3] .

واستند البوطى فى البرهنة على الإعجاز أيضا إلى أن قلة من الناس حاولوا أن يأتوا بشىء مثل القرآن فى بلاغته وسمو أسلوبه ، وقد كانوا يأنسون - فى أنفسهم - من القدرة البلاغية ما يجعلهم أهلا لهذه المغامرة . ولكنهم - لما أقدموا على ذلك — نزلوا حتى عن المستوى الذى كانوا يقدرون عليه ، وجاؤوا بكلام بارد مضحك يسخر بعضه من بعض .

---

(١) الطراز ٣ / ٣٨٤ — ٥ .   (٢) الطراز ٣ / ٣٨٥ .   (٣) فكرة ١٣٢ — ٣ .

فمنهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ...

وهناك آخرون ، جاؤوا - بعد ذلك مع فترات من التاريخ - توفر لديهم حب المغامرة ، وآنسوا - فى ملكاتهم البلاغية القدرة على معارضة القرآن ... - فأخذوا يعارضون ويجارون بعضا من سور القرآن على تكتم وفى نجوة من الناس . ثم لما عادوا إلى ما أبدعوه فوجدوه غثاء لا قيمة له ، وكلاما لا طعم فيه ، خرجوا به على الناس بعد أن ألصقوه بمن خطر فى بالهم من مشاهير الأدباء والمتكلمين[١] .

الرد على التسوية بين قصار السور وكلام العرب

- وقال الإيجى : وقالوا : إذا نظرنا إلى أبلغ خطبة للخطباء وقصيدة للشعراء ، ثم قسناه إلى أقصر سورة من القرآن - وتزعمون التحدى بها - لم نجد الفرق بينا ، بل ربما زُعم أن الأفصح معارضها . ولابد فى المعجز من ظهور التفاوت إلى حد تنتفى معه الريبة[٢] .

وقال : إن الفرق كان بينا لمن تُحدِّى به ، ولذلك لم يعارض ؛ وغيرهم عَمِى عن ذلك ، لقصوره فى صناعة البلاغة والتمييز بين مراتبها .

ثم قياس أقصر سورة إلى أطول خطبة أو قصيدة جور عن سواء السبيل .

وأيضا فيكفينا كون القرآن بجملته أو بسوره الطوال معجز . قال الوليد بن المغيرة ، بعد طول محاولته للمعارضة ، وتوقع الناس ذلك منه : عرضت هذا الكلام على خطب الخطباء وشعر الشعراء فلم أجده منها[٣] .

وذهب ابن كثير إلى أن اللّه لا يشبهه شىء فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله وأقواله ؛ فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[٤] .

ونقل الحمصى عن أبى الفدا إسماعيل الحنفى المعروف بشيخ زاده القونوى (٩٥٠ / ١٥٤٤) : فضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه[٥] .

الرد على إنكار المعجزات

كشف محمد عبده أن هناك من أنكروا المعجزات أصلا ، وقالوا : إن المعجزات خروج على النظام الطبيعى العام ، وخرق لناموس الكون وقوانين الحياة ، وذلك ما

---

(١) من روائع ١٥٥ - ٦ .
(٢) المواقف ١ / ٣٥٠ .
(٣) المواقف ٣٥٣/١ .
(٤) التفسير ٤٤٧/١ ، ٤٧١ ، ٣ / ٦٢ .
(٥) فكرة ١٦٧ .

لايكون أبدا ، لأن الخروج عن ناموس الكـون ــ بتخلف الآثـار عـن مؤثراتهـا ، وتحقـق النتائج في الوجود بدون مقدماتها ، كما هو الشأن في المعجزات ــ معناه قطع لما بـين جوانب الكائنات من ترابط وتماسك ، وذلك يؤدى إلى الخلل والفساد الـذى يتنـافى مـع الحكمة والمصلحة .

ثم رد عليهم قائلا : إن المعجزة ليست من نوع المستحيل عقـلا . فـإن مخالفـة السـير الطبيعى المعروف فى الإيجاد مما لم يقع دليـل علـى استحالته . بـل ذلـك ممـا يقـع ، كمـا يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها - وهو صحيح - لمات ، مـع وجود العلة التى تزيد الضعف ، وتساعد الجوع على الإتلاف .

فإن قيل : إن ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى .

قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات . فليس من المحال عليه أن يضع نواميـس خاصة بخوارق العادات . غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ، ولكنا نرى أثرها على يـد مـن اختصه اللّه بفضل من عنده .

على أننا - بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار - يسهل علينـا العلـم بأنـه لا يمتنـع عليه أن يحدث الحادث علـى هيئـة ، وتابعـا لأى سبب ، إذا سبق فـى علمـه أنـه يحدثـه كذلك[1] .

وقال محمد فريد وجدى : قد ثبت أن النواميـس الطبيعيـة ممكـن تخلفهـا عـن إحـداث آثارها بنواميس أخرى أرقى منها . وقد أثبت العلم الأوربـى أن معجـزات الأنبيـاء كلهـا ممكنة[2] ...

وذكر الزرقانى من الشبهات التى كان يرددها الخصوم قولهم : إن خـرق اللّه لعاداتـه على أيدى رسله - كما تقولون - يعتبر خروجا عن النظام العـام الـذى تقتضيـه الحكمـة ، وتناط به المصلحة .

ورد عليهم بقوله : إن المعجزة - وإن كانت خارجة عن حـدود الأنظمـة المعتـادة ــ لا تعتبر خروجا على النظام العام الذى تقضى به الحكمة ، وتناط به المصلحة . بل هـى مـن مقتضيات ذلك النظام العام الذى تمليه الحكمة ، وتوجبه المصلحة . وأى حكمة أجلّ مـن تأييد الحق ، وأهل الحق ؟ وأى مصلحة أعظـم مـن اهتـداء الخلـق إلى طريـق سـعادتهم ،

---

(١) رسالة ٨٣ ــ ٤ . وانظر الوحى ٢٤ ــ ٥ . (٢) الذهبى ٢٥ .

بوساطة تلك المعجزات ، التي يفهمون منها مراد الخالق من تأييد رسله ، ووجوب تصديقهم لها ، واتباعهم إياها[١] .

الرد على دعوى كون القرآن آية للبيان

وذكر عبد القادر أحمد عطا أن هناك محاولة للتشكيك في إعجاز القرآن بحجة أنه آية للبيان وليست للإعجاز ، ووصفها بالتخبط الذى دعا إليه الحقد على الإسلام والقرآن أو التعصب العنصرى للجنس العربى تعصبا مصادما لعالمية القرآن .

ولم يذكر اسم صاحب هذه المحاولة[٢] .

وما عثرت عليه في هذا الصدد أناس قالوا بإعجاز القرآن ، وأن وجه هذا الإعجاز هو البيان ، ولم يضمروا وراء هذا القول غايات أخرى .

تعقيـــب

ما أظن أحدا يخامره أدنى شك فى أن هذا الفصل أهم الفصول وذروتها ، لأنه الغاية التى ابتغتها الفصول الأخرى ، ومهدت لها ، لتهيئ القارئ للاقتناع بما جاء فيه من أقوال. أريد أن أقول : إن سائر الفصول مقدمات ، وهذا الفصل النتيجة الطبيعية والمنطقية لهذه المقدمات .

وإذا أنعمنا النظر فيه - حاملين فى أذهاننا ما جاء فى الفصول الأخر - نجد :

- الجاحظ يملأ الصورة فى الفصول التمهيدية . ويكاد يجعل بقية الكاتبين عيالا عليه ، يوردون أقواله نصا أو معنى أو يؤمئون إليها أو يستلهمونها أو يكملونها أو يشرحونها ، وما إلى ذلك . ثم نجده يختفى اختفاء شبه تام فى هذا الفصل ، مما يؤكد الرأى المنكر لوجود كلمة الإعجاز فى حياة الجاحظ ، ولذلك اكتفى بإثبات العجز .

- أهم من تصدى لإثبات الإعجاز - فى العصور القديمة - الباقلانى الأشعرى ، وعبد الجبار المعتزلى ، والعلوى الشيعى ، وفى العصور الحديثة من أرخوا لرجال العصور القديمة كالحمصى والخطيب وملاحويش .

---

(١) مناهل ١/٧٠ .　　　(٢١) أسرار ٢٤٢ .

- إعمال العقل فى وضع مبادئ البحث السليم ، وإضاءة المصطلحات ، وتصنيف مادة الدرس ، ومنطقية العرض تغلب عند المعتزلة ، من أبى هاشم وأبى على إلى عبد الجبار ، وعند الجرجانى والرازى والعلوى من غير المعتزلة الخلّص .

- ونماذج من الاعتماد على النظر عند الباقلانى وغيره من الكتاب ، وبخاصة المحدثين . ولكن الغالب عليه وعليهم الاعتماد على النقل من القرآن والأحاديث والآثار والأخبار ، وعلى الطبيعة البشرية وأعراف العرب .

ولا أعنى بذلك أن المعتزلة والعقليين من الكتاب أهملوا هذا الاعتماد إهمالا تاما ، وإنما أعنى أنه لم يأخذ عندهم الحيز الذى أخذه البصر العقلى .

- أن المفكرين المسلمين من الفرق المختلفة أقاموا الإعجاز على الثوابت الآتية :

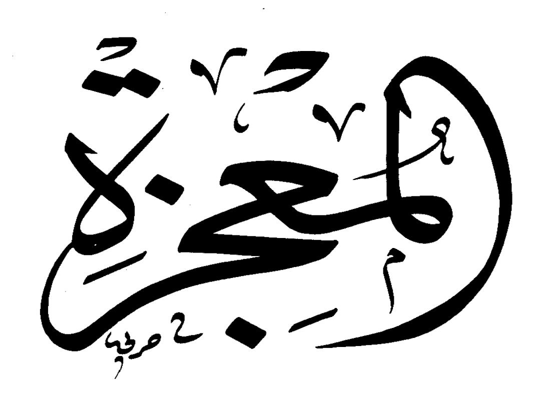
١ - توفر الدواعى التى فرضت على العرب أن يعارضوا القرآن ، إن أمكنهم ذاك .

٢ - عجز العرب بل جميع المخلوقات - قديما وحديثا - عن المجىء بما يماثل القرآن .

٣ - المستوى الخارق للعادة الذى بلغه التعبير القرآنى .

٤ - البون الشاسع بين السياق القرآنى وأى كلام بشرى ، مهما بلغ مستوى صاحبه من الفصاحة ، حتى كلام محمد نفسه .

إعجاز القرآن



تأليف
دكتور حسين نصار
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الفصل الأول

حاجة الأنبياء إلى المعجزات

كان الجاحظ من أقدم من أشار إلى ذلك ، إذ قال وهو يتحدث عن التناسب بين معجزة كل نبى وأهل عصره : لكل شىء باب ومأتى ، واختصار وتقريب . فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبى بما يفحم أعجب الأمور عندهم ، ويبطل أقوى الأشياء فى ظنهم(١) .

وتبعه الطبرى فقال : حجة كل ذى نبوة على صدقه ــ فى دعواه النبوة ــ أن يأتى ببرهان يعجز عن أن يأتى بمثله جميع الخلق(٢) .

وقال مناع القطان : ما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحى بين فترة وأخرى ، يقوده إلى معالم الهدى ، ليسلك دروب الحياة على بينة وبصيرة ، إلا أن غلواءه الفطرى يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان ، ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته . فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحى ، ويؤيدهم الله بخوارق العادات التى تقيم الحجة على الناس . فيعترفون أمامها بالعجز ، ويدينون لها بالولاء والطاعة(٣) .

وذهب عبد الكريم الخطيب إلى أن المعروف فى تاريخ الأديان ، وفى نصوص الكتب المقدسة ، أن كل نبى كان يحمل بين يديه إلى قومه آية صدقه ، فى معجزة ، يلقاهم بها متحديا ، على صورة لم يسبقه إليها أحد من قبل ، و لم ينكشف للناس شىء من وجهها قبل أن تطلع عليهم ، قاهرة متحدية .

بل إن بعض الأنبياء كان يحمل إلى قومه أكثر من معجزة(٤) .

وعلل ذلك بأن الرسول يجىء إلى الناس محملا برسالة فريدة بين الرسالات التى يحملها الناس إلى الناس فيما بينهم . إنه يحمل رسالة من الله إلى الناس ، يدعوهم فيها إلى أمور تتغير بها معالم حياتهم الروحية والعقلية بل والمادية . وذلك أمر يتطلب أن يكون بين يدى الرسول وسائل مادية وروحية ليست مما يتعامل به الناس .

---

(١) حجج ٣ / ٣٨٠ .

(٢) جامع ٣٧٣/١ . وانظر الباقلانى ٦٤ ، ٢٥١ ، ٢٨٧ ، ٣٠٢ ، ٤٣٦ .

(٣) مباحث ٢٦٤ . وانظر قمحاوى ١٦٦/٢ ــ ٧ .

(٤) إعجاز ٧٢/١ .

فيجيئهم - أولا - بالمعجزة التى تشهد له أنه رسول من عند الله . فإذا استقام له ذلك ، وعملت المعجزة عملها فى الناس ، فآمنوا له ، وصدقوا به ، دخل إلى نفوسهم وعقولهم وقلوبهم بالشريعة التى شرعها الله لهم ، فدعاهم إليها[١] .

وقال محمد على الصابونى : جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه بالمعجزات الباهرات ، والدلائل الواضحات ، والحجج والبراهين الدامغة ، التى تدل على صدقهم ، وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير[٢] .

وقال د. حسن ضياء الدين عتر : إن أى إنسان راشد إذا أرسل إلى جماعة رسولا قدر على تزويده بعلامة خاصة تُطمئن نفوس المرسل إليهم وتوثيقه عندهم ، فاللّه على هذا أقوى وأقدر .

وإذا كانت حكمة العبد تقضى أن تكون العلامة قوية التعريف بصدق سفيره ، لئلا يختلط عليهم موفَده الصادق بالدعىّ المزور المنتحل ، فاللّه أحكم الحاكمين أبلغ إحكاما لذلك .

والعلامة الإلاهية هنا أن يُجرى اللّه — على أيدى الرسل — ما هو من خصائص ربوبيته ، ويعجز الخلق عن مثله ، فيعلمون - يقينا — أن هذا لا يفعله إلا اللّه ، وأنه ما أجراه - على أيدى الرسل خاصة - إلا تصديقا لهم ، وتثبيتا لرسائلهم . وهذا ما نسميه المعجزات[٣] .

وصرح عبد القادر أحمد عطا : اقتضت سنة اللّه فى خلقه أن يؤيد رسله بالآيات التى هى المعجزات بالمعنى الاصطلاحى ، فى مواجهة تحديات الجاحدين الذين ينكرون رسالات اللّه عنادا واستكبارا من جهة ، ومن جهة أخرى لإمداد المؤمنين — على مدى الزمن - بطاقات من قوة اليقين ونور البصيرة وثبات القلوب ، فى مواجهة التحديات المادية الهائلة التى يهاجم بها المعاندون المؤمنين فى ميدان الفكر وفى ميدان الحرب على السواء[٤] .

وجهر داود العطار : من المعلوم أن حاجة البشر إلى الهداية الإلاهية ضرورة حياتية وفطرية ، تستلزمها طبيعة الإنسان ، واستعداده الخلقى ، وما أُنيط به من دور فى هذه الحياة . وهذه الهداية واجبة على اللّه .

---

(١) إعجاز ١/٧٤ — ٥ .
(٢) التبيان ٨٥ — ٦ . وانظر فودة ٢٢٤ .
(٣) بينات ١٨ .
(٤) أسرار ٢٣١ . وعظمة ٥١ .

ولما كان العقل السوى يتطلب دليلا على كل دعوى . فمن ادعى بسفارة عن اللّه - مقتضاها هداية الناس إلى حياة أفضل ، بتغيير واقعهم إلى واقع أمثل ، وإلزامهم بتكاليف وواجبات مؤداها إتيان أمور - وترك أمور - هذه السفارة المدعاة ، لابد لها من دعم ، وإسناد ملزم ، يقوم بينة على صدق المدعى ، ودليلا على واقعيته ، وحقيقة النقل والتبليغ عن اللّه . ومن هنا كانت المعجزة[١] .

وأعلن د. الحسينى أبو فرحة : اللّه بعباده بر رحمن رحيم ، ما كان ليذرهم فى ضلالهم . من هنا ، سلح اللّه رسله بالمعجزات ، خوارق للعادة ، يعجز غير الرسل عن الإتيان بمثلها ، يتحدى بها رسل اللّه هؤلاء المعاندين الضالين .

فهى أشبه ما تكون بمقرعة . تقرع العقول المغلقة على فاسد الفكر التى سبقت إليها ، لتنفتح للحق الأبلج الذى جاء به رسل رب العالمين[٢] .

وقال محمد حسين الذهبى : جرت سنة اللّه أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الإيمان بهم ، والإذعان لهم ، والتسليم بكل ما جاؤوا به من هداية وإرشاد[٣] .

وقال د. فهد بن عبد الرحمن الرومى : عندما ترمد عيون البشر ، ويتنابها القلق ، ويجهرها الضياء ، فلا تكاد تبصر ، فتأنس إلى ظلمة الجاهلية ، يرسل اللّه إليهم من يخرج من هذه الظلمات إلى النور ، ويرفع الداء عن أبصارهم .

وعندما يطرق باب الخائف من لا يعرفه يحتاج إلى بينة تزيل عنه الوحشة ، وتجعله يأنس إلى الطارق . وهكذا الأمم مع أنبيائها ، حين يأتون إليهم وقد غشيت الظلمة المجتمع ، يأتون لهم ببينة يظهرون بها صدق دعواهم فى أنهم رسل من اللّه . وما داموا رسل اللّه ، فعليهم أن تكون البينة مما لا يقدر عليه إلا اللّه ولا يستطيعه البشر . فإن فعلوا ثبت أنهم رسل اللّه ، وتصبح طاعتهم واجبة[٤] .

وانفرد محمد الصادق عرجون وذهب إلى أن القرآن قال - ردا على الذين تعنتوا رسول اللّه بطلب الآيات المادية من مثل معجزات الأنبياء السابقين - إنه :

ليس من شرط صحة النبوة - فى ذاتها - إنزال المعجزات على من ادعاها ،

---

(١) موجز ٥١ .
(٢) مأدبة ١٠٧ .
(٣) الوحى ١٩ .
(٤) خصائص ٩٠ .

ولا من شرطها - إذا أنزلها الله رحمة بعباده - أن تتساوى فى نوعها ،
وإنما المعجزات شرط فى إلزام التصديق بالنبوة[١] .

تعقيـــب

تكاد الأقوال تتفق - فى هذا الفصل الذى تعرض له كل من كتب فى الإعجاز - فى جميع العناصر التى يحتوى عليها . فالنبوة كانت ضرورية لهداية البشر من حين إلا آخر ، والنبوة محتاجة إلى برهان غير معتاد لإقناع الخصوم بصحتها ، وحكمة الله لا تضن على البشر بهذا ولا بذاك .

ولذلك تكاد لا نجد فرقا بين قول قائل وآخر إلا فى الإيجاز أو التوسط أو الإسهاب .

وربما انفرد عبد القادر عطا بالقول بأن المعجزة ضرورية للنبى نفسه ، لبعث الطمأنينة إلى نفسه ، وبث القدرة على مواجهة المشاق فيه ، وإن كانت الفكرة مستوحاة من القرآن .

ولما كان عرجون فى مقام الرد على ما طلبه المشركون من محمد من معجزات حسية تشبه معجزات غيره من الأنبياء ، انفرد بموقف خاص من المعجزات ، والقول بأنها ليس من الضرورى أن تكون من جنس واحد .

---

(١) القرآن ١٣٧ .

الفصل الثانى

دلالة المعجزات على صدق النبوة

أجمع المسلمون على احتياج الأنبياء - عند بعثهم إلى أقوامهم - إلى ما يؤيد دعواهم ، وأن اللّه أمدهم بذاك على شكل ما سمى بالمعجزات والآيات . ونظر علماء الفرق المختلفة فى كل ما يتصل بهذه المعجزات .

الرافضون :

كان أقدم من تعرض لدلالة المعجزات هشام بن عمرو الفُوَطى (٢٢٦ / ٨٤١) الذى ذكر ابن الراوندى (٢٩٨ / ٩١٠) أنه كان يقول : ليس فى العالم لون ولا طعم ولا رائحة ولا حر ولا برد ، ولا يَبْس ولا بلة ، ولا تأليف ولا افتراض ، يدل على اللّه . وذلك أن هيئات الأجسام كلها لا تدل على خالقها .

وفسر عبد الرحيم بن محمد بن الخياط هذا القول بأن الأعراض يعرف وجودها بالاستدلال والنظر ، على حين أن الأدلة على اللّه لابد أن يعرف وجودها باضطرار . ولذلك رفض أن تكون الأعراض دالة على اللّه . وإنما الأدلة عنده هى الأجسام التى يعرف وجودها حسا ومشاهدة ، لأن اللّه إذا دل خلقه على نفسه فقد قطع عذرهم وأزاح عللهم[1] .

واتفق مع الفوطى تلميذه عباد بن سليمان الصيمرى (نحو ٢٥٠ / ٨٤٦) الذى أبان عبد الجبار بن أحمد الأسد آبادى (٤١٥ / ١٠٢٥) موقفه فذكر أنه لم ينكر كون القرآن معجزا ، وإنما أداه اعتقاده بأن الأعراض لا تكون دلالة إلى أن يقول : إن القرآن لا يدل الآن ، وإن الدلالة - فى أيام محمد - كانت جبريل الذى أُنزل به ، كما قال فى معجزة مجىء الشجرة لمحمد : إن هذا المجىء ليس بدلالة ، وإن الدلالة هى الشجرة الجائية. وهذا اختلاف فى العبارة[2] .

وعلى الرغم من ذلك عد محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (٤٧٩ - ٥٤٨ / ١٠٨٦ - ١١٥٣) رأى الفوطى واحدة من بدعه ، وعجب منه[3] .

---

(١) الانتصار ٤٩ . صقر ٨ . وانظر اتجاهات مطلوب ١٢٢ .
(٢) المغنى ١٦ / ٢٤٢ . صقر ٨ . وانظر اتجاهات مطلوب ١٢٢ .
(٣) الملل ٧٢/١ .

ونسب ابن الراوندى إلى إبراهيم بن سيار النظام (٢٣١ / ٨٤٥) من رؤوس المعتزلة أنه كان يزعم أن نظم القرآن وتأليفه ليسا بحجة لمحمد ، وأن الخلق يقدرون على مثله[١] .

وتابعه فخر الدين الرازى (٥٤٤ - ٦٠٦ / ١١٥٠ - ١٢١٠) وزاد القول إيضاحا فذكر أن النظام كان يقول : إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو - كسائر الكتب المنزلة - لبيان الأحكام من الحلال والحرام[٢] .

وعزا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ - ٢٥٥ / ٧٨٠ - ٨٦٩) هذا القول إلى من خلفوا النظام . فقد أعلن أن من أسباب تأليفه كتاب « نظم القرآن » الرغبة فى الرد على أصحاب النظام ومن نَجَم [ظهر] بعده ، ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة[٣] .

ولعل هذا الفعل من الجاحظ يدل على أن النظام لم يكن صاحب هذا القول ، وإنما ذهب إليه تلاميذه ، إلا إذا كان فعل ذلك تأدبا مع شيخه .

ولكن ابن الخياط نفى هذا القول صراحة عن النظام ، وجهر بأن القرآن حجة لمحمد على نبوته - عنده - من أكثر من وجه . فأحدها ما فيه من الإخبار عن الغيوب ... وإخباره بما فى نفوس قوم وبما سيقولونه . فالقرآن - عنده - حجة على نبوة محمد من هذه الوجوه وما أشبهها[٤] .

ويبدو أن ابن الراوندى كان - بما فعل مع الفوطى والنظام - يمهد لرأيه . فقد ذهب إلى أن القرآن لا يصلح أن يكون دليلا على صدق النبوة[٥] .

الرد على الرافضين

ورد أبو على الجبائى فى « نقض الإمامة » وغيره من كتبه على ابن الراوندى . فصنف معجزات محمد صنفين :

القرآن وحده صنف

وبقية المعجزات صنف آخر .

---

(١) الانتصار ٢٨ . سلطان ٥٤ .
(٢) نهاية ٥ . وانظر صقر ٨ . الحمصى ٥٤ . حويش ٢٤٢ . البدرى ١٥٠ .
(٣) رسائله ٢٨٧/٣ . سلام ٧٠ . فقيهى ١٤١ . عبد الفتاح لاشين . قصاب ٤٦ - ٧ .
(٤) الانتصار ٢٨ . حويش ٢٤٢ . سلطان ٥٣ .
(٥) إعجاز ١٨٧ . الحمصى ٥٢ ، ٥٤ ، ٧٢ . وانظر الإيجى ٣٤٥/١ . وفصلى إثبات العجز والإعجاز .

أما القرآن فقد انفرد - عنده - بصلاحية الاعتماد عليه فى إثبات نبوة محمد . وذلك لأن علم المخالف له كعلم الموافق ، من حيث ظهر نقله على وجه الشيوع .

وأما غير القرآن فقد صنف المؤمنين بها إلى فئتين :

فئة حضرت وقوع هذه المعجزات ، فهى حجة عندهم .

وفئة لم تحضرها وإنما تلقت أخبارها سماعا .

وأطلق عبد الجبار الحكم فى هذه الفئة فذكر أن شيوخ المعتزلة لم يعتمدوا على المعجزات فى إثبات نبوة محمد لهم ، أنهم رأوا أنها إنما تُعلَم معجزة بعد العلم بنبوته ، لأن ثبوت ذلك فرع على ثبوت النبوة . فكيف يصح أن يستدل بها على النبوة ! وإنما هى مؤكدة وزائدة فى شرح الصدور عند من عرفها على جهة الاستدلال .

وذكر عبد الجبار أن أبا هاشم الجبائى وافق أبا على على ذلك[1].

وقد أدى هذا الموقف إلى أن يظن بعض العلماء أنهما ينكران المعجزات جملة . ولذلك اضطر تلميذهما عبد الجبار إلى الرد عليهم قائلا : فأما من شنع على مشايخنا ، وزعم أنهم أبطلوا سائر معجزات محمد ، فكلامه يدل على جهل ، لأن شيوخنا أثبتوها معجزة ودلالة . لكنهم لم يجوزوا الاعتماد عليها فى مكالمة المخالفين . ألا ترى إلى جعلهم لها دلالة للمشاهدين ، ودلالة للمسلمين على الحد الذى ذكرناه ، ولا فرق بين من شنع بذلك وبين المخالفين إذا شنعوا بأنا لم نجعل القرآن دلالة على العدل والتوحيد[2] .

وذهب يحيى بن حمزة العلوى إلى أن الله اختار علما دالا على نبوة محمد ، وبرهانا على صحة رسالته[3] .

وذكر أن من المخالفين من طعن على كونه حجة ، وحاصل طعنه أن القرآن إنما يستقيم كونه حجة إذا تقرر كونه من جهة الله . ومن الجائز أن يكون ألقاه إلى محمد بعض الملائكة أو الجن أو الشياطين . فلا يستقيم كونه حجة إلا بعد بطلان هذا الاحتمال[4] .

ثم رد على هذا الطعن ردا مسهبا فقال : الجواب عما ذكرناه من هذا الاحتمال البعيد يجرى على وجهين :

---

(١) المغنى ١٦ / ١٥٢ .

(٢) المغنى ١٦ / ١٥٢ ، ٤١٤١ . عائشة ٤٩ — ٥٠ . سلطان ٥٠ — ١ ، ٨٨ .

(٣) الطراز ٣/٣٦٧ — ٨ . الحمصى ١٣٠ .

(٤) الطراز ٣/٣٧٥ ، ٤٢٦ .

الوجه الأول منهما إجمالى ، وذلك من أوجه ثلاثة :

أولها أن مدعى النبوة لو كان كاذبا لوجب على اللّه أن يمنعه من ذلك ، لئلا يُفضى إلى الإضلال بالخلق ، والتلبيس عليهم فى أحوال دينهم لأن الحكمة مانعة ، فإن اللّه لا يجوّز أن يسلّط الشُّبه على وجه لا يمكننا حلُّها .

وثانيها أنا لو جوزنا ذلك لجاز أن يكون جرى الشمس والقمر والنجوم والأفلاك كلها ، وجرى الفُلْك فى البحر ، وغير ذلك من الأمور الهائلة ، لواحد من هذه الاحتمالات . وخلاف ذلك معلوم بالضرورة .

وثالثها أن هذه الوجوه لو كانت محتملة لذكرتْها العرب فى القدح فى نبوته ، لأن من المعلوم - ضرورةً - حرصُهم على ما كان مُبطلا لدعواه . فلما لم يذكروا شيئا من هذه الاحتمالات ، دل ذلك على بطلانها وفسادها .

الوجه الثانى منهما تفصيلى ، وذلك يكون من أَوجُه :

أولها أنا نعلم - بالضرورة - علما لا مِرْية فيه أن محمدا هو الآتى بالقرآن . فإذا كان ما ذكرتموه من الاحتمال يدفع هذا العلم ، وجب القضاء بفساده .

وثانيها أنه لا طريق إلى إثبات الجن والملائكة والشياطين إلا بالسمع . فكيف يصح الطعن فى النبوة والقرآن بما لا يكون ثابتا إلا بعد ثبوتهما .

وثالثها أنه قد تحدى جميع الخلق – الأحمر والأسود والجن والشياطين – بالقرآن ، وادعى عجزهم عنه . فلو كان ذلك من فعلهم ، لتوفرت دواعيهم إلى معارضته .

ورابعها أنه كان يَنْهى عن متابعة الشياطين ، ويأمر بلعنهم والبراءة منهم ، ويحذّر عن ملابستهم فى المطاعم والمشارب والمساكن . فلو كان الفاعل للقرآن هو الجن والشياطين لاستحال منهم نُصْرته مع شدة عداوته لهم .

وخامسها أن القرآن الذى ظهر على يد محمد ، لوجاز إسناده إلى الجن كما زعموا ، لجاز فى كل كتاب يدّعى كل إنسان أنه تصنيفه أن يكون ذلك الكتاب من قبيل الجن . وعند هذا يلزم فى هذه الكتب المشهورة أن لا تكون مضافة إلى قائليها . وهذا يؤدى إلى التشكيك فى الأمور الضرورية ، وهو محال .

فبطل ما قالوه[1] .

---

(١) الطراز ٣/٤٢٦ – ٨ .

وسلك عبد الرحمن بن أحمد الإيجى مسلكا مماثلا لمسلك العلوى ، فذكر أن هناك من يزعم أن ظهور المعجزة لا يدل على الصدق ، للاحتمالات الآتية :

الأول كونها من فعله لا من فعل اللّه . إما لمخالفة نفسه لسائر النفوس ، أو لمزاج خاص فى بدنه ، أو لكونه ساحرا ، أو لطلسم اختص بمعرفته ، أو لخاصية بعض المركبات كالمغناطيس والكهرباء .

الثانى استناد فاعلها إلى بعض الملائكة أو الشياطين أو إلى الاتصالات الكوكبية ، وهو قد أحاط من صناعة النجامة - يريد علم الفلك - بما لم يحط به غيره . فاتخذ ما علم وقوعه من الغرائب معجزا لنفسه .

الثالث أن تكون كرامة لا معجزة .

الرابع أن لا يقصد بها التصديق ، إذ لا غرض واجبا ، ولا يتعين .

الخامس أنه لا يلزم من تصديق اللّه صدقه إلا إذا عُلم استحالة الكذب على اللّـه ، ولم يُعلم ، إذ لا يقبح - عندكم - منه شىء .

وأورد فى إبطال هذه الاحتمالات نوعين من الإجابة : الجواب الإجمالى وهو ما قررناه غير مرة من أن التجويزات العقلية لا تنافى العلم العادى .

والجواب التفصيلى كما يلى :

عن الاحتمال الأول : بينا أن لا مؤثر فى الوجود إلا اللّه . وأما السحر ونحوه فظاهر - كما هو مذهب جميع العقلاء - أنه لم يبلغ حد الإعجاز كفلق البحر وإحياء الموتى . وإنْ بلغ فظاهر أنه يكون دون دعوى النبوة والتحدى . وإن كان معهما فلابد من أن لا يخلقه اللّه على يد مدعيه أو أن يُقْدر غيره على معارضته . وإلا كان تصديقا للكاذب ، وذلك محال .

وعن الثانى أنْ لا خالق إلا اللّه .

وعن الثالث أن من جوزوها اختلفوا :

فقال بعضهم - منهم أبو إسحاق - : لا تبلغ درجة المعجزة .

وقيل : لا تقع على القصد .

وقال القاضى : تجوز إذا لم تقع على طريق التعظيم والخيلاء ، لأن ذلك ليس من شعار الصالحين . ومع ذلك تمتاز بأنها مع دعوى الولاية دون النبوة . وعلى [كل] التقادير فالفرق بينها وبين المعجزة ظاهر .

وعن الرابع أنا لا نقول بالغرض بل نقول : إن خلقها يدل على تصديق له قائم بذاته .

وعن الخامس : قد مرّ امتناع الكذب عليه(١) .

تعقيب

تبين هذه الجولة أن الذين وقفوا إزاء الخوارق باحثين : هل تدل على صدق النبوة أولا تدل ، وأُشيع عنهم أنهم رفضوا أن تكون دلالة ، كانوا فريقين : فريق كان يفرق بين أنواع الخوارق ، وأنواع من يطلب منهم التصديق بها ، والتعبير الملائم لها .

وفريق كان لا يبغى إلا الطعن فى دلالة القرآن على صدق نبوة محمد .

وتبين أنه قد تصدى للرد عليهم أبو على وأبو هاشم الجبائيان ، والعلوى ، والإيجى ؛ وأن حديث المعتزليين انصب على تبرئة المعتزلة من تهمة إنكار المعجزات .

وتبين أن العلوى والإيجى قدما كل ما يمكن أن يوجه إلى القرآن من مطاعن تجرده من الدلالة على النبوة ، ثم تصديا للرد عليها إجمالا وتفصيلا ؛ وأن العلوى كان أكثر الرجلين إفاضة وتوضيحا وتوفيقا فى الرد .

---

(١) المواقف ١/٣٤٥ - ٧ .

المؤيدون

أما الجاحظ - وهو أقدم من تعرض لهذه القضية - فإنه اقتصر على إشارات مجملة وسريعة لا تكشف عن كثير . فقد اكتفى - فى نص الإتقان - بالقول بأن محمدا كان يحتج على المشركين بالقرآن[١] . ووصف الإعجاز - فى نص الحجج - بالقول بأن ذلك من أعجب ما آتاه اللّه نبيا قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب البرهانات[٢] .

وقد اعتمد الجاحظ فيما قال على القرآن ، فقد أخذ وصف القرآن بالآية - أى المعجزة - من عدة آيات ، وبالبرهان من قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ، قد جاءكم برهان من ربكم ﴾[٣] . ولذلك شاع وصفه بالحجة والآية والبرهان عند الكتاب ، كما نرى فى البيان الآتى .

حجة :

فإذا التقطنا لفظ « حجة » وجدنا أقدم من استعمله - بعد الجاحظ - الطبرى ، الذى استعمله مجردا فى مجال عامة المعجزات ، فعدّ إحياء الموتى وإبراء الأبرص وذوى العمى معجزة ، بسبب ارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طب المتطببين ، وأرفع مراتب علاج المعالجين ، إلى ما يعجز عنه جميع العالمين[٤] .

و لم يكتف بالكلمة مجردة فى مواضع أخرى . فعدّ المعجزة فى مرة حجة من سلف من الرسل والأنبياء على نبوته ، وفى مرة ثانية حجة كل ذى نبوة على صدقه فى دعواه النبوة[٥] . ووصف الذهبى المعجزة بالحجة الدامغة[٦] .

وكذا استعمل الطبرى اللفظ مجردا فى الحديث عن القرآن ، الذى رأى أنه ارتفع - فى البيان - عن وُسْع الأنام ، وعجز عن أن يأتى بمثله جميع العباد[٧] .

---

(١) ٣٢٧/٢ . الرافعى ١٧٥ . الحمصى ٢٨ . إعجاز الخطيب ١٣٨/١ . الصباغ ٥٤ . أمين ١٤٨ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ . شحاتة ١٥٦ . أبو فرخة ١١٠ . وانظر عبد الجبار ١٦٤ .

(٢) رسائله ٢٨٠/٣ . إعجاز الخطيب ١٣٨/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ .

(٣) سورة النساء ١٧٤ .　　(٤) جامع ٩/١ . وانظر القرطبى ٧١/١ . رشيد رضا ١٨١/١ . القطان ٢٦٤ . إيجاز قمحاوى ١٦٧/٢ .　　(٥) جامع ٣٧٣/١ .

(٦) الوحى ١٩ .　　(٧) جامع ٩/١ . وانظر الباقلانى ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ٣٠ . عبد الجبار ١٦ / ١٦٤ . ابن تيمية ١٥٠/٢ . العلوى ٤٢٦/٣ . الزركشى ٩٢/٢ . رشيد رضا ١٨٢/١ - ٣ . صقر ٦٨ . إعجاز الخطيب ١٧٢/١ - ٣ . أبو زهرة ١٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . أبو حمدة ١٨ . أبو موسى ١٨٠ . الرومى ٩٥ .

وعدل عن التجريد ، فذكر مرة أنه حجة محمد على صدقه[١] ، ومرة أنه حجة على حقيقة نبوته[٢] ، وثالثة أنه حجة كافية على حقيقة ما أتاهم به[٣] .

ووصف الباقلانى القرآن بالحجة[٤] ، واستدل من قوله تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجِرْه حتى يسمع كلام اللّه ﴾[٥] أن سماعه حجة . ولولا ذلك لم يقف أمره على سماعه[٦] .

واجتاز الحجة المجردة إلى الموصوفة . فجعل محمدا مرة قد شهدت له الحجة البالغة[٧] ، وأخرى جعل حجته كافية ، هادية ، لا يُحتاج - مع وضوحها - إلى بيِّنة تعدوها . أو حجة تتلوها[٨] ، وإن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات ، والتشكك فى المشاهدات[٩] .

وذهب الزمخشرى إلى أن العجز عن الإتيان بمثيل للقرآن حجة على إثبات نبوة محمد[١٠] ، وأن القرآن من عند اللّه[١١] .

وجعل العلوى القرآن حجة مقطوعا بها[١٢] ؛ والزرقانى كل مقدار ثلاث آيات منه - أى مقدار أقصر سورة فيه - حجة قاطعة[١٣] ، تقوم فى فم الدنيا إلى يوم الساعة تتحدى العالم[١٤] ؛ والحمصى حجة عامة ، وحجة للنبوة[١٥] . كما جعل الإعجاز حجة لرسالته[١٦] ، أو على نبوته[١٧] ، أو على إثبات نبوته[١٨] .

ووصفه عمر الملاحويش بأنه الحجة الأولى على صدق رسالة محمد[١٩] . وبنى محمد

---

(١) جامع ٣٧٣/١ . وانظر عرجون ١٣٣ ، ١٣٧ - ٨ ، العطار ٥٤ .
(٢) جامع ١٠/١ .
(٣) جامع ١٥ / ٢٥٩ . وانظر الباقلانى ٣ .
(٤) إعجاز ٣ ، ٩ ، ١٢ . صقر ٦٨ . إعجاز الخطيب ١٧٢/١ - ٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ . وانظر ابن عطية ٦/١ . العلوى ٣ / ٣٦٧ . الزركشى ٢ / ٩٠ . الإتقان ٣٢٥/٢ . والمنار ١٨٢/١١. الحمصى ٢٠٢ ، ٣١٨ .
(٥) سورة التوبة ٦ .
(٦) إعجاز ٩ ، ١٢ . القطان ٢٦٧ . إعجاز الخطيب ١٧٣/١ . وانظر الزركشى ٩٠/٢ . الإتقان ٣٢٥/٢ . الخضر ٥٩ . العانى ١٧٦ - ٧ . الصباغ ٥١ . إيجاز قمحاوى ١٧١/٢ . منار الحسن ١٣١ . فودة ٢٢٥ .
(٧) إعجاز ٢٨٧ . وانظر الصابونى ٨٥ . العطار ٥١ .
(٨) إعجاز ٣ .
(٩) إعجاز ٣ . الحمصى ١٦ ، ٧٣ .
(١٠) الكشاف ٢٣٨/١ . الحمصى ٩٤ . وانظر ابن جزى ٧١/١ .
(١١) الكشاف ٢٣٨/١ . الحمصى ٩٤ . وانظر ابن جزى ٧١/١ . الكومى ١٢ - ٣ .
(١٢) الطراز ٤٢٨/٣ .
(١٣) مناهل ٦٩/١ . انظر العطار ٥٤ .
(١٤) مناهل ٦٩/١ .
(١٥) فكرة ٧٣ .
(١٦) فكرة ٢٠٢ .
(١٧) فكرة ٣١٨ .
(١٨) فكرة ٩٤ .
(١٩) تطور ٢٠٤ .

الصباغ على قول الباقلانى فجعل مجرد سماعه حجة كبرى على العرب[١] ، ومحمد الصادق قمحاوى فجعلها حجة ملزمة[٢] .

وجعل داود العطار القرآن حجة قاطعة على صدق دعوى محمد[٣] .

يدل هذا على أن الكلمة استعملت أكثر ما استعملت فى مجال الحديث عن معجزة نبى الإسلام ، وأقله فى مجال الحديث عن معجزات سائر الأنبياء ؛ وأنها إما اتخذت من القرآن مستندا للاحتجاج أو من العجز والإعجاز ؛ وأنها جعلت هذا أو ذاك مجرد حجة ، أو خصصت الحجة فجعلتها – فى أكثر الأحيان – حجة على صدق النبوة ، وفى مرة حجة على كون القرآن وحيا من الله إلى محمد .

وقد بدأ الوصف بها مجردا ساذجا عند الجاحظ . واستمر على سذاجته عند رصيفيه المعتزليين عبد الجبار والزمخشرى . ولكنه سرعان ما أخذ يصطبح بألوان تعدل به عن السذاجة عند الباقلانى الأشعرى . ثم وصل إلى الإسراف عند المحدثين .

وإذا التقطنا لفظ «**آية**» وجدنا الخطابى أقدم من استعمله بعد الجاحظ ، وأتى به فى حديثه عن المعجزات عامة . فقد وصف المعجزة بالآية الدالة على صدق من جاء بها[٤] .

وتلاه الباقلانى فقال : يجب أن تعلم أن من حكم المعجزات – إذا ظهرت على الأنبياء – أن يدَّعوا فيها أنها من دلالتهم وآياتهم ، لأنه لا تصح بعثة النبى من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية ، لأن النبى لا يتميز من الكاذب بصورته ، ولا بقول نفسه ، ولا بشىء آخر ، سوى البرهان الذى يظهر عليه . فيستدل به على صدقه[٥] .

وذكر محمد رشيد رضا أن الله أيد المرسلين أجمعين بآيات من خوارق العادات ، قامت بها حجتهم على الناس . فدانت لها عقول المستعدين للهداية ، وخضعت قلوبهم ، فآمنوا واهتدوا[٦] .

وأما فى مجال القرآن ، فإننا نجد الباقلانى مرة يصفه بأنه آية من آيات الله[٧] ، ومرة بأنه آية لكون محمد نبيا[٨] .

---

(١) لمحات ٥١ . (٢) الإيجاز ٢/١٧١ . (٣) موجز ٥٤ .

(٤) بيان ٢٠ — ١ . وانظر رضا ١/١٨١ — ٢ . الزرقانى ١/٦٧ . إعجاز الخطيب ١/٧٢ . الصابونى ٩٥ . عتر ٨٥ – ٧ .

(٥) إعجاز ٢٥١ ، ٢٨٧ .

(٦) المنار ١ / ١٨١ .

(٧) إعجاز ١٤ . إعجاز الخطيب ١/١٧٤ . وانظر ابن تيمية ٢/١٥٠ . الزركشى ٢/٩١ . معترك ١/١ . الإتقان ٢/٣٢٥ . الحمصى ١١٣ . الصباغ ٥١ . عطا ٢٣٤ . عظمة ٥٤ . فودة ٢٢٦ .

(٨) إعجاز ١٩٦ . أبو موسى ١٨٠ . وانظر القرطبى ١/٧١ . الحمصى ١١٣ . عرجون ١٣٧ .

(التحدى)

وعقد ابن تيمية فصلا كاملا فى تفسيره تحت عنوان « القرآن آية صدق النبى[١] » .

ووصف محمد رشيد رضا القرآن مرة بأنه آية محمد الكبرى للعرب ولسائر الخلق[٢] ، ومرة بأنه الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين[٣] .

وذهب محمد سعيد البوطى إلى أن القرآن أعظم آية تدل على صدق دعوة محمد ورسالته[٤] ، ومحمود بسيونى فودة إلى أنه الآية الكبرى الدالة على صدقه ، فهو آية الآيات على صدقه[٥] .

وجلى أن كلمة آية استخدمت فى مجال عامة المعجزات ومعجزة الإسلام وحدها . ولكنها لم تحظ بما حظيت به كلمة حجة ، لأنها لم تتح الفرصة لأن يحمّلها العلماء ما شاءوا من أصباغ . وأقصى ما وهبته كان عند البوطى وفودة من المعاصرين .

فإذا التقطنا لفظ « **برهان** » وجدنا الطبرى أقدم من استعمله بعد الجاحظ ووجدناه استعمله مرافقا لكلمة « حجة » ، سواء كان ذلك فى مجال عامة المعجزات . كما فى قوله : تعلمون أن حجة كل ذى نبوة على صدقه فى دعواه أن يأتى ببرهان يعجز عن أن يأتى بمثله جميع الخلق[٦] ، وقوله : كان برهان من سلف من رسلى وأنبيائى على صدقه ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقى[٧] ؛ أو كان فى مجال القرآن وحده ، كما فى قوله : من برهان محمد على حقيقة نبوته أن ما جاء به من عندى عجز جميعكم وجميع من تستعينون به .. عن أن تأتوا بسورة من مثله[٨] .

وأكثر الباقلانى من استخدام هذه الكلمة ، وفى المجالين كليهما . أما فى المجال العام فقد اكتفى مرة بوصف المعجزة بالبرهان فى النص الذى أوردته فى الحديث عن «آية» . ووصفها فى مرة آخرى فقال : إنما يقع فوق العادة بالمعجزات ، على وجه إقامة البرهان على النبوات[٩] ، أى على صحتها[١٠] ؛ وعلى أن من ظهرت عليه صادق فيما يدعيه من نبوته[١١] ، ومُحق فى قوله[١٢] ، ومُصيب فى هَدْيه . قد شهد له البرهان النيِّر[١٣] .

---

(١) ٢ / ١٣٩ – ٤٣ . وانظر فودة ٢٢٦ – ٧ . (٢) و(٣) المنار ١٨٢/١ .
(٤) من روائع ١٥٢ . (٥) المرشد ٢٢٨ .
(٦) جامع ٣٧٣/١ . انظر الباقلانى ٢٨٧ . الزرقانى ٧٢/١ .
(٧) و(٨) جامع ٣٧٣/١ . (٩) إعجاز ٢٨٧ .
(١٠) إعجاز ٢٥١ . انظر العلوى ٣٦٨/٣ . الحمصى ١١ . طبارة ٢٩ .
(١١) إعجاز ٢٨٧ . انظر الحمصى ١١ ، ١١٣ . الصابونى ٨٩ . طبارة ٢٩ .
(١٢) إعجاز ٢٨٧ . انظر الذهبى ١٩ . (١٣) إعجاز ٢٨٧ .

وأما فى المجال الخاص فاكتفى مرارا بوصف القرآن بالبرهان[١] ، ووصفه مرة بالبرهان القاهر[٢] .

وقال الزرقانى : حسبك القرآن وحده برهانا ساطعا بل براهين ساطعات[٣] ، ومحمد ضيف فقيهى : يصف القرآن نفسه بأنه برهان النبوة[٤] ، ومحمود محمد شاكر : القرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة[٥] .

والتفت عبد الكريم الخطيب إلى عامة المعجزات ، فجعلها برهانا قاطعا على أن من ظهرت على يديه مرسل من الله[٦] .

وعاد د. حسن ضياء الدين عتر إلى القرآن فوصفه بأنه نفسه برهان صدق أنه كلام الله[٧] ، ووافقه د. محمد على الحسن الذى قال : إعجاز القرآن أو معجزة القرآن تقدم البرهان الجلى على أنه من كلام الخالق وليس من كلام المخلوق[٨] .

وواضح أن كلمة البرهان لقيت مثلما لقيت كلمة الحجة من كثرة الدوران ، وتعدد مجالات الاستخدام . ولكنها بقيت على اعتدالها ، فلم تحظ بالإسراف ، واكتفت بعدد من الصفات المعتدلة .

عَلَم :

ولمس الطبرى هذه القضية فى أكثر من موضع ، ردد فيها المصطلحات التى جاء بها الجاحظ كما رأينا . ولكنه أضاف مصطلحى العلم ، والدلالة .

وقد استخدم مصطلح العلم مرة واحدة فى صدد الحديث عن عامة المعجزات ، حيث عدها علما للأنبياء[٩] .

وجعل ابن خلدون من علامات الأنبياء وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها ، فسميت بذلك معجزة[١٠] .

وذكر د. حسن ضياء الدين عتر أن جماهير علماء المسلمين أطبقت على أن المعجزة علم الصدق ، فهى تفيد علما ضروريا بصدق المخبر بها ، فقائدتها الإعلام والإلزام[١١] .

---

(١) إعجاز ١٠ ، ١٢ ، ٣٠٢ . انظر ابن تيمية ٢/١٥٠ الحمصى ١٦ ، ١١٣ .
(٢) إعجاز ١٠ .
(٣) مناهل ١ / ٦٩ .
(٤) نظرية ١٦ .
(٥) الظاهرة ١٨ . طبارة ٢٩ . منار الحسن ١٣١ .
(٦) إعجاز ١/٨٤ .
(٧) بينات ١٤٣ .
(٨) المنار ١٢٩ .
(٩) جامع ١/٩ .
(١٠) المقدمة ٥٠٥ .
(١١) بينات ٨٥ ، ٨٨ .

أما فى صدد الحديث عن القرآن فكان أبو هاشم الجبائى أول من عثرت على استخدام له لهذا المصطلح . فقد كان يذهب إلى أن القرآن قد خُلق قبل ميلاد محمد ، ولكنه لا يوصف ـ من قبل البعثة ـ بأنه علم ومعجز ، وإنما يصح ذلك بعد البعثة[١] .

واستنتج الباقلانى من قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لولا أُنزل عليه آيات من ربه : قل : إنما الآيات عند اللّه ، وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ﴾ أن القرآن علم من أعلامه[٢] ، كما ذكر أنه علم على صدقه[٣] .

وذهب الماوردى إلى أن الإعجاز يُعلم أن القرآن من غير كلام البشر ، ولا يعلم أنه من عند اللّه إلا بقول الرسول[٤] ، وابن عطية إلى أن العجز يُعلم كل فصيح أن محمدا نبى[٥] ، والعلوى إلى أن القرآن علامة[٦] ، أو علم دال على النبوة[٧] .

وواضح أن مصطلح العلم وما يشتق منه لم يدُر كثيرا على ألسنة العلماء ، وأنه ورد فى صدد الحديث عن القرآن أكثر مما ورد فى شأن عامة المعجزات .

يدل ظاهر الأحوال أن مصطلح « **الدلالة** » كان قديم الاستعمال وكثيره . وأقدم من استخدمه فى النصوص التى بين يدى الطبرى ، الذى عد المعجزات دلالة على صدق من أعطيها[٨] .

وعد القرآن دلالة على صدق مقالة محمد[٩] ، أو دلالة على صحة نبوته[١٠] ، وكذلك جعله أبو هاشم الجبائى دلالة على النبوة[١١] .

واستنبط الباقلانى من قوله تعالى : ﴿ وقالوا : لو أنزل عليه آيات من ربه . قل : إنما الآيات عند اللّه ، وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾[١٢] أن القرآن يكفى فى الدلالة[١٣] ، أو ـ فى قول الزركشى ـ كافٍ فى

---

(١) المغنى ١٦ / ٢٣١ ، ٢٣٣ ـ ٤ . (٢) إعجاز ١٤ . إعجاز الخطيب ١/١٧٤ .
(٣) إعجاز ٣ . (٤) أعلام ٧٤ . (٥) المحرر ١/٥٩ . إعجاز الخطيب ١/٢٩٦ .
(٦) الطراز ٣/٣٦٧ . (٧) ٣/٣٦٨ .
(٨) جامع ١٥ / ٢٥٩ . وانظر شرح الأصول ١٥٢ . ابن كمال : الرسالة ١٦ من ١٣٧ — ٤٨ . الزرقانى ١/٧١ . العطار ٥١ . أبو فرحة ٨١ . فودة ٢٢٤ .
(٩) جامع ١/١٠ . وانظر الباقلانى ١٤ ، ٢٠ . رشيد رضا ١/١٨١ . صقر ٤١ . إعجاز الخطيب ١/١٨١ . عائشة ٥٠ . الصباغ ٥١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ .
(١٠) جامع ١٥ / ٢٥٩ . وانظر الباقلانى ٢٥١ .
(١١) المغنى ١٦ / ٢٣١ . وانظر الباقلانى ٢٠ ، ٦٤ ، ١١٨ . عبد الجبار ١٤٤ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ـ ٨ ، ١٦٢ ، ١٦٧ ـ ٩٠ ، ٢٣٤ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٦ . عتر ١٩٧ .
(١٢) سورة العنكبوت ٥٠ ، ٥١ . (١٣) إعجاز ١٤ . إعجاز الخطيب ١/١٧٤ .

الدلالة[١] .

وأعلن عبد الجبار - شأنه شأن غيره - حاجة كل نبى إلى ما يبرهن على صدقه ، إذ لابد - عنده - أن يُعرف من أحوال النبى ما يتميز به ممن لا يجوز أن يكون نبيا ، مما يقتضى أن لا يقع النفار والانصراف عن النظر فى نبوته . ولابد من أن يُعرف المعجز الذى يجعله دلالة على نبوته ، ولابد من أن يعرف من أحوال هذا المعجز ما يمكن الاستدلال به على نبوته[٢] .

ومن أجل ذلك عقد واحدا من فصول هذا الجزء من كتابه لإبانة أن محمدا تحدى بالقرآن ، وجعله دلالة على نبوته[٣] ، إلى جانب مابثه فى الجزء كله من إشارات[٤] .

وعقد فصلا آخر « فى بيان ما يجب أن يُعلم من حال القرآن فى الاختصاص ليصح الاستدلال به على نبوته »[٥] أعتقد أنه كان يرد فيه على عباد بن سليمان الصيمرى .

وقد أعتمد عبد الجبار فى هذين الفصلين على الجدل الكلامى العقلى مما يخرجه عن دائرة اهتمامنا .

ووصل ابن خلدون بهذا التعبير إلى قمته فرأى أن القرآن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها دلالة[٦] .

وفعل ابن كمال باشا ما يشبه ما فعل عبد الجبار ، فجعل الرسالة السادسة عشرة من رسائله لبيان « حقيقة المعجزة ودلالتها على صدق من ادعى النبوة » . ولجأ فيها إلى الجدل الكلامى أيضا .

كذلك عقد محمد رشيد رضا فصلا من تفسيره لوجه دلالة القرآن على نبوة محمد[٧] .

ورأى محمد عبد العظيم الزرقانى أن المعجزة تؤدى إلى أن الإنسان المتفوق الممتاز - الذى ظهرت على يديه - صادق فى رسالته ، محق فى دعايته[٨] .

---

(١) البرهان ٢/٩١ . فودة ٢٢٦ . وانظر الإتقان ٢ / ٣٢٥ . الصباغ ٥١ .
(٢) المغنى ١٦ / ١٤٤ .   (٣) المغنى ١٦ / ٢٣٦ – ٤٥ . وبخاصة الصفحات الأخيرة .
(٤) المغنى ١٦ / ١٥١ ، ١٥٧ – ٨ ، ١٦٤ ، ١٦٧ وغيرها .
(٥) المغنى ١٦ / ١٦٧ – ٩٠ .
(٦) المقدمة ٥٠٧ . إعجاز الخطيب ١/٨٠ . وانظر شحاتة ١٣٧ .
(٧) المنار ١/١٨١ – ٨ . وانظر الحمصى ١٦٥ – ٦ .
(٨) مناهل ١/٦٧ .

وأورد أن بعض المتشككين يقولون : كيف تدل المعجزة على تصديق الله لرسله ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

وأجاب عن هذا القول : بأن دلالة المعجزة على تصديق الرسول كدلالة الكون على خالقه ، مع أننا ما رأينا الله وما سمعناه .

ثم ضرب لهم المثال الآتى الذى أخذه من لمع الجوينى - كيلا تبقى لهم شبهة ولا يقوم لهم عذر :

افرض أنك حضرت مجلسا عاما فيه ملك من الملوك . وكان من تقاليد هذا الملك ألا يكشف رأسه فى مجلس من المجالس العامة .

وبينما القوم جلوس فى حضرة صاحب الجلالة ، إذ نهض رجل من الحاضرين ، معروف للجميع بصدقه وأمانته ، وأدبه واستقامته ، وحسبه ونسبه . وإذا هذا الرجل يقول على مرأى ومسمع من المليك ورعيته : أيها القوم : إن مولاى الملك حمّلنى هذه الرسالة أبلغكم إياها ، وهى أن تفعلوا كذا ، وتتركوا كذا . ثم سكت الملك ولم يكذبه .

ثم لم يكتف الرجل بطهارة ماضيه ، وسكوت مليكه ، فى ترويج دعوته وتأييد رسالته . بل قال : إن آية صدقى أن يغير مولاى الملك عادته الآن ، ويخرج عن تقليد من تقاليده المعروفة لكم جميعا ، وذلك بأن يعرِّى رأسه فى هذا المجلس العام . ثم ما كاد ينتهى حتى عرى المليك رأسه وخلع تاجه .

أفلا يعتبر ذلك دليلا كافيا على صدق هذا الرجل ، وصدق ما جاء به ؟

ثم ما بالك إذا هو قد عزز دليله بالتحدى فقال : إنى أتحداكم أن يجيبكم الملك إلى مثل ما أجابنى . فأخذوا يطلبون ويلحون . فلم يستجب لهم الملك ، ولم يغير عادته معهم ولا مرة واحدة .

أفلا يكون ذلك برهانا أبلج من الصبح على أن هذا الداعى رسول هذا الملك حقا ؟ ثم ألا يكون المكذّب - بعد ذلك - معاندا ومكابرا ، ويكون بالحيوان الذى لا يفهم ولا يعقل أشبه منه بالإنسان الذى يفهم ويعقل ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

وعد طبارة عجز العرب من أعظم الدلائل على أن القرآن وحى إلاهى[2] ، وذكر أبو الخشب أن علماء الكلام جعلوا الإعجاز دلالة على النبوة[3] .

---

(١) مناهل ١/٧١ – ٢ . وانظر لمع الأدلة ١١٠ .

(٢) روح ٢٥ . (٣) القرآن ١٠٨ .

واستخدم بعضهم صيغة الدليل والأدلة . فقد رأى الباقلانى المعجزة دليلا بَيِّنا للنبوة[١] ، ورأى العجز عن الإتيان بمثل القرآن دليلا على أنه من اللّه[٢] ، ودليلا على وحدانية اللّه أيضا[٣] .

وذكر عبد الجبار أن محمدا جعل القرآن دليلا على نبوته[٤] ، وعبد الملك بن عبد اللّه الجوينى أن المعجزات دليل على ثبوت نبوة محمد[٥] ، وابن جزى أن العجز إثبات لنبوة محمد بإقامة الدليل على أن القرآن جاء به من عند اللّه[٦] ، وأبو حيان الأندلسى أن الإعجاز أعظم دليل على أن القرآن من عند اللّه[٧] ، ومحمود محمد شاكر أن الإعجاز دليل على صدق النبوة[٨] ، وعبد الكريم الخطيب أن غاية المعجزة ــ بشكل عام ــ أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدليل على صحة دعواه[٩] ، وعلى صدق مدَّعاه[١٠] ،

واستخلص البوطى من آيتى سورة العنكبوت السابقتين أن اللّه يرى القرآن أعظم دليل على صدق دعوة محمد ورسالته[١١] .

وعد د. عمر الملاحويش القرآن دليلا واضحا على أن محمدا هو خاتم الأنبياء ولا نبى بعده[١٢] .

وأعلن د. حسن ضياء الدين عتر أن دلالات معجزات محمد الحسية والعقلية ــ على امتداد الأعصر ـ تتضافر فى إقامة قاطع الأدلة على صدقه ونبوته[١٣] ، وأن اللّه ـ لما أنعم على عباده ببعث النبيين فيهم ـ أتم نعمته عليهم ، فمنحهم أدلة ساطعة تدحض على الحق فى دعوى الرسل[١٤] ؛ ود. منير سلطان أن المتكلمين المعتزلة ذهبوا ـ فى معرض دفاعهم عن نبوة محمد ـ إلى أن الدليل على صدق دعواه أحواله وأخلاقه وتعاليمه ، ثم تأتى

---

(١) إعجاز ٢٨٧ . (٢) إعجاز ١٧ . صقر ٦٨ . الحمصى ٨٤ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١ . حويش ٤٥٦ . وانظر ابن جزى ٧١/١ . أبو حيان ١٥٨/٥ . رشيد رضا ١٨٢/١١ . الزرقانى ٦٧/١ . شاكر ١٧ . القطان ٢٦٤ ــ ٥ . الصباغ ٥٥ . أبو سليمان ١٠٣ . منار الحسن ١٣٠ .
(٣) إعجاز ١٧ . صقر ٦٨ . إعجاز الخطيب ١٧٦/١ . حويش ٤٥٦ .
(٤) المغنى ١٦ / ١٦٧ . وانظر الحمصى ١٦ ، ١٣٠ ، ٣١٨ . فقيهى ١٦ .
(٥) لمع ١١١ . سلطان ٢٢٤ . (٦) التسهيل ٧١/١ . (٧) البحر ١٥٨/٥ .
(٨) الظاهرة ١٧ . وانظر الصباغ ٥٥ . أبو سليمان ١٠٣ . منار الحسن ١٣٠ .
(٩) إعجاز ٧٣/١ . وانظر الصواف ١٥ . العطار ٤٩ . الذهبى ١٩ ــ ٢١ .
(١٠) إعجاز ١٧٣/١ . وانظر الصباغ ٤٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ . أبو سليمان ٩٧ .
(١١) من روائع ١٥٢ . (١٢) تطور ٢٠٨ .
(١٣) بينات ٧٦ ــ ٧ . (١٤) بينات ٧٧ .

المعجزة دليلا فى الدرجة الثانية ، وخالفهم - فى ذلك - الأشاعرة ، الذين كانوا يرون أن المعجزات هى الدليل الأول على صدقه[١] .

وذهب عبد القادر أحمد عطا إلى أن استبطان - أى احتواء - القرآن للبيان والإعجاز معا - فى وقت واحد - دليل على صدقه وعالمية رسالته[٢] ؛ وداود العطر إلى أن ادعاء السفارة عن الله - يريد النبوة - لابد له من دعم وإسناد يلزم ، يقوم دليلا على واقعية المدعى ، وحقيقة النقل والتبليغ عن اللّه[٣] ؛ ود. محمد الذهبى إلى أن العجز الجماعى لأمة من الأمم ، أمام تحدى فرد واحد منها ، مع عدم المانع من المعارضة وتوفر الدوافع إليها ، أكبر دليل على أنه صادق فى دعوى النبوة[٤] .

واستعملوا صيغة الفعل . فصرح الباقلانى بأن القرآن كتاب دلّ على صدق متحمِّله[٥] ، ورسالة دلت على صحة قول المرسَل بها[٦] ؛ وعبد الجبار بأن الإعجاز يدل على النبوة[٧] ؛ والجوينى بأن ثبوت الشرع يدل على دلالة المعجزة[٨] ؛ والحمصى بأن رشيد رضا يستدل بعجز العرب وسائر الناس عن محاكاة القرآن على صدق رسالة النبى[٩] ، ويرد على ما قاله بعض المتقدمين والمعاصرين من أن عجز العرب عن مثل بلاغة القرآن لا يدل على أنه من اللّه[١٠] ؛ والعمارى بأن العجز دل على أن القرآن معجز[١١] ، وأنه من عند اللّه[١٢] ، وأن رسالة محمد حق[١٣] ؛ والصابونى بأن المعجزات تدل على صدق الأنبياء[١٤] ، وأنهم مرسلون من عند اللّه[١٥] .

واستعملوا صيغة اسم المفعول . فقد وصف أبو هلال العسكرى القرآن بأنه المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة[١٦] .

كما استعملوا صيغة اسم الفاعل . فقد رأى القرطبى أن المعجزات عامة هى الدالة على نبوة من ظهرت على أيديهم[١٧] ، أى على صدقهم[١٨] ، وخص غيره القرآن

---

(١) إعجاز ٢٢٣ . (٢) أسرار ٢٣٥ .
(٣) الموجز ٥١ . (٤) الوحى ٢٢ .
(٥) إعجاز ٣٠٢ . وانظر الإيجى ٣٤٧/١ . الزرقانى ٦٧/١ . عطا ٢٢٤ — ٥ ، عظمة ٥٤ .
(٦) إعجاز ٣٠٢ .
(٧) مفاتيح ١١٥/٢ . المغنى ٢٤٧/١٦ . وانظر الرازى ١١٥/١ . سلطان ٥٠ ، ٨٨ .
(٨) الحمصى ١٦٥ . (٩) فكرة ٣١٩ ، وانظر البوطى ١٥٢ .
(١٠) فكرة ٣١٩ ، وانظر الصابونى ٩٥ . (١١) حول ٤ .
(١٢) حول ٤ . وانظر موسى لاشين ٢٤٣ . عتر ١٩٧ . (١٣) حول ٤ .
(١٤) التبيان ٨٥ . (١٥) التبيان ٨٦ . (١٦) الصناعتين ٧ .
(١٧) الجامع ٧١/١ . (١٨) الجامع ٦٩/١ . وانظر طبارة ٢٩ . الذهبى ١٩ .

بالذكر ، فذكر العلوى أنه علامة دالة على النبوة[١] ، والزركشى أنه آية دالة على صدق محمد[٢] ،

تبين هذه الجولة أن مادة « الدلالة » لما كانت المعبِّر الأساسى عن القضية التى نحن بصددها كانت أكثر استعمالا من بقية الكلمات التى استخدمت فى هذا الشأن .

واستمر استعمالها منذ العصور المبكرة إلى أحدث العصور . ولم تستخدم منها صيغة واحدة ، بل صيغ أكثر مما استخدم من غيرها .

ولم يبق التعبير عنها داخل لفظ أو عبارة أو عبارات ، بل اتسع إلى فصول عقدها المؤلفون لها كما رأينا عند الباقلانى وعبد الجبار ومحمد رشيد رضا . ووصل الاتساع إلى غايته عند ابن كمال باشا ، فخصص لها واحدة من رسائله .

قاعدة للبناء

استهل الباقلانى كتابه بفصل « فى أن نبوة النبى ﷺ معجزتها القرآن[٣] » أبان فيه أن نبوة محمد بنيت على هذه المعجزة - وإن كان قد أيِّد - بعد ذلك - بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، وعلى أشخاص خاصة. ونُقل بعضها نقلا متواترا ، يقع به العلم وجوبا ، وبعضها مما نُقل نقلا خاصا ، إلا أنه حُكى بمشهد من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه . فلو كان الأمر على خلاف ما حُكى لأنكره بعضهم ، فحلّ محل المعنى الأول ، وإن لم يتواتر أصل النقل فيه . بعضها مما نقل من جهة الآحاد ، وكان وقوعه بين يدى الآحاد[٤] .

واستشهد على رأيه بالقرآن ، فقال : فأما الذى يبين ما ذكرناه من أن اللّه - حين ابتعث محمدا - جعل معجزته القرآن ، وبنى أمر نبوته عليه ، فسور كثيرة وآيات ، نذكر بعضها ، وننبه بالمذكور على غيره . فليس يخفَى بعد التنبيه على طريقه .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٦] فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ،

---

(١) الطراز ٣ / ٣٦٧ . (٢) البرهان ٢/٩١ . وانظر فودة ٢٢٦ - ٨ .

(٣) إعجاز ٨ - ١٦ . صقر ٦٨ . وانظر الرازى ٢/١١٥ .

(٤) إعجاز ٨ . إعجاز الخطيب ١/٨٠ ، ١٧١ . عبد القاهر لمطلوب ٢٤٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ . سلطان ١٠٤ ، ٢٢٤ . وانظر العمارى ٤ . (٥) سورة إبراهيم ١ .

ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة[١] ...

وما من سورة افتُتحت بذكر الحروف المقطعة إلا وقد أُشبع فيها بيان ما قلناه ... وكثير من هذه السور - إذا تأملته - فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن ، والتنبيه على وجه معجزته[٢] .

بَيِّنة :

وكان الباقلانى أول من استخدم هذا المصطلح أيضا ، عندما وصف القرآن بأنه بينة مجردة[٣] ، وبأنه بينة على أن محمدا أمين اللّه على وحيه ، وصادع بأمره[٤] ، وبأنه بينة على طريقة من سلف من الأولين[٥] .

وتابعه داوود العطار فذكر أن من ادعى بسفارة عن اللّه - أى رسالة مقتضاها هداية الناس ، لابد لها من دعم وإسناد ملزم يقوم بينة على صدق المدعى[٦] .

أما كلمة (**شهادة**) فقد استخدم الباقلانى صيغة الفعل منها ، حين رأى القرآن برهانا شهد له برهان الأنبياء المتقدمين[٩] .

واستخدم السكاكى صيغة اسم الفاعل ، حين وصف القرآن فى مقدمة كتابه بالكتاب العربى المنير ، الشاهد لصدق دعواه ، بكمال بلاغته[١٠] .

واستخدمها ابن خلدون عندما جعل المعجزات شاهدة بصدق الأنبياء[١١] .

ولم يكتف عبد الكريم بالشهادة مجردة ، فجعل المعجزات شاهدا مبينا على صدق رسالتهم[١٢] ؛ وتشهد لكل نبى أنه مرسل من عند اللّه[١٣] .

وذهب د. موسى لاشين إلى أن ثبوت إعجاز القرآن ثبوت للكتب الإلاهية كلها . لأن القرآن هو الشاهد الخالد بها[١٤] ، أى أنه قلب قول الباقلانى ؛ وذهب داوود العطار إلى أن كل نبى لابد له شاهد صدق[١٥] .

---

(١) إعجاز ٩ . صقر ٦٨ . إعجاز الخطيب ١/١٧٢ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٤ .
(٢) إعجاز ٩ . صقر ٦٨ . (٣) إعجاز ٣٠٢ . (٤) إعجاز ٣ .
(٥) إعجاز ٣٠٢ - ٣ . (٦) الموجز ٥١ . (٧) سورة فصلت ٦ .
(٨) إعجاز ١٢ . (٩) إعجاز ٣٠٢ .
(١٠) مفتاح ٣ . وانظر عائشة ٤٩ . حويش ٧٧ ، ٢٠٨ . عتر ٧٧ ، الذهبى ٢٠ .
(١١) المقدمة ٥٠٥ ، ٥٠٧ . إعجاز الخطيب ١/٨٠ . وانظر الزرقانى ١/٦٦ . الصابونى ٩٥ .
(١٢) إعجاز ١/٨٤ . (١٣) إعجاز ١/٧٥ .
(١٤) اللآلئ ٢٤٣ . (١٥) الموجز ٥١ .

ومن العبث أن نحاول تتبع بقية الألفاظ والعبارات التى عبر بها العلماء عن دلالة القرآن وإعجازه على صحة نبوة محمد ، وكون القرآن وحيا من اللّه ، وما شابه من الأفكار ، لأنها كثيرة متنوعة تتحدى الحصر .

ويكفى أن أورد - مثالا لذلك - أن الطبرى - وهو من أبناء القرن الثالث ، ومن أول المتكلمين فى هذه القضية - قال إضافة إلى ما ذكرته آنفا : العجز يصحح - عند العرب - أن القرآن تنزيل ووحى إلى محمد[١] .

وقال الباقلانى من أبناء القرن الرابع : فما أشرفه من كتاب يتضمن صدق متحمله[٢] ، وقال : إذا ثبت - بما نبينه - إعجازه وأن الخلق لا يقدرون عليه ، ثبت أن الذى أتى به غيرهم ، وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم ، وأنه صدق[٣] . وقال : اختص محمد به ليكون معجزة على الرسالة[٤] .

وقال الجوينى من أبناء القرن الخامس : إنما يثبت مدعى النبوة بالمعجزات[٥] .

ومن أبناء القرن الثامن قال ابن جزى : العجز إثبات لنبوة محمد[٦] ، والعلوى : الإعجاز تصديق لصاحب الشريعة[٧] .

وفى العصر الحديث قال الزرقانى بعد أن ذكر التحدى والعجز وأخلاق محمد : هل يشك ذو مُسْكة من عقل فى أن هذا الإنسان المتفوق الممتاز صادق فى رسالته ، محق فى دعايته[٨] .

وذهب إلى أن التعجيز ليس مقصودا لذاته ، بل المقصود لازمه ، وهو إظهار أن هذا الكتاب حق ، وأن الرسول الذى جاء به رسول صدق[٩] .

وكذلك الشأن فى كل معجزات الأنبياء ، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التعجيز ولكن للازمه ، وهو دلالتها على أنهم صادقون فيما يبلغون عن اللّه . فينتقل الناس من الشعور بعجزهم إزاء المعجزات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة عن الإله القادر ، لحكمة عالية ، وهى إرشادهم إلى تصديق من جاء بها ، ليسعدوا باتباعه ، فى الدنيا والآخرة[١٠] .

---

(١) جامع ١/٣٧٩ . (٢) إعجاز ٣ .
(٣) إعجاز ١٧ . الحمصى ٧٤ . سلطان ١٠٤ . وانظر القطان ٢٦٥ . إعجاز الخطيب ١/١٧١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ . سلطان ٥١ . نيازى ١٣٩ . الكومى ١٢ .
(٤) إعجاز ٦٤ . (٥) لمع ١١٠ . (٦) التسهيل ١/٧١ .
(٧) الطراز ٣/٣٦٧ . (٨) مناهل ١/٦٧ . (٩) مناهل ٢/٢٢٧ . فودة ٢٢٧ . وانظر القطان ٢٦٥ . الصابونى ٨٩ . داود ٧٦ . (١٠) مناهل ٢ / ٢٢٧ . وانظر الصابونى ٨٩ .

وعد عبد الكريم الخطيب غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول[١] ،

وقال موسى لاشين : متى ثبت إعجاز القرآن ، ثبت أنه ليس من كلام محمد ، وثبت أنه كلام الله وحده .

وثبتت نبوة محمد .

وثبت كل ما جاء به القرآن .

بل ثبتت الأديان الصحيحة والكتب الإلاهية كلها .

لأن القرآن هو الشاهد الخالد بها[٢] .

ووصف د. عمر الملاحويش القرآن بالمعجزة الكبرى على صدق رسالة محمد[٣] .

ورأى د. عتر أن المعجزة تستلزم ثبوت نبوة المخبر بها ، وبالتالى تستلزم كذب كل نافٍ للنبوة[٤] ؛ ومحمد الصادق قمحاوى أن عجز العقل الإنسانى عن معارضة القرآن اعتراف منه بأنه وحى الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة[٥] ؛ ومحمود بسيونى فودة أن المعجزة تأييد لرسالة من يدعى النبوة ، وتقدير لنبوته[٦] .

وجه الدلالة

تعرض الباقلانى - فى سرعة - لوجه دلالة القرآن . فرأى أنه حلّ فى هذا - من وجه - محل سماع الكلام من القديم - سبحانه - لأن موسى لما سمع كلامه علم أنه - فى الحقيقة - كلامه .

وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام اللّه ، وإن اختلف الحال فى ذلك بعض الوجوه ، لأن موسى سمعه من اللّه ، وأسمعه نفسَه متكلّما ، وليس كذلك الواحد منا[٧] .

وتلاه الجوينى الذى رأى أن وجه دلالة المعجزة على صدق النبى أنها تنزَّل منزلة التصديق بالقول[٨] .

ونظيرها فى الشاهد - عنده - أن يتصدى ملك للناس . ويأذن لهم بالولوج عليه . فلما احتفوا به ، وأخذ كل مجلسه ، قام لأهل الجمع قائم وقال : يا أيها الملأ ، إنى رسول

---

(١) إعجاز ٧٣/١ . (٢) اللآلئ ٢٤٣ . (٣) تطور ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢٢١ .
(٤) بينات ٨٨ - ٩ . (٥) الإيجاز ١٦٨/٢ . (٦) المرشد .
(٧) إعجاز ١٥ . الحمصى ٧٤ . (٨) لمع ١١٠ .

الملك[١] إليكم ، وقد ادعيت الرسالة بمرأى منه ومسمع . وآية الرسالة أن الملك يخالف عادته ، ويقوم ويقعد ، إذا استدعيته . ثم يقول : يا أيها الملك ، صدقنى وقم واقعد . فإذا فعل الملك ما استدعاه منه ، كان ذلك تصديقا نازلا منزلة قوله : صدقت[٢].

وذهب ابن خلدون إلى أن من علامات الأنبياء ، وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وعرّف الخوارق بأنها أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور البشر ، وإنما تقع فى غير محل قدرتهم .

وذكر أن للناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلافا :

فدلالتها - عند المتكلمين - على الصدق قطعية ، لأنها بمنزلة القول الصريح من الله بأن النبى صادق . وتدل المعجزة بمجموع الخارق والتحدى . ولذلك كان التحدى جزءا منها[٣] .

والنبى - عند الحكماء - مجبول على التصرف فى الأكوان ، ما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك . والخارق - عندهم - يقع للنبى سواء أكان للتحدى أم لم يكن . وهو شاهد بصدقه ، من حيث دلالته على تصرف النبى فى الأكوان ، لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق . ولذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ، ولا يكون التحدى جزاءا منها[٤] .

وأعلن محمد رشيد رضا : اختلف علماء الكلام فى وجه دلالة المعجزة على نبوة من ظهرت على يديه ورسالته ، أى على كون ما يدعو إليه من العقائد والفضائل والأعمال الصالحة وحيا من رب العالمين . فقال بعضهم إنها دلالة عقلية . ورجح الأكثرون أنها وضعية ، بمعنى أن تأييد الله بعد التحدى بها - فى معنى قوله تعالى : « صدق عبدى فيما يبلغ عنى » .

ومن المعلوم الذى لا مراء فيه أن الذين آمنوا بالرسل ، فى عصرهم وبعد عصرهم ، من العقلاء والأذكياء ، وجدوا فى أنفسهم اعتقادا ضروريا بأن ظهور مالا يقدر عليه غير

---

(١) فى الأصل : رسول الله ، وأعتقد أن السياق يقتضى ما فعلت .
(٢) لمع ١١٠ - ١ .
(٣) المقدمة ٤٠١ - ٢ .
(٤) المقدمة ٤٠٣ .

اللّه على أيديهم عقب ادعائهم ما ادعوه ، وطلبهم من اللّه أن يصدقهم ، ويعطيهم آية تدل على تصديقه إياها ، فيه دليل على أنه هو الذى فعله لأجل تصديقهم .

فسمِّ الدلالة عقلية ، أو سمِّها وضعية ، أو اجمع بين التسميتين ، إن شئت[1] .

والحق الذى يقال فى هذا المقام : إن ما أيد اللّه به رسله من الآيات الكونية كان مناسبا لحال زمان كل منهم وأهله .

وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات فى عهده ، ثم على من صدَّق المخبرين من بعده .

وقد علم اللّه أن سلسلة النقل ستنقطع ، وأن ثقة بعض المتأخرين به — ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف ، وأن دلالتها على الرسالة سُتنكر ، فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لا تنقطع ، وهى هذا الكتاب المعجز للخلق[2] .

ونص على أن خلاصة ما تقدم من قوله أن دلالة القرآن على نبوة محمد لها وجهان :

أحدهما ما قيل فى دلالة الآيات الكونية لبعض الأنبياء السابقين ، كناقة صالح ... وهو أن كلا منها أمر جاء على غير المعتاد من مقدور البشر ، واستدل به صاحبه على نبوته ورسالته ، فكان تصديقا من اللّه له ، وتكذيبا وخذلانا منه لمن كذبه .

الوجه الثانى مأخوذ من معنى النبوة والرسالة ، وهو أنها هداية عليا للبشر ، لا تغنيهم عنها هدايا الحواس الظاهرة والباطنة ، ولا هداية العقل . فإن هذه هدايات شخصية فردية ، وتلك هداية لنوع الإنسان فى جملته[3] .

وذهب د. حسن ضياء الدين عتر إلى أن المعجزات دلائل بقينية عظيمة على نبوة النبى ، وتلقيه عن اللّه[4] .

وعقد فصلا فى كتابه لدلالة المعجزة فى الحديث[5] . أورد فيه حديثين يتعرضان لذلك ، وفصلا آخر لدلالة المعجزة لدى علماء الكلام[6] . ويبدو أنه أجمل هذا الفصل

---

(١) و(٢) المنار ١٨٢/١ .
(٣) المنار ١٨٥/١ .
(٤) بينات ١٨ .
(٥) بينات ٨٣ — ٥ .
(٦) بينات ٨٥ — ٨ .

فى قوله فى الحواشى السفلية : تفصيل أقوال العلماء : أن المعجزة دلت على الصدق دلالة عقلية عند بعضهم . ودلت دلالة وضعية عند البعض الآخر . ورأى آخرون أنها دلت على الصدق دلالة عادية ، يعنى أن عادة الله جرت بخلق العلم بصدق الرسل عقب ظهور المعجزة ، فإنه لا يجريها إلا على يد صادق ، ويفضح الكاذب إذا حاولها . وقد مضى الشيخ محمود أبو دقيقة إلى أنه يصح أن تكون دلالة المعجزة عقلية ووضعية وعادية فى آن واحد وقد خرّج ذلك تخريجا حسنا[١] .

كذلك عقد فصلا أبان فيه أن معجزة نبى من الأنبياء تدل على صدق سائرهم[٢] ، وآخر أبان فيه أن دلالة المعجزة تمتد على مر الزمان[٣] .

---

(١) بينات ٨٥ — ٦ .
(٢) بينات ٨٨ — ٩ .
(٣) بينات ٨٩ — ٩٠ .

الفصل الثالث

التمييز بين الخوارق

ذكر ابن تيمية أن السلف لم يفرقوا بين المعجزات والكرامات ، لا فى التسمية ، ولا فيمن تظهر على أيديهم ، واعتقدوا أن الخوارق تظهر على الأنبياء والصالحين معا .

وذكر من هؤلاء السلف أحمد بن حنبل (١٦٤ ــ ٢٤١ / ٧٨٠ ــ ٨٥٥)(١) . وأضاف عتر إليه أكثر المتكلمين وأبا الحسين البصرى من المعتزلة(٢) .

ثم ذكر من رفضوا الكرامات فقال : أنكرها ـ وأنكر السحر ــ معظم المعتزلة وأبو محمد بن حزم . وحُكى إنكارها عن أبى إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرائينى (٤١٨ / ١٠٢٧) وأبى محمد بن يزيد ؛ وكأن فى الحكاية عنهما غلطا(٣) .

ومما يدل على أن النقاش حول هذه القضية كان حادا وشائعا منذ عهد مبكر أن الباقلانى اضطر إلى أن يؤلف كتابا مستقلا لها ، سماه « الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين » ، ذكره مرتين فى كتابه « هداية المسترشد » ، ومنه قطعة فى مكتبة توبنجن بألمانيا(٤) .

ومن أقدم ما عثرت عليه ـ بصدد التفرقة بين المعجزة والكرامة ـ كلام الأشعرى الذى كشف فيه عن موقف الشيعة ، قال :

اختلفت الروافض فى الأئمة : هل يجوز أن تظهر عليهم الأعلام أم لا ؟ وهم أربع فرق :

فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الأئمة تظهر عليهم الأعلام والمعجزات كما تظهر على الرسل ، لأنهم حُجج اللّه كما أن الرسل حجج اللّه . ولم يجيزوا هبوط الملائكة بالوحى عليهم .

والفرقة الثانية منهم يزعمون أن الأعلام تظهر عليهم ، وتهبط الملائكة بالوحى عليهم. ولا يجوز أن ينسخوا الشرائع ولا يبدلوها ولا يغيروها .

---

(١) التفسير ١٤٨/٢ .
(٢) بينات ٢٩ .
(٣) نفسه . وانظر الإيجى ٣٤٦ ــ ٧ . ابن خلدون ٤٠٢ . عبده ١٨٤ .
(٤) مقدمة إعجاز الباقلانى ٤٢ .

والفرقة الثالثة منهم يزعمون أن الأعلام تظهر عليهم ، وتهبط الملائكة بالوحى عليهم. ويجوز أن ينسخوا الشرائع ويبدلوها ويغيروها .

والفرقة الرابعة منهم يزعمون أن الأعلام لا تظهر إلا على الرسل ، وكذلك الملائكة لا تهبط إلا عليهم بالوحى . ولا يجوز أن ينسخ اللّه شريعتنا على ألسنتهم بل إنما يحفظون شرائع الرسل ويقومون بها[1] .

وقال ابن حزم : رأيت للباقلانى - فى فصل من كلامه - أن الناس ليسوا عاجزين عن مثل القرآن ، ولا قادرين عليه ، ولا هم عاجزون عن الصعود إلى السماء ، ولا عن إحياء الموتى ، ولا عن خلق الأجسام ولا اختراعها ، ولا قادرين على ذلك .

إن القدرة لا تقع إلا حيث يقع العجز .

هذا نص كلامه دون تأويل منا عليه[2] .

ومع ذلك نسب إليه أنه قال : الساحر يمشى على الماء على الحقيقة ، وفى الهواء ، ويقلب الإنسان حمارا على الحقيقة . وكل هذا موجود من الصالحين على سبيل الكرامة .

ولا فرق بين آيات الأنبياء وما يظهر من الإنسان الفاضل ومن الساحر — أصلا — إلا بالتحدى . فإن النبى يتحدى الناس بأن يأتوا بمثل ما جاء هو به ، فلا يقدر أحد على ذلك قط . وكل ما لم يتحد به النبى الناس فليس آية له[3] .

وقطع الباقلانى بأن اللّه لا يقدر على إظهار آية على لسان متنبئ كاذب[4] .

وأنكر عبد الجبار أن تقع معجزة من متنبئ فقال : إذا صح أن أمرا ما معجز ، فلابد من أن يكون ظاهرا على رسول . فلا يجوز أن يظهره اللّه على كذاب . وكذلك لا يجوز أن يمكّن منه من يكذب فى ادعاء النبوة ، لأن الفساد - فى الوجهين قائم - وسبب عدم إظهاره على كذاب أنه لن يتميز من الرسول الصادق ، ولابد من أن يميز اللّه بينهما . فيجب أن يقع - من جهته تعالى - المنع[5] .

ويتضح من كلام الإيجى أن الإسفرائينى أقر وجود الكرامات ، ولكنه رأى أنها لا تبلغ درجة المعجزات[6] .

---

(١) مقالات ٥١ .

(٢) الفصل ١٠٩/٥ .

(٣) الفصل ٨٤/٥ ، ٩٩

(٤) الفصل ٩٩/٥ ، ١٠٩ . وانظر الإيجى ٣٤٢/١ .

(٥) المغنى ١٦ / ١٨٠ — ٦ . وانظر الإيجى ٣٤٢/١ .

(٦) الموافقات ٣٤٦ — ٧ .

وكتب ابن حزم ما يبلغ الرسالة الصغيرة فى الدفاع عن المعجزة ، والتفرقة بينها وبين الكرامة والسحر بعامة والتشبيه بخاصة ، وتفنيد أقوال الباقلانى .

وإذا صنفنا حديثه ، أمكن أن نقول إنه كشف عن رأيه فى وضوح تام أولا ، حيث قال : ذهب أهل الحق إلى أنه لا يقلب أحد عينا ، ولا يحيل طبيعة إلا الله ــ عز وجل ــ لأنبيائه فقط ، ولا يمكن وجود شىء من ذلك لا لصالح ولا لساحر ولا لأحد ، غير الأنبياء[1] .

والله قادر على إظهار الآيات على أيدى الكذابين المدعين للنبوة ، ولكنه لا يفعل ذلك كما لا يفعل مالا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه[2] .

وهذا هو الحق الذى لا يجوز غيره[3] .

وقد وضع مجموعة من المقدمات بنى عليها موقفه الذى ذكرته ، وهى :

أولا : ذهب إلى أن العالم كله جوهر وعرض ، لا سبيل إلى وجود قسم ثالث فى العالم دون الله[4] .

وقسم الأعراض إلى ثلاث فئات :

ـ أعراض جوهريات ذاتيات ، وهى الفصول التى تؤخذ فى الأجناس .

ـ أعراض لا تزول إلا بفساد حاملها .

ـ أعراض تزول بغير فساد حاملها[5] .

ثانيا : كل ما فى العالم رتبه الله الرتب التى لا تتبدل .

فقد وقع الله كل اسم على مسماه . فلا يجوز أن يوقع اسم من تلك الأسماء على غير مسماه الذى أوقعه الله عليه ، لأنه يكون تبديلا لكلمات الله التى أبطل أن تُبدَّل . ولو جاز أن تحال صفات مسمًّى منها ، بوجودها فيه استحق وقوع ذلك الاسم عليه ، لوجب أن يسقط عنه ذلك الاسم الذى أوقعه الله عليه .

فإذْ ذلك كذلك ، فقد وجب أن كل ما فى العالم مما قد رتبه الله على ما هو عليه من فصوله الذاتية وأنواعه وأجناسه ، فلا يتبدل منه شىء قطعا إلا حيث قام البرهان على تبدله . وليس ذلك إلا على أحد وجهين :

---

(١) الفصل ١٤٦/١ ، ٢٠٦/٢ ، ٩٩/٥ ــ ١٠٠ ، ١٠٥ .

(٢) الفصل ٩٩/٥ .

(٣) الفصل ٩٩/٥ .

(٤) الفصل ١٤٥/١ .

(٥) الفصل ١٤٥/١ .

- إما استحالة [يحوَّل] معهودة جارية على رتبة واحدة ، وعلى ما بنى اللّه عليه العالم من استحالة المنيّ حيوانا ، والنوى والبذور شجرة ونباتا ، وسائر الاستحالات المعهودات .

- وإما استحالة لم تعهد قط ، ولا بنى اللّه العالم عليها[1] .

ثالثا : لا يحيل الطبائع إلا خالقُها ، شهادة لرسله وأنبيائه ، وفرقا بين الصدق والكذب[2] ، أو - بعبارة أخرى - لا يقلب أحد عينا ، ولا يحيل طبيعة ، إلا اللّه لأنبيائه فقط[3] .

رابعا : معجزات الأنبياء خارجة عن الرتب ، وعن طبائع كل ما فى العالم ، وعن بنية العالم ، لا يجرى شىء من ذلك على قانون ، ولا على سنن معلوم ، لكنها قلب عين ، وإحالة صفات ذاتية ، كشق القمر[4] .

كذلك تحدث ابن حزم طويلا عن السحر . فقد أعلن أن الحق الذى تشهد به العقول يرى فى السحر إفكا مفترى باردا أو إفكا وتخييلا وكيدا ، أو حيلة مموهة لا حقيقة لها ، أو حيلا عظيمة وإثما عظيما[5] .

وليس معنى ذلك أنه ينكر السحر ، بل هو يؤمن بوجوده ، ولكنه شىء آخر غير الآيات ، ويؤمن أيضا أنه قد يفشو بعض أنواعه حتى يحسبه أكثر الناس كالطب والأصباغ وما أشبه ذلك[6] .

ورأى أن السحر ضروب :

- فمنه ما هو من قبل الكواكب ، كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب ، فى وقت كون القمر فى برج العقرب ، فينفع إمساكه من لدغة العقرب .

- ومنه الطلسمات ، التي عرّفها بأنها قُوى ركّبها اللّه مدافعة لقوى أخرى ، كدفع الحر للبرد ، ودفع البرد للحر . ولا يمكن إنكار الطلسمات لأننا أنفسنا شاهدنا آثارها ظاهرة إلى الآن ، من قرى لا تدخلها جرادة ، ولا يقع فيها برَد ، كسرقسطة التى لا يدخلها جيش إلا أن يدخلها كرها ، وغير ذلك كثير جدا لا ينكره إلا معاند . وهى أعمال قد ذهب من كان يحسنها جملة ، وانقطع من العالم ، ولم يبق إلا آثار صناعاتهم فقط .

---

(١) الفصل ١٠٠/٥ .
(٢) الفصل ٢٤٨/٢ – ٩ .
(٣) الفصل ٩٩/٥ .
(٤) الفصل ١٠٢/٥ – ٣ .
(٥) الفصل ٢٤٨/١ ، ٥ / ١٠٣ .
(٦) الفصل ١٤٦/١ .

- ومنه ما تذكره الأوائل فى كتبهم فى الموسيقا ، وأنه كان يؤلف بين الطبائع وينافر أيضا .

- ونوع آخر يكون بالرُّقَى ، وهو كلام مجمع من حروف مقطعة ، فى طوالع معروفة . فيحدث لذلك التركيب قوة تستثار بها الطبائع ، وتُدافَع قوى أخرى . وقد شاهدنا واختبرنا من كان يرقى الدمل الحاد القوى الظهور فى أول ظهوره ، فييبس بدءا من يومه ذاك بالذبول ، ويتم يبسه فى اليوم الثالث ، ويقلع كما تقلع قشرة القرحة إذا تم يبسها . جربنا من ذلك مالا نحصيه .

- ومنه ما يكون بالخاصة ، كالحجر الجاذب للحديد وما أشبه ذلك .

- ومنه ما يكون لطف يد ، كحيل أبى العجائب التى شاهدها الناس . وهى أعمال لطيفة لا تحيل طبعا أصلا[1] .

- التخييل بنوع من الخديعة ، كسكين مثقوب النصاب ، تدخل فيها السكين ، ويظن من رآها أنها دخلت فى جسد المضروب بها ؛ فى حيل غير هذه من حيل أرباب العجائب كالحلاج وأشباهه فأمرٌ يقدر عليه من تعلّمه ، وتعلُّمه ممكن لكل من أراده[2] .

وكل هذه الوجوه - عنده - ليست من باب معجزات الأنبياء ، ولا من باب ما يدعيه أهل الكذب للصالحين[3] .

ووقف ابن حزم وقفة ذات طول عند التشبيه فقال : أما من ادعى أنه يشبِّه الساحر على العيون ، فيريهم ما لا ترى ، فإن هذه الطائفة لم تكتف بالكفر وإبطال النبوات ، إذ لعل ما أتى به النبى كان تشبيها على العيون لاحقيقة له حتى رامت إبطال الحقائق كلها ، أولها عن آخرها ، ولحقت بالسوفسطائية لحاقا صحيحا بلا تكلف .

ويقال لهم : إذا جاز أن يشبِّه على العيون حتى يريها المشبه عليها ما لا حقيقة له وما لا تراه ، فما يدريكم لعلكم كلكم الآن مشبَّه عليكم ، ولعل بعض السحرة قد شبه عليكم فأراكم أنكم تتوضؤون وتصلون ، وأنتم لا تفعلون شيئا من ذلك ؟ ولعلكم تظنون أنكم تزوجتم وأن ما فى بيوتكم ضأن ومعز وبقر ... ولعل ما تعتقدون من الدين تشبيه عليكم .

وهذا كله لا مخلص لهم منه . وقد عاب اللّه من ذهب إلى هذا فقال : ﴿ ولو فتحنا

---

(١) الفصل ٥ / ١٠١ - ٢ .　(٢) الفصل ١ / ١٤٦ .　(٣) الفصل ٥ / ١٠٢ .

عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ﴾[١] . فلو جاز أن يكون للسحر حقيقة تشبه ما يأتى به الأنبياء ، وأمكن أن يشبه على البصر ، ما ذمهم الله إن قالوا شيئا يمكن كونه . لكنهم لما قالوا ما لا يمكن البتة ، وتعلقوا بذلك فى دفع الحقائق ، عابهم الله بذلك وأنكر عليهم .

وليس غلط الحواس - فى بعض الأوقات - من باب التشبيه عليها فى شيء ، لأن أحدنا قد يرى شخصا على بعد ، لا يشك فيه إلا أنه تنازع فقطع أنه إنسان ، أو أنه فلان فقطع بظنه . ولو أنه لم يعمل ظنه ولا قطع به ، لكان باقيا على ما أدرك من الحقيقة . وهكذا فى كل ما حكم فيه المرء بظنه .

وأما ذو الآفة - كمن فيه ابتداء نزول الماء - فيرى خيالات لا حقيقة لها ، فهو أيضا كما ذكرنا دائما . وإنما الماء المطل على حدقته يوهمه أنه رأى شيئا وقطع بذلك . فإذا ثبت فى كل ذلك لاح له الحق من الظن .

وكذلك من فسد مكان التخيل من دماغه ، فإن نفسه تظن ما تتوهمه فتقطع به . ولو قوى تمييزها لفرقت بين الحق والباطل .

وهكذا القول فى إدراك السمع والذوق . وهذا كله يجرى على رتب مختلفة ممن أعمل ظنه ، وعلى رتب غير مختلفة فى حمل هذه الآفات ، بل هى ثابتة عند أهل الحقيقة والمعرفة ، معروفة العلاج حتى يعود منها إلى صلاحه ما لم يستحكم فساده . فلا يظن ظان أنه يمكن أن نكون فى مثل حال هؤلاء إذ لو كان هذا لم نعرف شيئا من العلوم على رتبه وأحكامه الجارية على سنن واحد .

ثم نسألهم : بأى شيء تعرفون أنه لم يشبه على عيونكم ؟ فقد عرفنا - نحن - بماذا نعرف أن حواسنا سليمة ما دامت سليمة ، وأن عقولنا سالمة مادامت سالمة . وبماذا نعرف الحواس المدخولة والعقول المدخولة وغير المدخولة ؛ وهو جرى ما أدرك بالحواس السليمة والعقول السليمة على رتب محدودة معلومة لا تتبدل عن حدودها أبدا ، وجرى ما أدرك بالحواس الفاسدة والعقول المدخولة على غير رتب محدودة ، فإنهم لا يقدرون على فرق أصلا[٢] .

وتعرض لما يظهر للمسيح الدجال من عجائب فقال : إن المسلمين فيه على أقسام :

---

(١) سورة الحجر ١٤ ، ١٥ .   (٢) الفصل ٥ / ١٠٦ - ٧ .

فأما ضرار بن عمرو (نحو ١٩٠ / ٨٠٥) وسائر فرق الخوارج فإنهم ينفون أن يكون الدجال جملة ، فكيف أن يكون له آية ؟

وأما سائر فرق المسلمين فلا ينفون ذلك . والعجائب المذكورة عنه إنما جاءت بنقل الآحاد .

وقال بعض أصحاب الكلام إن الدجال إنما يدعى الربوبية . ومدعى الربوبية فى نفس قوله بيان كذبه . فظهور الآية عليه ليس موجبا لضلال من له عقل .

ثم كشف ابن حزم عن رأيه الشخصى فقال : إن العجائب الظاهرة من الدجال إنما هى حيل من نحو ما صنع سحرة فرعون ، ومن باب أعمال الحلاج وأصحاب العجائب[١] .

ثم أتى ابن حزم بالكلمة القاطعة فى هذا المجال ، فقال : ما الدجال إلا صاحب شبه أو عجائب كأبى العجب الشعبذ ، ولا فرق ، وإنما هو متحيل بحيل معروفة ، كل من عرفها عمل مثل عمله[٢] .

وإنما يلوح الفرق جدا بين هذين السبيلين - سبيل المعجزات والدجل - لأهل العلم بحدود الأسماء والمسميات ، وبطبائع العالم وانقسامه من مبدئه من أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاصه ؛ وما هو من أعراضه ذاتى ، وما هو منها غيرى ؛ وما يسرع الاستحالة والزوال من الغيرى منها ، وما يبطئ زواله منها ؛ وما يثبت منها ثبات الذاتى وإن لم يكن ذاتيا ؛ والفرق بين البرهان ، بين ما يظن أنه برهان وليس برهانا[٣] .

وإذن فرأى ابن حزم واضح وصريح وحازم فى رفض أن تقع معجزة أو كرامة على يد غير نبى . ومع ذلك استثنى من هذا الرفض معاصرى النبى ، فقد أثبت لهم معجزات ، ولكنه عدها معجزات لنبيهم لا لهم ، قال : ما ذُكر عمن ليس نبيا من قلب عين أو إحالة طبيعة فهو كذب ، إلا ما وُجد من ذلك فى عصر نبى ، فإنه آية لذلك النبى . وذلك الذى ظهرت عليه آية بمنزلة الجذع الذى ظهر فيه الحنين لمحمد ، والعصا التى ظهرت فيها الحياة ، وسواء كان الذى ظهرت فيه الآية صالحا أو فاسقا ، وذلك كنحو النور الذى ظهر فى سوط عمرو بن حممة الدوسى . وبرهان ذلك أنه لم يظهر بعد موت النبى .

فإن قيل : إذا أجزتم أن تظهر المعجزة فى غير نبى ، لكن فى عصر نبى لتكون آية

---

(١) الفصل ١ / ١٩٠ - ٣ . (٤) الفصل ٢ / ١١٨ . (٣) الفصل ٥ / ١٠٣ .

لذلك النبى ، فهلا أجزتموه بعد موت النبى لتكون آية له أيضا ، ولا فرق بين الأمرين ؟

قلنا : إنما أجزنا ذلك فى الجماد وسائر الحيوان ، وفيمن شاء اللّه إظهار ذلك فيه من الناس ، لا يُخَص بذلك فاضل لفضله ، ولا يُمنع ذلك فى فاسق لفسقه أو كافر ، وإنما ننكر على من خص بذلك الفاضل فجعلها كرامة له . فلو جاز ذلك بعد موت النبى لأشكل الأمر ، ولم نكن فى أمن دعوى من ادعى أنه آية لذلك الفاضل أو لذلك الفاسق أو لإنسان من الناس يدعيها آية له . ولو كان ذلك لكان إشكالا فى الدين ، وتلبيسا من اللّه على جميع عباده ، أو لهم عن آخرهم . وهذا خلاف وعد اللّه لنا ، وإخباره بأن قد بين علينا الرشد من الغي . وليس كذلك ما كان فى عصر النبى ، لأنه لا يكون إلا من قبل النبى وبإخباره وإنذاره . فبدت - بذلك - أنها له ، لا للذى ظهرت منه . وهذا فى غاية البيان .

وأما الذى روى فى الثلاثة أصحاب الغار ، وانفراج الصخرة ثلثا ثلثا عندما ذكروا من أعمالهم ، فلا تعلق لهم به ، لأن تكسير الصخرة ممكن فى كل وقت ولكل أحد ، بلا إعجاز . وما كان هكذا فجائز وجوده بالدعاء وبغير الدعاء ، لكن وقع وفاقا لتمنيه كمن دعا فى موت عدوه ، أو تفريج غمه ، أو بلوغ أمنيته فى دنياه .

ولقد حدثنى حكم بن منذر بن سعيد أن أباه كان فى جماعة ، فى سفر فى صحراء . فعطشوا وأيقنوا بالهلكة ، ونزلوا فى ظل جبل ينتظرون الموت . قال منذر : فأسندت رأسى إلى حجر ناتئ ، فتأذ ت به فقلعته ، فاندفع الماء العذب من تحته ، فشربنا وتزودنا . ومثل هذا كثير مما يفرج . ولو كانت معجزة لوجب - بلا شك - أن يكونوا أنبياء أو لمن فى زمن نبى[1] .

وأخيرا نخلص إلى المناقشات التى أجراها ابن حزم لإبطال أقوال الباقلانى وغيره ممن يؤمنون بالكرامات .

عقب على قول الباقلانى : إن الناس ليسوا عاجزين عن مثل القرآن ولا قادرين عليه ... فقال : كل هذا هوس لا يأتى به إلا الممرور . وأَطمّ من ذلك احتجاجه بأن العجز لا يقع إلا حيث تقع القدرة . ولا ندرى فى أى لغة وجدوا هذا الكذب ، أم فى أى عقل وجدوا هذا السخف . وما شك ذو علم باللغة من العامة والخاصة فى بطلان قوله ، وفى

---

(١) الفصل ٥ / ١٠٧ - ٨ .

أن العجز ضد القدرة ، وأن ما قدر الإنسان عليه ، فلم يعجز عنه ، فى حيز قدرته عليه ؛ وأن ما عجز عنه ، فلم يقدر عليه ، فى حيز عجزه عنه ، وأن نفى القدرة إثبات للعجز ، وأن نفى العجز إثبات للقدرة . وما يجهل هذا عامى أصلا . وهو أيضا معروف بأول العقل . والعجب أن يأتى بمثل هذه الدعاوى السخيفة دون دليل أصلا ، لكن حماقات وضلالات يطلقها هذا الجاهل وأمثاله من الفساق فى دين اللّه ، فيتلقفها عنهم من أضله اللّه[1] .

وعقب على وصف الباقلانى اللّه بعدم القدرة على إظهار معجزة على يد كذاب ، فقال : قول داخل فى جملة تعجيزه البارى . وهو تعجيز سخيف داخل فى جملة المحال ، ذلك أنه جعل اللّه قادرا على إظهار الآيات على كل ساحر . فإن علم أنه يقول : إنه نبى ، لم يقدر على أن يظهرها عليه . وهذا قول فى غاية الفساد ، لأن من قدر على شىء ، لم يجز أن يبطل قوتَه عليه علمُه بأن ذلك الذى يظهر فيه الفعل يقول : أنا نبى . ولا يُتوهَّم هذا ، ولا يتشكل فى العقل ، ولا يمكن البتة . وإنما هم قوم أهملوا حكم اللّه عليهم ، وأطلقوا حكمهم عليه . وما فى الكفر أقبح من هذا ولا أطمّ ولا أبرد . فاللّه قادر على إظهار الآيات على أيدى الكذابين المدعين للنبوة ، ولكنه لا يفعل ذلك كما لا يفعل مالا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه[2] .

ورفض ابن حزم ذهاب الباقلانى إلى أن التحدى هو الذى يميز المعجزة عن غيرها[3] .

واستدل على إبطال رأى الموافقين على الكرامات والسحر عامة بما يأتى :

١ - لم يقم برهان على وجود ذلك ، ولا صح قط به نقل ، وهو ممتنع فى العقل[4] .

٢ - لو كان ذلك ممكنا لاستوى الممتنع والممكن والواجب ، وبطلت الحقائق كلها . وأمكن كل ممتنع . ومن لحق هاهنا لحق بالسوفسطائية على الحقيقة[5] .

٣ - ونسأل من جوّز ذلك للساحر والفاضل : هل يجوز لكل أحد غير هذين أم لا يجوز إلا لهذين فقط ؟ لاربق

فإن قال : إن ذلك لا يجوز إلا للساحر الفاضل فقط - وهذا هو قولهم - سألناهم عن الفرق بين هذين وبين سائر الناس . ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم إلا بالدعوى التى لا يعجز عنها أحد .

---

(١) الفصل ٥/١٠٩ - ١٠ .
(٢) الفصل ٥ / ٩٩ ، ١٠٩ .
(٣) الفصل ٥ / ٨٤ .
(٤) الفصل ٥ / ١٠٠ .
(٥) نفسه .

وإن قالوا : إن ذلك جائز أيضا لغير الساحر والفاضل ، لحقوا بالسوفسطائية حقا ، و لم يثبتوا حقيقة ، وجاز تصديق من يدعى أنه يصعد إلى السماء ، ويرى الملائكة ... وسائر التخليط الذى من صار إليه وجب أن يعامل بما هو أهله إن أمكن ، أو أن يعرض عنه لجنونه وقلة حيائه[١] .

٤ - لا فرق بين من ادعى شيئا مما ذكرنا لفاضل وبين دعوى الرافضة رد الشمس على على بن أبى طالب مرتين ، حتى ادعى بعضهم أن حبيب بن أوس [أبا تمام] قال :

فـرُدَّت علينـا الشـمس والليـل راغـمٌ بشمس لهـم مـن جـانب الِخـدْر تَطلعُ
فضـا ضـوءُ هـاصِبْغَ الدُّجنَّـةَ فـانطوى لبهجتهـا ثـوب السـماء المجـزَّع
فواللّـه مـا أدرى : أأحـلام نـائم ألمت بنـا أم كـان فـى الرَّكـب يوشـع

وكذلك دعوى النصارى لرهبانهم وقدمائهم ، فإنهم يدعون لهم من قلب الأعيان أضعاف ما يدعيه هؤلاء . وكذلك دعوى اليهود لأحبارهم ... وهذا برهان كاف لمن نصح نفسه[٢] .

٥ - يقال لمن قال : إن السحر يحول الأعيان ويقلب الطبائع : أخبرونا : إذا جاز هذا ، فأى فرق بين النبى والساحر ؟ لعل جميع الأنبياء كانوا سحرة ، كما قال فرعون عن موسى : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾[٣] ... بل ما كان فعل السحرة إلا من حيل أبى العجائب فقط[٤] .

٦ - لو جاز ظهور المعجزة على غير نبى على سبيل الكرامة ، لوجب القطع على ما فى قلبه ، وأنه ولىُّ اللّه . وهذا لا يعلم من أحد بعد الصحابة - رضى اللّه عنهم - الذين ورد فيهم النص[٥] .

وذكر الجوينى أنه لما رأى كثرة خبط الناس فى إثبات الكرامات ونفيها ألف - فى إثباتها والرد على منكريها - كتابا ، ذكر لبابه فى « العقيدة النظامية » . وعلى هذا اللباب أعتمد فيما يلى :

---

(١) الفصل ٥/١٠٠ - ١ . (٢) الفصل ٥/١٠١ . (٣) سورة طه ٧١ .
(٤) الفصل ٥/١٠٨ . (٥) الفصل ٥/١٠٩ .

خوارق العادات - معجزات كانت أو كرامات - ليست من فعل العباد ، وإنما هى من فعل الرب . فمن فطر السماوات والأرض ، وسيطوى السماء ، ويبدل الأرض غير الأرض ، ويُسير الجبال ، ويفجر البحار ، وينشر الموتى : قادر على أن يأتى ببديعة . وليس فى فرض الإتيان بها قدح فى النبوات .

المعجزة لا تدل بعينها ، وإنما تدل من حيث تقع على وفق الدعوى فى النبوة . وذاك ما يفرق بينها وبين الكرامة .

والدليل على وقوع الكرامات : نطقُ القرآن به ، وتواتر الأخبار . فلا يجحده إلا مرتاب .

فأما ما أتى به القرآن فمنها ما جرى على يد مريم من بدائع الآيات ، ويستحيل أن تقدَّر معجزة لعيسى ، فإنها جرت قبل كونه ، والمعجزات لا تقدَّم على ثبوت النبوات .

ولو نقلت ما صح من الأخبار والآثار فيها لجاوزت موضوع « العقيدة » .

وفند الجوينى قولا خاصا لمن يشاركونه فى الإيمان بالكرامات حيث قال : فإن قيل : أتجوزون ظهور الكرامات مع دعوى من تظهر عليه ؟

قلنا : ذهب بعض مجوِّزى الكرامات إلى أنها تظهر فى غير إيثار واختيار ، وزعم أنها - بهذا الوجه - تتميز عن المعجزات .

وهذا قول من لم يحط بحقيقة الإعجاز . فإن المعجزة لا تدل من حيث تتعلق بالدعوى المطلقة المرسلة . وإنما تدل على النبوة من حيث تقع على وفق دعوى النبوة . فإن تعلق خارقُ عادةٍ بدعوى الذى ادعى النبوة ، دل على صدق تلك الدعوى . فإذا استشهد من قام فى المجلس وقال : أيها الملك : إنى من المقربين عندك ، والمخلصين فى محبتك . فإن كنت كذلك فقُم واقعد . ففعل الملك ذلك . دل على تصديقه . ثم ما هو مثل ذلك ، لا يدل على أن مثل ذلك - لو جرى هكذا من مدعى الولاية - لا يدل على صدق مدعيها .

نعم . لست أنكر أن سنة اللّه إظهار الكرامات - فى الأغلب - من غير إيثار واختيار . والذى ذكرناه فى التجويز ، لا فى الإخبار عما تجرى به سنة اللّه .

و لم يقنع الجوينى بذلك بل أجاز أن يأتى الكذابون بالخوارق ، قال : ولا يمتنع - على القاعدة الممهدة - أن يُظهر اللّه فتنة على يد من يدعى الربوبية من العباد ، كما ورد فى

الأقاصيص من إجراء اللّه النيل مع فرعون حيث دار ، وكما ورد فى الأخبار مما سيُجرى اللّه من الفتن وخوارق العوائد على يد المسيخ الدجال .

ولكنه ختم بأن هذه الخوارق معجزات(١) .

وسار الرازى فى ركب الأشاعرة فصرح : الكرامات ـ عندنا ـ جائزة ، خلافا للمعتزلة وللأستاذ أبى إسحاق منا ، لنا التمسك بقصة مريم وآصف . ثم تتميز الكرامة عن المعجزة بتحدى النبوة(٢) .

ويبدو أن القرطبى يتفق معهم إذ اكتفى بالقول : لا يقال : إن المعجزات المقيدة بالشروط الخمسة لا تظهر إلا على أيدى الصادقين ، وهذا المسيخ الدجال ـ فيما رويتم عن نبيكم يظهر على يديه من الآيات العظام ، والأمور الجسام ، ما هو معروف مشهور !

فإنا نقول : ذلك يدعى الرسالة ، وهذا يدعى الربوبية ، وبينهما من الفرقان ما بين البصراء والعميان . وقد قام الدليل العقلى على أن بعثة بعض الخلق إلى بعض غير ممتنعة ولا مستحيلة . فلم يبعد أن يقيم اللّه الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة .

ودلت الأدلة العقلية أيضا على أن المسيخ الدجال فيه التصوير والتغيير من حال إلى حال . وثبت أن هذه الصفات لا تليق إلا بالمحدَثات ، تعالى رب البريات عن أن يشبه شيئا أو يشبهه شىء ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير(٣) .

وأثبت ابن تيمية الكرامات ، لأنها ـ حسب قوله ـ موجودة مشهودة لمن شهدها ، متواترة عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء . وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء . فكيف يكذبون بما شهدوه ، ويصدقون بما غاب عنهم ، ويكذبون بما تواتر عندهم أعظم مما تواتر غيره ؟! (٤) .

ورأى أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم ، وهى من آيات نبوته(٥) .

وذهب إلى أن الخوارق من ثلاث مراتب :

آيات الأنبياء

---

(١) العقيدة ٥٢ ـ ٣ . (٢) محصل ٢٢١ . انظر الإيجى ٣٧٠ .

(٣) الجامع ٧١/١ ـ ٢ . انظر مدخل إسماعيل ٣٢٥ .

(٤) النبوات ٢ . عتر ٣٢ .

(٥) النبوات ١٢١ . عتر ٣٣ ـ ٤ . وانظر أبو فرحة ٨٣ ، ٩٣ .

ثم كرامات الصالحين

ثم خوارق الكفار والفجار

وأعلن أنه لا تبلغ كرامات أحد - قط - إلى مثل معجزات المرسلين ، لأن جنس معجزاتهم خارج عن مقدور البشر بل الأحياء جميعا . أما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان فهى من جنس أفعال الأحياء[1] .

ثم فرق بين خوارق الأولياء والكهان من وجهة السبب والغاية :

أما السبب فالصالحون يسمون اللّه ، ويذكرونه ، ويفعلون ما يحبه من توحيده وطاعته ، ومقصودهم نصر الدين والإحسان إلى المحتاجين . فييسر اللّه لهم - بذلك - ما ييسره .

وما يقصده الشياطين يحصل بسبب الشرك والكذب والفجور ، والمقصود به الإعانة على مثل ذلك[2] .

وعاب منكرى خوارق غير الأنبياء مصرحا : إنكار المعتزلة وابن حزم كرامات الأولياء والسحرة بناء على أن ذلك يقدح فى آيات الأنبياء جمع بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة وبين عدم العلم بآيات الأنبياء والفرق بينها وبين غيرها .

واتهم الأشعرية بأنهم - لما تيقنوا من وجودها - اضطروا إلى قبولها ، غير أنهم شاركوا المعتزلة فى التسوية بين الجنسين ، وجعلوا الفرق بينهما ما ليس بفرق ، وهو اقترانها بالدعوى ، والتحدى بمثلها ، وعدم المعارضة[3] .

واستند العلوى فى التفرقة بين المعجزة والشعوذة إلى :

الاحتياج إلى الأدوات وكد القوى ، قال : الشعوذة مفتقرة إلى الآلات بحيث لا يمكن حصولها إلا بها ، بخلاف المعجزات الباهرات فإنها غير مفتقرة إلى الآلة .

ولهذا فإن انقلاب العصاحية ما كان بحيلة ، ولا بإعمال قوة ، ولا بأدوات ، ولا بتحصيل آلات كما يفعله أهل الشعوذة . ومن كان ماهرا فى دقائق الحيل ، كأصحاب النِّيرنْجات وأهل الطلسمات ، فإنهم يعملون الحيل فى مزج قوى الجواهر ، لتحصل منها أمور غريبة . وهذه هى النيرنجات كما يفعله أهل خفة اليد .

وأما الطلسمات فحاصلها مزج القوى الفعالة السماوية بالأرض المنفعلة الأرضية ، كنقش خاتم عند طلوع كوكب . فيحصل من استعماله على أمور غريبة . وكل ذلك لابد فيه من إعمال القوى وكد الحواس ، فى استخراج قوانينه ، واستنهاض غرائبه .

---

(١) النبوات ٤ - ٧ . وانظر عتر ٣٣ - ٥ . الإيجى ٣٤٥ - ٧ .

(٢) النبوات ٢٦٠ .

(٣) النبوات ٢٦٨ .

فأما المعجزات السماوية فمما لا يحتاج فيها إلى استعمال شيء من الأشياء لكونها قد وقعت على وجه أدهش العقول ، وحير الألباب ، واضطرها إلى معرفة صدق من ظهرت عليه من غير كلفة ولا مشقة هناك[١] .

ولم يكتف الإيجي بجواز وقوع المعجز الكرامة على أيدى الأولياء فتجاوزهم إلى غيرهم مع شيء من الحذر ، فقال : إظهار المعجز على يد الكاذب — وإن كان ممكنا عقلا — فمعلوم انتفاؤه عادة كسائر العاديّات ، لأن من قال : أنا نبى ، ثم نتق الجبل وأوقفه على رؤوسهم ، وقال : إن كذبتمونى وقع عليكم ، وإن صدقتمونى انصرف عنكم . فكلما هموا بتصديقه بعُد عنهم ، وإذا هموا بتكذيبه قرب منهم ؛ عُلم - بالضرورة - أنه صادق فى دعواه ، والعادة قاضية بامتناع ذلك من الكاذب[٢] .

وأعلن أن الفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة لا تقع على القصد[٣] .

وكشف ابن خلدون عن موقف الفئات المختلفة من المعجزة والكرامة والسحر . وبدأ بالمتكلمين ، فأعلن إيمان المعتزلة بالمعجزات ، وعلى الرغم أنهم يرون أن أفعال العباد تصدر عنهم ، إلا أن المعجزات ليست من جنس أفعالهم ، وليس للنبى فيها إلا التحدى بها بإذن اللّه . ولذلك كان التحدى جزءا منها[٤] .

ولهذا السبب رفضوا الكرامات . ورأوا أن وقوع الخارق للعادة على يد الكذاب محال، لأن وقوع الدليل شبهةً والهداية ضلالةً ، قبيح ، فلا يقع من اللّه .

واتفق الأشعرية مع المعتزلة فى رفض خوارق الصالحين والكاذبين والاحتجاج بحجتهم. فصنعة نفس المعجزة - عندهم - التصديق والهداية . فلو وقعت بخلاف ذلك ، انقلب الدليل شبهة ، والهداية ضلالة ، والتصديق كذبا ، واستحالت الحقائق ، وانقلبت صفات النفس . وما يلزم من فرض وقوعه المحال ، لا يكون ممكنا[٥] .

وأما الحكماء فالخارق - عندهم - من فعل النبى ، ولو كان فى غير محل القدرة بناء على مذهبهم فى الإيجاب الذاتى . والنفس النبوية — عندهم — لها خواص ذاتية ، منها

---

(١) الطراز ٤٥٦/٣ — ٧ .
(٢) الموافقات ٣٤١ .
(٣) الموافقات ٣٤٧ .
(٤) المقدمة ٤٠١ — ٢ .
(٥) المقدمة ٤٠٢ .

صدور هذه الخوارق بقدرته ، وطاعة العناصر له فى التكوين . والنبى - عندهم - مجبول على التصريف فى الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها ، بما جعل الله له من ذلك[١] .

والخارق - عندهم - يقع للنبى ، سواء أكان للتحدى أم لم يكن . وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبى فى الأكوان ، الذى هو من خواص النفس النبوية ، لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق . فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ، ولا يكون التحدى جزءا من المعجزة ، ولا يصح فارقا لها عن السحر[٢] .

وذكر ابن خلدون أن الإسفرائينى وغيره منعوا وقوع الخوارق كرامة ، فرارا من التباس النبوة - عند التحدى - بالولاية . وصرح : على أن النقل عنه فى ذلك ليس صريحا . وربما حُمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم ، بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه[٣] .

وجلى أن ابن خلدون نفسه من المؤمنين بوجود الكرامات . قال : ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن فيكم محدَّثين ، وإن منهم عمر » .

وقد وقع للصحابة - من ذلك - وقائع معروفة ، تشهد بذلك ...

ومثل هذه الوقائع كثير لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء[٤] .

وذهب مع الذاهبين إلى أن التحدى هو الفارق بين المعجزة وبين الكرامة والسحر ، إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق ، فلا وجود للتحدى فيهما إلا إن وُجد اتفاقا .

وإن وقع التحدى فى الكرامة - وكانت لها دلالة - فإنما هى على الولاية ، وهى أمر غير النبوة[٥] .

وتعرض للتفرقة بين المعجزة والسحر بخاصة . فذكر أن المتكلمين يرجعون الفرق بينهما إلى التحدى ، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما ادعاه النبى . أما الساحر فمصروف عن مثل هذا التحدى ، فلا يقع منه[٦] .

أما الفرق عند الحكماء فهو فرق ما بين الخير والشر :

---

(١) المقدمة ٤٠٢ ـ ٣ .
(٢) المقدمة ٤٠٣ .
(٣) المقدمة ٤٠٢ ، ٤٢٣ .
(٤) المقدمة ٤٢٣ ـ ٥ .
(٥) المقدمة ٤٠٢ . وانظر ٤٠٨ ـ ٢٦ .
(٦) المقدمة ٤٠٢ ـ ٣ ، ١١٥٧ .

فالساحر لا يصدر منه الخير ، ولا يستعمل فى أسباب الخير ؛

وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ، ولا يستعمل فى أسباب الشر ؛

وكأنهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما[١] .

وأما عند الفلاسفة - الذين سماهم أيضا بالحكماء الإلاهيين - فالفرق :

أن المعجزة قوة إلاهية ، تبعث فى النفس ذلك التأثير . فالنبى مؤيد بروح اللّه على فعله ذلك . والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه ، وبقوته النفسانية ، وبإمداد الشياطين فى بعض الأحوال . فبينهما فرق فى المعقولية والحقيقة والذات فى نفس الأمر .

ويمكن الاستدلال على هذه التفرقة بعلامات ظاهرة هى :

وجود المعجزة لصاحب الخير ، وفى مقاصد الخير ، وللنفوس المتمحضة للخير ، والتحدى بها على دعوى النبوة .

والسحر إنما يوجد لصاحب الشر ، وفى أفعال الشر فى الغالب ، وللنفوس المتمحضة للشر[٢] . وهو قول من سماهم الحكماء فقط تقريبا .

أما فارق المعجزة عن الكرامة بخاصة : أن خوارق النبى مخصوصة كالصعود إلى السماء، والنفوذ فى الأجسام الكثيفة ...

وخوارق الولى دون ذلك ، كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل ، مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء .

ويأتى النبى بجميع خوارق الولى ، ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء .

وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ، ولُقّنوه عمن أخبرهم[٣] .

وفرق محمد عبده بين المعجزة والدجل والسحر ، وأقام تفرقته على الأسس الآتية :

- المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة .

- من المحال على اللّه أن يؤيد الكاذب . فإن تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال على اللّه .

- السحر وأمثاله : إن سُلّم أن مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات ، فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة ، فلا يقارب المعجزة فى شيء[٤] .

---

(١) المقدمة ١١٥٨ .
(٢) المقدمة ١١٥٦ .
(٣) المقدمة ٤٠٣ .
(٤) رسالة ٨٤ .

وذكر افتراق المسلمين فى النظر إلى الكرامات ، وما يؤيد به كل منهم رأيه من الأدلة . ثم خلص من ذلك إلى القول : بمجرد الجواز العقلى ، وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى تتناوله القدرة الإلاهية ، لا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء .

وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى للّه معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم - بإجماع الأمة - أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان . ولا يكون - بإنكاره هذا - مخالفا لشىء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ، حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها همم الأصفياء . وهو مما يتبرأ منه اللّه ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون[١].

ونثر محمد رشيد رضا الحديث عن المعجزة والكرامة والسحر فى أكثر من موضع من تفسيره ، ومجمل ما قال[٢] :

١ - أتقن اللّه كل شىء خلقه ، فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات . وهذا النظام المطرد فى الأكوان ، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن ، هو البرهان الأعظم على وحدانية خالق السماوات والأرض .

٢ - لا يحيط بسنن اللّه فى إبداع خلقه ، ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب ، غيره . وكلما ازداد البشر فيها نظرا ، ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون .

٣ - الأصل فى كل ما يحدث فى العالم أن يكون جاريا على نظام الأسباب والمسببات وسنن اللّه التى عليها العلم ، وأخبرنا الوحى بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل .

فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن ، فالأصل فيه أن يكون كذبا . فإن كان قد وقع فلابد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية .

٤ - لا يمكن العلم بآيات اللّه التى تجرى على غير سننه فى خلقه إلا بدليل قطعى .

---

(١) رسالة ١٨٥ - ٦ . وانظر رضا ١١/١٩٦ - ٧ .   (٢) المنار ١١ / ١٩٥ - ٩ .

٥ - انقطعت هذه الآيات بختم النبوة بمحمد ﷺ لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون - بعد هذا الوحي - إلى وحي آخر .

ولو كان للبشر حاجة - بعد القرآن - إلى الآيات - كما يدعى المفتونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة - لما كان لختم النبوة معنى .

٦ - لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء - في هذا العصر - بحجة لا يمكن لمن عَقَلها ردها إلا هذا القرآن[١] .

وقال : آيات الله في خلقه نوعان :

النوع الأول الجارية على سننه في نظام الخلق والتكوين . وهي أكثرها ، وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وإرادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته .

والنوع الثاني الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر . وهي أقلها ، وربما كانت أدلها - عند أكثر الناس - على اختياره - عز وجل - في جميع ما خلق وما يخلق ، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون . فالسنن مقتضى حكمته وإتقانه لكل شيء خلقه . وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة[٢].

ووصف النوع الثاني بأنها منقولة عن جميع الأمم ، في جميع العصور ، نقلا متواترا في جنسه دون أفراد وقائعه . وليست كلها خوارق حقيقية :

فإن منها ماله أسباب مجهولة للجمهور ،

وإن منها ما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ،

وإن منها ما هو من خصائص قوى النفس ، وتأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها[٣] .

وذكر أن عوام الشعوب - الذين يجهلون تواريخ الأمم ، وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب ، وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل - يغترون بما عندهم منها ، ويخضعون للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها ، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها . ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه كرامات الأولياء ، وعجائب القديسين . ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله ، حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الأمم من ذلك[٤] .

---

(١) المنار ١١ / ١٩٥ - ٧ .
(٢) المنار ١١ / ١٨٣ - ٤ .
(٣) المنار ١١/١٨٥ .
(٤) المنار ١١ / ١٨٥ .

بين أن آيات الله الحقيقية - التى نسميها المعجزات - فوق هذه الأعمال الصناعية الغريبة ، لاكسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها . وإن ما أيد به الله رسله منها ، لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله بها. ألم يهد لك كيف خاف موسى حين تحولت عصاه حية تسعى ، فولى مدبرا ، ولم يعقب لشدة خوفه منها ، حتى هدأ الله روعه ، وأمن خوفه[1] ؟

ثم تعرض للتفرقة بين المعجزة والكرامة ، مناقشة لحجج منكرى جواز الكرامات التى أوردها تاج الدين السبكى وردوده عليها إزالة للاشتباه واللبس ، قال :

١ - إن الله لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم، وذلك لا يكون إلا بإظهارها . فهو واجب لإتمام تبليغ الدعوة التى أرسلوا لتبليغها . والأصل فى الكرامة الإخفاء والكتمان . وكثيرا ما يكون ظهورها فتنة للناس . وما كان أهلها يظهرون ماهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة . وقد صرح بهذا العلماء والصوفية . فهو متفق عليه بينهم ، خلافا للمشهور بين العامة[2] .

٢ - المعجزة تقترن بدعوى النبوة دون الكرامة . فهى إنما تقترن بكمال اتباع الولى للنبى .

٣ - المعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها .

٤ - أورد أن بعض المنكرين قالوا : يجوز أن تظهر خوارق العادات على يد الولى سرا مستمرا بحيث لا يلحق بحكم المعتاد ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ، كما تقولون . فإذا ظهر نبى وتحدى بمعجزة ، جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات . فلا يتحقق فى حقه خرق العادة . فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد فى حقه ؟ وأيضا تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد فى حق الأولياء ، وذلك يصدهم عن تصحيح النظر فى المعجزة إذا ظهر نبى فى زمنهم .

وكان الجواب : لأئمتنا وجهان :

الأول : منع توالى الكرامات واستمرارها حتى تصير فى حكم العوائد . وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة . فلا يلزم ما ذكروه .

والثانى - وهو لمعظم أئمتنا قالوا : يجوز توالى الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يُعتاد ، لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات[3] .

---

(١) ١١ / ١٨٦ . (٢) ١١ / ١٨٦ - ٧ . (٣) ١١ / ١٨٧ .

وعقب رشيد رضا على هذه الأقوال بأن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والأصول على منع توالى الكرامات وتكرارها(١) .

وأبان الموقف الواجب حيال الخوارق فقال : إنما الذى يقضى به العقل ألا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة فى نظام الأسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتا قطعيا لا يحتمل التأويل . وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين ، وعلماء المادة ، وعلماء النفس ، وغيرهم . وقد ثبت فى هذا العصر من خواص الكهرباء وغيرها ما لو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل أنه من الممكنات لحكموا على مدعى إمكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات(٢) .

وجملة القول إن أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه ؛ وإنه قد وجد ـ فى كل عصر ـ وقائع غريبة تعد من هذه الأسرار الجارية على غير نظام السنن الإلاهية فى الخلق ، بحسب ما يتراءى للجمهور بادى الرأى ؛ وإن ما يتناقله الجمهور المولع بالغرائب منها :

منه ما هو كذب محض ،

ومنه ما له أسباب علمية أو صناعية خفية يجهلها الأكثرون ،

ومنه ما يُظن أنه من خوارق العادات وليس منها ،

ومنه ما سببه الوهم كشفاء بعض الأمراض أو انخداع البصر بالتخييل الذى يحذقه المشعوذون ،

ومنه انخداع السمع كالذى يفعله الذين يدعون استخدام الجن(٣) .

وأعطانا أسماء الخوارق التى شاعت عند الناس ، قال علماء الكلام : إنها تقع للمؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبى والساحر . ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه :

فتسمى معجزة للنبى المرسل إذا تحدى بها ،

وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ،

ومعونة لمن دونه من المؤمنين ،

واستدراجا للكافر والفاسق(٣) .

---

(١) ١١ / ١٨٧ .
(٢) ١١ / ١٩١ .
(٣) ١١ / ١٩١ ، ١٩٧ .
(٤) المنار ١١ / ٣٦٦ .

ولما كان القرآن وما صح من الحديث هو المعيار - عنده - لصحة الخوارق أو كذبها ، فقد اضطر أن يقبل أن للمسيح الدجال خوارق ، لأن الأحاديث صرحت بأنه يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ما قلما كان مثله فى المعجزات حتى إحياء الموتى[١] .

وكتب فصلا طويلا عن « حقيقة السحر وأنواعه » إضافة إلى إشارات متعددة[٢] .

ونستطيع أن نجمل موقفه فيما يلى :

عرف السحر بأنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل ، تخفَى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها . فمتى عرف سبب شىء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه .

وجعله ثلاثة أنواع :

الأول ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعالم المجهولة عند من يسحرهم بها ، ومنها الزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم .

والثانى الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها .

الثالث ما مداره على تأثير الأنفس ذوات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعال التى تسمى - في عرف علماء هذا العصر - بالهستيرية[٣] .

واستنتج من هذا البيان تخطئة من قال من المتكلمين : إن السحر من خوارق العادات الذى هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء[٤] .

وأقام تفرقته بين المعجزة والسحر على أن السحر صنعة تتلقّى بالتعليم والتمرين ، فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر[٥] ؛

وعلى ما قاله أبو بكر أحمد بن على الرازى المعروف بالجصاص (٣٠٥ - ٣٧٠ / ٩١٧ - ٩٨٠) قبله من أن معجزات الأنبياء هى على حقائقها ، وبواطنها كظهائرها ، وكلما تأملتها ازددت بصيرة فى صحتها . ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ، ظهر عجزهم . ومخارق السحرة وتخييلاتهم إنما هى ضرب من الحيلة

---

(١) المنار ١١ / ٣٦٦ .
(٢) المنار ٣٢٩/١ - ٣٢ ، ٦ / ٤١ - ٥٢ .
(٣) المنار ١ / ٤١ .
(٤) المنار ٤١/١ - ٢ ، ٤٤ .
(٥) المنار ٤١/١ - ٢ .

والتلطف ، لإظهار أمور لا حقيقة لها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث . ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ما أظهره سواه[١] .

وكان الرافعي أول من تعرض للتفرقة بين المعجزات والمخترعات من مصادري . قال : سبيل نظم القرآن - في إعجازه - سبيل هذه المعجزات المادية التي تجيء بها الصناعات - وكثيرة ما هي - إلا في شيء واحد ، هو - في القرآن - سر الإعجاز إلى الأبد .

وذلك أن معجزات الصناعة إنما هي مركبات قائمة من مفردات مادية ، متى وقف امرؤ من الناس على سر تركيبها ، ووجه صنعتها . فقد بطل إعجازها . بخلاف الكلام الذي هو صور فكرية ، لابد في أوضاعها من التفاوت ، على حسب ما يكون من اختلاف الأمزجة والطباع وآثار العصور - ولا تُجزئ فيها الصناعة وآلاتها - من صفاء الطبع ، ودقة الحس ، وسلامة الذوق ، ونحوها مما يرجع أكثره إلى الفطرة النفسية في أي مظاهرها[٢] .

وعني د. عبد العزيز إسماعيل بالتفرقة بين المعجزات والمخترعات في إيجاز . فقال : قد يقول البعض إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودا في مدة الأنبياء ، لَعُدت معجزات .

وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقي للمعجزات لم يُفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير ، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنهما حتى يجدها . فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات ، وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى . وهكذا إلى مالا نهاية . فالسنن الإلاهية أو القواعد العلمية (أو قواعد الطبيعة ، كما يسميها الطبيعيون) لا حد لها ، ولا تتغير أبدا . وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى ، وعلى قواعد لا تتغير أيضا . وكل ما يظهر مدهشا - في نتيجته - من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ، هو من الاستعانة بهذه القواعد[٣] .

والمعجزة لا تتكرر أبدا إلا بإذن الله ، لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ، ولا يدرك طريقة

---

(١) المنار ٥٢/١ .
(٢) إعجاز ٢٠٨ . وانظر الزرقاني ٦٩/١ .
(٣) الإسلام ٤٩ .

صنعها . أما الاختراع فإنه اكتشاف لناموس إلاهى (طبيعى) ، ولذلك هو يتكرر دائما فى الظروف نفسها على يد كل إنسان[١] .

وأعقبه الزرقانى فتناول التفرقة بين المعجزات والمخترعات والسحر فى فصل خصصه لدفع الشبهات التى يرددها كثير من المفتونين .

وكانت الشبهة الأولى عنده قولهم : إن المعجزات شأنها شأن كثير من المخترعات : فإذا كان فيها طرافة أو دهشة أو عجب ، فكذلك آثار العلم ومدهشاته فيما نرى ونسمع .

وكان جوابه أن الفرق بعيد والبون شاسع بين المعجزة وما جدَّ أو يجد فى العالم من عجائب العلم ، وروائع الفن ، وبدائع الاختراع . فالمعجزة ليست لها أسباب معروفة حتى تُلتمَس ويؤتى بمثلها . أما هذه المخترعات فإن لها أسبابا معروفة عند أصحابها ، ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى التمسها من طريقها[٢] .

وهو عين ما قال الرافعى .

وكانت الشبهة الثانية قولهم : إن المعجزة كالسحر والشعوذة وما إليهما : إن هى إلا تخييلات وتضليلات .

وكان جوابه أن المعجزة نفحة من نفحات الحق تخرج عن أفق الأسباب المعتادة ، والوسائل المشاهدة ، والغايات المألوفة . أما السحر وما أشبهه فإنها فنون خبيثة ، ذات قواعد وأوضاع يعرفها كل من ألَمّ بها ، ويصل إلى وسائلها وغاياتها كل من عالجها من بابها . ولهذا كان أول من آمن بموسى هم السحرة أنفسهم ، لأنهم أعلم بهذا الفرق الواضح والبون الشاسع[٣] .

واتسع د. حسن ضياء الدين عتر اتساعا ملحوظا فى تناول الفرق بين المعجزات والكرامات والكشوف العلمية والدجل .

أما الكرامات فقد عرفها بأعمال خارجة عن سنن العادات المألوفة ، تجرى على يد بعض الصالحين والعارفين بالله ، من غير أن يبذلوا - فى تحصيلها - أسبابا مادية ملائمة . وإنما هى منح إلاهية يهبها الله لمن يشاء ، ويمنعها عمن يشاء ، ومثالها تكثير الطعام أو الشراب القليل[٤] .

---

(١) الإسلام ٥٢ .

(٢) مناهل ٦٩/١ .

(٣) مناهل ٦٩/١ . - ٧٠ .

(٤) بينات ٢٨ .

وذهب إلى أنها ممكنة عقلا ، ثابتة نقلا ، واستشهد على ذلك بالقرآن والحديث والأخبار[١] .

ويستفاد من كلام العلماء أن الكرامة :

لا تكون مقرونة بدعوى النبوة ،

ولا يشترط فيها التحدى

أو السلامة عن المعارضة[٢] .

وأما المخترعات العلمية فقد قال بشأنها : لقد كشف العلم الحديث ــ فى تقدمه الدائم - عن كثير من المواد وعن خصائصها ، كما عرّف الإنسان بكثير من سنن الطبيعة ونواميسها . فمكّنه - بذلك - من الانتفاع من المواد الطبيعية بوجوه لم يعهدها الإنسان القديم ، كما ساعده على استغلال ظروف الطبيعة وأجوائها للحصول على فوائد جمة[٣].

لكن كافة الناس قد علموا أن أى امرئ موهوب يقدر على تنمية مواهبه وميوله فيما تنزع إليه من علوم وفنون ، فيبلغ شوامخ قمم العلم . وقد يبز أقرانه ، ويحوز قصب السبق على أساتذته بالذات . لكن رقيه تلك المنزلة ليس متوقفا على صدقه وصلاحه وحسن خلقه . فالبر والفاجر ــ فى اعتلاء كرسى العلم والصناعة - سواء .

وليس بخاف - على عامة العقلاء - أن تلك المخترعات ليست خارقة للعادة ، وأنها أمور كسبية لها قوانينها ومبادئها ، من تعلمها وتفرغ لها حقق نتائجها .

أما المعجزة فإنها خارقة لعادة ، ليست تعتمد على قوانين الطبيعة ولا على خواص المادة . فهى منحة للرسول ، يثبت بها قدمه ، ويقيم له الحجة على صدقه ، لينشر رسالته التى أرسله بها .

وكذلك الكرامة مخالفة لسنن الطبيعة وخصائص موادها . فلا تظهر إلا على أيدى صلحاء المؤمنين بالله ، تكرمة لهم ، وإثباتا لصحة طريقهم وقبول الله أفواج السالكين فيه[٤] .

وقال عن السحر وما إليه : إن عقلاء البشر ــ الذين يسبرون أغوار المشكلات الإنسانية - يوقنون أن الله لا يسوى بين الصادق والكاذب فى الدلائل ، بل يميز هذا من

---

(١) بينات ٢٩ ــ ٣٣ .

(٢) بينات ٣٥ .

(٣) بينات ٣٧ .

(٤) بينات ٣٨ .

ذاك بالدلائل الكثيرة . فهو يميز - بالأولى - بين النبى والدعى . فإن مقتضى عدله وسنته التى لا تتبدل ، وحكمته التى تتنزه عن نقيضها ، أن يسوى بين المتماثلات ، ويفرق بين المختلفات . فكيف يسوى بين أفضل الناس وأكملهم صدقا ، وبين أرذل الناس وشرهم كذبا ، فيما يتوقف عليه صلاح البشر أو فسادهم فى الأديان والأعراض والحقوق وفى دنياهم وآخرتهم ؟؟[1] .

ولابد أن يتضح فى الذهن - أولا - أن ما يأتى به الساحر والكاهن وأصحاب الحيل والشعبذة وجميع الذين لا يقتدون بالأنبياء ، ليس خارجا عن قدرة الإنس والجن . وما يقدر عليه الجن هو من جنس مقدور الإنس ، وإنما يختلفون فى الأسلوب ، كل حسب طبيعته ووسائله . فالجن قد تطير فى الهواء أو تطفو على الماء ، لكنهم مخلوقات ضعيفة لا تضاهى أفعالهم المعجزات النبوية .

إن كلا من الساحر والكاهن يستعين بالشياطين فى استطلاع بعض الأخبار ، وإظهار العجائب ، وإيذاء الناس . وقد يخبر الساحر أو الكاهن الناس بشىء ، فيكون حقا . وطريقه - فى هذا - إما الحدس والتخمين وقياس الحادثة بنظائرها الماضية ، وإما خبر تلقفه من جنى شهد الحادث أو علم به . فيتحدث الساحر أو الكاهن به ، مضيفا إليه ما تسول له نفسه من أكاذيب[2] .

والخلاصة أن عجائب السحرة والكهنة فنون أشبه ما تكون - من ناحية تلقيها عن الآخرين - بالعلوم والصناعات المعروفة . فمن أراد إتقانها سلك مسلك أهلها واجتمع بمعلميها ، فيحقق نتائجهم أو يتفوق عليهم . فهى فنون تلزم روادها بالتفرغ والتعلم والمزاولة .

ونتاج السحرة والكهنة - بجانب المعجزة - سخيف هزيل لا يساوى شيئا ، مما يثبت أنه يغاير المعجزات والكرامات ، وأنه دونها بكثير . فأين هى من خلق الناقة فى قلب الصخرة لسيدنا صالح ، ومن نبع الماء من بين أصابع سيدنا محمد ؟! لذا نجد العقلاء من أهل فن السحر والكهانة ينكبون على الإيمان بالرسل . فقد خرّ سحرة فرعون ساجدين وقالوا : آمنا برب موسى وهارون . واعتزل أبو بَرْزة الأسلمى - من أهل المدينة - الكهانة وآمن بالله ورسوله[3] .

---

(١) بينات ٣٩ . (٢) بينات ٤٠ - ١ . (٣) بينات ٤٥ - ٦ .

وتعرض داود العطار للتفرقة بين المعجزات والكشوف العلمية ، فذهب إلى أن من يأتي بأمر بناء على الحس والتجربة ، ليس بمعجزة ، لعدم توافر خرق القوانين الطبيعية فيه . فالصعود إلى القمر - أو المريخ ليس بمعجز ، لأنه قائم على التجارب ، مسبوق بتعلم وتدارس وتجارب ، فاقد لصفة خرق القوانين الطبيعية . وكذا الحال فى معالجة الأمراض - مثلا - بالإيحاءات النفسية ، أو الموادّ المشعة ، أو أى ابتكار لمرض عضال ؛ ولأن عجز الآخرين عن القيام بمثل هذه الأمور ليس عجزا مطلقا ، بل هو عجز نسبى ، سببه عدم التعلم ، أو الجهل بالتجربة . فكما صعد إلى القمر إنسان غربى ، صعد إليه إنسان شرقى . ولهذا فإن مثل هذه الأمور ليس فيها خرق للعادة الطبيعية الجارية فى تسخير قوى الطبيعة لمشيئة الإنسان ، بل هى موافقة لها ، متفقة معها تماما ، ولا تعدو أن تكون إخضاع قوى الطبيعة لإرادة الإنسان .

وواضح أن النبى الكريم - بقرآنه العزيز - خرق النواميس الطبيعية ، وجاء بمعجز من غير سبق تعلم وتعليم ، معجز للإنس والجن(١) ...

وفى هذا الصدد قال محمود بسيونى فودة : الأمر الخارق للعادة يختلف تماما عما جرت به العادات كسحر الساحر مثلا . فالسحر ما هو إلا فن من الفنون لدى أهل السحر ، وهى أمور معتادة يتلقاها الخلف عن السلف .

والأمر الخارق للعادة يختلف - أيضا - عن الاختراع البشرى . فصنع الطائرة والغواصة والصاروخ يختلف تماما عن المعجزة . ذلك أن الاختراع البشرى يبنى على نظريات علمية وطرائق هندسية ، بعد تجارب عديدة ، فيكتشف الإنسان أشياء كان يجهلها فى الكون ، وهى موجودة(٢) .

ثم فرق بين المعجزة والكرامة بأن الكرامة تظهر على يد شخص ظاهره الصلاح . أما الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد شخص ظاهره الفساد : فإن كان ذلك مما وافق قصده فإمهالٌ واستدراج ، وإن ناقض قصده وخالفه فهو إهانة وتحقير .

أما ما يكون قبل النبوة فيسمى الإرهاص(٣) .

كذلك تعرض الذهبى للتفرقة بين المعجزات والمخترعات فقال : إن المماثلة بين معجزات الأنبياء ومخترعات العباقرة ممنوعة . ذلك لأن المعجزات ليست لها أسباب

(١) موجز ٤٩ - ٥٠ .   (٢) المرشد ٢٢٧ .   (٣) المرشد ٢٢٨ .

معروفة ، ولا هى مبنية على نظريات علمية مدروسة .

إن النبى تظهر على يده المعجزة ، وهو لا يعرف كيف وقعت ، ولا على أى ناموس من نواميس الكون نتجت . بل و لم نسمع أن نبيا من الأنبياء نسب شيئا من ذلك لنفسه ، أو أرجعه إلى نبوغ فيه ، أورده إلى معرفة منه وعلم عنده . ومن هنا تجرد محمد — كما تجرد غيره من الأنبياء — عن الحول والطول ، فقال لمن طلبوا منه معجزات بعينها : ﴿سبحان ربى ، هل كنت إلا بشرا رسولا ؟﴾ [١].

ومن هنا أيضا ، نعلم سر فزع موسى حينما ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . إذ لو كان ما جاء به عن ممارسة ومدارسة لما عراه الخوف وتملكه الفزع ، حتى إنه ليولى مدبرا لا يلوى على شىء ، ثم لا يسترد أمنه وطمأنينته إلا بعد أن يناديه اللّه بقوله : ﴿ يا موسى : أقبل ولا تخف . إنك من الآمنين ﴾[٢] .

أما المخترعات التى تفتقت - ولا تزال تتفتق - عنها عقول العباقرة من العلماء فذلك كله نتيجة دراسات علمية ، وأبحاث تجريبية . و لم يدع عالم ولا عبقرى أنه أتى بشىء معجز لا يقدر عليه غيره . والشواهد ناطقة بأن العلم فى تقدم مطرد ، يأتى عالم بعجيبة علمية ، ويأتى عالم - من بعده - بما هو أعجب وأغرب ...

ثم إن معجزات الأنبياء كلها ليست بالأمر الذى يمكن لبشر ما — مهما أوتى من العبقرية والنبوغ - أن يأتى بمثله ، لأنها من صنع اللّه القادر على كل شىء .

فمثلا هل استطاع أى سحار عليم أن يقلب العصا — وهى جماد أصم — إلى أفعى حقيقية تسعى على بطنها ، ثم تبتلع كل ما يعترضها من حبال وعصى . كما فعل موسى[٣] ...

كذلك فرق الذهبى بين المعجزات والسحر ، فذهب إلى أن السحر والشعوذة والنيرنجات وغيرها من أساليب التمويه والخداع فنون تُدرَس ، ولها قواعد معروفة ، وفيها كتب مؤلفة ، يمكن لكل إنسان أن يدرسها ويبرع فيها كما برع غيره وأكثر . وكل دارس لها يعرف - عن يقين - أنها بعيدة كل البعد عن مشابهة المعجزات . وقد عرفنا — آنفا - أن المعجزات - كلها - حقائق عن اللّه ، لا تقوم على نظريات علمية ، ولا تتأتى لغير من خصه اللّه بها من الأنبياء[٤] .

---

(١) سورة الإسراء ٩٣ .

(٢) سورة القصص ٣١ .

(٣) الوحى ٢٦ — ٧ .

(٤) الوحى ٢٨ .

ولم ينكر الذهبى أن يكون لبعض أولياء الله ، ممن صفت نفوسهم ، وسمت روحانيتهم ، مشارفة - فى بعض أحوالهم - على شىء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال ، لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع .

ثم استدرك فأعلن أن هناك فارقا كبيرا بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء :

١ - فمعجزات الأنبياء جاءت مقرونة بدعوى النبوة . أما كرامات الأولياء ــ فمع كونها لا تطاول معجزات الأنبياء ، وإنما تقاربها وتأخذ منها بشبه ــ ليست مقرونة بدعوى النبوة منهم . وإنما هى مقرونة بكمال التبعية لأنبيائهم .

٢ - ومعجزات الأنبياء مبنية على الظهور والإعلان ، لأنها حجتهم على دعوى النبوة.

أما كرامات الأنبياء فمبنية على الإخفاء والإسرار ، وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة . ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله ، حتى إنه ليطلب منه الأمر الخارق للعادة فيجاب إليه ، لخرج من عداد الأولياء ، وعد فى زمرة الأفاكين الأدعياء .

٣ - والمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة .

أما الكرامة فإنها تختص ببعض الخوارق دون بعض . فهى تتعلق ــ عادة ــ بالخوارق التى لا تبلغ حد المعجزة فى الغرابة والاستبعاد[1] .

تعقيــــب

تكشف هذه الجولة أن المفكرين عنوا عناية شديدة بما يشاع عن ظهور غرائب تشبه الخوارق على أيدى أناس ليسوا بأنبياء .

فلم يفرق المتحدثون - قديما - بين هذه الغرائب ، وأعطوها أسماء متشابهة مترادفة فى عرفهم .

ولعل أول تفرقة وقعت كانت فى القرن الرابع ، بين ما يحدث على أيدى الأنبياء وما يحدث على أيدى أولياء الله الصالحين . فسميت الأولى بالمعجزات والثانية بالكرامات . والدليل على ذلك الكتاب الذى ألفه الباقلانى .

---

(١) الوحى ٢٩ ــ ٣٠ .

وفى مطلع العصور الحديثة أعطانا محمد رشيد رضا الأسماء التالية :

المعجزة لما يأتى به النبى متحديا .

الكرامة لما يأتى به الصالح المتبع للنبى .

المعونة لما يأتى به من دونه من المؤمنين .

الاستدراج لما يأتى به الكافر والفاسق .

ثم أعطانا محمد عبد العظيم الزرقانى الثلاث التالية :

الكرامة لما يظهر على يد شخص ظاهره الصلاح .

الإمهال والاستدراج لما يظهر على يد شخص ظاهره الفساد .

وإذا بدأنا بالكرامة وجدنا المعتزلة وبعض الشيعة يرفضونها رفضا باتا . أما الأشاعرة فقد زعم ابن خلدون أنهم رفضوها مثل المعتزلة ، وليس ذلك بصحيح . وأما ابن حزم فقد رفضها رفضا قاطعا إلا ما وقع منها لبعض الناس فى حياة الأنبياء . أما بعد موتهم فلا تقع كرامات مطلقا .

ويبقى الإسفرائينى . فقد ذكر الرازى وابن تيمية وابن خلدون أنه كان ممن رفضوها . ولكن الأخيرين - فى الوقت نفسه - شكا فى صحة ما قيل عنه . وذكر الإيجى أنه كان يقر بوجود الكرامات ، غير أنه يرى أنها لا تبلغ درجة المعجزات .

واتفق ابن تيمية مع ابن حزم فى عد الكرامات معجزات للأنبياء الذين ينتمى إليهم أصحابها .

وعلى الرغم من قبول محمد عبده ورشيد رضا للكرامات ، حذرا من قبول كل دعاواها لكثرة الدجالين .

وقد حرص كل من أجاز الكرامات أن يبين الفوارق بينها وبين المعجزات منعا للالتباس .

وأقدم فارق أعلنه الباقلانى ، وهو ضرورة التحدى للمعجزة ، وعدمه فى الكرامة ، ومن ثم اشترطه الأشاعرة ، ووافقهم الرازى ، وابن خلدون الذى أجاز أن يقع التحدى عفوا فى الكرامة .

وذهب الجوينى إلى أن ما يفرق بينهما هو وقوع المعجزات وفق دعوى الأنبياء .

ووافق ابن تيمية وابن خلـدون ورضـا والذهبـى الإسـفرائينى فـى كـون الكرامـة دون المعجزة .

وفرق ابن تيمية بينهما فى الأسباب والغايات ، والإيجـى بوقـوع المعجـزة علـى قصـد النبى ، ورضا والذهبى كتمان الكرامة ، ورضا عدم توالى الكرامات .

وقد احتج من قبلوا الكرامات بذكرها فى القرآن والأحاديث والآثار والأخبار وتواتـر ذلك . وأضاف ابن تيمية مشاهدة بعضها .

والتفت المفكرون إلى إمكان وقوع كرامات على أيدى مدعى النبـوة والفاسـدين مـن الناس . فرفضها المعتزلة والأشعرية وابن حزم والعلوى لما تـؤدى إليـه مـن لبـس . وقبلهـا الجوينى والإيجى وعتر وفودة . وأخطأ رضا فى زعمه أن علماء الكلام يجيزون الكرامـات للمؤمن والكافر ...

ورفـض ابـن حـزم مـا ينسـب إلى المسـيح الدجـال ، وعـده مـن قبيـل الحيـل والشـبه والشعبذة . وقبله الجوينى ورضا لوروده فى بعض الأحاديث والأخبار .

كذلك عنى المفكرون عناية كبيرة بالسحر الذى آمنوا كلهم بوجوده ، وإن كـان ابـن حزم جعله من الإفك والتخييل والحيل . وذهب ابن حزم ورضا إلى أن له أنواعا ذكراها ، وإن كنا نلحظ أن ابن حزم ذكر فيها ضروبا لا تعد من السحر .

وواضح أنهم جميعا يفرقون بين المعجزات والسحر ، وإن لم يعلن ذلك إلا قليـل منهـم مثل ابن حزم . وأقام عتر التفرقة بينهما على أسس أن كـل أنـواع السـحر لا تخـرج عـن قدرة الإنس والجن ، ويمكن تعلمها وإتقانها ، بل إن بعضها سخيف هزيل .

وجدّ فى العصر الحديث التفرقة بين المعجزات والمخترعات والكشـوف العلميـة . بـدأ بها الرافعى ، وتلاه د. عبد العزيـز إسمـاعيل فالزرقـانى ثـم عـتر وداود وفـودة والذهبـى . والفـارق الأساسـى هـو أن هـذه الكشـوف علـم يمكـن أن يقلـد بـل ويجـود ، وليسـت المعجزات كذلك .

ونلحظ :

أن الأشعرى - فى المقالات - لم يبين له موقفا من شىء ، وإنما اقتصر على إبانة مواقف الشيعة من الكرامات - ومماثله - تقريبا - ابن خلدون الذى وجه أكبر قسط مـن عنايتـه إلى من سماهم المتكلمين والحكماء والفلاسفة والمعتزلة .

وأن الباقلانى كان جريئا ومندفعا فى التعبير عن قدرة اللّه والناس ، فجلب عليه الردود العنيفة من خصمه ابن حزم .

وأن ابن حزم قدم مقدمات ليبنى عليها الرأى الصحيح . وسار سيره محمد عبده ورضا .

وأن ابن حزم عنى عناية فائقة بالرد على خصومه . وتابعه فى ذلك - إلى حدما — ابن تيمية ورضا .

وأن الباقلانى والجوينى ألفا كتابين فى التفرقة بين المعجزة والكرامة ، وأن ما كتبه ابن حزم عنهما وعن السحر يؤلف رسالة ، وأن الزرقانى جعل فصلا خاصا لذلك .

وأن شعبان محمد إسماعيل اعتمد اعتمادا واسعا على أقوال القرطبى .

الفصل الرابع

الموازنة بين معجزات الأنبياء

أقدم ما عثرت عليه جملة واحدة أتى بها الجاحظ ، أعلن فيها أن القرآن أعجب ما آتاه الله نبيا قط[١] .

وذكر عبد الجبار أن شيوخه من المعتزلة قالوا : خص الله رسوله بالقرآن ، من حيث ختم به النبوة[٢] ، وبعثه إلى الناس كافة[٣] ، وجعل شريعته مؤبدة[٤] ، لأن غيره من المعجزات يجوز أن يدرس [يندثر] على الأوقات[٥] ، ويضعف النقل فيه . وذلك لا يتأتى فى القرآن ، لأنه من حيث تضمن التنبيه على أدلة العقل والتوحيد ، والأدلة على الحلال والحرام ، ومسيس الحاجة إليه لصحة العبادات ، وعظم الثواب بتلاوته ، قويت الدواعى إلى حفظه[٦] .

وعد الرمانى قياس القرآن بغيره من المعجزات إحدى الجهات التى تظهر منها وجوه إعجازه . وعلل ذلك بأن سبيل فلق البحر وقلب العصا حية ، وما جرى هذا المجرى فى ذلك ، سبيل واحد فى الإعجاز[٧] .

وعبارة التعليل غامضة ، وأخشى أن يكون اعتراها بعض النقص وأن صحتها : سبيل القرآن وسبيل فلق البحر ... سبيل واحد فى الإعجاز ، أى أن إعجاز القرآن مثل إعجاز معجزات سائر الأنبياء .

وذهب الباقلانى إلى أن القرآن يختلف عن غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء ، ويفارق حكمه حكمها ، لأنها لا تدل على نفسها إلا بأمر زائد عليها ، ووصف منضاف إليها[٨] . وليس كذلك القرآن ، لأنه يشاركها فى هذه الدلالة ، ويزيد عليها

---

(١) حجج ٢٨٠ . إعجاز الخطيب ١٣٨/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٣٣ .
(٢) المغنى ١٦ / ١٦٤ . كفافى ١٣٨ . وانظر صقره .
(٣) المغنى ١٦ / ١٦٤ . كفافى ١٣٨ . (٤) المغنى ١٦ / ١٦٥ . كفافى ١٣٨ .
(٥) المغنى ١٦ / ١٦٥ . كفافى ١٣٨ . وانظر الماوردى ٥٨ . عياض ٧٣٨ . القرطبى ٧٢/١ . الإتقان ٣٢٤/٢ ــ ٥ . الزرقانى ٢٣٢/٢ . الحمصى ١٠٨ ، ١٩١ ، ٢٩٤ . فقيهى ١٦ . إعجاز الخطيب ١٢١/١ ، ٢٧٦ ، ١٢١/٢ . طبارة ٢٩ . موسى لاشين ٢٤٤ . حميدة ٣٣ . الصابونى ٨٧ ــ ٨ . الصباغ ٥٠ . عطا ٢٣٥ . أبو حمدة ١٨ . العطار ٥٢ . شبهات ٢٨ . طلبة ٨٦ . فودة ٢٢٩ . أبو سليمان ٩٨ . الذهبى ٦٥ . الكومى ١٣ . (٦) المغنى ١٦ / ١٦٥ .
(٧) النكت ٦٩ ، ١٠٣ . (٨) إعجاز ١٤ . الحمصى ١٦ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ .

فى أن نظمه معجز ، فيمكن أن يستدل به عليه[١] .

وفسر هذا القول بأن هذه الكتب - وبخاصة التوراة والإنجيل والصحف - وإن كان ما تتضمنه من الغيوب معجزا[٢] ، فإنها غير معجزة فى التأليف والنظم[٣] . وبرر ذلك بأن اللسان الذى نزلت به لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز ولكنه يتقارب .

ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشىء الواحد من الأسماء ما نعرف من العربية . وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية . وكذلك التصرف فى الاستعارات والإشارات ووجوه الاستعمالات البديعة[٤] .

ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ما قد اتفق فى العربية ، وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يمكن ويتأتى فى العربية .

وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية[٥] .

واستدل على عدم إعجاز هذه الكتب فى النظم بالأدلة التالية :

- أن الله لم يصفها بما وصف به القرآن[٦] .

- أنا علمنا أنه لم يقع التحدى إليها كما وقع إلى القرآن[٧] .

- أنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادعوا الإعجاز لكتبهم[٨] ، ولا ادعى لهم المسلمون ذلك[٩] .

---

(١) إعجاز ١٤ — ٥ . الإتقان ٣٤٥/٢ . الحمصى ١٦ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ . وانظر الزركشى ١٠٧/٢ . ابن خلدون ٤٠٣ . الحمصى ٢٩٤ . إعجاز الخطيب ٨٠/١ — . كفافى ١٣٧ . عطا : أسرار ٢٣٤ . عظمة ٥٤ ، ٨٣ . أبو سليمان ١٠٠ .

(٢) إعجاز ١٤ ، ٣١ ، ٢٦٠ . الإتقان ٣٤٥/٢ . الحمصى ١٦ ، ٧٤ . شاكر ١٨ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ . وانظر معترك ١٩/١ . السلامى ٥٤ .

(٣) إعجاز ١٤ ، ٣١ ، ٢٦٠ . الإتقان ٣٤٥/٢ . اتجاهات مطلوب ١٤٣ . وانظر معترك ١٠/١ . الحمصى ١٦ . شاكر ١٨ . السلامى ٥٤ .

(٤) إعجاز ٣١ .

(٥) و(٦) إعجاز ٣٢ . الإتقان ٣٤٥/٢ . وانظر معترك ١٠/١ .

(٧) إعجاز ٣١ . الإتقان ٣٤٥/٢ . وانظر معترك ١٠/١ . موسى لاشين ٢٤٩ .

(٨) و(٩) إعجاز ٣٢ . ضيف ١٠٨ . وانظر موسى لاشين ٢٤٩ .

واستخلص من ذلك أن الإعجاز [الفنى] مما يختص به القرآن[١] .

فإن قيل : إن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت وكتاب مانى معجزان !

قيل : الذى يتضمنه كتاب مانى من طرق النِّيرَنْجات [ما يشبه السحر] ، وضروب الشعوذة ، ليس يقع فيها إعجاز .

ويزعمون أن فى الكتاب الحكم ، وهى حكم منقولة ، متداولة على الألسن ، لا تختص بها أمة دون أمة ، وإن كان بعضهم أكثر اهتماما بها ، وتحصيلا لها ، وجمعا لأبوابها[٢] .

وذهب الماوردى إلى أن محمدا خُص بإعجاز القرآن من جميع رسله ، وإن كان كلاما ملفوظا ، وقولا محفوظا ، لثلاثة أسباب صار بها من أخص إعجازه ، وأظهر آياته :

أحدها أن معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره[٣] ...

والثانى أن المعجز فى كل قوم بحسب أفهامهم ، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم . وكان فى بنى إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة ، لأنه لم ينقل عنهم ما يدرون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر ، وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم . والعرب أصح الناس أفهاما وأحدهم أذهانا ، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ، ومن المعانى أغربها ، ومن الآداب أحسنها . فخصوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم ، وتصل إليه أذهانهم ، فيدركونه بالفطنة دون البديهة ، وبالروية دون البادرة ، لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ، ويوافق فهمها[٤] .

والثالث أن معجز القرآن أبقى على الأعصار وأنشر فى الأقطار ، من معجز يختص بحاضره ، ويندرس بانقراض عصره .

وما دام إعجازه ، فهو أحَجّ ، وبالاختصاص أحق[٥] .

وذكر ابن حزم - وهو يتحدث عن المعجزات ـ أنه قد يعترض عليه معترض بقول

---

(١) إعجاز ٣٢ . ضيف ١٠٨ . وانظر الماوردى ٥٧ . الزمخشرى ٢٣٧/٢ . ابن كثير ٦١/١ .

(٢) إعجاز ٣٢ . ضيف ١٠٨ . (٣) أعلام ٥٧ .

(٤) أعلام ٥٧ ـ ٨ . وانظر عياض ٧٤١/١ . معترك ١/١ . الإتقان ٣٢٤/٢ . الحمصى ١١ ـ ٢ ، ١٠٨ . إعجاز الخطيب ٧٢/١ . موسى لاشين ٢٤٣ . حويش ٢٠٧ . أبو على ٢٤ . شرف ٥١ . صالحة .

(٥) أعلام ٥٨ .

النبى : « ما من الأنبياء إلا من قد أوتى ما على مثله آمن البشر . وإنما كان الذى أوتيته وحيا أُوحى إلىّ . وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة[١] » .

ثم رد عليه قائلا : إنما عنى رسول الله - بهذا القول - آيته الكبرى الثابتة الباقية أبد الآباد ، التى هى أول معجزاته حين بُعث ، وهى القرآن ، لبقاء هذه الآية على الآباد .

وإنما جعلها بخلاف سائر آيات الأنبياء ، لأن تلك الآيات يستوى فى معرفة إعجازها العالم والجاهل . وأما إعجاز القرآن فإنما يعرفه العلماء بلغة العرب ، ثم يعرفه سائر الناس بإخبار العلماء لهم بذلك[٢] .

وذهب الزمخشرى إلى أن القرآن معجز دون سائر الكتب المنزلة . ولذلك فهو عيار عليها ، وشاهد لصحتها ، كقوله تعالى : ﴿ هو الحق مصدقا لما بين يديه[٣] ﴾ .

وبناء على ما قال الماوردى ، صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربى (٤٦٨ - ٥٤٣ / ١٠٧٦ - ١١٤٨) المعجزات إلى حسية وعقلية[٤] .

وقال : أكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم[٥] ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم[٦] .

وبنى عياض على كلام الماوردى ما زاده وضوحا وشواهد . قال : غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته على سائر آيات الأنبياء حتى احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب وذكاء ألبابها ووفور عقولهم ، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم ، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم .

وغيرهم من القبط وبنى إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل ، بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم ، وجوز عليهم السامرى ذلك فى العجل بعد إيمانهم ، وعبدوا المسيح مع إجماعهم على صلبه ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾[٧] فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ أفهامهم ما

---

(١) الفصل ١/١٩٣ ـ ٤ . (٢) الفصل ١/١٩٤ .

(٣) سورة فاطر ٣١ . الكشاف ٢/٢٣٧ . إعجاز الخطيب ١/٢٧٦ . وانظر الحمصى ١٠٨ .

(٤) . الإتقان ٢/٣٢٤ . وانظر صقر ٥ . الحمصى ١١ ـ ٢ ، ٢٩٤ . فقيهى ١٥ ـ ٦ . القطان ٢٦٤ . إعجاز الخطيب ١/٧١ موسى لاشين ٢٤٣ . أبو زهرة ١٠ . حويش ٢٠٥ . الصباغ ٥٠ . طلبة ٨٦ . السلامى ٥٣ . أبو على ٢٤ . صالحة ٨٥ . ٥١ .

(٥) الإتقان ٢/٣٢٤ .

(٦) الإتقان ٢/٣٢٤ . (٧) سورة النساء ١٥٧ .

لا يشكون فيه . ومع هـذا قـالوا : ﴿ لـن نؤمـن لـك حتـى نـرى اللّـه جهـرة ﴾[١] . ولم يصبروا على المن والسلوى ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .

والعرب ـ على جاهليتها ـ أكثرها يعترف بالصانع ، وإنما كانت تتقـرب بالأصنـام إلى اللّه زلفى . ومنهم من آمن باللّه وحده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقلـه ، وصفـاء لبـه . ولما جاءهم الرسول ﷺ بكتاب اللّه ، فهموا حكمته ، وتبينوا ـ بفضل إدراكهـم ـ لأول وهلة معجزته . فآمنوا به ، وازدادوا كل يوم إيمانا ، ورفضوا الدنيـا كلهـا فـى صحبتـه ، وهجروا ديارهم وأموالهم ، وقتلوا آباءهم وأبناءهم فى نصرته . وأتى فـى معنـى هـذا بما يلوح له رونق ، وتعجب منه زبرج ، لو احتيج إليه وحقق[٢] .

واتخذ القرطبى أقوال عبد الجبار والمـاوردى أساسـا للتصنيـف ، فقسـم المعجـزات إلى ضربين :

الأول : ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبى . ووضع فى هـذا الضـرب معجـزة كل نبى انقرضت بانقراضه ، أو دخلها التبديل والتغيير ، كالتوراة والإنجيل .

الثانى : ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله ، واسـتفاضت بثبوتـه ووجـوده ، ووقـع لسامعها العلم بذلك ضرورة . وهذه صفة نقل القرآن . فالقرآن ـ معجزة محمد ـ الباقيـة بعده إلى يوم القيامة[٣] .

وأعلن ابن تيميـة : من تدبـر مـا صنفـه جميـع العقـلاء فـى العلـوم الإلاهيـة والخلقيـة والسياسية ، وجـد بينـه وبـين مـا جـاء فـى الكتـب الإلاهيـة : التـوراة والإنجيـل والزبـور وصحف الأنبياء تفاوتا عظيما .

ووجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه وبين سائر ألفـاظ العرب ونظمهم .

فالإعجاز فى معناه أعظم من الإعجاز فى لفظه . وجميع عقلاء بنى آدم عاجزون عـن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه .

---

(١) سورة البقرة ٥٥ .
(٢) الشفا ١/٧٤١ ـ ٣ .
(٣) الجامع ١/٧٢ .

وما فى التوراة والإنجيل - لو قُدِّر أنه مثل القرآن - لا يقدح فى المقصود . فإن تلك كتب اللّه أيضا . ولا يمتنع أن يأتى نبى بنظير آية نبى . كما أتى المسيح بإحياء الموتى ، وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره .

فكيف ، وليس ما فى التوراة والإنجيل مماثلا لمعانى القرآن ، لا فى الحقيقة ، ولا فى الكيفية ، ولا فى الكمية ؟ بل ظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن وتدبر الكتب(١) .

واستخلص الزركشى من أحد أقوال الباقلانى أن اللّه جعل القرآن آخر الكتب ، غنيا عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه ، كما قال : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ﴾(٢) .

وأعتقد أن هذا هو ما أراده ابن خلدون بقوله : اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن(٣) .

فإن الخوارق - فى الغالب - تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه . والقرآن هو - بنفسه - الوحى المدعَى ، وهو الخارق المعجز . فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى . فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه(٤) . وهذا معنى الحديث الذى أشار إليه ابن حزم آنفا .

ثم بنى السيوطى على كلام الماوردى وعياض أن معجزات العرب عقلية لفرط ذكائهم ، ومعجزات غيرهم حسية لبلادتهم(٦) .

وبرر ذلك بأن هذه الشريعة - لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة - خصت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر . واستدل على ذلك بالحديث .

ثم قال : قيل : إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقضاء أعصارهم ، فلم

---

(١) التفسير ٢/١٥٨ - ٩ .

(٢) سورة النمل ٨٦ . البرهان ٢/١٠٧ وانظر العانى ١٨٣ .

(٣) المقدمة ٤٠٣ . إعجاز الخطيب ١/٨٠ . عتر ١٤٩ . وانظر الرافعى ٢٨٨ . الغزالى ١٥٣ . شحاتة ١٣٧ .

(٤) المقدمة ٤٠٣ . إعجاز الخطيب ١/٨٠ . عتر ١٤٩ - ٥٠ . وانظر الرافعى ٢٨٨ . شحاتة ١٣٧ .

(٥) معترك ١/١ . الإتقان ٢/٣٢٤ . إعجاز الخطيب ١/٧٢ . حويش ٢٠٧ . فودة ٢٢٩ . شرف ٥١ . انظر الحمصى ١٠٨ . أبو على ٢٤ . صالحة ٨٥ . وأخشى أن يكون هذا الكلام كله أو بعضه لابن العربى لا السيوطى .

يشاهدها إلا من حضرها . ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة[١].

وقيل : المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار ، كناقة صالح وعصا موسى ، ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة . فيكون من يتبعه ــ لأجلها ــ أكثر ، لأن الذى يشاهَد بعين الرأس ينقرض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا[٢] .

وروى محمد رشيد رضا أن بعض حكماء أوربا اهتدى إلى إعجاز القرآن فى التأثير فى النفوس ، وبيّنه فى الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمدا لم يؤت مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات المعجزة ، فقال ما معناه : إن محمدا كان يتلو القرآن مولّها مدلّها خاشعا متصدعا ، فيفعل فى جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله[٣] .

وخالف عالم الطب د. عبد العزيز إسماعيل غيره من العلماء ، ورأى - أنه ليس للعقل البشرى أن يحكم على أى المعجزات أعظم من الأخرى ، - ولا أن يتكلم عن الطريقة التى تحصل بها المعجزات ، لأنه يتكلم عن شىء كله مجهول له مادامت المعجزة من صنع اللّه[٤] .

وتابع محمد عبد العظيم الزرقانى من سبقوه فى القول بأن القرآن قد كتب له الخلود ، فلم يذهب بذهاب الأيام ، أما معجزات سائر الرسل فقصيرة الأمد ، ذهبت بذهاب زمانهم .

ثم أضاف إلى ذلك . أن من يطلبها الآن لا يجدها إلا فى خبر كان ، ولا يسلم له شاهد بها إلا هذا القرآن ، وتلك نعمة يمنها القرآن على سائر الكتب والرسل وما صح من الأديان كافة[٥] .

واستدل بقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه ﴾[٦] .

---

(١) الإتقان ٢/٣٢٤ . إعجاز الخطيب ١/٧٢ . فودة ٢٢٩ . شرف ٥١ ــ ٢ . الحمصى ١٠٨ . موسى لاشين ٢٤٣ ــ ٤ . الصابونى ٨٧ . الصباغ ٥٠ . شحاتة ١٣٣ . عتر ١٤٤ . عطا : أسرار ٢٣٥ . عظمة ٥٥ . شبهات ٢٨ . السلامى ٥٣ ــ ٤ . صالحة ٨٥ . أبو سليمان ٩٨ .

(٢) الإتقان ٢/٣٢٤ ــ ٥ . فودة ٢٢٩ . انظر الحمصى ١٠٨ . إعجاز الخطيب ١/٨١ . موسى لاشين ٢٤٣ . كفافى ١٣٨ . عطا : أسرار ٢٣٥ . عظمة ٥٥ . شبهات ٢٨ . طلبة ٨٦ . صالحة ٨٦ . أبو سليمان ٩٨ .

(٣) المنار ١/١٦٩ .

(٤) الإسلام ٤٧ .

(٥) مناهل ٢/٢٣٢ . الصابونى ٨٨ . انظر أبو زهرة ١٤ .

(٦) سورة المائدة ٤٨ .

وتابع الحمصى ابن العربى فى وصف معجزات الرسل بالحسية[١] . وأجرى بعض التعديل فى كلامه الذى أخذه من الماوردى . فجعل هذه المعجزات تحمل إلى ذوى العقول الجامدة والنفوس الخاملة من الأمم غير العربية[٢] . ووصف معجزة العرب بالمعنوية البيانية[٣] ، وعلل ذلك بتعليل السيوطى نفسه[٤] . ثم تابعه فى القول بأن المعجزات الحسية تزول بزوال مشاهديها زمن النبى[٥] . أما المعجزة البيانية فهى باقية أبد الدهر[٦] .

وتابع السيد هبة الدين الحسينى ابن خلدون ، فوضع القرآن فوق المعجزات كلها[٧] .

وقال محمود محمد شاكر : لا أظن أن قائلا يستطيع أن يقول : إن التوراة والإنجيل والزبور كتب معجزة ، بالمعنى المعروف فى شأن إعجاز القرآن ، من أجل أنها كتب منزلة من عند اللّه[٨] .

وربط مناع القطان بين حسبة معجزات الأنبياء وعقلية معجزة محمد وبين قدر تطور البشرية[٩] .

والتقط عبد الكريم الخطيب قول الماوردى وتصنيف ابن العربى ، وأفاض فى تفسير وصف المعجزات بالحسية أو العقلية ، فقال : المعجزة إما حسية ، تجابه الحواس ، وتتحدى القُدَر . وأغلب المعجزات التى سبقت معجزة نبى الإسلام كانت من هذا النوع، أى أنها كانت تقع فى مجال الحس ، وخاصة حاسة النظر ، حيث إنها - فى هذا المجال - تنكشف للناس على صورة تكاد تكون واحدة ، لا اختلاف عليها بينهم ، لأن الناس لا يختلفون كثيرا فى مدلول المرئيات ، على حين يختلفون اختلافا بعيدا فى مدلول ما يقع للحواس الأخرى من مسموعات ومذوقات ومشمومات وملموسات .

وإما أن تكون المعجزة عقلية تواجه العقل ، وتلقاه بكل ما فيه من قوى الإدراك والاستبصار . وهذا النوع من المعجزات لا يقع من الناس موقعا متقاربا . وإنما يلقاه كل إنسان بما لديه من إدراك ، وفهم ، وقدرة على التمييز بين المدركات ، والتفرقة بين الخير والشر[١٠] .

---

(١) فكرة ١١ ــ ٢ . انظر فقيهى ١٥ . القطان ٢٦٤ . إعجاز الخطيب ٩/٢ . الصباغ ٥٠ . الصواف ١٥ . طلبة ٦٦ . فودة ٢٢٨ . أبو سليمان ٩٨ . الكومى ١٣ .

(٢) فكرة ١٢ .

(٣) فكرة ١٢ ، ٤٤٨ . انظر فقيهى ١٦ . أبو زهرة ١١ . حويش ٢٠٥ ، ٢٣٨ . عطا : أسرار ٢٣٤ . عظمة ٥٤ ، ٨٣ .

(٤) فكرة ١٢ .

(٥) فكرة ١٢ ـ ٣ . انظر فقيهى ١٦ .

(٦) فكرة ١٣ . انظر فقيهى ١٦ .

(٧) نظرات ١٥٣ . انظر إيجاز قمحاوى ١٧١/٢.

(٨) الظاهرة ١٨ . انظر الحسن ١٣١ .

(٩) مباحث ٢٦٤ .

(١٠) إعجاز ٧١/١ ـ ٢ .

ثم فسر كلام ابن خلدون فقال : يريد ابن خلدون أن يقول : إن الرسول من الرسل كان يحمل إلى الناس أمرين : شريعة يوحَى إليه بها يدعوهم إليها ، ومعجزة تشهد له بأنه رسول من عند اللّه ، وأنه صادق فيما يدعو إليه ... وأن محمدا حمل إلى الناس أمرا واحدا فقط ، هو الشريعة ، وفى الشريعة نفسها المعجزة التى تشهد له بأنه رسول اللّه الصادق فيما يقول عن اللّه[1] .

وقال فى تفسير الحديث الذى أورده ابن حزم : إن الرسول الكريم يكشف فى هذا الحديث ـ عن المعجزة القرآنية بأنها معجزة عقلية ، هى وحى يوحى ، أى شىء يدرك بعين البصيرة ، فيهتدى إليه العقل من خلال الإشارات الخفية ، واللمحات البعيدة التى تتجمع من خيوطها الحق على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر .

فليس المقصود فى قوله ﷺ « إنما كان الذى أوتيته وحيا يوحى » ليس المقصود بالوحى هنا الوحى الذى نزل عليه بالقرآن ، وإنما هو الوحى الذى ينزل على قلوب الناس من القرآن حين يستمعون إليه أو يقرؤونه . فالوحى معناه هنا الإشارة الدالة واللمحة الموحية وليس فى القرآن آية من آياته تخلو من إشارة دالة ، أو لمحة موحية ، تتولد منها حقيقة كاملة بأن هذا القرآن هو كتاب اللّه . وأن هذا الكلام هو كلام اللّه .

ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة ، إذ هى رسالة إلى كل إنسان ، ووحى إلى كل عقل، لا يحصرها زمان ، ولا يحدها مكان[2] .

ووصف القرآن ـ فى موضع آخر ـ بمعجزة محمد الكبرى[3] .

ورفض أن يكون الكتب السماوية ـ عدا القرآن ـ معجزة فى ذاتها . فقد أورد تعليق الباقلانى على قوله تعالى : ﴿ الر ، كتاب أنزلناه إليك ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد ﴾[4] . الذى قال فيه : أخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء . ولا يكون إلا وهو حجة . ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة .

ثم رفضه لأنه رأى أن هذا الذى يحتج به الباقلانى على أن القرآن معجزة لا تقوم به

---

(١) إعجاز ١ / ٨٠ ـ ١ .   (٢) إعجاز ١/٨١ ـ ٢ .

(٣) إعجاز ١٣٣/١ . انظر أبو زهرة . الصابونى ٩٠ . عائشة ٤٩ . حويش ٧٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٧، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٥٦ كفافى ١٣٧ . الصباغ ٤٩ ـ ٥٠ . عبد الفتاح لاشين ٤٢٩ . الصواف ١٥ ـ ٢١ ، ٤٩ . العطار ٥٢ ، ٥٤ . أبو فرحة ١٠٠ ، ١٠٣ . فودة ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ . ٢٣٠ أبو سليمان ٩٧ . الذهبى ٢١ ، ٦٥ . نيازى ١٣٩ .

(٤) سورة إبراهيم ١ .

الحجة للقرآن وحده ، إذ كل ما أنزل الله من كتب يقع بها الاهتداء مثل القـرآن ، كما يقرر ذلك القرآن نفسه فى قوله : ﴿ أنزل التوراة والإنجيل من قبـل هـدى للنـاس ﴾(١) . وآيات كثيرة - غير هذه الآيات - تصف التوراة والإنجيل بهذه الصفة .

فليس إعجاز القرآن من هذا الوجه - أنه يحمل الهدى والرحمة للناس . فكـل رسـالات السماء قائمة على هذا المقصد . ثم إنها - مع ذلك - ليست معجزة فى ذاتها(٢) .

واتفق الخطيب مع القطان .

ولحظ فى معجزات نوح وهود وصـالح أنهـا لم تكشـف عـن وجهها ، ولم تُبِـن عـن آثارها إلا حين تطلع طلعتها المباغتة ، لتأتى على القوم الظالمين .

ولذلك وصفها بـالمعجزات السـلبية التى لا يتعـامل معهـا النـاس كمعجـزات إلا فـى اللحظة الأخيرة من حياتهم ، حين توردهم موارد الهلاك ، فلا ينتفعون بهـا ، ولا يتلقّـون عنها العبرة والعظة ...

وانتهى إلى أن المعجزة القرآنية تختلف اختلافا واضحا عن جميع ما سبقها من معجزات الأنبياء ، من حيث هى فى شكلها ومضمونها ، ثـم مـن حيـث الصلـة التى بينهـا وبـين صاحبها الذى جاء بها .

وأجمل أنماط المعجزات السابقة فيما يلى :

أولا : أنها لا تعيش فى الحياة ، ولا تصحب الناس إلا لحظات عـابرة ، حيـث تهجـم عليهم بما تحمل من تدمير وإهلاك .

وثانيا : أن أطول المعجزات عمرا كانت معجزات موسـى وعيسـى ، وأن عمـر تلـك المعجزات لا يتجاوز جيلا من أجيال الناس ، ممن شهدوا مطلعها . أما من بعدهـم فـإنهم يَصْحبون عقيدتهم على مـا وجـدوا آبـاءهم عليـه ، دون أن يكـون مـع العقيـدة المعجـزة القاهرة التى تشهد لها .

وثالثا : أن تلك المعجزات جميعها كانت تحت سلطان الرسول ، يصرفها كيف يشاء ، فيكشف عنها فى الزمان أو المكان المقدور ، بمعنى أن أية معجزة منها لا يمكـن أن تكـون أو تقع إلا إذا كان الرسول هو الذى يجلّيها ، ويكشف عن وجهها . فإذا ذهب الرسـول ذهبت المعجزة معه ، ثم لا يرى لها الناس أو الحياة وجها بعد ذهابه أبدا .

---

(١) سورة آل عمران ١ - ٤ .

(٢) إعجاز ١/١٧٢ - ٣ .

وليس كذلك المعجزة القرآنية . إنها ذات وجود ذاتي مستقل ، تظهر وتتجلى حيث يلقاها الناس أو تلتقى هى بالناس ، فى أى زمان ، وفى أى مكان ، ودون أن يكون النبى معها .

فحيث يكون فى الناس من يفهم العربية ، ويتعرف على مواطن الجمال والروعة فى الكلام ، فإنه يستطيع أن يستدعى إليه المعجزة أو المعجزات التى تنطوى عليها كلمات القرآن وآياته ، وأن يشهدها حاضرة عتيدة فى مَجْلى بصيرته ، كلما تلا آيات من كتاب اللّه ، أو استمع إلى ما يُتلى منهن[١] .

ووصف محمد أبو زهرة المعجزة العقلية بأنها شىء قائم بذاته ثابت ، يدرك[٢] الإعجاز فيه بالدراسة والفحص[٣] .

ووصف محمد على الصابونى القرآن بالمعجزة العظمى[٤] ، والمعجزة الروحية العقلية[٥] ؛ ومعجزات الأنبياء السابقين بالحسية المادية[٦] .

وفرق د. عمر الملاحويش بين المعجزات من حيث وضوح دلالتها . فرأى أن القرآن لم يكن شأنه شأن بقية المعجزات التى سبقته ، كمعجزتى موسى وعيسى ، حيث إن كلا من هاتين المعجزتين كان وجه الإعجاز فيها واضحا بينا ، يراه ويحس به كل من شهده ، لا يمكن نكرانها ولا الشك ولا الاختلاف فيها .

ولكن القرآن ألفاظ وعبارات ، لا تختلف عما ألفه الناس فى حياتهم اليومية ولما كان إدراك إعجازه لا يدرك إلا بالتذوق الفنى المبنى على العلم ، فقد اقتصر فهم هذه الناحية من القرآن على جماعة قليلة من المسلمين . ومما لا شك فيه أن وسائل التذوق الفنى والعلمى هذه لم تكن لدى جميع الناس على مستوى واحد ، وإنما كانت تختلف من شخص لآخر ، باختلاف اطلاع وسعة أفق كل منهم . وبناء على هذا ، فقد اتخذت دراسة إعجاز القرآن صورا مختلفة[٧] .

وعبر د. محمد عبد السلام كفافى وعبد اللّه الشريف عن الفكرة التى أومأ إليها الباقلانى وصرح بها ابن خلدون فقالا : لقد أراد اللّه أن تكون معجزة محمد هى صميم

---

(١) إعجاز ٢/١١٥ – ٢١ .   (٢) و(٣) المعجزة ١٠ .

(٤) التبيان ٨٦ . انظر عتر ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ .

(٥) التبيان ٨٧ – ٨ .   (٦) التبيان ٨٦ – ٨ . وانظر شحاتة ١٣٠ .

(٧) تطور ٢٢١ – ٢ .

رسالته ، لم يجر على يده ما كان يجريه من قبل على يد أنبيائه . فموسى كان يلقى العصا فتصير حية ... أما محمد فكانت معجزته الكتاب الذى أنزل عليه[1] .

ووصف محمد محمود الصواف القرآن بالمعجزة العلمية[2] ، ود. عبد اللّه محمود شحاتة بأنه أكبر معجزة عرفها التاريخ[3] .

واستنبط عبد القادر أحمد عطا من انقراض معجزات الرسل أن ذلك ينفى عنها صفة الشمول ، ويحدد فاعليتها بوقتها . ومن ثم ينفى عن تلك الرسالات صفة الدوام هى الأخرى ، ويسلكها فى عداد الشرائع الممهدة لما بعدها ، والمنسوخة بالتالية لها . لا يمارى فى هذا صاحب عقل سليم[4] .

ووصفها بأنها لم تكن وافية بحاجات الإنسان ، ولا مثيرة لمواهبه كلها[5] ؛ ومحمد على أبو حمدة بأنها بيانية عقلية[6] .

واعتمد داود العطار على عدة أقوال سابقة ، وخلص منها إلى أن عظم المعجزة نوعا واستمرارا يتوقف على عظم الدعوى المراد إثباتها ، فإذا استعرنا لغة الرياضيات قلنا : إن بينهما (تناسبا طرديا) . فنحن نجد أن معجزات الأنبياء السابقين إنما كانت أمدية ، لأن رسالاتهم كانت مؤقتة لفترة من الزمن . ولهذا لم تبق معجزة موسى ولا عيسى ولا سواهما . ونحن إنما آمنا بها و لم نرها لورودها فى القرآن . أما دعوى الرسول الأعظم فكانت أنه رسول اللّه وخاتم النبيين إلى الناس أجمعين . لذا جاءت معجزته — القرآن — بحجم هذه الدعوى . فهى معجزة باقية تتحدى العصور والدهور[7] .

وفسر محمد متولى شعراوى قول القائلين بخلود معجزة القرآن ، والقائلين بأنه الدال والمدلول معا ، فقال :

المعجزات المحسوسة تقع مرة واحدة . فمن رآها آمن بها ، وإلا كانت خبرا يُصدَّق ويكذَّب[8] .

وهذه المعجزات فعل من أفعال اللّه ، أما معجزة القرآن فصفة من صفات اللّه . والصفة باقية ببقاء الموصوف نفسه[9] .

---

(١) فى علوم ١٣٧ . (٢) القرآن ١٧ . (٣) علوم ١٣٦ .
(٤) أسرار ٥ . (٥) أسرار ٦ . (٦) من أساليب ١٩ .
(٧) موجز ٥٢ ، ٥٤ .
(٨) الحمصى ٢٩٤ . الكومى ١٣ . وانظر طلبة ٨٦ .
(٩) الحمصى ٢٩٤ . الكومى ١٤ .

ومعجزة القرآن هى منهج النبى نفسه ، بعكس معجزات الأنبياء ، قبلُ . فمعجزة موسى العصا ومنهجه التوراة ، ومعجزة عيسى الطب ومنهجه الإنجيل . وتلك مميزة للقرآن ، ليظل المنهج محروسا بالمعجزة ، وتظل المعجزة فى المنهج[1] .

وجعل عمر السلامى القرآن أرقى المعجزات[2] ، والمعجزة العقلية - شأن القرآن - تحار فيها العقول ، وتتسابق الأقلام ، وتختلف الآراء[3] .

ورأى محمد الصادق قمحاوى أن ما يحتويه القرآن من نواحى الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ، ويغنى عنها جميعا[4] .

ونقل محمود بسيونى فوده عن على خليل : أن القرآن معجزة جمعت بين المحسوس والمعقول . فهو قول مقروء باللسان ، مسموع بالآذان ، مكتوب باليد ، مرئى بالعين . وهو - فوق ذلك كله - ذو معان مدركة للعقل ، وقضايا تعلم بالفهم . وهو - بهذا - جامع بين الحس والعقل[5] .

وفهم د. محمد محمد أبو موسى من كتاب الباقلانى أنه يقول بأن القرآن أظهر معجزات محمد وأبقاها[6] .

وفسر صابر حسن محمد أبو سليمان أقوال الباقلانى وابن خلدون ومن تابعهما فقال : لم تكن فى الرسالات السابقة معجزات باطنة فى الكتب التى أنزلت على الرسل ، أى لم تكن هناك معجزات من جنس الكلام ، بل كانت معجزات مادية منفصلة تماما عن الكتب السماوية[7] .

وأعلن د. محمد حسين الذهبى أن القرآن يتميز عن سائر معجزات الأنبياء[8] . بالأمور التالية :

١ - أنه يحتوى على أصول الدعوة المحمدية .

٢ - أنه معجزة العقل ، يخاطبه دائما ولا يجمد عند الحس .

٣ - أنه معجزة خالدة باقية على مدى الدهر .

وتابع د. سامى عبد العزيز الكومى الشعراوى فى الوجوه التى رأى أن القرآن يخالف فيها معجزات الرسل السابقين ، ثم أضاف إليه :

---

(١) الحمصى ٢٩٤ . الكومى ١٤ .
(٢) و(٣) الإعجاز ٥٣ .
(٤) الإيجاز ٢/١٧١ .
(٥) المرشد ٢٢٩ .
(٦) الإعجاز ١٧٩ .
(٧) مورد ١٠٠ .
(٨) الوحى ٦٥ .

١ ـ أن الكتب السماوية السابقة على القرآن كلف الله عباده بحفظها فلم يستطيعوا . أما القرآن فقد تكفل الله بحفظه .

٢ ـ أن له عطاء جديدا لكل جيل يأتى ، فهو لكل البشر ، ولكل الأجيال . ومن هنا فإنه متجدد دائما[1] .

تعقيب

نخرج من هذه الجولة التى اقتصرت فيها على ما قيل عن المعجزات من حيث هى معجزات ، و لم أتطرق إلى ما قيل عن القرآن والتوراة والإنجيل وما تحتوى عليه . لأن ذلك خارج عن مجال هذا الكتاب ؛ نخرج بوجود عدد من الأفكار رددتها الألسنة منذ قيلت .

وأقدم هذه الفكار يرقى بمعجزة الإسلام فوق معجزات سائر الأديان الأخرى . فالجاحظ يرى القرآن أعجب معجزة . فيعقبه الرمانى الذى يعلن أن مقارنة القرآن بأية معجزة تكشف عن إعجازه . ويستمر الأمر إلى ابن خلدون الذى يجهر بأن القرآن أعظم المعجزات وأشرفها . فيتبعه الحسينى فيضع القرآن فوق المعجزات ، والخطيب الذى يجعله المعجزة الكبرى ، والصابونى الذى يجعله المعجزة العظمى ، والسلامى الذى يجعله أرقى المعجزات . ويروج الوصف بالمعجزة الكبرى رواجا خاصا فى العصر الحديث حتى يسمى محمد أبو زهرة كتابه به .

ويليها فى القدم فكرة أن معجزات الأنبياء وقعت مرة واحدة ، فشاهدها من رآها . أما غيرهم ممن عاصروها أو من الأجيال التى تلتهم فإنما يعرفونها عن طريق الأخبار . إذن فقد اندثرت هذه المعجزات بعد وقوعها ووفاة مشاهديها مباشرة . أما القرآن فقد كان معجزا فى عصره وبعد عصره ، وسيبقى معجزا ما بقيت دنيا البشر . ومنذ تفوه المعتزلة الأوائل بهذه الفكرة تلقاها جميع المسلمين بالقبول ، و لم يخل منها كتاب فى الإعجاز .

والفكرة الثالثة جاء بها الباقلانى الأشعرى ، وفصل الحديث عن أسبابها ودلائلها أكثر من أى كاتب جاء بعده ، وهى فكرة أن جميع الكتب السماوية تتفق من حيث الإعجاز

---

(١) الإعجاز ١٣ ـ ٥ .

بالإنباء بالغيب . ثم ينفرد القرآن من بينها بالإعجاز بالتأليف . وقد لقيت هذه الفكرة ترحيب كل الكتاب أيضا .

وكذلك التفت الباقلانى إلى أن معجزات الرسل أمر غير دعاواهم ، فمعجزة موسى كانت من قبيل السحر على حين كانت دعوته إلى عبادة اللّه الواحد . وكذلك بقية الرسل إلا محمدا . فمعجزته هى الكتاب الذى يتضمن جميع أركان دعوته . وقد تابع الكتاب الباقلانى فى هذه الفكرة حتى وجدت كمالها عند ابن خلدون ، وأكثر من إذاعتها الشعراوى فى العصر الحديث .

وجاء الماوردى بفكرة خاصة صنف فيها المعجزات صنفين ، وصف العلماء - بعده - إحداهما بالحسية وثانيتهما بالعقلية . ورأى أن معجزات اليهود والمسيحيين كانت حسية لبلادتهم ، وكانت معجزة الإسلام عقلية لفرط ذكاء العرب . وقد استقبل العلماء المسلمون هذه الفكرة بإعجاب خاص ، ورددوها متغاضين عن أن الماوردى أراد بالبلادة تصورا خاصا يتصل بأمور الدين والأدب ، كما نتبين من بقية عبارته وعبارة عياض . وعدل بعض المحدثين عن هذا الوصف « بالبلادة إلى القول بأن المعجزات كانت تأتى مناسبة لدرجة التطور البشرى لتكون مقبولة من الناس .

ويهيمن الباقلانى على هذا الفصل فى كثرة الأفكار التى جاء بها ، وحصولها على الرواج ، وقيمتها الجلية ، وإن كنت أرى أنه لم يصادف التوفيق فيما وصف به غير العربية من اللغات ، كما لم يصادف التوفيق من وصفوا غير المسلمين بالبلادة والغباء ، وإنما وفق من رأى كل معجزة موافقة للتطور الإنسانى فى عصرها .

ووقف ابن تيمية موقفا خاصا ، فإنه - على الرغم من تفضيله القرآن على بقية المعجزات - ذهب إلى أن إعجاز التوراة والإنجيل - لو كان - لا ينتقص من إعجاز القرآن . وقد سار عبد العزيز إسماعيل على دربه وأبعد .

ووصف الخطيب معجزات الرسل بالسلبية ، حيث لا تنفع ، أما القرآن فوصفه بالإيجابية ، حيث هدى الناس - وما زال يهديهم - إلى الإسلام .

ولكن الوصف بالسلبية لا ينطبق إلا على أمثال معجزات صالح وهود ولوط . أما معجزات الأديان الكبرى كاليهودية والمسيحية فإنها تتصف بالإيجابية كالقرآن .

الفصل الخامس

أركان المعجزة

عجز جميع الخلق

يتكشّف من كلام الطبرى أنه يرى أن المعجزة ـ كى تكون حجة على صدق النبى فى دعواه ـ يجب أن يعجز ـ عن أن يأتى بمثلها ـ جميع الخلق[1] .

وسمى ابن العربى هذا الركن : السلامة من المعارضة[2] .

واشترطه الرازى لتتميز المعجزة عن السحر والشعبذة[3] .

ووافقهم الإيجى ثم قال : فإن ذلك حقيقة الإعجاز[4] . وذلك هو الحق الذى أجمع عليه المسلمون[5] .

وقال القرطبى فى الخامس من شروط المعجزة : أن لا يأتى أحد بمثل ما أتى به المتحدى على وجه المعارضة .

فإن أقام اللّه من يعارضه حتى يأتى بمثل ما أتى به ويعمل مثل ما عمل ، بطل كونه نبيا ، وخرج عن كونه معجزا ، ولم يدل على صدقه[6] .

نقض العادة

أعطانا الخطابى صفتين للمعجزة ، إحداهما سلبية ، والثانية إيجابية . قال :

ليس ينظر فى المعجزة إلى عظم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره[7] .

وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرا خارجا عن مجارى العادات ، ناقضا لها[8] . فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها .

وقال فى المثال الذى أتى به على كلامه . لو بعث اللّه نبيا فى زمان النبوات فقيل له : ما آيتك ؟ فقال : آيتى أن أخرج يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحدٌ منكم أن يفعل مثل

---

(١) انظر تعريف المعجزة . جامع ١/٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ١٥ / ٢٥٩ . وانظر الباقلانى ٢٨٨ .

(٢) الإتقان للسيوطى ٢/٣٢٤ . وانظر الصاوى الجوينى ٥٠ . الصباغ ٥٠ . شرف ٥١ .

(٣) محصل ٢٠٧ . (٤) المواقف ٣٣٩ .

(٥) الجوينى ٥٠ . ابن عطية ٩/١٨٥ . عياض ١/٤٩١ .

(٦) الجامع ١/٧١ . انظر الباقلانى ٢٥١ . الصابونى ٩٧ ـ ٨ . الصباغ ٥٠ . عبد العزيز ١١٦.

(٧) بيان ٢٠ .

(٨) بيان ٢٠ ـ ١ . وانظر . الجوينى ٤٩ . الإتقان ٢/٣٢٤ .

فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشيء من جوارحهم . فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله ، فلم يقدروا ؛ كان ذلك آية دالة على صدقه[١] .

وقال الباقلانى ، خرق العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات ، وعلى أن من ظهرت عليه ، ووقعت موقع الهداية إليه ، صادق فيما يدعيه من نبوته[٢] .

وأعطانا عبد الجبار أنواعا من الأعمال الخارقة للعادة فقال : أحدنا قد يفعل بعض الأفعال بآلة ، فيصير وقوعها بلا آلة خارجا عن العادة ، وقَدْر الفعل لم يختلف . ولهذا الوجه صار فلق البحر معجزا ، لأنه تفريق بلا آلة ، ومثله لا يقع منا إلا بآلة .

ولا فرق - فيما حل هذا المحل - بين أن تنتقض العادة بنفس الفعل ، أو بتغير حال الفاعل ، بأن تكون العادة جارية فى الفاعل أنه لا يتمكن إلا من فعل معتاد ، فإذا أمكن من خلافه - إما بزيادة أقدار أو برفع موانع أو بزوال إلجاء أو بتغيير دواع - كان معجزا[٣].

وقال الماوردى : مدار الحجة فى المعجزة إيجاد مالا يستطيع الخلق مثله ، سواء كان جسما مخترعا ، أو جرما مبتدعا ، أو عَرَضا متوهما[٤] .

وجعل الجوينى من أشراط المعجزة : أن تكون أمرا خارقا للعادة . قال : فإن قيل : كيف يتحقق خرق المعتاد مع العلم باختصاص آحاد الناس ببدائع يستأثرون بها دون عامة الخلق . فإذا ظهر للنبوة ، وأتى بشىء بديع ، لم نأمن أن يكون قد استأثر بعلم خفى ، وتذرَّع به إلى إظهار ما اختص به دون الناس . وربما كان عثر على جسم من الأجسام ذى خاصية غير معروفة ولا مألوفة . فليس للبدائع التى تعزى إلى خواص الأدوية نهاية . ولو أبدى مُبدٍ حجر المغنطيس فى قطر لم يسمعوا به ، يتخيلون جذبه الحديد خارقا للعادة . فكيف الأمان من هذا ؟ وما الذى يميز المعجزات منه ؟

قلنا : هذا تمويه على الضَّعَفة ليحفل به ذوو البصائر . وسبيل الجواب عنه أن المعجزة تنقسم قسمين :

أحدهما ما يكون فعلا بديعا خارقا للعادة .

---

(١) بيان ٢٠ .
(٢) إعجاز ٢٨٧ .
(٣) المغنى ١٦ / ٢١٤ - ٥ .
(٤) أعلام ٧٣ .

والثانى ما يكون منعا من المعتاد .

فإن كان خارقا ، فشرطه أن يترقى عن مسالك الظنون ، وينتهى إلى مبلغ تنحسم فيه التقديرات التى تضمنها السؤال . وبيان ذلك بالمثال أن من لم يعتقد اختصاص أقوام بمزايا من العلوم فليس يجوِّز أن تجرى كل بديعة خارقة للعادة عن خواص الجواهر ، ولا ينتهى الأمر به - قط - إلى تجويز كل ما يذكر له . ومن انتهى إلى ذلك ، فقد خلع رِبْقة العقل من عنقه ، وكابر البداهة ، وجحد ضرورات العقول . ولو شك شاك فى أن انقلاب العصا حية مما يتوصل إليه بخاصة جوهر ، ودرك مزيد من خفايا العلوم ، فهو مصاب فى عقله ... فما كان من المعجزات خوارق ، فإنها تتميز تميزا قطعيا عن مراتب الصنائع البديعة ، والأمور التى يختص بها خواص الناس .

وهذا معنى خرق العادة فى شرائط المعجزة . والذى يوضح الحق فى ذلك أن من أظهر شيئا تختص به الخواص ، وتحدى به الخلائق ، ودعا إلى نفسه ، فإن الدواعى تتوفر على محاولة معارضته ، والتسبب إلى الإتيان بمثل ما أتى به ، وسيعارض من هذا وصفه على القرب . وإن كان ما أتى به مدعى النبوة منها يتوقع فيه مثل ذلك ، لم تثبت نبوته ، مع اعتراض الشكوك .

فأما ما يكون منعا من المعتاد ، مثل أن يقول مدعى النبوة : آيتى أن يمتنع اليوم عن العالمين القيام . فما كان كذلك استحال أن يتوهم العاقل ذلك من مزية علمية خفية ودرك خاصية . وهذا مستبين فلا حاجة إلى فضل تقرير[١] .

وعلل الرازى اشتراطه خرق العادة فى المعجزة : ليتميز به المدعى عن غيره[٢] . ورد على من أجازوا انخراق العادة فى غير المعجزات بأنه لو جاز هذا لجاز أن ينقلب الجبل ذهبا إبريزا ، والبحر دما عبيطا ، وأن ينقلب ما فى البيت من الأوانى أناسا فاضلين . ومعلوم أن تجويزه قادح فى البديهيات[٣] .

وإنما وجب اشتراط خرق العادة - عند القرطبى - لأنه لو قال المدعى للرسالة : آيتى مجىء الليل بعد النهار ، وطلوع الشمس من مشرقها ، لم يكن فيما ادعاه معجزة ، لأن هذه الأفعال - وإن كان لا يقدر عليها إلا اللّه - لم تفعل من أجله ، وقد كانت قبل دعواه

---

(١) العقيدة ٤٩ - ٥٠ . (٢) محصل ٢٠٧ . مفاتيح ٢/١٢٠ .
(٣) محصل ٢٠٩ . وانظر الإيجى ٢٤٥ .

على ما هى عليه حين دعواه ، ودعواه فى دلالتها على نبوته كدعوى غيره . فبان أنه لا وجه له يدل على صدقه ، والذى يستشهد به الرسول له وجه يدل على صدقه[١] ...

وكان ثانى شرائط الإيجى فى المعجزات أن يكون خارقا للعادة ، إذ لا إعجاز دونه[٢].

وهذا الرأى أجمع عليه المسلمون ، فلا ضرورة إلى تتبعه عند بقية الكتاب[٣] .

الظهور على مدعى النبوة

وذهب الباقلانى إلى وجوب أن تقع المعجزة على يد مدعى النبوة ، قال : إن قيل : هل من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه ؟

قيل : لابد من ذلك ، لأنا إن لم نعلم أن محمدا هو الذى أتى بالقرآن ، وظهر ذلك من جهته ، لم يمكن أن نستدل به على نبوته .

وعلى هذا لو تَلقَّى رجل منه سورة ، فأتى بها بلدا ، وادعى ظهورها عليه ، وأنها معجزة له ، لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا ويتبينوا أنها ظهرت عليه[٤] .

وردد الباقلانى هذا القول فى « الانتصار » وزاد عليه أنه لا يجب على من سمع القرآن من محمد بن عبد اللّه أن يبادر إلى القطع على أنه له آية ، أو أنه على يده ظهر ، ومن قِبَله نَجم ، حتى يسأل أهل النواحى والأطراف ونَقَلة الأخبار ، ويتعرف حال المتكلمين بذلك اللسان فى الآفاق . فإذا علم ـ بعد التثبت والنظر ـ أنه لم يسبقه إلى ذلك أحد لزمه ـ حينئذ ـ اعتقاد نبوته .

وقد جلبت عليه هذه الزيادة هجوما حادا من خصمه ابن حزم يهمنا منه قوله : إن قول الباقلانى يؤدى إلى بطلان نبوة محمد . فإنه ـ إذ أوجب ـ أحال على عمل لا نهاية له ، ولو عمر الإنسان عمر نوح ، لأن سؤال أهل النواحى والأطراف لا ينقضى فى ألف عام ، وانتظار الأخبار ليس له حد . وليت شعرى : متى تصل المخدَّرة وطالب المعاش إلى طرف من هذا المحال ، لأن أهل النواحى هم من بين صدر العين إلى آخر الأندلس ، إلى بلاد الزنج ، إلى بلاد الصقالية ، فما بين ذلك ؟

---

(١) الجامع ٧٠/١ . وانظر الصابونى ٩٧ . إسماعيل ٣٢٣ .

(٢) المواقف ٣٣٩/١ .

(٣) الصابونى ٩٧ . الصباغ ٤٩ . عتر ٢١ ، ٢٦ . العطار ٤٩ . شرف ٥١ . عبد العزيز ١١٦ . أبو سليمان ٩٧ .

(٤) إعجاز ١٦ ، ٢٤ ، ٢٥١ ، ٢٩٨ . وانظر عبد الجبار ١٤٤ ، ١٦٧ . الإيجى ٣٣٩/١ . عبد العزيز إسماعيل ٤٦ . عتر ٢١ .

ثم رد عليه بأن من له علم قوى بالعربية والأخبار يكفيه تيقن عجز العرب فمن بعدهم إلى اليوم عن معارضته ، وأنه من عنده ضرورة ، لأنه لم ينزل القرآن جملة ، فيمكن فيه الدعوى من أحد ، وإنما نزل مقطعا ، فى كل قصة تقع فينزل فيها قرآن . وهذه ضرورة موجبة أنه من عنده ظهر بوحى اللّه إليه ... وأما من لا علم له باللغة والأخبار فيكفيه إخبار من يقع له العلم بخبره بأن العرب عجزت عن مثله ، وأنه أتى به مفصلا عند حلول القصص ، التى أنزل اللّه فيها الآية والآيتين ، والكلمة والكلمتين ، من القرآن ... حتى تم كما هو . فهذا الحق[١] .

وذهب الجوينى إلى أن من أشراط المعجزة : أن تكون مختصة بمن يدعى النبوة[٢] .

وعبر الإيجى عن ذلك بقوله : أن يكون ظاهرا على يد مدعى النبوة ، ليُعلم أنه تصديق له[٣] .

ولعل هذا الركن هو العنصر الأساسى الذى قال عنه داود العطار : أن تكون فى صدد إثبات دعوى المنصب الإلاهى[٤] .

من عند اللّه

ذهب أبو هاشم والمعتزلة إلى أنه يجب - فى المعجزات - أن تكون فى حكم الواقع من قِبَل اللّه ، حتى يصح أن تكون بمنزلة التصديق . فلا فرق - فى المعجز - بين أن يتولاه اللّه ، وبين أن يقع عن أمره ، أو عن تمكين غيره ، كما أنه لا فرق أن يكون صدع جبل صالح - عليه السلام - من جهته تعالى أو من جهة مَلَك . ومن ثم حكموا بأنه لا فرق بين أن يقال : القرآن من قبله تعالى ، أو من قبل الرسول ، أو من قبل الملك ، فى أن وجه الإعجاز حاصل فيه ، يريدون خرق العادة[٥] .

وقد أزعج هذا القول الأشاعرة ، لأنه - حسب قول الباقلانى - يتعذر على أصحابه أن يعرفوا أن القرآن كلام اللّه ، لأنه : إن خص أحدا بقدر من العلم لم تَجْر العادة بمثله ، أمكنه أن يأتى بماله هذه الرتبة ، وكان متعذرا على غيره[٦] .

---

(١) الفصل ٥/٩٤ . (٢) العقيدة ٤٩ - ٥٠ .
(٣) المواقف ١/٣٣٩ . وانظر عتر ٢١ . (٤) موجز ٤٩ .
(٥) الباقلانى ٢٤ ، ٢٩٦ . المغنى ١٦ / ١٧٥ - ٩ ، ٢١٥ - ٦ ، ٢٦٢ ، ٣٢٤ . وانظر ابن حزم ١/١٤٢ . الجوينى ٤٨ . القرطبى ١/٧٠ . الإيجى ١/٣٣٩ . عبد العزيز إسماعيل ٤٦ . الصابونى ٩٧ . عتر ٢١ ، ٢٢ ، ١٥٣ . إسماعيل ٣٢٣ . شرف ٥١ .
(٦) إعجاز ٢٩٤ - ٥ .

وصاغ ابن حزم هذا الركن فى عبارة واحدة قصيرة قال فيها : فاعل هذه المعجزات هو الأول الذى أحدث كل شىء[١] . ثم قال : فإن قال قائل : فلعل هذا الذى ظهرت منه المعجزات قد ظفر بطبيعة وخاصية قَدِر معها على ما أظهر .

قيل له : إن الخواص قد عُلمت ، ووجوه الحيل قد أُحكمت . وليس فى شىء منها عمل يحدث عنه اختراع جسم لم يكن كنحو ما ظهر من اختراع الماء الذى لم يكن ، ولا فى شىء منه إحالة نوع إلى نوع آخر دفعه على الحقيقة ، ولا جنس إلى جنس دفعة على الحقيقة . وهذا كله قد ظهر على أيدى الأنبياء ، فصح أنه من عند الله ، لا مدخل لعلم إنسان ولا لحيلته فيه[٢] .

وجعل الجوينى من شرائط المعجزة أن تكون فعلا لله أو فى معنى الفعل[٣] .

وأول شرط من شروط المعجزة الخمسة - عند القرطبى - أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله .

وإنما وجب حصول هذا الشرط للمعجزة لأنه لو أتى آتٍ - فى زمان يصح فيه مجىء الرسل - وادعى الرسالة ، وجعل معجزته أن يتحرك ويسكن ، ويقوم ويقعد ، لم يكن هذا الذى ادعاه معجزة له ، ولا دالا على صدقه ، لقدرة الخلق على مثله . وإنما يجب أن تكون المعجزات كفلق البحر ، وانشقاق القمر ، وما شاكلها مما لا يقدر عليه البشر[٤] .

وجعل الإيجى أول الشرائط السبع التى وضعها للمعجزة : أن تكون فعل الله أو ما يقوم مقامه ، ليتناول مثل ما إذا قال : معجزتى أن أضع يدى على رأسى ، وأنتم لا تقدرون عليه . ففعل وعجزوا . فإنه معجز ولا فعل لله ثمة ، فإن عدم خلق القدرة ليس فعلا . ومن جعل الترك وجوديا حذفه[٥] .

ووضع د. حسن ضياء الدين سبعة شروط للمعجزة ، وجعل الأول منها أن يحصل ذلك الأمر بإنجاز الله ، فلا يقدر الخلق على الإتيان بالمعجز بالأسلوب الذى جرى على يد الرسول[٦] .

---

(١) الفصل ١/١٤٢ .
(٢) الفصل ١/١٤٤ ـ ٥ .
(٣) العقيدة ٤٨ .
(٤) الجامع ١/٧٠ . وانظر الصابونى ٩٧ . إسماعيل ٣٢٣ . شرف ٥١ .
(٥) المواقف ١/٣٣٩ .
(٦) بينات ٢١ ، ٢٢ .

التحدى

اشترط الباقلانى التحدى فى الإعجاز ، فقال : ليس يكون معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله . فإذا تحداهم وبان عجزهم صار ذلك معجزا[١] .

وإنما احتيج إلى التحدى لإقامة الحجة ، وإظهار وجه البرهان ، على الكافة ولأن المعجزة : إذا ظهرت فإنما تكون حجة بأن يدعيها من ظهرت عليه ، ولا تظهر على مدَّعٍ لها إلا وهى معلومة أنها من عند اللّه . فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدى ، وجب فيها التحدى ، لأنه ـ بذلك ـ تزول الشبهة عن الكل ، وينكشف للجميع أن العجز واقع عن المعارضة[٢] .

ورفض ابن حزم جعل التحدى من أركان المعجزات ، وقال : قال الأشاعرة كلهم : إن إطعام رسول اللّه المئين والعشرات من صاع الشعير مرة بعد مرة ، وسقيه الألف والألوف من ماء يسير ينبع من بين أصابعه ... ليس فى شىء من ذلك دلالة على صدق رسول اللّه فى نبوته ، لأنه لم يتحدّ الناس بذلك . ولا يكون عندهم آية إلا ما تحدى به الكفار فقط . وهذا تكذيب منهم للنبى فى قوله إذ فعل ذلك : أشهد أنى رسول اللّه . وهذا ـ أيضا ـ قول افتروه ، خالفوا فيه جميع أهل الإسلام[٣] .

وأكثر من الرد على ذهاب الباقلانى إلى أن التحدى هو الذى يميز المعجزة عن غيرها . فقد عد هذا القول إبطالا للنبوة[٤] ، وقال : هذا باطل من وجوه :

أحدها أن اشتراط التحدى فى كون آية النبى آية دعوى كاذبة سخيفة لا دليل على صحتها ، لا من قرآن ولا من سنة صحيحة ولا سقيمة ، ولا من إجماع ، ولا من قول صحابى ، ولا من حجة عقل ، ولا قال بهذا أحد ـ قط ـ قول هذه الفرقة الضعيفة ، وما كان هكذا فهو فى غاية السقوط والهجنة .

وثانيها أنه لو كان ما قالوا ، لسقط أكثر آيات رسول اللّه ، كنبعان الماء من بين أصابعه وسائر معجزاته العظام ، لأنه لم يتحد بذلك كله أحدا ، ولا عمله إلا بحضرة أهل اليقين من أصحابه ؛ و لم يبق له آية حاشا القرآن ، ودعاء اليهود إلى تمنى الموت ، وشق القمر فقط . وكفى نحسا بقول أدى إلى مثل هذا .

---

(١) إعجاز ٢٥١ . وانظر موسى لاشين ٢٤٩ . الصابونى ٩٠ . الصباغ ٤٩ . عليان ١٢١ — ٢ . عبد العزيز ١١٦ . أبو سليمان ٩٧ .
(٢) إعجاز ٢٤ .
(٣) الفصل ٥ / ٨٦ — ٧ . وانظر التفرقة بين المعجزة والكرامة .
(٤) الفصل ٥ / ٨٤ .

فإن ادعوا أنه تحدى بها من حضر وغاب ، كذبوا واخترعوا هذه الدعوى ، لأنه لم يأت فى شيء من تلك الأخبار أنه تحدى بها أحدا . وإن تمادوا على أن كل هذه ليست معجزات ولا آيات ، أكذبهم رسول الله بقوله إذ فعل بعض ذلك : أشهد أنى رسول الله .

والثالث - وهو البرهان الدامغ - قول الله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها : إذا جاءت لا يؤمنون ﴾[1] . وقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾[2] . فسمى تلك المعجزات المطلوبة من الأنبياء آيات ، ولم يشترط فى ذلك تحديا من غيره . فصح أن اشتراط التحدى باطل محض . وصح أنها - إذا ظهرت - فهى آية ، كان هنالك تحد أو لم يكن .

والرابع أنه لو صح حكم التحدى لكان حجة عليه ، لأن التحدى - عندهم - يوجب أن لا يقدر على شيء مثل ذلك أحد . إذ لو أمكن أن يوجد مثل ذلك من أحد لكان قد بطل تحديه ، وقيل له : قد وجد من يعمل مثل عملك ؛ هذا إما صالح وإما ساحر .

والخامس أنه لو كان ما قالوا ، وجاز معجزة من ساحر لا يتحدى بها أو فاضل لا يتحدى بها ، لأمكن أن يَتحدى لهما بها بعد موتهما من ضل فيهما كما فعلت الغلاة بعلى . فعلى كل حال قولهم ساقط[3] .

ورفض الجوينى أن يعد التحدى شرطا فى المعجز ، وصرح : بل يكفى قرائن الأحوال، مثل أن يقال له : إن كنت نبيا فأظهر معجزا ؛ ففعل[4] .

وذكر الرازى أنه يشترط التحدى لئلا يتخذ الكاذب معجزة من مضى من الرسل حجة لنفسه[5] .

ويشعر الناظر فى قول الإيجى بشيء من التناقض . فقد رفض التحدى صراحة ، ولكن المثال الذى ضربه يدل على وجود التحدى لا على نفيه . فليس من الضرورى أن يكون التحدى من النبى أولا ، بل يمكن أن يكون من خصومه ، فيكون عمله المعجز جوابا على تحديهم .

---

(١) سورة الأنعام ١٠٩ .
(٢) سورة الإسراء ٥٩ .
(٣) الفصل ٥/١٠٥ .
(٤) العقيدة ٣٣٩ .
(٥) محصل ٢٠٧ .

وروى ابن خلدون أن المتكلمين يعتمدون على التحدى فى التفرقة بين المعجزة والسحر[١] ، ووافقهم على ذلك[٢] ، أما من سماهم الحكماء فذكر أنهم لا يشترطون التحدى في المعجزة ، ولا يرونه ركنا منها ، فلا يصح عندهم أن يكون فارقا بينها وبين السحر[٣] .

وفى العصور الحديثة ، ذهب محمد عبده إلى أن المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة[٤] ؛ والرافعى إلى أن المعجزة لن تسمى معجزة إلا إذا وقع بها التحدى بديئا ، فإن التحدى ميزان ينصب بين القدرة والعجز ، ولا تستطيع أن تقول : هذا معجز إلا إذا تحديت الناس به ، فعجزوا عنه[٥] .

معاصرة دعوى مدعى النبوة

وجعل الجوينى من أشراط المعجزة : أن يدعى النبوة من تظهر المعجزة مع دعواه لها ، وتحديه بها . فتقع على حسب إيثاره فى وقت اختياره ، مطابقة لدعواه[٦] .

وكان الشرط السابع عند الإيجى - ألا يكون المعجز متقدما على الدعوى بل يجب أن يكون مقارنا ، لأن التصديق قبل الدعوى لا يعقل ... فإن قيل : فما تقولون فى كلام عيسى فى المهد ، وتساقط الرطب الجنى عليه من النخلة اليابسة ، وفى معجزات رسولكم من شق بطنه وغسل قلبه ...

قلنا : إنما هى كرامات . وظهورها على الأولياء جائز . والأنبياء - قبل نبوتهم - لا يقصرون عن درجة الأولياء[٧] .

عدم تكذيب مدعى النبوة

رأى الجوينى أن الشرط الخامس من أشراط المعجزة : أن لا تظهر مكذّبة له .

وبيان ذلك بالمثال أن مدعى النبوة لو قال : آيتى أن اللّه ينطق يدى هذه . فنطقت وقالت : اعلموا - معاشر الأشهاد - أن صاحبى هذا مفترٍ كذاب ، وقد أنطقنى الذى أنطق كل شىء بتكذيبه فاجتنبوه . فهذه آية تكذيبه[٨] .

---

(١) المقدمة ٢ : ٤٠٢ .
(٢) المقدمة ٢ : ٤٠٢ - ٣ ، ١١٥٧ .
(٣) المقدمة ٣ : ٤ .
(٤) رسالة ٨٤ .
(٥) إعجاز ١٧٣ .
(٦) العقيدة ٥٠ .
(٧) المواقف ٣٤٠/١ . وانظر عتر ٢٢ .
(٨) العقيدة ٥٠ - ١ . وانظر القرطبى ٧١/١ . الإيجى ٣٣٩/١ . عتر ٢٢ .

استشهاد المدعى بها

جعل القرطبى الثالث من شروط المعجزة أن يستشهد بهـا مدعـى الرسالة ، فيقـول : آيتى أن يقلب اللّه هذا الماء زيتا ، أو أن يحرك الأرض عند قولى : تزلزلى . فإذا فعـل اللّـه ذلك حصل المتحدى به[١] .

وقال الصابونى : لو ادعى إنسان أن معجزته أن ينقلب الجماد إلى حيـوان أو إنسـان ، و لم ينقلب ، لا يدل على صدق دعواه[٢] .

عدم قدرة مدعى النبوة عليها

ذكر الإيجى أن قوما شرطوا فى المعجز ألا يكون مقدورا للنبى . ثـم عقـب علـى هـذا القول بأنه ليس بشىء[٣] .

موافقة دعوى مدعى النبوة

جعل الإيجى الشرط الخامس فى المعجز : أن يكون موافقا لدعوى النبـى . فلـو قـال : معجزتى أن أحيى ميتا ، ثم فعل خارقا آخر لم يدل على صدقه[٤] .

ولا أرى فرقا حقيقيا بين هذا الشرط وما جعلـه شـرطا سادسـا ، وهـو ألا يكـون مـا ادعاه وأظهره مكذبا له . وقد جعلهما د. شعبان إسماعيل شرطا واحدا فعلا[٥] .

توفر دواعى المعارضة

وضع محمد على الصابونى ثلاثـة أمـور رأى أن الإعجـاز لا يتحقـق إلا إذا توافـرت . وكان الأمر الثانى منها أن يكـون الدافـع إلى رد التحـدى قائمـا[٦] . ووافقـه د. رشـدى عليان وزميلاه[٧] .

عدم وجود موانع

وكان الأمر الثالث الذى وضعه الصابونى لتحقق الإعجاز : أن يكون المانع منتفيا[٨] . وتابعه د. رشدى عليان وزميلاه[٩] . ويمكن وضعه فى الركن السابق .

عدم الاستحالة

انفرد داود العطار بجعل : (أن تكون ليست مستحيلة عقـلا) أحـد العنـاصر الأربعـة التى حكم بأنها أساسية فى المعجزة[١٠] .

---

(١) الجامع ١/٧١ . وانظر إسماعيل ٣٢٤ . شرف ٥١ .
(٢) التبيان ٩٨ .
(٣) المواقف ٣٣٩ .
(٤) المواقف ١/٣٣٩ . وانظر عتر ٢١ . شرف ٥١ .
(٥) المدخل ١/٣٢٤ .
(٦) التبيان ٩٠ .
(٧) علوم ١٢١ — ٢ .
(٨) التبيان ٩٠ .
(٩) عليان ١٢١ — ٣ .
(١٠) موجز ٤٩ .

تعقيـــــب

نتبين من هذا العرض أن العلماء اختلفوا فى عدد أركان المعجزة أو ما سموه شــروطا . فعلى حين جعلها محمد علـى الصـابونى ثلاثـة ، جعلهـا داود العطـار أربعـة ، والقرطبـى خمسة ، وارتفع بها د. حسن ضياء الدين عتر إلى سبعة .

و لم يختلفوا فى عددهــا وحـده بـل اختلفـوا فـى بعضهـا مثـل عـدم قـدرة النبـى علـى المعجزة .

أضيف إلى ذلك أن الإيجى ذكر ركنين يؤولان إلى ركن واحد .

ونتبين منها وجوها وقع الإجماع عليها ، هى :

عجز البشر عن الإتيان بمثلها .

خرق المعتاد .

الظهور على يد مدعى النبوة .

أن تكون من إنجاز اللّه .

وهناك ركن وقع اختلاف كبير فى وجوبه ، أثار جدلا طائلا بين الفـرق الإسـلامية ، وهو ركن التحدى . ونتبين أن ابن حزم والجوينى والباقلانى كانوا أبطال الجدل فى هـذا الفصل ، وأن الصابونى والصباغ اعتمدا اعتمادا كاملا على القرطبى .

الفصل السادس

تعريف المعجزة

عرف الباقلانى المعجز بأنه مالا يقدر العباد عليه ، وإنما ينفرد اللّه بالقدرة عليه[1] . وقال : فإذا بلغ الكلام غايته ، كان بالغا وبليغا . فإذا تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة ، وانتهى إلى أمد يعجز عنه الكامل فى البراعة ، صح أن يكون له حكم المعجزات[2] .

وروى ابن حزم : قال الباقلانى فى كتابه المعروف بالانتصار فى القرآن . فى باب مترجم « باب الدلالة على أن القرآن معجزة للنبى » ، وذكر سؤال الملحدين عن الدليل على صحة ما ادعاه المسلمون من أن القرآن معجز ؛ فقال الباقلانى : أما معنى وصف القرآن وغيره من آيات الرسول بأنه معجز ، فإنما معناه أنه مما لا يقدر العباد عليه ، وإن لم يكونوا عاجزين على الحقيقة . وإنما صار وصف القرآن وغيره من آيات الرسل كعصا موسى ، وخروج الناقة من الصخرة ... بأنه معجز ، وإن لم يتعلق به عجز عاجز ، على وجه التشبيه بما يعجز عنه العاجز من الأمور التى يصح عجزهم عنها ، وقدرتهم عليها ، لأنهم لما لم يقدروا على معارضات آيات الرسل عُبِّر عن عدم قدرتهم على ذلك بالعجز عنه تشبيها بالمعجوز عنه .

ومما يدل على أن العرب لا يجوز أن تعجز عن مثل القرآن أنه قد صح وثبت أن العجز لا يكون عجزا إلا عن وجود . فلو كانوا ــ على هذا الأصل ـ عاجزين عن مثل القرآن وعصا موسى ... لوجب أن يكون ذلك المثل موجودا فيهم ومنهم ، كما أنهم لو كانوا قادرين على ذلك لوجب أن يكون ذلك منهم . ولما لم يكن ذلك كذلك ، ثبت أنه لا يجوز عجز العباد ـ على الحقيقة ـ عن مثل القرآن ، مع عدمه منهم ، وكونه غير موجود لهم ، ولا عن قلب عصا موسى حية ، ولا عن مثل ذلك[3] .

وفسر عبد الجبار إعجاز القرآن ـ خاصة ـ بأن يتعذر على المتقدمين فى الفصاحة فعل مثله ، فى القدر الذى اختص به[4] .

---

(١) إعجاز ٢٨٨ . صقر ٨٦ . سلطان ١٠٥ .

(٢) إعجاز ٢٨٦ .

(٣) الفصل ٥ / ٩٢ ــ ٣ .

(٤) المغنى ١٦ / ٢٢٦ .

ورد ابن حزم ردا عنيفا على الباقلانى فقال : أينتظر كفر بعد هذا الكفر فى تصريحه أن العباد والعرب لا يجوز أن يعجزوا عن مثل القرآن ، ولا عن قلب العصا حية ؟ ولا يغتر ضعيف بقوله : إنهم غير قادرين على ذلك ، فإنما هو على قوله المعروف من أن الله لا يقدر على غير ما فعل وظهر منه فقط[١] .

وقال أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى (٤١٩ - ٤٧٨ / ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥) سميت دلالات صدق الأنبياء معجزات توسعا وتجوزا ، فإن المعجز - على الحقيقة - خالق العجز . وإنما سميت بذلك لأنه يظهر بها أن من ليس نبيا يعجز عن الإتيان بما يظهره الله على النبى[٢] .

ونقل السيوطى عن أبى بكر محمد بن على المعروف بابن العربى (٥٦٠ ـ ٦٣٨ / ١١٦٥ ـ ١٢٤٠) : المعجزة أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة[٣] .

وأتى الرازى بهذا التعريف بعينه غير أنه عبر عن العنصر الثالث بعبارة « مع عدم المعارضة »[٤] .

وذكر ابن النقيب : سمى هذا القرآن معجزة لتعجيزه من رام معارضته والإتيان بمثله ، لأنها اسم فاعل من أعجزت ، يقال : أعجزتْ هذه القصة فهى معجزة[٥] .

وعرفها القرطبى بواحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم . وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتياد بمثلها[٦] ؛ وابن تيمية بكل ما يخرج عن الأمر المعتاد ـ أى الخارق للعادة - إذا اقترن بدعوى النبوة[٧] ؛ والإيجى بما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله[٨] . وجمع الزرقانى كل عناصر التعريف حيث قال : المعجزة أمر يعجز البشر - متفرقين ومجتمعين - عن الإتيان بمثله ، أو هى أمر خارق للعادة ، خارج عن حدود الأسباب المعروفة ، يخلقه الله على يد مدعى النبوة ، عند دعواه إياها ، شاهدا على صدقه[٩] .

---

(١) الفصل ٩٣/٥ . (٢) العقيدة ٤٨ .

(٣) الإتقان ٣٢٤/٢ . انظر موسى لاشين ٢٤٣ . حويش ٢٠٤ . عطا : أسرار ٢٣١ . وعظمة ٥١ . قمحاوى ١٦٩/٢ . فودة ٢٢٧ . شرف ٥١ . عبد العزيز ١١٦ . داود ٧٦ .

(٤) محصل ٢٠٧ . عتر ١٩ . (٥) مقدمة ٥٢٠ .

(٦) جامع ٦٩/١ . (٧) النبوات ٢٠ .

(٨) المواقف ٣٣٩/١ . (٩) مناهل ٦٦/١ .

ونقل د. عمر الملاحويش تعريفها عن المعجم الوسيط الذى أصدره مجمع اللغة العربية فى مصر ، فقال : المعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد النبى تأييدا لنبوته ، وما يعجز البشر أن يأتوا بمثله[١] .

وقدم د. حسن ضياء الدين عتر التعريف الآتى الذى وصفه بأنه أكثر ملاءمة لأفهام مثقفى العصر ، وأنه اعتمد فيه على شروط المعجزة وخصائصها : المعجزة أمر يجريه الله على يد النبى ، يفوق طاقات البشر ، ويخرق قوانين الطبيعة وخواص المادة ، يتحدى النبى به قومه فلا يقدر أحد على معارضته[٢] .

والتعريف الذى ارتضاه السلامى هو الإتيان بالأمر الخارق للعادة ، مقرونا بالتحدى ، مقرا بقصور القدرة الإنسانية ، ومخالفا للمألوف والمتواتر فى المحسوس ، ويقوم حجة قاطعة فى يد الأنبياء على صدق دعواهم فى رسائلهم السماوية . والمعجزة ـ وإن خالفت المألوف المتواتر ـ فهى تساير العقل والطبيعة . يقول باسكال : « إن المعجزات برق يرينا الله[٣]» .

التناول اللغوى لكلمة المعجزة

أعلن أبو العباس أحمد بن عبد الحليم المعروف بابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ / ١٢٦٣ ــ ١٣٢٨) فى كتاب النبوات أن الله سمى المعجزة : الآية ، والبينة ، والبرهان ، وأنها تسمى دلائل النبوة وأعلامها ونحو ذلك ؛ وأن هذه الأسماء ـ إذا أطلقت على آيات الأنبياء ـ كانت أدلّ على المقصود من اسم المعجزات . ولهذا لم يوجد لفظ المعجزات فى الكتاب ولا السنة[٤] .

وقال فى التفسير : هذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلا إذا فسر المراد به وذكر شرائطه .

وتعرض أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى (٧٧٣ ــ ٨٥٢ / ١٣٧٢ ــ ١٤٤٩) لبنية الكلمة فقال : سميت المعجزة لعجز من يقع عندهم ذلك عن معارضتها . والهاء فيها للمبالغة[٥] .

---

(١) تطور ٢٠٥ . (٢) بينات ١٩ . (٣) الإعجاز ٥٣ .
(٤) النبوات ٢٨،١٥١ ــ ٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٧ . عتر ٢٠ .
(٥) فتح البارى ٣٧٥/٦ . عتر ٢٠ .

وتعرض الزرقانى للتركيب فقال : إعجاز القرآن مركب إضافى ، معناه ـ بحسب أصل اللغة ـ إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به . فهو من إضافة المصدر لفاعله ، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف ، للعلم به . والتقدير إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به[1] .

وفصل نعيم الحمصى الجوانب المختلفة لكلمة الإعجاز فقال : معنى العجز ــ لغة ــ الضعف ، وأصله ـ لغة ـ التأخر عن الشيء ، وهو ضد القدرة . وأعجزه الشيء : فاته . وأعجزت فلانا وعجَّزته وعاجزته : جعلته عاجزا . وجاء فى القرآن الكريم : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾ [العنكبوت ٢٢] . ومصدر أعجز الإعجاز ، ومنه اشتقت كلمة معجزة . وهى اسم الفاعل منه لحقته تاء التأنيث ، واحدة معجزات الأنبياء التى تُؤيَّد بها نبوتهم[2] .

وقد صار لها هذا المعنى فى زمن متأخر عن الرسالة . فأطلقها العلماء عليه اصطلاحا كما أطلقوا المصدر « الإعجاز » على اتصاف الشيء بها أى بأنه أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم من المعارضة .

ولم يرد فى القرآن لفظ معجزة أو إعجاز . وإنما جاء فيه ألفاظ آية ، وبرهان وسلطان . وهذه الكلمات لا ترادف كلمة معجزة ، ولا تشمل الإعجاز المفهوم منها . وإنما تدل على جزء من معناها الذى يشتمل أكثر من معنى جزئى واحد . وهذا الجزء يقابل كلمة الدليل أو الحجة ، بمعنى أن حادثة من الحوادث هى دليل نبوة أحد الأنبياء أو دليل الألوهية . ولا يدل على أكثر من ذلك . أما كلمة معجزة فتدل على أمر خارق للعادة يكون دليلا على نبوة أحد الأنبياء دون غيره ، ويعجز غيره من الخلق عن الإتيان بمثله .

ومن الصعب جدا أن نحدد الزمن أو المكان أو الأثر الذى استعملت فيه كلمة معجزة أو إعجاز أول مرة بهذا المعنى الدينى الاصطلاحى الفنى . وعلى الرغم من أن الجدل فى أمر النبوة بدأ فى عهد النجبى ـ أثاره أرباب الديانات الأخرى الذين ناقشوا المسلمين فى أمور الديانات منذ القرن الأول من الهجرة ـ فإن كلمة معجزة لم تظهر بظهوره ، وليست قديمة قدمه . يدلنا على ذلك أن على بن ربن الطبرى الذى ألف كتاب « الأسلوب

---

(١) مناهل ٢/٢٢٧ . فودة ٢٢٦ ــ ٧ . انظر الحسن ١٢٩ .

(٢) فكرة ١٢ . انظر إعجاز الخطيب ١/٧١ . طبارة ٢٩ . حويش ٢٠٤ .

والبلاغة » فى الربع الثانى من القرن الثالث الهجرى ، لم يستعمل فى كتابه كلمة معجزة أو كلمة أخرى مشتقة منها ، بل استخدم فى المناسبات التى تدعو إلى استخدامها كلمة آية التى كانت لا تزال مستعملة فى عصره لمعناه . ولا نستطيع أن نستنتج من هذا أن كلمة معجزة لم تستعمل حتى ذلك الوقت . وإنما نستطيع أن نؤكد أنها لم تكن شائعة الاستعمال ، وأنها لم تكن من القوة بحيث تكتسح مرادفاتها القريبة منها كالآية والبرهان والسلطان ... كما فعلت بعد . ويؤيد هذا أن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ يستعمل كلمة « معجزة » لما استعملت له بعده كلمة « كرامة » بالنسبة إلى الأولياء ، وذلك إلى جانب استعماله إياها بمعنى الأمر الخارق المؤيد للنبوات .

وأول كتاب عنون باسم « إعجاز القرآن » - فيما نعلم - هو كتاب محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦هـ . ومن الواضح أنه أُلِّف فى أواخر القرن الثالث من الهجرة أوفى مطلع القرن الرابع . وقد وردت فيه كلمة معجزة . ثم أخذت كلمات آية وبرهان وسلطان تقلّ بعد ذلك فى الاستعمال ، وتحل محلها كلمة معجزة فى بحث مسألة النبوة وقضية الإعجاز .

ومن أصعب الأمور - الآن - أن نبين الأطوار والمراحل التى مرت بها كلمتا معجزة وإعجاز ، ولكن من الواضح البدهى أنهما استمدتا معنييهما الاصطلاحيين الحاليين من تتابع استعمالهما وكثرة المناقشة فيهما مع مرور الزمن ، ومن الاسترسال فى فهم أقصى ما تدل عليه كلمة معجزة من معان[١] .

ولجأ عمر السلامى إلى أحد معاجم العربية الكبار ، فقال : الإعجاز - لغة - : جاء فى لسان العرب ما يأتى : « عجزت المرأة : صارت عجوزا » أى أنها هرمت وشاخت وأصبحت عاجزة عن استعادة شبابها . و « عجزت المرأة : عظمت عجيزتها » أى عجزتها . ويقال : « أعجزنى فلان : إذا عجزت عن طلبه وإدراكه » ومعنى الإعجاز : الفوت والسبق . و « أعجاز الإبل : مآخيرها . والركوب عليها شاق » . « وتعجَّز البعيرَ : ركب عجزه » .

هذه المعانى تفيد القصور والفوت والسبق ، وهذا معنى الإعجاز لغة . ولعل مفهومه الحسى آت من عجز المرأة عن استرداد شبابها أو عن الصعوبة والمشقة التى يلقاها العربى عند ركوبه على أعجاز الإبل[٢] .

---

(١) فكرة ٧ - ٨ . انظر فقيهى ١٢ - ٤ . (٢) الإعجاز ٥٢ .

الفصل السابع

أنواع المعجزات

استدل الباقلانى من الآيات ٧٠ إلى ٧٨ من سورة غافر أن المعجزات على ضربين :

أحدهما كالمعجزات التى هى أدلة فى دار التكليف .

والثانى المعجزات التى ينقطع عندها العذر ، ويقع العلم الضرورى ، وإذا جاءت ارتفع التكليف ، ووجب الإهلاك[١] .

وأدخل ابن حزم فى معجزات الأنبياء الأصناف الآتية :

١ ـ اختراع الجواهر من ليس إلى أَيْس ، أى من العدم إلى الوجود . وذكر أن ذلك ممتنع غير ممكن البتة لأحد دون الله مبتدئ العالم ومخترعه . فمن ظهر عليه اختراع جسم كالماء النابع من أصابع رسول الله بحضرة الجيش ، فهى معجزة شاهدة من الله ــ له ــ بصحة نبوته ، لا يمكن غير ذلك أصلا .

٢ ـ إحالة الأعراض التى هى جوهريات ذاتيات ، وذلك كقلب العصا حية .

٣ ـ إحالة الأعراض التى لا تزول إلا بفساد حاملها كالغطس ونحو ذلك . فهذا لا يقدر على أحد دون الله بوجه من الوجوه .

٤ ـ صرف الحواس عن طبائعها كمن أراك ما لا يراه غيرك ، أو مسح يده على مريض فأفاق ... فهذه كلها ثباتها لا يكون إلا لنبى[٢] .

وجعل الجوينى المعجزات قسمين :

أحدهما ما يكون فعلا بديعا خارقا للعادة .

والثانى ما يكون منعا من المعتاد[٣] .

وجعلها عياض على ضربين :

ضرب هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه . فتعجيزهم عنه فعلٌ لله دل على صدق نبيه ، كصرف اليهود عن تمنى الموت الوارد فى الآية ٩٤ من سورة البقرة .

وضرب هو خارج عن قدرتهم ، كإحياء الموتى[٤] ...

---

(١) إعجاز ١١ .
(٢) الفصل ١/١٤٥ ــ ٦ .
(٣) العقيدة ٤٩ .
(٤) الشفا ١/٤٩١ ــ ٢ .

ثم قسم معجزات محمد بخاصة قسمين :

- قسم منها عُلم قطعا ، ونقل إلينا متواترا كالقرآن

- والقسم الثانى ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع[١] .

وهو على نوعين :

- نوع مشتهر منتشر رواه العدد ، وشاع الخبر به عند المحدّثين والرواة ونقلة السير والأخبار ، كنبع الماء من بين الأصابع ، وتكثير الطعام .

- ونوع منه اختص به الواحد والاثنان ، ورواه العدد اليسير ، ولم يشتهر اشتهار غيره[٢] .

وذكر الإيجى أن الفلاسفة يقسمون المعجزات إلى : تَرْك ، وفعل ، وقول .

أما الترك فمثل أن يمسك عن القوت المعتاد برهة من الزمان بخلاف العادة .

وأما القول فكالإخبار بالغيب .

وأما الفعل فبأن يفعل فعلا لا تَفى به مُنّة [قدرة] غيره ، من فتق جبل ، أو شق بحر[٣] .

وجعل محمد رشيد رضا المعجزات : بحسب مظهرها قسمين :

- قسم لا يعرف له سنة إلاهية يجرى عليها ، فهو يشبه الأحكام الاستثنائية فى قوانين الحكومات أو ما يكون بإرادة سَنية من الملوك لمصلحة خاصة ، وهو أدل على قدرة اللّه ومشيئته واختياره فى أفعاله فى نظر البشر ، لبعدها عن نظام الأسباب والمسببات التى تجرى عليها أفعالهم . وينتمى إليه آيات موسى .

- وقسم يقع بسنة إلاهية روحانية لا مادية ، كآيات المسيح[٤] .

---

(١) الشفا ٤٩٣/١ ـ ٥ .

(٢) الشفا ٤٩٥/١ . وانظر القرطبى ٧١/١ ـ ٢ .

(٣) المواقف ٣٤١/١ .

(٤) التفسير ١٩٢/١١ ـ ٣ .

إعجاز القرآن

التأليف في الإعجاز

تأليف
دكتور حسين نصار
العميد السابق لكلية الآداب
جامعة القاهرة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الفصل الأول

تطور التأليف فى الإعجاز

الجاحظ

أقدم كتاب فى الإعجاز وصلت إلينا عنه أخبار هو « نظم القرآن للجاحظ ، الذى أشار إليه فى الحيوان[1] ، وأفاض فى ذكره فى « خلق القرآن » . قال فى صدره يخاطب من ألف له الكتاب : « قلتَ : اكتبْ إلىّ كتابا تقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى صلاح القلوب ، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات ، دون الذى عليه أكثر المتكلمين من التطويل ، ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب .

وقلت : كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ، ولا يسأم كثرة الترداد .

وقلت : اجعل تجارتك التى إياها تؤمل ، وصناعتك التى إياها تعتمد : إصلاح الفاسد ، وردْ الشارد .

وقلت : ولابد من استجماع الأصول ، ومن استيفاء الفروع ، ومن حسم كل خاطر ، وقمع كل ناجم ، وصرف كل هاجس ، ودفع كل شاغل ، حتى تتمكن من الحجة ، وتتهنأ بالنعمة ، وتجد رائحة الكفاية ، وتَثْلَج ببرد اليقين إلى حقيقة الأمر ، إن كان لابد من عوارض العجز ، ولواحق التقصير ، فالبرُّ لها أجمل ، والضرر علينا فى ذلك أيسر .

وقلت : ابدأ بالأقرب فالأقرب ، وبكل ما كان آنَق فى السمع ، وأحلى فى الصدر ، وبالباب الذى منه يؤتَى الرَّيِّض المتكلف ، والجسور المتعجرف ، وبكل ما كان أكثر علما ، وأنفذ كيدا .

وسألتنى بتقبيح الاستبداد ، والعجلة إلى الاعتقاد ، وصفة الأناة ومقدارها ، ومقدمات العلوم ومنتهاها .

---

(١) ٩/١ . صقر ٨ . آلوسى عبد الحميد ٢٦١ .

وزعمت أن من اللفظ ما لا يفهم معناه دون الإشارة ، ودون معرفة السبب والهيئة ، ودون إعادته وكَرِّه وتحريره واختياره ...

فكتبت لك كتابا ، أجهدت فيه نفسي ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعّان . فلم أدع فيه مسألة لرافضي ، ولا لحديثي ، ولا لحُشْوى ، ولا لكافر مُبادٍ . ولا لمنافق مقموع ، ولا لأصحاب النظام ، ولمن نجم بعد النظام ، ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة .

فلما ظننت أني قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك ، أتاني كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لـ « نظم القرآن » ، وإنما أردت الاحتجاج لخلق القرآن . وكانت مسألتك مبهمة ، ولم أك أن أحدث لك فيها تأليفا . فكتبت لك أشقّ الكتابين وأثقلهما ، وأغمضهما معنى وأطولهما[1] » .

وقد أوردت هذا النص على طوله ، لأنه يكشف لنا :

- أن الجاحظ أتم تأليف كتاب « نظم القرآن » .
- أنه كان أكبر من رسالة « خلق القرآن » .
- أن تأليف « النظم » كان أشق عليه من تأليف « الخلق » .
- أنه لم يقتصر فيه على تناول عناصر النظم بل دأب على الرد على كل من لم يرض آراءهم في القرآن ، سواء كانوا من علماء الحديث ، أو أهل الفرق المختلفة .
- أنه عمد فيه إلى الإيجاز ، وتبسيط الأفكار ، والبدء بما يجذب القارئ إلى متابعة القراءة .

الرماني

وإذا كان هناك شيء من الظلام يلتف حول نظم الجاحظ ، فلا ظلام على الإطلاق ، يخفي شيئا من نكت الرماني ، لأنه قد وصل إلينا ، ووجد من يحسن تحقيقه .

وصرح بأنه لجأ فيه إلى الإيجاز كما فعل الجاحظ قبله . فقد قال يخاطب من طلب منه تأليف الكتاب : « سألت - وفقك اللّه - عن ذكر النكت في إعجاز القرآن ، دون

---

(١) رسائله ٣/٢٨٥ - ٧ . سلام ٧٦ - ٧ . صقر ٨ - ٩ . فقيهي ١٤٠ - ١ . وذكر صقر خطأ أن النص من كتاب « حجج النبوة » .

التطويل بالحجاج ، وأنا أجتهد فى بلوغ محبتك . واللّه الموفق للصواب بمَنّه ورحمته[١] » .
ويتضح من هذا القول أنه لجأ إلى الإيجاز والبعد عن الحجج الكلامية .

الخطابى

ولم يمض على كلام الجاحظ سوى قرن ونصف أو أقل ، حتى وجدنا الخطابى يجهر بأن الناس قد أكثروا فى هذا الباب قديما وحديثا[٢] . ومن المؤكد أنه يريد أنهم أكثروا من الحديث عن الإعجاز ، والنقاش حوله ، فلم يكن قد ظهر من المؤلفات سوى خمسة .

الباقلانى

وعندما أراد الباقلانى الكشف عن العوامل التى دفعته إلى تأليف كتابه ، أطال الحديث فى وجوب درس الإعجاز ، ومدى أهميته ، قال : من أهم ما يجب على أهل دين اللّه كَشْفُه ، وأَوْلى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبتا وحجة .

ولا سيما أن الجهل ممدود الرواق ، شديد النِّفاق مستول على الآفاق ؛ والعلم إلى عَفاء ودروس ، وعلى خَفاء وطموس ، وأهله فى جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأَخْذ فى سبله .

فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق وأهل الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته ، مكدود فى صنعته .

فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين . وقد قلّ أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله . فصار عُرضة لمن شاء أن يتعرض فيه ، حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهوره ...

وذُكر لى عن بعض جهالهم أنه جعل يَعْدله ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه .

وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم إلى عُظْم ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ، إلا أن أكثر من كان طعن فيه فى أول أمره استبان رُشْده ،

---

(١) النكت ٦٩ .
(٢) بيان ١٩ . فقيهى ١٥٥ .

وأبصر قصده ، فتاب وأناب ... والجهل في هذا الوقت أغلب ، والملحدون فيه عن الرشد أبعد وعن الواجب أذهب[١] .

وكشف عن أهدافه في قوله : سألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال ، وتنتهي إلى ما يخطر لهم ، ويَعْرض لأفهامهم ، من الطعن في وجه المعجزة[٢] .

وكشف عن المنهج الذي التزمه . فكرر الحديث عن الاختصار في بعض ما أوردته ، وفي قوله : قصدنا ـ فيما أملينا ـ الاختصار ، ومهدنا الطريق . فمن كَمُل طبعه للوقوع على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيَّنا[٣] .

وفي قوله : قد ذكرنا في الإبانة عن معجز القرآن وجيزا من القول ، رجونا أن يكفي، وأمَّلنا أن يقنع ، والكلام في أوصافه ـ إن استُقصي ـ بعيد الأطراف ، واسع الأكناف ، لعلو شأنه ، وشريف مكانه .

والذي سطرناه في الكتاب ـ وإن كان موجزا ـ وما أملينا فيه ـ وإن كان خفيفا ـ فإنه ينبه على الطريقة ، ويدل على الوجه ، ويهدي إلى الحجة .

ومتى عظم محل الشيء ، فقد يكون الإسهاب فيه عيبا ، والإكثار في وصفه تقصيرا[٤] .

ويحسن ألا نقبل هذه الأقوال قضية مسلما بها . فالحق أن كتابي الباقلاني وعبد الجبار أوسع كتابين وصلا إلينا في الإعجاز ، وأن عبارة الباقلاني فيها إطناب كثير ، كما يتبين من الأقوال السابقة .

وأعطانا الباقلاني عناصر أخرى من خطته في قوله :

نحن نبين ما سبق فيه البيان من غيرنا . ونشير إليه ، ولا نبسط القول ، لئلا يكون ما ألفناه مكررا ومقولا ، بل يكون مستفادا من جهة هذا الكتاب خاصة .

ونصف ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرق البلاغة ، وتتفاوت من جهته سبل البراعة .

---

(١) إعجاز ٣ ـ ٥ ، ٢٩٩ . الحمصي ٧٣ . العاني ١٧٧ . أبو موسى ١٦٨ .
(٢) إعجاز ٦ . صقر ٦٧ . اتجاهات مطلوب ١٤٢ ـ ٣ .
(٣) إعجاز ٢٤٦ . صقر ٨٤ .
(٤) إعجاز ٢٩٩ . الرافعي ١٥٤ . صقر ٨٧ . اتجاهات مطلوب ١٤٦ ـ ٧ .

ثم ما اختلفت به مذاهب مستعمليه فى فنون ما ينقسم إليه الكلام من شعر ورسائل وخطب ، وغير ذلك من مجارى الخطاب[١] .

ثم - من بعد هذا - الكلام الدائر فى محاوراتهم . والتفاوت فيه أكثر ، لأن التعمل فيه أقل إلا من غزارة طبع ، أو فطانة تصنع وتكلف[٢] .

ونُشير إلى ما يجب فى كل واحد من هذه الطرق ، ليعرف عظيم محل القرآن ، وليُعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزه الحد الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمل[٣] .

العلوى

ووعد العلوى فى الطراز أن يؤلف كتابا وصفه لنا فى قوله : إن نَفَّس اللّه لنا فى المُهْلة، وتراخت مدة الإمهال ، ألفنا كتابا نذكر فيه دلالة المعجز على صدق من ظهر على يده ، ونجيب فيه عن شكوك المخالفين ، بمعونة اللّه - تعالى - فالنية صادقة فى ذلك[٤] .

الرافعى

وأرخ الرافعى للتفكير فى إعجاز القرآن . فذكر أن أقوال الأولين فيه كانت مما لا يحتمل البسط إلى ما تُفرد له الكتب . وإنما كانت آراء يتواردون فى المناظرة عليها ، ويتجارون الكلام فى تصويبها والاحتجاج لها فى مجامع سمرهم وحلقات دروسهم ، إذ كان الناس مجمعين على القول بالإعجاز ، وكانت الكلمة لا تزال متخلفة فيهم عن العرب . فهم على علم مذكور من سلفهم الذين أعجزهم القرآن ، وعلى عيان حاضر من فصحاء البادية الذين يختلفون إليهم ، ومن أهل العربية وطائفة الرواة . ومر الناس على ذلك إلى أوائل المئة الثالثة[٥] .

فلما فشت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة ، وخيف أن يلتبس ذلك على العامة والحُشْوة من أهل الكلام ، مَسَّت الحاجة إلى بسط القول فى فنون من فصاحته ونظمه ووجه تأليف الكلام فيه[٦] .

فصنف أديبنا الجاحظ كتابه « نظم القرآن » وهو - فيما ارتقى إليه بحثنا - أول كتاب

---

(١) إعجاز ٦ . صقر ٦٧ - ٨ .
(٢) إعجاز ٦ - ٧ .
(٣) إعجاز ٧ .
(٤) الطراز ٣ / ٤١٣ .
(٥) إعجاز ١٥١ - ٢ .
(٦) إعجاز ١٥٢ . انظر سلام ٧٧ .

أُفرد لبعض القول فى الإعجاز أو فيما يهيئ القول به[١] .

بيد أن أول كتاب وُضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه إنما هو - فيما نعلم - كتاب « إعجاز القرآن » لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى[٢] .

وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجانى شرحا كبيرا سماه المعتضد[٣] ، وشرحا آخر أصغر منه[٤] . ولا نظن الواسطى بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ ، كما بنى عبد القاهر فى « دلائل الإعجاز » على الواسطى[٥] .

ثم وضع أبو عيسى الرمانى كتابه فى الإعجاز ، فرفع بذلك درجة ثالثة[٦] .

وجاء القاضى أبو بكر الباقلانى فوضع كتابه المشهور « إعجاز القرآن » . والغريب أنه لم يذكر فيه كتابى الواسطى والرمانى ، ولا كتاب الخطابى الذى كان يعاصره . وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما . فكأنه هو ابتدأ التأليف فى الإعجاز بما بسط فى كتابه واتسع[٧] . وفى ذلك ما يثبت لنا أن عهد هذا التأليف لا يُرَد - فى نشأته - إلى غير الجاحظ[٨] .

ثم اقتصر الرافعى على ذكر الخطابى ، وفخر الدين الرازى ، وابن أبى الإصبع ، والزملكاتى ، وأنهى ذكرهم بجملة عن كتبهم قال فيها : هى كتب بعضها من بعض[٩] .

سلام

وتعرض د. محمد زغلول سلام لتطور التفكير فى الإعجاز القرآنى ، فى أكثر من موضع من كتابه فقال : قام المعتزلة فى مطالع القرن الثانى للهجرة ، عندما بدأت الأفكار الجديدة تتسلل إلى العقول ، وبدأ الإسلام ينشر لواءه على البلدان المفتوحة ، وأقبل الناس على الدين الجديد يدرسونه ، وينظرون إليه على ضوء تراثهم القديم من ديانات

---

(١) إعجاز ١٥٢ .
(٢) إعجاز ١٥٣ . الحمصى ٦١ ، ٣٣١ . انظر فقيهى ١٤٢ ــ ٥ .
(٣) إعجاز ١٥٣ . الحمصى ٦٢ . فقيهى ١٤٥ . سلطان ١٣١ ٢٣٥ . نيازى ١٢٩ . انظر الصالح ٣١٤ . البوطى ١٨٤ .
(٤) إعجاز ١٥٣ . الحمصى ٦٢ . فقيهى ١٤٥ . سلطان ١٣١ ، ٢٣٥ . نيازى ١٢٩ . انظر الصالح ٣١٤ .
(٥) إعجاز ١٥٣ . الحمصى ٦٢ . فقيهى ١٤٥ . مناهج مطلوب ٤٤ .
(٦) إعجاز ١٥٣ . فقيهى ١٤٥ .
(٧) إعجاز ١٥٣ . الحمصى ٧٣ . فقيهى ١٤٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ .
(٨) إعجاز ١٥٣ .
(٩) إعجاز ١٥٥ ــ ٦ . الحمصى ٣٣١ .

وفلسفات وعقائد ، والعرب - أصحاب هذا الدين - قوم غالبون فاتحون ، وهم - مع ذلك - حديثو عهد بالحضارة والحكم والديانات السماوية ، فلا جرم حمل المغلوبون للغالبين ضغائن وأحقادا ، وانطوت نفوسهم على غير الصفاء والود ، وهذا شأن المغلوب دائما : يحاول أن يبحث لنفسه عن متنفس لما يغلى فى صدره لا غُرم فيه ، ولا ضير منه ، ومع ذلك يقضى به وطرا . وعلى هذا حاول مفكرو الأمم المغلوبة فى نقض القرآن وتعاليم الإسلام ، وحاولوا أن يدرسوا بعض ما ظن ذوو الحيف أنه مأخذ ومطعن على كتاب اللّه وسنة نبيه .

وكان حريا ألا يذعن علماء المسلمين لهذا الهجوم الفكرى على مقدساتهم . فوقفوا لحركة المولدين والطاعنين منهم . وهبوا مناضلين فى حمية وحماس ، لا يعدمون وسيلة تؤيدهم . فيستعينون بالقرآن والسنة ، ويوجهون أنظارهم شطر ديانات هؤلاء وعقائدهم ، وتراثهم العقلى من فلسفة وعلوم ، يدرسونها ، ويعكفون على كتبهم ، يحصلون - منها ومن كتب اليهود والنصارى والزرادشتية والمانية وغيرها - ما يعينهم فى الجدل والمناظرة والذب عن كتاب اللّه وسنة نبيه ، بل وعن العربية والعرب ضد الشعوبية وأنصارها .

ونشأت جماعة من علماء المسلمين ، تسلحوا بمناهج عقلية ، وعُرفوا بقوة البيان ، وحسن الرأى ، ونفاذ البصيرة ، وقوة الحجة - على رأسهم المعتزلة ، وكبيرهم واصل بن عطاء وصاحبه عمرو بن عبيد . وكان واصل ... داعية من كبار الدعاة ، آمن بمذهبه ، فقام يدعو إليه ، ويدافع عن القرآن والإسلام دفاعا لا يعتمد كله على السنة ، ولا شاهد القرآن ، لأن أعداءه لم يعترفوا بهما . بل اتخذ لنفسه منهجا عقليا خلطه بالفلسفة ... وخلف فى تفسير القرآن على مذهبه كتابا أسماه « معانى القرآن » .

وجدير أن يكون تفسير واصل صورة أولى لكتب التفسير التى خلفها لنا المعتزلة ، يحمل خلاصة أفكاره الاعتزالية ، ويعبر عن آرائه البيانية فى أسلوب القرآن فى نطاق عقله الحر ، الذى لا يحكّم المنقول تحكيما جامدا ، بل يوازن بين المنقول والمعقول فى حدود المعنى العام للنص ... وحمل لواء الاعتزال - بعد واصل وعمرو - كثيرون من علماء اللغة والبيان[1] .

وقال أيضا : فى القرن الرابع ظواهر تجعله موضع أهمية خاصة ، إذ تتجمع فيه الآراء ، وتتجوهر النظريات ، وتنتظم الدراسات ، وتقوم على أصول محدودة وقواعد ثابتة ...

---

(١) أثر ٦٥ - ٧ .

وللدراسات البيانية فى أسلوب القرآن ـــ فى هذا القرن ـــ حظ عظيم إلى جانب الدراسات النقدية والبلاغية واللغوية . فقد نهضت بها جميعا عقول ، أخذت بمحصول الدراسات السابقة فى القرن الثالث ، وعملت فيها ، وأضافت إليها . ثم بنت عليها ، فأقامت علوما ، وأخرجت أخرى إلى الحياة . فبدأت ـ فى الدراسات القرآنية ـ دراسات الإعجاز وعلومه . وأفردت كتب خاصة مستقلة بها ، تبحث الإعجاز من ناحيته البيانية والبلاغية . وقد تم انفصال علوم الإعجاز عن التفسير ، وقام عليها علماء أجلاء . ووضعت له القواعد والأصول لتوضيح الجوانب البلاغية فى أسلوب القرآن وتبرز الفرق بينه وبين أساليب العرب وفنون قولهم[1] .

وكان أكثر تحديدا وصوابا فى موضع ثالث عندما قال : قامت ـ فى آخر القرن الثالث وطوال القرن الرابع ـ دراسات جامعة شاملة مستقلة لإعجاز القرآن من ناحية نظمه وعلى أساس الدرس البيانى لأسلوب القرآن وطرق تعبيره المختلفة .

والواقع أن المعتزلة قد احتضنوا قضية إعجاز القرآن . وكتب ـــ فى ذلك ـــ الجاحظ كتابه ، وتكلم عنها كثيرا فى بعض كتبه الأخرى[2] ...

ورأى أن دراسات القرن الرابع تمتاز عن دراسات القرن الثالث بأنها كانت محاولات خاصة بإدراك حقيقة الإعجاز عن نظم القرن ، ومعرفة أسرار أسلوبه ، وأن هؤلاء اصطنعوا منهجا ـ فى البيان ـ لتقريب تلك الحقيقة للعقول ، وبنوا منهجهم على خلاصة دراسات علماء القرن الثالث ، وقسموا منهجهم إلى أقسام تتعلق بالبلاغة ، وتطرح قضيتها على بساط البحث ، وتحاول الوصول إلى معرفة أى فنون القول أبلغ من غيرها ، وأيها أقل بلاغة ، وتبنّى مقاييس لذلك كله . ثم تحاول الوصول للإعجاز عن طريق البلاغة ، أى إظهار القرآن فى مظهر البالغ ـ فى تلك الفنون ـــ مبلغا لا يتسامى إليه ما عُرف عند العرب من أرفع الأدب وأبلغ القول .

وخالطت الدراسة البلاغية دراسات أخرى كلامية ، امتزج فيها الاحتجاج لبلاغة القرآن بالاحتجاج بما فيه من دلالات الإعجاز الأخرى ، كالإخبار بالغيوب وقصص الأقدمين ، والنبى أمى لا يقرأ الكتاب .

وكان لبعض العقول الكبيرة فضل فى تلك الدراسات ، لتفتق أكمام البيان القرآنى عن

---

(١) أثر ٢٢٧ .
(٢) أثر ٢٣٠ .

مسائل ولطائف جديدة فى فنون القول وجماله . وتمكنت أيضا من الوصول إلى العلة الجمالية التى تكمن وراء هذه الفنون الجميلة فى البيان .

وظلت دراسات الإعجاز تورق وتثمر طوال هذا القرن والقرون التالية ، يسلم بعضها إلى بعض ، وتزداد - على مر الأزمان - حيوية وإنتاجا ، حتى توصل علماء إعجاز القرآن إلى دقائق ولطائف كثيرة فى أسلوب القرآن ، وبلغت مقدرة بعضهم درجة طيبة ، وأصبحت بعض دراساتهم فى تحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل ناقد أدبى ، ومرجعا لكل باحث فى خفايا التعبير العربى .

و لم تقتصر فائدة تلك الدراسات على القرآن وحده . بل أفادت الأدب العربى عامة . واستمد الشعر والنثر من ينابيعها القواعد والأصول . وسلطت عليها أضواء علوم الإعجاز ، فكشفت عن كثير من مكنون المعانى والألفاظ . ولمن أراد الاستقصاء « دلائل الإعجاز » و « المثل السائر » .

وهكذا كان الفضل لدراسات الإعجاز فى نشأة ذوق أدبى (قرآنى) فى فهم البيان وفنون القول وتقدير أسرار الجمال فى الأسلوب العربى[١] .

صقر

وتعرض السيد أحمد صقر أيضا لظروف نشأة الحديث فى الإعجاز وتطوره ، وجهد المعتزلة فيه ، فقال : ندب الله المسلمين إلى تلاوة القرآن ، وحضهم على ادكار معانيه ، وتدبر أغراضه ومراميه ، ليهتدوا ببصائره وهداه . فأقبل عليه علماؤهم يتدبرونه ويفسرونه .

وأقبل عليه غيرهم من أعدائه وأعدائهم . فاتبعوا ما تشابه من آيه ، ابتغاء الفتنة بتأويلها ، وتحريف كلمه عن مواضعها ، وخيلت لهم أذهانهم العليلة أن فى نظمه فسادا ، وفى أسلوبه لحنا ، وفى معانيه تناقضا ، وفى نقله اضطرابا . فنفوا عنه صفة الإعجاز ، وسددوا نحوه المطاعن ، وبثوا حوله الشكوك .

وكان الناجمون الأولون منهم يخافتون بأقوالهم ، ويصطنعون الحذر والدهاء فى كل ما يأتون وما يذرون ، خوفا من بطش الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من خلفاء الأمويين .

---

(١) أثر ٢٣٠ - ١ .

وخَلَف من بعد هؤلاء خلف كانوا أكثر ثقافة ، وأحسن بيانـا . فأصحروا بآرائهم . وجاهروا بمعتقداتهم ، وبثـوا شكوكهم فى المجالس والآندية . وسطروها فى الكتب والرسائل التى أسرفوا فى تحسينها .

وقد ساعدهم على جهرهم هـذا ، ومكّن لهم منه ، تبدل الزمـان ، وتغير الحـال ، بتسامح الخلفاء فى غير ما يمس سلطانهم ، ويعرض لدولتهم ؛ وامتلاك غير العرب لزمام الأمور فى الدولة ، وانتشار الكتب المترجمة ، وازدياد اتصال العرب بغيرهم من أهل المذاهب والنحل الأخرى ، وكثرة الجدال بين المذاهب الإسلامية ، واشتعال نار العداوة بين الفرق الكلامية .

ولما كثرت المطاعن فى القرآن ، وأوشكت الشبهات أن تأخذ سبيلها إلى نفوس الأغرار والأحداث نهض فريق من العلماء يدرؤون عنه ، فشرعوا أقلامهم لتأليف الكتب والرسائل فى الرد عليهم .

وكانت مسألة الإعجاز من أبرز المسائل التى تعاورها العلماء بالبحث فى أثناء تفسيرهم للقرآن ، وردهم على منكرى النبوة ، وخوضهم فى علم الكلام ، كعلى بن ربن - كاتب المتوكل - فى كتاب « الدين والدولة » وكأبى جعفر الطبرى فى تفسيره ، وكأبى الحسن الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » وأبى عثمان الجاحظ فى كتاب « الحجة فى تثبيت النبوة »[1] .

وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى إعجاز القرآن[2] .

الهندى

ذكر نعيم الحمصى أن عبد العليم الهندى كشف عن فئات العلماء الذين تناولوا الإعجاز ، فقال : ثم يتكلم على ظهور ثلاث طرق فى مناقشة مسألة الإعجاز فى هذا الزمن : طريقة التفسير ، وطريقة علم الكلام التى تقول بضرورة وجود فكرة المعجزة لإثبات النبوة ، وطريقة المعتزلة ؛ وعلى العوامل التى أدت إلى وجود كلٍّ منها ؛ وعلى اتصال كل واحدة من هذه الثلاثة بالأخرى ؛ ثم على انبثاق طريقة رابعة من هذه الثلاث ، وهى طريقة علم البيان فى الأدب .

---

(١) مقدمة الإعجاز ٦ - ٧ . (٢) مقدمة الإعجاز ٧ .

ويقول بأن أولها ظهورا طريقة المعتزلة ، ثم المتكلمين ، ثم المفسرين ، وأخيرا أرباب البلاغة .

ويذكر - بعد ذلك - المعتزلة الذين لهم رأى فى الإعجاز ، وأول من بحث هذه المسألة من المتكلمين ، وهو على بن ربن الطبرى ، وأول من بحثها من المفسرين ، وهو ابن حرير الطبرى ، وبعده القمى[1] .

الحمصى

ولاحظ نعيم الحمصى على القرن الهجرى الرابع أنه قد دخل ميدان المعركة فيه طائفة المفسرين . فتحدث الطبرى عن الفكرة ببساطة ، وبما يستدعى فيه التفسير من القول . وتكلم القمى المفسر كلام المفسر المتأثر بعلم الكلام .

ولاحظ فيه ظاهرة جديدة لم تكن واضحة فى القرن الثالث ، وهى أن الأدباء أصبحوا يؤلفون كتبا مستقلة فى البلاغة ، تعنى بالإعجاز . وكان مؤلفوها ممن تأثروا قليلا أو كثيرا بعلم الكلام كالواسطى والرمانى والخطابى ، أو كانوا أدباء خُلّصا كالعسكرى ، على حين كان الجاحظ فى القرن الثالث أديبا ومعتزليا .

ولاحظ أن المتكلمين - كالأشعرى والتوحيدى وبندار الفارسى - قد ثابروا على طرق البحث كأسلافهم من قبل .

كما أن هذا القرن لم يخلُ ممن رموا بما نسميه الآن حرية الفكر ، كالمتنبى الذى لم ينسب إليه عدم اعتقاده بإعجاز القرآن فقط ، بل رمى - فى حداثة سنه - بادعاء النبوة ومحاولته معارضة القرآن[2] .

وذكر أن النظريات الإسلامية فى الإعجاز قد أخذت - فى نهاية القرن الرابع وبداية الخامس - نوعا من الاستقرار سرى على الأعصر التالية . فإن علم الكلام كان قد تكامل - فى هذا الوقت - وجهود المتكلمين المتأخرين انتهت إلى هذا البناء الذى تم وضعه[3] .

ولاحظ أن كثيرا من الباحثين فى الإعجاز - فى القرن الخامس - كانوا مجرد جامعين لآراء من سبقوهم أو مقلّدين ، وأنه قد ظهر القول بصورة أصرح فى نظرية أن القرآن معجز لأنه كلام الله ، وذلك على لسان ابن حزم . وظهر قول داعى الدعاة بأن القرآن معجز بما فيه من معانى الحكمة . ويبدو واضحا - فى زمن عبد القاهر الجرجانى - أن

---

(١) فكرة ٣٣٥ .　　(٢) فكرة ٦٦ .　　(٣) فكرة ٧٩ .

التيار الفكرى كان متجها نحو الإعجاز بالألفاظ ، فخشى من ذلك عبد القاهر على فكرة الإعجاز أن تزول إذا وجد بين الأدباء من يستطيع معارضة هذه الصنعة اللفظية . فناصر فكرة النظم القائم على تلاؤم المعانى فى خدمة الغرض العام المقصود تلاؤما يراعى فيه التصوير وحسن التعبير والصياغة . وظهر القول بأن بعض القرآن أفصح من بعض على لسان ابن سنان الخفاجى(١) .

ولاحظ على القرن السادس أن النظرية العلمية فى الإعجاز ذُكرت فيه لأول مرة على لسان الغزالى ، فيمن اطلعت على آرائهم حتى زمنه من الباحثين ثم تلاه فى القول بها عياض ثم ابن رشد الذى وجد فى هذا العصر نفسه ، وتكلم فى ناحية منها .

ولاحظ أن الباقين كانوا مقلدين أو جامعين لآراء من قبلهم ، وأن الزمخشرى منهم يقول بإعجاز القرآن من حيث البيان . ويسرد رأيه هذا فى تفسيره الكشاف . ولكنه يقول بأن القرآن حادث ، ومن غير ذلك لا يكون معجزا ، لأن التحدى يبطل حينئذ ، ولا يصح لاستحالة الإتيان بمثل القديم(٢) .

ونعت مؤلفى القرن السابع بأنهم كانوا مجرد ناقلين أو شارحين أو جامعين لآراء من سبقوهم ، وأن أحدهم - وهو الآمدى - يصلح أن يكون مثالا من المتكلمين المتأخرين . فهو يأخذ حجج من قبله فيوسعها ، ونظر إلى القرآن نظرة عامة ، فالقرآن معجز - عنده - بجملته ، ولكنه - فى هذا - متبع وليس مبتدعا(٣) .

ولن أتتبع تصويره لبقية القرون ، لأنها ليست قرون ابتكار ، ماعدا القرن الرابع عشر الذى أفاض الحمصى فى الحديث عنه عندما أجمل أحداثه(٤) .

فقيهى

ومن الغريب أن ينكر محمد حنيف فقيهى وجود كتاب الجاحظ ، ويعلن أن الجاحظ لم يفرد الإعجاز ببحث ، و لم يخصه بكتاب ، وإن كان السيد أحمد صقر — المدرس بالأزهر - فى مقدمته لإعجاز القرآن للباقلانى يذكر أن للجاحظ كتابا خاصا بإعجاز القرآن سماه نظم القرآن . و لم نر أحدا من الناس شاركه هذا الرأى ، ووافقه على ذلك النقل .

---

(١) فكرة ٩٠ .
(٢) فكرة ٩٩ .
(٣) فكرة ١١١ .
(٤) فكرة ٤٣٣ — ٥٠ .

ولكننا نراه يستشهد لذلك بالباقلانى نفسه ، إذ يقول : وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا ...

وسواء صح هذا النقل أو لم يصح ، فإننا - فى هذا النقل الذى نقلناه عن الجاحظ فى إعجاز القرآن ، والذى وصفناه فيه بأنه يجرى على أسلوب الخطابة ، وتنميق الكتابة ، وروعة الأسلوب - لا يعدو أن يكون كلاما عرض له أثناء حديث ، أو عنَّ له فى ثنايا بحث ، أو جرى بخاطره جريانا عابرا ، دون أن يكون القصد إليه ، فى الابتداء أو الانتهاء .

وهو - على كل حال - يصور لنا أن تناول هذه الناحية لم يكن فيه من العناية والاهتمام ما يجدر به أن يسمى باسم البحث الناضج ، أو الرأى المستوعب ، أو المؤلف المستفيض[١] .

وأعتقد أن ما ذكرته فى فصل النقد ، وذكر الزمخشرى للكتاب ، وقول الشريف بأن هناك من رآه[٢] ، وغير ذلك ، يبطل دعوى فقيهى .

الصالح

و لم يذكر د. الصالح عوامل خارجية دفعت إلى الخوض فى إعجاز القرآن ، ورد الأمر إلى عوامل ذاتية محضة . قال : كان الإعجاز القرآنى خليقا أن يثير فى الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية ، يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية ، وعن أسلوب القرآن الفذ فى التصوير والتعبير[٣] .

وبعد أن عاب بحوث القدماء ، رأى أن النهضة الأدبية العربية - فى القرن الأخير - قد وجهت أنظار الباحثين إلى مقالات جديدة فى عناصر الجمال الفنى فى القرآن[٤] .

الخطيب

وتعرض عبد الكريم الخطيب لتطور التأليف فى الإعجاز ، فى أكثر من موضع من كتابه . ذهب فيها إلى أن الناس داروا حول القرآن فى كل اتجاه ، وجاؤوا إليه بكل ما يملكون من قوى ذهنية ، وملكات نفسية وروحية ، يدرسونه ويتدارسونه . فما تركوا

---

(١) نظرية ١٣٢ - ٣ ، ٣٩ .
(٢) الكشاف ١/١٥ .
(٣) مباحث ٣١٣ .
(٤) مباحث ٣١٦ - ٧ .

منه حرفا إلا ونظروا فيه نظرا مرددا ، ولا كلمة إلا وقفوا إزاءها خاشعين متأملين ، ولا آية إلا عاشوا فيها متعبدين متوسمين .

ولك أن تحسب جميع العلوم التى اشتغل بها المسلمون - منذ صحبوا القرآن إلى اليوم - أنها إنما كانت من أجل القرآن ، ولحساب القرآن ...

غير أن هناك دراسات اتجهت اتجاها مباشرا للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله فى القرآن . فلم يكن من همها شىء إلا أن تكشف النقاب عن هذا السر المحجب . فكانت - من أجل هذا - تدور حول القرآن فى كل مدار ، وتنظر إليه من كل اتجاه . وقد اجتمع من تلك الدراسات محصول وفير ، يكمل بعضه بعضا ، إذ كان لكل ذى نظر نظرة - مهما اتسعت آفاقها - لا تأخذ من القرآن إلا ما يأخذ النمل من أركان جبل شامخ[1] .

وعلى الرغم من عكوف المسلمين على القرآن ، قراءة ومدارسة ، وعلى الرغم من قطع أكثرهم العمر كله - من الطفولة إلى الممات - فى الغدو والرواح عليه ... فإنه قد مضى عصر النبوة ، وعصر الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية ، وشطر كبير من دولة العباسيين ، دون أن يحاول التعرض لقضية الإعجاز القرآنى .

وإنما هذا الذى يبدو أنه تقصير ، إنما كان إعظاما لأمر القرآن ، وتهيبا لمقامه ، وصونا لذاته أن يكون غرضا للآراء ، والأهواء ، ومجالا للجدل والخلاف ، حتى لقد تجنب كثير من الصحابة تفسير آية أو كلمة فيه ، إذ كان يرى أن ذلك قول بالرأى فى القرآن ، وتألٍّ على اللّه فى كشف المراد من كلامه . ولا يعلم حقيقة ذلك الكلام غير اللّه سبحانه ...

ولكن اتساع رقعة الإسلام ، ودخول كثير من غير العرب فى هذا الدين ، جعل شرح الآيات القرآنية وتفسيرها أمرا ضروريا لأولئك الذين ليس لهم حظ من اللغة العربية يصلهم بالقرآن صلة مباشرة . فكان أن أخذ بعض العلماء يضعون للقرآن تفسيرا للغريب من مفرداته ، أو تفسيرا كاملا لمعنى آياته ، واستخراج أحكام الشريعة منها .

كذلك كان علم الكلام - الذى ظهر فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث - كان داعية من دواعى الجدل والخلاف بين المسلمين فى أمور كثيرة تتصل بالعقيدة . وقد كان القرآن محل نظر المتكلمين وخصومهم ، فيما يجادلون فيه ، ويختلفون فيه .

---

(١) إعجاز ١/١٢٥ .

ومن هنا فقد أصبح النظر فى القرآن نظرا متعمقا فاحصا دارسا مقلبا وجوه الرأى أمرا لا مناص منه للعلماء وأصحاب الرأى ، بين مختلف المذاهب والطوائف . وإعجاز القرآن مسألة من تلك المسائل التى ثار حولها الجدل والخلاف[1] .

وكان النظام - وهو رأس المعتزلة وعمدة فى المتكلمين - أول من قال فى إعجاز القرآن . وجعل من هذا الإعجاز أمرا يتصل بالعقيدة . فقال فى هذا : « إن العرب لم يعجزوا عن معارضة القرآن ، وإنما صرفهم الله عن تلك المعارضة[2] » .

ومنذ ظهر هذا الرأى ، وأنظار العلماء متجهة إلى البحث فى إعجاز القرآن ، وإقامة الأدلة لهذا الإعجاز .

وكان الجاحظ أول هؤلاء العلماء . وقد كرر الخطيب الحديث عنه فى أكثر من موضع . فقال مرة : كان الجاحظ - فيما نرى - أول من نظر هذه النظرة فى كتاب الله . وحاول أن يجعلها موضوعا من موضوعات رسائله وكتبه الكثيرة التى جاء بها فى كل مجال ، واصطاد بها كل عجيب وغريب .

ثم جاء بعده كثيرون ، جروا على طريقته ، وأخذوا مأخذه ، وحاولوا أن يكون لهم نظر خاص إلى جانب رأى الجاحظ . ولكنهم كانوا - دائما - يدورون حوله ، ولا يجيئون - فى الغالب - بجديد عليه[3] .

وقال فى مرة أخرى : الجاحظ أول من تصدى لهذا الأمر ، وجعله موضوعا خاصا للنظر والدرس . أما الذين سبقوه إلى شىء من هذا فلم يكن البحث قائما عندهم على هذا الوجه المحدد المقصود . وأما الذين جاءوا بعده فقد كانوا جميعا شراحا لنظريته ، وسائرين فى اتجاهه[4] .

والغريب أنه - فى موضع ثالث - سحب ما قاله عن النظام ومن قبله على الجاحظ نفسه . فقال : كان كل هذا الذى قيل فى الإعجاز ، من النظام أو الجاحظ أو غيرها ، لا يعد دراسة موضوعية للإعجاز ، وإنما هو أشبه بالخطرات العارضة ، لا يقف عندها أصحابها وقوفا طويلا ، ولا يتوفرون عليها زمنا يتاح لهم فيه الإحاطة بها من جميع جهاتها .

---

(١) إعجاز ١٥٦/١ - ٧ . انظر نيازى ١٣١ - ٣ .
(٢) إعجاز ١٥٧/١ . انظر آلوسى عبد الحميد ٢٦١ . عبد الفتاح لاشين ٤٢٥ - ٧ .
(٣) إعجاز ١٢٦/١ . (٤) إعجاز ١٢٦/١ ، ١٣٠ .

وإن كان التاريخ يذكر أن الجاحظ ألف كتابا فى الإعجاز باسم « نظم القرآن » إلا أن هذا الكتاب لم يقدر له الحياة مع الناس . فضاع فيما ضاع من كتب الجاحظ وكثير غيره من علماء المسلمين فى موجات الفتن والأحداث التى نزلت بالمجتمع الإسلامى . وعلى هذا فلا يكون حسابنا مع الجاحظ إلا على ما بين أيدينا من آثاره[1] .

وإذ صرفنا نظرنا عن هذا الذى ليس بين أيدينا شىء منه من رسائل الإعجاز ، فلنا أن نقول : إن أول من نراه فى هذا الميدان هو الخطابى الذى تصدى لهذا الأمر ، وواجه مسألة الإعجاز مواجهة مباشرة[2] .

وأعلن الخطيب - عن غير وجه حق - أن الباقلانى أول من ألف فى الإعجاز كتابا مستقلا به ، مقصورا عليه ، إذ كان كل ما يعرف فى هذا الباب للعلماء كلمات منثورة فى تضاعيف كلامهم أو فى مقدمات تفسير القرآن[3] .

وبعد أن ذكر عبد الجبار وعبد القاهر وعياضا وابن عطية دون أن يعطيهم ما يستحق أن نذكره هنا ، وقف عند مصطفى صادق الرافعى الذى كان يراه أول من دخل هذه الحلبة من أبناء هذا العصر ، وأفسح له مكانا مع رجالها من علماء السلف فى هذه الأمة .

فقال : كادت هذه السلسة تنقطع ، وكاد العصر ينقضى دون أن يقوم فيه رجل يحمل الراية فى هذا الميدان ، ويؤدى للقرآن حقه الذى له على جيل من أجيال المسلمين .

إن الذين كتبوا فى إعجاز القرآن كتابة متخصصة قلة معدودة . وأغلب هؤلاء النفر القليل كان يدخل هذا الميدان خائفا ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تهيبا للموقف المهيب ، وتخوفا من التقصير عن الوفاء بحق هذا المقام الكريم . وكان آخر من دخل هذه الحلبة هو جلال الدين السيوطى . وكان ناقلا أكثر منه باحثا ومؤسسا ، وهو على أىّ محمود مقدور .

وجاء الرافعى : فكان مقداما جريئا ، يحمل قلب مؤمن ، وعقل عالم ، وقلم أديب . وبهذه القوى استطاع أن يثبت أقدامه ، وأن يمد يدا قوية ثابتة إلى مجانى القرآن ، فيقطف من ثمراته شيئا موفورا ، يقدمها للدارسين لكتاب الله ، وللمتوسمين فى آياته[4] .

---

(١) إعجاز ١٥٧/١ . انظر عبد الفتاح لاشين ٤٢٩ ، ٤٤٢ . نيازى ١٣٣ .
(٢) إعجاز ١٥٧/١ .
(٣) إعجاز ١٧١/١ .
(٤) إعجاز ٣٠١/١ .

وانفرد د. السيد أحمد خليل بالقول بأن قضية الإعجاز شغلت الدارسين ، منذ العصور الإسلامية الأولى ، دون أن يحدد هذه العصور الأولى تحديدا واضحا . ورد هذا الشغل إلى أمور ذكر أن أهمها أن القرآن جاء بجديد لم يعرفه العرب من قبل في الفكر واللغة والأساليب[١] .

ولعل فيما قاله - بعد - ما يزيل بعض الإبهام الذى يلف هذا القول ، فقد ذكر أن المسلمين - فى عصر الرسول - شغلوا أنفسهم ببيان الحكم الشرعى واستنباطه ، ووسائل تطبيقه ولفت الناس إليه .

وما كاد يستقر بهم الأمر حتى فتحوا أعينهم على حضارات جديدة ، ومواريث أخرى فى السياسة والاجتماع ، ووسائل الدراسة وتنظيمها ، وذلك بإسناد الأمر إلى العباسيين وحياطتهم للفكر ، ودعوتهم إليه[٢] .

وقد أدخل المتكلمون قضية الإعجاز فى إطار العقيدة حتى أصبحت جزءا منها . ومنذ ذلك التاريخ كان المفسرون المتكلمون - ومنهم المعتزلة - من أكثر الناس بحثا لهذه القضية . وهم أسبق الفرق الإسلامية إلى دراسة العقيدة وتحديدها والدفاع عنها .

والعبارة لا ندرى أتعنى المفسرين والمعتزلة ، أم أحد الفريقين فقط . ولكن المؤلف كشف عن دور المعتزلة صراحة بعد فى قوله : الذى يهمنا - هنا - أن البحث فى الإعجاز كان الشغل الشاغل لهؤلاء المعتزلة .

وقد وضعت كتب كثيرة على اختلاف العصور الإسلامية ، تشرح قضية الإعجاز وتبين عن أصولها . وكل منها يصور منزع صاحبه فى الثقافة ، وطريقته فى استقلالها لشرح هذه القضية .

وكان المعتزلة أول المسلمين سبقا إلى تأليف أمثال هذه الكتب . وكانت - أول أمرها - رسائل صغيرة كما فى إعجاز القرآن للرمانى والواسطى[٣] .

---

(١) دراسات ١٤٨ .
(٢) دراسات ١٤٩ .
(٣) دراسات ١٥٠ .

وعقد د. عمر الملاحويش فصلا لتأريخ نشوء فكرة الإعجاز وأسبابها ونتائجها . تحدث طويلا عن الظروف التى أدت إلى بدء البحث فى الإعجاز وإلى تطوره .

فذكر أننا حين ننظر إلى هذه الظروف التى دعت إلى التأليف حول القرآن ـ بشكل عام ـ نرى موجة من التفكير الجديد قد سادت المجتمع الإسلامى ، تدعو إلى النظر فى القرآن من حيث أسلوبه ومعانيه .

وهذه الموجة من التفكير جاءت نتيجة لانتشار الإسلام ، واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وانضواء أجناس مختلفة تحت لوائه ، ذات ثقافات وعقائد متباينة . وحيث نزل المسلم ، حل الإسلام ليصهر فى بودقته تلك العقائد والمعارف التى كانت سائدة فى هاتيك البلاد التى دخلها . فكان هناك صراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد السائدة ، ينتهى ـ دائما ـ بفوز العقل المسلم .

ولكن هذا الفوز لم يكن بمقدوره أن يضع حدا فاصلا ، ينتهى عنده أثر تلك العقائد والعادات والثقافات السائدة ، لأن هذه المعارف ليست بنت ساعتها حتى يزول أثرها بين عشية وضحاها ، بمجرد اعتناق أبنائها دينا جديدا . وإنما هى وليدة ثقافة لأجيال متعاقبة، ورثها خلف عن سلف . ولذلك فالمسألة تحتاج إلى فترة زمنية قد تطول وقد تقصر تبعا لمدى تغلغل جذور هذه المخلفات لدى أبناء ذلك المجتمع ، تكون خلالها عملية الامتزاج قد تمت لتخرج بلون جديد من الأفكار والعادات المحلية والوافدة .

ولذلك كان لابد للعقل المسلم أن يتطور متأثرا بما عند هؤلاء المسلمين الجدد من علوم ومعارف ، فتطعمت الثقافة الإسلامية بألوان جديدة من عادات وعلوم لم تعهدها من قبل .

ولما كان كل مسلم مطالبا بقراءة القرآن ، وتدبر معانيه ، وتفهم أحكامه ، كان لابد لهؤلاء المسلمين الجدد أن يتعلموا القرآن ، فعكفوا على دراسته[1].

أما دراسة الإعجاز خاصة فقد كان لها ظروفها الخاصة ، إلى جانب الظروف المشتركة التى ذكرتها .

---

(١) تطور ٢٠٢ ـ ٣ ، ٢١٣ .

فلما كان القرآن هو الحجة الأولى والمعجزة الكبرى على صدق رسالة محمد ، كانت النفوس تتطلع إلى معرفة وجوه الإعجاز فيه ، فراحوا ينظرون إليه يلتمسون فيه وجوه إعجازه[١] .

وترجع أصول فكرة إعجاز القرآن إلى أوائل نزول القرآن وابتداء الدعوة الإسلامية[٢]. ولكن العرب الذين عاصروا هذا النزول أدركوا الإعجاز إدراكا فطريا غير مسبوق بدراسة ولا طول نظر فى الكتب . وإنما أدركوه بفطرتهم العربية السليمة ، وما حباهم اللّه من ذوق سليم وفصاحة وبيان[٣] .

ولكن ـ بعد أن تقدم الزمن ، وانتشر المسلمون فى أرجاء المعمورة بانتشار الإسلام ، وابتعدوا عن البيئة العربية السليمة ، وبالإضافة إلى ما علمه المسلمون الجدد من غير العرب من ثقافات وعلوم ـ لم يعد الإعجاز ـ يدرك بالفطرة . وإنما صار إدراكه يتطلب دراسة للغة العربية ، وإحاطة بغريبها ، ومعرفة بأساليب التعبير فيها ، لتنمو ـ لدى من يريد التصدى لمعرفة الإعجاز ـ مَلَكة تمكنه من إدراك هذه الناحية فى القرآن ، أى أن الإعجاز ـ بعد أن كان يعتمد على التذوق الفطرى ، أى بمجرد سماع القرآن يحَس به ـ تحول إدراكه إلى التذوق العلمى الذى يجب أن تسبقه ثقافة واسعة تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز[٤] .

وهذا يعنى أن الإعجاز ـ الذى كانت تدركه أكثرية العرب وغير العرب من الذين عاصروا نزول القرآن ـ أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين ، هى التى بيدها وسائل التذوق الفنى[٥] .

ولذلك كثرت الاستفهامات حول الإعجاز :

فيم وقع الإعجاز ، وفى أىّ من القرآن ؟

وما هى وجوه هذا الإعجاز ؟

ولماذا صار القرآن معجزا ؟[٦] .

كذلك ساعد القرآن على فتح أبواب المناقشة أمام المسلمين ، حين نقل ما دار على ألسنة المعاندين من قريش ، وآيات التحدى التى جاءت لتتحدى من تسول له نفسه

---

(١) تطور ٢٠٤ ، ٢١٧ .

(٢) تطور ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٨ .

(٣) تطور ٢١٣ .

(٤) تطور ٢١٣ ـ ٤ .

(٥) تطور ٢١٤ ، ٢٢٠ .

(٦) تطور ٢١٤ .

الجحود بآيات الله ، ثم الآيات الكثيرة التى نزلت لتحث المسلمين على تدبر معانى القرآن . بالإضافة إلى كثير من الآيات التى تدفع المسلم إلى النظر فى خلق الله والتفكر بآياته ، ليزداد إيمانا بقدرة الله وعظمته[١] .

ولكن ذوى القلوب المريضة الذين لم يتجاوز الإسلام حناجرهم — وأكثرهم من غير العرب - دفعهم حقدهم وشعوبيتهم ، فاستغلوا هذه الاستفهامات ، وراحوا ينفثون سمومهم بين صفوف المسلمين ليشككوا ضعاف الإيمان فى عقيدتهم ، كالجعد بن درهم ، الذى أمر هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى (١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٣ — ٧٤٣) فقُتل . وقد لقنهم قتل الجعد درسا . فلم يتمكنوا أن يجاهروا - فيما بعد - بآرائهم الغريبة ، مخافة البطش بهم . فكانوا يتلطفون بآرائهم ، ويستخفَون بأقوالهم .

فلما دار الزمن دورته وتغير الحال ، فتولى زمام أمور الدولة غير العرب ، وصار الخلفاء لا يهمهم سوى ما يمس سلطانهم فتركوا الحبل على الغارب ، وانتشرت الكتب المترجمة لازدياد احتكاك العرب بغيرهم ، لما تم كل ذلك نشط المغرضون - فى ظلال هذه السحب التى سادت جو المجتمع الإسلامى — فكثرت المطاعن فى القرآن ، واتخذت المسألة شكلا سافرا وصارت تشكل خطرا على العامة من المسلمين[٢] .

عند ذلك نشط علماء المسلمين ليذبوا عن قرآنهم ، ويردوا كيد الكائدين فى نحورهم . وكانت مسألة إعجاز القرآن من أبرز المسائل التى تناولها العلماء بالبحث[٣] .

وقد أشار د. حويش إلى أن دراسات إعجاز القرآن ومعرفة وجوه هذا الإعجاز ، استأثرت بقسط كبير من الدراسات القرآنية التى بدأت طلائعها فى أوائل القرن الثانى الهجرى[٤] .

وأشار إلى كثرة ما دار حول مسألة الإعجاز من نقاش ، مع امتداد الزمن واتساع رقعة البلاد الإسلامية ، وإلى ضياع الكثير مما قيل فى هذا الباب ، مما يجعل استقصاءها أو الإلمام بكل أطرافها أمرا لا يمكن لباحث أن يفيه حقه[٥] .

ولما كانت وسائل التذوق الفنى والعلمى — الذى صار عماد المسلمين فى إدراك الإعجاز - ليست - لدى جميع الناس - على مستوى واحد ، وإنما تختلف من شخص لآخر

---

(١) تطور ٢١٤ — ٥ .

(٢) تطور ٢١٥ — ٦ ، ٢٢٢ .

(٣) تطور ٢١٦ ، ٢٢٢ .

(٤) تطور ٢١٧ — ٨ . وانظر سلطان ٤٧ .

(٥) تطور ٢١٨ .

باختلاف اطلاع وسعة أفق كل منهم ؛ اتخذت دراسة الإعجاز صورا مختلفة أثرت فيها النظرة الجديدة تجاه القرآن ، وخضعت للتيارات العقدية التى ميزت تلك الفترة .

فاشتد النقاش حول مسألة الإعجاز . وكان أبطاله هم أصحاب الفرق الإسلامية الذين يعتبرون فى طليعة من تناول دراسة هذه الناحية من القرآن ، لأنهم أكثر الذين عنوا بدراسة الفلسفة والمنطق ، لما لمسوا - فى هذه العلوم - من عون على الجدل ومناظرة خصومهم[1] .

كذلك تحدث حويش عن كتابى معانى القرآن للفراء ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة ، فى أثناء تناوله النشاط الإسلامى المبكر حول الإعجاز . وقال فى تبرير ذلك : لو ألقينا نظرة إلى الظروف التى دعت إلى أن تنشط دراسات الإعجاز حتى تأخذ شكلا موضوعيا مستقلا بذاته عن بقية علوم القرآن ، لرأينا أنها هى نفس الظروف التى دفعت أبا عبيدة إلى تأليف كتابه ، الذى يتناول فيه الأسلوب القرآنى ، فيعقد مقارنة بينه وبين ما للعرب من أساليب، ليقرر - بعد ذلك - أن أسلوب القرآن لم يخرج عما ألفه العرب فى فنون كلامهم . فكتاب أبى عبيدة هذا كان يهدف إلى إظهار ناحية من نواحى الإعجاز القرآنى . وهو - بنفس الوقت - يرد على تخرصات أعداء القرآن .

وإذا ما أردنا أن نوسع نطاق دائرة الإعجاز ، فنضم إلى أبى عبيدة الفراء - ولو أن كتاب الفراء هذا يعتبر كتاب تفسير قد غلبت عليه الناحية النحوية ، غير أنه - أيضا - يجلو ناحية من نواحى القرآن التى تتعلق بإعجازه ، ولكن بصورة غير مباشرة . أما كتاب أبى عبيدة فيعتبر ألصق بناحية الإعجاز من كتاب الفراء هذا[2] .

ولكن الضعف ظاهر فى هذا التبرير . فما فعله أبو عبيدة - الذى زعم أن كتابه ألصق بالإعجاز - لا يكشف - فى وصفه له - عن الإعجاز ، وإنما يكشف عن عروبة أسلوب القرآن .

وأعتقد أن وراء هذا الادعاء موقف الرجل من المعتزلة . فقد قال : يعتقد كثير من العلماء القدامى والمحدثين أن المعتزلة هم أول من تصدى لدراسة إعجاز القرآن ، وينسبون أول رأى فى ذلك إلى أحد رؤوسهم - وهو إبراهيم بن سيار النظام - حين قال برأيه الذى اشتهر بمخالفته لآراء العلماء . فشايعه من شايعه ، ورده غيرهم مفندا رأيه بالحجج والبراهين .

---

(١) تطور ٢٢٠ - ١ . (٢) تطور ٢٠٢ ، ٢٤٠ . وانظر سلطان ٤٨ .

ولكن الذى يبدو لى هو غير ذلك ، وهو أن المعتزلة لا يعقل أن يكونوا وحدهم فى هذا الميدان . والمنافسة التى كانت بينهم وبين غيرهم من المسلمين هى التى تقوى هذا الاعتقاد ولذلك لابد أن يكون هناك من ناقشهم آراءهم ، وبادلهم الرأى ، ورد عليهم[١].

و لم يكتف الرجل بهذا الافتراض . فعقب على ما قال على كتابى أبى عبيدة والفراء : إذا ما استقام لنا ذلك ، لم يعد يعتبر النظام وحده فى هذا الميدان . أو بصورة أعم لم ينفرد المعتزلة بدراسة إعجاز القرآن دون غيرهم من المسلمين . فإن هناك من سبقهم فى هذا المضمار أو عاصرهم على الأقل .

وحين صرح النظام برأيه هذا فى إعجاز القرآن ، لابد أن يكون لمعاصريه من العلماء رأى صريح فى الإعجاز أيضا . كما لابد للعلماء الذين عاصروا النظام من مناقشة رأيه هذا وقبوله أو رفضه . وقد كان ذلك فعلا . وما المناقشات التى أثارها العلماء الذين جاؤوا بعد النظام إلا امتداد لما أثاره معاصروه من مناقشات حول رأيه هذا .

ولكن الذى دعا الباحثين إلى أن ينسبوا أسبقية القول فى إعجاز القرآن إلى النظام ، أن رأيه هذا القائل بالصرفة قد جاء مخالفا لرأى جماعة المسلمين فى هذا الموضوع . ولذلك تناوله العلماء بالرد عليه ، والتدليل على بطلانه ، مما أدى إلى اشتهاره[٢] .

وختم الرجل بما يبعد عنه تهمة التجنى أمام القارئ فقال : إلا أننا لا ننكر على المعتزلة جهودهم وفضلهم ، فى الوقوف بوجه أعداء القرآن ، والتصدى لهذه التيارات الهدامة ، ودفاعهم المجيد عن القرآن إلا أننا - فى الوقت نفسه - يجب أن نقر بما لغيرهم من المسلمين من الفضل فى هذا المضمار[٣] .

وقد حمله هذا التحيز على أن يتخذ موقفا غريبا من الجاحظ لاعتزاليته . فقد اضطر إلى أن يعترف بتأليفه كتاب « نظم القرآن[٤] » ، ولكنه - فى الوقت نفسه . أعلن أنه لم يعثر - بين ما وصل إلينا من تراث الجاحظ الخصب - على كتاب فى إعجاز القرآن ، حتى ولا على رسالة خاصة فى هذا الموضوع .

ولا يعقل أن شخصية مستنيرة كالجاحظ ، كتب فى كل شىء ، يغفل هذه الناحية الحساسة من القرآن ، فلا يفرد لها مؤلفا خاصا بها . ومما يقوى هذا الاعتقاد أننا نجد له

---

(١) تطور ٢٤٠ . وأعتقد أن حويشا تعمد اختيار هذا الرأى للنظام ليشوه صورته ، وأهمل رأيه الآخر الذى رد فيه الإعجاز إلى الإنباء بالغيب ، وهو الوجه الذى يرضى عنه أكثر المسلمين .

(٢) تطور ٢٤٠ - ١ . (٣) تطور ٢٤١ . (٤) تطور ٢٢٤ - ٥ .

آراء فى ذلك منشورة فى مؤلفاته ، وربما يكون كتابه « نظم القرآن » الذى فقد من بين ما فقد من تراث الجاحظ ، قد تناول فيه هذه الناحية[١] .

فلو وضعنا ما قاله عن كتابى أبى عبيدة والفراء إلى جوار هذا الموقف المبهم المذبذب من الجاحظ ، تبينت المفارقة فى كل وضوح .

ومعظم الحق مع محمد الصباغ حين يقول : قد أكثر المعتزلة من إثارة قضية إعجاز القرآن ، وكذلك فإن عددا من علماء أهل السنة المتذوقين للبيان العربى كتبوا فى ذلك ، من أمثال عبد القاهر الجرجانى والرازى والزملكانى[٢] .

وسار د. أحمد مطلوب فى ركاب من قال بأن المتكلمين أول من بحثوا فى إعجاز القرآن وبلاغته[٣] .

سلطان

وأدلى د. منير سلطان بدلوه فى محاولة تتبع حركة التأليف فى الإعجاز . فقال : فى مطالع القرن الثانى الهجرى - عندما بدأت الأفكار — الجديدة تتسلل إلى العقول ، وبدأ الإسلام ينشر لواءه على البلدان المفتوحة — أقبل الحاقدون منهم على الدين الجديد يدرسونه ، وينظرون فيه بعقولهم القديمة ونفوسهم السابقة ، وفى ضوء من تراثهم الدينى والفلسفى . فاعترضوا كتاب اللّه بالطعن ، ولغوا فيه وهجّروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظر مدخول . فحرّفوا الكلم عن مواضعه ، وعدلوه عن سبيله . ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة واللحن وفساد النظم والاختلاف . وأدلوا فى ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف والغُمْر ، والحَدَث والغِر ، واعترضت بالشُّبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور[٤] . وصار نظم القرآن ومعانيه أمام هجوم عنيف .

فقام علماء الإسلام من متكلمين ولغويين ومفسرين ينافحون عنه ، وعن حجية نبوة محمد . وكان على المدافعين عن القرآن ونظمه أن يبينوا خصائص الأسلوب العربى الذى يجرى على نمطه البيان القرآنى .

---

(١) تطور ٢٥٥ . انظر سلطان ٤٧ . (٢) لمحات ٦٤ .
(٣) مناهج ٤٢ . اتجاهات ١٢١ .
(٤) إعجاز ٤٧ — ٨ . عن « تأويل مشكل ابن قتيبة » .

ومع تطور الثقافة ، وفتح النوافذ على الفكر الأجنبى ، تشعبت الدراسات البلاغية بين شعبة تحافظ على القوالب العربية الخالصة التى لا يشوبها أى مقياس أجنبى وشعبة اطلعت على الفكر اليونانى ، وأرادت أن تقيس البلاغة بمقياس اليونان ...

وبدأت الخصومة بين هذين المنزعين . فألف ابن المعتز كتابه « البديع » دافعا عن البلاغة العربية هجمات المتفلسفة ، ومؤكدا أن كثيرا من فنون البديع موجود من قديم فى القرآن والحديث وكلام الجاهليين والإسلاميين .

ولم يسكت المتفلسفة . فقدم قدامة بن جعفر كتابه « نقد الشعر » وإسحاق بن وهب كتابه فى نقد النثر ، استمرارا للطريق الذى بدأ بترجمة آثار اليونان .

أما المتكلمون فقد ظل نشاطهم فى هذه المباحث متصلا . وكان من أهم ما وصلهم بها أنهم عُنوا بتعليل إعجاز القرآن وتفسيره بلاغيا ، وكانوا معتدلين ، فهم لا يحافظون محافظة اللغويين ، ولا يسرفون فى التجديد ، بل يقفون موقفا وسطا ، وهو موقف جعلهم يقبلون على معرفة ما عند الأجانب من قواعد البلاغة ، ولكن فى احتياط ، وهو احتياط يمثله الجاحظ خير تمثيل ، حين يضيف إلى الشذرات التى رواها عن الأمم الأجنبية سيولا من ملاحظات العرب المعاصرين والقدماء ، وأساتذة الاعتزال ، وبلغاء الكتاب ؛ وسيولا أخرى من الشعر والنثر ، لتتضح حقيقة البلاغة العربية .

ومع المتكلمين سارت القضية فى اطراد ، بها آثارهم الكلامية وجهودهم فى البلاغة . وتتالت كتابات المتكلمين فى الإعجاز ، من النظام حتى السكاكى المعتزلى ، ومن الباقلانى حتى الرازى الأشعرى .

ثم خَفَت ضياء الابتكار حين اقتصر همُّ الباحثين على شرح كتابات الجرجانى ، ومن بَعْد تلخيص كتابات السكاكى والرازى . ثم انتهت التلخيصات إلى حواش وتقارير ، إلى أن صارت تلك الشروح المادة الأساسية لتعليم البلاغة فى كل البيئات المعنية بالعربية على اختلاف الأفكار وتفاوت الأمصار .

وقد وطدت قضية الإعجاز صلة المتكلمين بالأدب ، كما أخضعت التأليف البلاغى لها منذ عهد ازدهار البلاغة إلى قبيل أن تتجمد[١] .

---

(١) إعجاز ٤٧ - ٩ .

وإلى جانب هذا التاريخ ، حكم د. منير سلطان بأن طبيعة المعتزلة الفكرية كانت قائمة أساسا على الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وإثبات وحدانية الله ونبوة نبيه وإعجاز القرآن . وبعد أن ذكر عددا من الكتب التى ألفوها حول القرآن ، صرح : الكلام يطول لو أردنا أن نقف عند جهود المعتزلة مع القرآن[١] .

وفى ختام كتابه قال : استطاع المتكلمون - معتزلة وأشاعرة - أن يبنوا صرحا هائلا فى الفكر الإسلامى برغم بلاء الفقهاء والأدباء واللغويين — كل فى ميدانه — بيد أن بلاء المتكلمين كان أشد ، وصوتهم كان أعلى ، وذلك حين تكلموا فى مسائلهم الفلسفية المدافعة عن العقيدة أمام هجوم الطاعنين . ومن المسائل التى شغلتهم لاتصالها بأصل العقيدة الإسلامية مسألة إعجاز القرآن . فالحياة الفكرية الإسلامية - فى أساسها — مبنية على تعاليم هذا الهدى الحنيف ، والأعداء قد طعنوا فيه ، وفى نزوله ، وفى إعجازه ، وفى نبوة الرسول ، فدافع المتكلمون عن كل هذا ، وتعرضوا للإعجاز قضية ماسة بكيان الفكر الإسلامى .

وقضية الإعجاز هى الصلة التى ربطت المتكلمين بالمدارس الأدبية ، لأن لها اتصالا بفنه وبلاغته ، وبأسلوبه وروعته ، بجانب ما فى القضية من مشكلات فلسفية . ومن هنا جاءت الكتب التى انشغلت بقضية الإعجاز ، فيها فلسفة وأدب ، وفيها فن ومنطق ، وفيها جدل وشعر . ومن ثم تبلورت قضية للإعجاز ، لها جانبان بارزان ، الأول منهما فلسفى جدلى ، والآخر بلاغى أدبى .

ولأن المعارضين كانوا مفكرين ، سواء أكانوا أصحاب ديانات سماوية ، أم أصحاب فرق عقائدية ، وسلاحهم - كان — المنطق والثقافة الواسعة والتمرس بالجدل ؛ أصبح أصحاب الحديث القدامى لا يملؤون مكانهم فى الدفاع عن الدين أمام هؤلاء . و لم يكن بدٌّ من أن تظهر طائفة لها نصيبها من الفلسفة بجانب نصيبها من الأدب والفن والثقافة ، لتدافع عن هذا الدين الحنيف . وكانت طائفة المتكلمين .

وقد نهضت طائفة المعتزلة لمناهضة الروافض ، ودارت المجالس ، وألفت الكتب فى بيان كيدهم على الإسلام . وكان عماد المعتزلة - فى تفكيرهم — أن يجمعوا بين الشرع والعقل ، حتى انفصل الأشعرى عنهم بعد أن أحس أنهم أفرطوا فى تقدير العقل . فأراد

---

(١) إعجاز ٥٠ .

أن يقترب من الشرع بالعقل نفسه الذى جعل المعتزلة تفرط على نفسها فى الاعتداد بـه . وظهـرت مدرسـة الأشـاعرة مقابلـة لأسـاتذتها المعتزلـة . وصـار لكـلٍّ متكلمـون وأدبـاء وعلماء . وقد تكلمت مدرسة الأشاعرة فى قضية الإعجاز قضية هامة أصيلة فـى الفكـر الإسلامى . وكان من طبيعة الحال أن تتأثر - فى معالجتها - بمبادئها التى ارتضتها لنفسها .

كما ظهرت الما تريدية - أصحاب أبى منصور الماتريدى - تلـك المدرسـة التـى أرادت هى الأخرى أن تجمع بين الشرع والعقل ، وكانت أقرب إلى المعتزلة منها إلى الأشاعرة .

وحقا - كما قال الجاحظ - إن كبـار المتكلمـين ورؤسـاء النـاظرين كـانوا فـوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء .

وقد عالج اللغويـون مسـائل البيـان ونظريـة الأدب والبلاغـة ، وفـى القـرآن بخاصـة . وعالجها - أيضا - المتكلمون الذيـن لم يرتضـوا أسـلوب اللغويـين ، وعدوهـم قـد ضيقـوا مجالات الفن ، ولم يتعمقوا ، ولم ينكشـف لهـم مـا وراء الألفـاظ مـن معـان بعيـدة ، ولم يجنحوا إلى إدراك الصور الفنية ، ولم يسبروا أغوار القرآن ليخرجوا عجائبـه ، ولم يذوقـوا الأدب والبلاغة ذوقا أدبيا ، يملأ النفس روعة والحس جلالا ، ويتدرج من القدرة البشرية إلى الإعجاز الإلاهى[1] .

تعقيـــــب

واضح أن هنـاك إجماعـا علـى أن الـذى أدى إلى بـدء الحديـث فـى الإعجـاز القرآنـى وتطوره إنما هى النقلة الفكرية التى خرجت بالعرب مـن الحيـاة الضحلـة علمـا وفنـا قبـل الإسلام إلى الحياة الثرية الصاخبة بُعيده ، تلك الحياة التى حوت اتصالا لا حـدود لـه بـين العرب والشعوب التى تغلب عليهـا المسـلمون وضموهـا إلى خلافتهـم ، واتصـالا واسـع النطاق بين العرب والشعوب التى صارت متاخمة للخلافة الإسلامية بل وبعـض الشـعوب البعيدة عنها ، وما أدت إليه الاتصالات من صداقات وعداوات ، واطلاعا علـى مـا عنـد هذه الشعوب من علـوم وفنـون وعقـائد ، وتـأثر جماعـات مـن المسـلمين بهـا ، جعلهـم يفترقون إلى فرق يفصل بينها الخصومة والخلاف على الرغم من رفعها لواء الإسلام .

---

(١) إعجاز ٢٣٤ - ٧ .

وقد وصلت إلينا أقوال متباينة عن مبدأ التأليف فى الإعجاز . ولن أشغل نفسى بمناقشة هذه الأقوال ، وأكشف عن رأيى مباشرة .

لا أشك أن العرب الذين عاصروا الوحى كانوا يدركون جملة القرآن ، ويحسون إحساسا فطريا - يتفاوت تبعا لاختلاف المواهب والقدرات الفنية - بمناحى الجلال الأدبى فيه ،

واستمر ذلك بعدهم أجيالا .

فلما اتسع الاختلاط بينهم وبين الشعوب غير العربية ، وتدفق المسلمون من هذه الشعوب ، احتاجوا إلى من يساعدهم فى الاتصال بالقرآن من أجل الغايتين ، أعنى التفسير والتذوق .

ولكن الحاجة إلى التفسير سبقت كل شيء آخر . ومن هنا وجدنا متأخرى المولد من الصحابة كابن عباس ، والتابعين ، يسدون شيئا من هذه الحاجة ، أخذ يتسع إلى أن صار تفسيرا للقرآن كله .

ويتجلى هذا الجهد فيما ينسب إليهم من أقوال فى كتب التفسير التى وصلت إلينا ، وفى الكتب الأولى التى ألفت عن القرآن من منطلق لغوى مثل مجاز القرآن لأبى عبيدة ومعانى القرآن للفراء .

ولا أستطيع البتة أن أضع هذين الكتابين وأمثالهما فى الكتب التى كانت تسعى لتحقيق الغاية الثانية - التذوق - أى كتب إعجاز القرآن ، على الرغم من إيمانى العميق باحتوائهما على مواد علمية صارت - فيما بعد - من عناصر كتب الإعجاز .

وإذن فالكتابات فى الإعجاز - فى رأيى - هى تلك التى انطلقت من موقف أدبى ، يسعى وراء الخبايا التى رفعت هذا الكتاب إلى المرتبة التى منحها له العرب المعاصرون بعدهم إلى يومنا هذا .

وقد تم ذلك على يد المعتزلة دون مراء ، فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث ، أى من جيل النظام والجيل الذى سبقه مباشرة ، سواء منهم من آمن بالتفوق البيانى للقرآن ، أو بالإنباء بالغيب ، أو بالصرفة . فقد كانت الصرفة - عند أكثرهم - لا تنفى الإيمان بالإعجاز .

ويبدو أن هذين الجيلين لم يدونا أقواهما فى كتب خاصة ، وأن أول من فعل ذلك الجاحظ فى رسائله المتعددة ، التى تتميز رسالة « نظم القرآن » من بينها بأمرين :

- بأنها كانت أول كتاب كامل يسعى إلى الكشف عن أسباب التفوق القرآنى .
- وأنها وجدت هذه الأسباب فيما سمته النظم ، بمعنى طرائق التأليف .

ويبدو أن الجاحظ لم يستعمل عبارة (الإعجاز القرآنى) . ولذلك زعم د. عمر ملاحويش أنه لم يتحدث فى الإعجاز البتة . وذلك قول مغلوط ، لأن الجاحظ إن كان لم يستخدم هذا التعبير ، فكل الدلائل ، وكل النصوص الباقية فى رسائله الأخرى ، تدل دلالة واضحة على أنه استخدم تعبيرات تشابه (التفوق القرآنى) وترادف الإعجاز .

الفصل الثانى

نقد الدراسات السابقة

الجاحظ

أقدم ما عثرت عليه من نقد هو ما وجهه المعتزلى المذهب عبد الرحيم بن محمد المعروف بابن الخياط (نحو ٣٠٠ / ٩١٢) إلى الجاحظ . فقد كان يعجب بكتبه بعامة ، وبنظم القرآن بخاصة . فقال عنه ذات مرة : من قرأ كتاب أبى عمرو الجاحظ فى الرد على المشبِّهة ، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن ، علم أن له — فى الإسلام - غَناء عظيما ، لم يكن اللّه - عز وجل - ليضيعه له[1] . وقال فى مرة أخرى: لا يعرف المتكلمون أحدا منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ — فى ذلك — ما بلغه الجاحظ . ولا يعرف كتاب - فى الاحتجاج لنظم القرآن ، وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته - غير كتاب الجاحظ[2] ...

ولكن أبا بكر محمد بن الطيب الباقلانى - الأشعرى المذهب - ذهب إلى النقيض منه ، وذكر كتاب النظم فى كتابه « إعجاز القرآن » فى موضعين : اتهمه فى الأول منهما بالقصور ، والاعتماد على أقوال السلف ، قال : وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا ، لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله[3] ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى[4] .

ووسع — فى الموضع الثانى — دائرة من يأخذ عنهم الجاحظ ، فأضاف الأدباء والفصحاء إلى المتكلمين ، ثم وصف كلامه الشخصى بفقد أية ميزة . قال : أنت تجد قوما يرون كلامه قريبا ، ومنهاجه معيبا ، ونطاق قوله ضيقا ، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر ، ومثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة .

---

(١) الانتصار ٢٤ — ٥ . سلام ٧٦ — ٧ . (٢) الانتصار ١١١ . سلطان ٦٢ .

(٣) إعجاز ٦ . الرافعى ١٥٢ . سلام ٧٧ . صقر ٨ ، ٦٧ . الحمصى ٧٣ . فقيهى ١٣٣ ، ١٣٩ — ٤٠ . ضيف ١٠٨ . عباس ٣٤٧ . اتجاهات مطلوب ١٤٢ . عبد القاهر له ٢٤٩ . سلطان ١١٩ .

(٤) إعجاز ٦ . الرافعى ١٥٢ — ٣ سلام ٧٧ . صقر ٨ ، ٦٧ . ٨٩ . الحمصى ٧٣ . فقيهى ١٣٣ ، ١٤٠ . ضيف ١٠٨ . عباس ٣٤٧ . اتجاهات مطلوب ١٤٢ . عبد القاهر له ٢٤٩ . سلطان ١١٩ .

وأما كلامه - فى أثناء ذلك - فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة . فإذا أُحوِج إلى تطويل الكلام - خاليا عن شيء يستعين به ، فيخلط بقوله من قول غيره — كان كلاما ككلام غيره .

فإن أردت أن تحقق هذا ، فانظر فى كتبه فى نظم القرآن ، وفى الرد على النصارى ، وفى خبر الواحد ، وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى . هل تجد فى ذلك كله ورقة واحدة تشتمل على نظم بديع . أو كلام مليح[١] .

وقد أنكر الرافعى على الباقلانى قوله ، وصرح بأنه ذهب عنه أن ما دعا الجاحظ إلى وضع كتابه - فى أوائل القرن الثالث - غير الذى دعاه هو إلى التصنيف فى أواخر القرن الرابع . فلم يحاول الجاحظ أكثر من توكيد القول فى الفصاحة والكشف عنها ، على ما يفى بالابتداء فى هذا المعنى ، إذ كان هو الذى ابتدأ التأليف فيه ، و لم تكن علوم البلاغة قد وُضعت بعد[٢] .

ثم وصف قولة الباقلانى فى الجاحظ بأنها كلمتان لا خير فيهما[٣] .

وجعل د. محمد زغلول سلام النظم عمدة دراسات الجاحظ فى الإعجاز[٤] . وخمّن سبب تأليفه فذكر أن الجاحظ رأى أن بيان القرآن ونظمه وتأليفه يحتاج إلى كتاب مستقل، يودع فيه رأيه فى إعجاز القرآن ، من هذه الناحية . فألف كتاب نظم القرآن ، وأثبت فيه آراءه فى بيان القرآن بشكل يوضح الحجة فى إعجازه . ولا شك أنه قد كانت لآراء الجاحظ فى بيان القرآن - فى هذا الكتاب — آثارها فى توجيه الدراسات الأدبية والنقدية بعد ذلك[٥] .

وخشى السيد صقر أن يكون الباقلانى قد حاف [ظلم] فى حكمه على نظم القرآن، وحملته العصبية المذهبية على تنقصه[٦] .

وأعلن عبد الكريم الخطيب أن من جاؤوا بعد الجاحظ جروا على طريقته ، و لم يجيئوا فى الغالب بجديد عليه[٧] ، بل كانوا شراحا لما قال[٨] .

---

(١) إعجاز ٢٤٧ — ٨ . صقر ٨٤ .
(٢) إعجاز ١٥٢ .
(٣) إعجاز ١٥٣ . صقر ٨٩ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ .
(٤) أثر ٧٣ .
(٥) أثر ٧١ .
(٦) مقدمة الإعجاز ٨ ، ٨٥ .
(٧) إعجاز ١/١٢٦ ، ١٣٩ — ٤٠ ، ١٤٩ ، ١٦٠ .
(٨) إعجاز ١/١٣٠ .

أما د. عبد الفتاح لاشين فقد أورد نص الجاحظ من « إتقان » السيوطى ، ثم عقب عليه قائلا : ذلك هو رأى الجاحظ فى إقامة الحجة على وقوع الإعجاز بالقرآن . وهو رأى يقوم على حجج مشرقة ، وأدلة قاطعة . وإن الذين أقاموا الحجة على إعجاز القرآن من هذا الوجه ، إنما نظروا إلى رأى الجاحظ هذا ، واعتمدوا عليه ، وداروا حوله . ومنهم الباقلانى والزركشى وغيرهما ممن له رأى فى الإعجاز[1] . ثم ردد خبر اعتماد العلماء على الجاحظ أكثر من مرة[2] .

جلىٌّ أن الوحيد الذى عاب الجاحظ هو الباقلانى ، وأن الكتاب المحدثين شعروا بأنه ظلمه ، سواء من صرح منهم بذلك مثل السيد صقر أو من اكتفى بالمعارضة كالباقين .

ولو أنعمنا النظر فيما أخذه الباقلانى على الجاحظ نجد فيه بعض الصواب ، غير أن الباقلانى أفقد هذا الصواب بعبارته الحادة . فإذا كان قد عابه بالقصور وعدم كشف اللبس ، فلا شك أن هذا حق . ولكن لا شك أيضا بأن مطالبة الكتاب الأول بعدم القصور ، وكشف كل الحقائق ، أمر غير طبيعى ولا ممكن ، وأن الرافعى على حق فى إشارته إلى ذاك .

وإذا كان قد عابه بإيراد أقوال المتكلمين والفصحاء فذاك نهج الجاحظ فى كل كتبه . أما أن الجاحظ لم يزد عليهم شيئا ، فهذا أمر تنكره عليه الأقوال الأخرى . وقد تكفل الزمان بإيجاد من أخذ عليه نفس المأخذ .

أما عيبه أسلوب الجاحظ ـ وإن كان بعيدا عن غايتنا ـ فأمر ينكره عليه كل من كتب عن الأدب العربى .

وجلىٌّ أن الكتاب فى الإعجاز ـ وبخاصة سلام والخطيب ولاشين ـ عدوا كتاب الجاحظ النواة التى التفّت حولها أقوال من جاء بعده ، بل بالغ الخطيب فجعلهم مجرد شارحين له .

ومن اللافت للنظر أن الاسم الذى جعله الجاحظ عنوانا لكتابه صار عنوانا لعدة كتب ، وفكرة أساسية عند أكثر من تعرضوا للإعجاز بعده ، حتى صار نظرية مكتملة عند الجرجانى ومن تابعه . وبسبب عدم وصول كتاب الجاحظ ، لا نستطيع معرفة مدى دين هؤلاء الكتاب للجاحظ ، ومدى تحررهم من آرائه .

---

(١) بلاغة ٤٣٤ .
(٢) بلاغة ٤٤٣ ، ٤٥٨ .

جملة الدراسات

كان ثانى أقدم نقد عثرت عليه ما وجهه الخطابى - فى صدر رسالته — إلى الدراسات السابقة ، إذ وصمها بالقصور ، وأنها لا تروى الوارد إليها عن ظمأ وتعطُّش إلى المعرفة[١].

واتفق معه محمد بن يحيى المعروف بابن سراقة ، الذى قال : اختلف أهل العلم فى وجه إعجاز القرآن ، فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة ، كلها حكمة وصواب . وما بلغوا فى وجوه إعجازه جزءا واحدا من عشر معشاره[٢] . فافتتح بذلك قولا شاع عند أكثر الكاتبين عن الإعجاز بعده عن كثرة وجوهه بل العجز عن تتبعها وحصرها .

واتفق الباقلانى مع الخطابى فى رمى من سبقوه بالتقصير الذى أدى إلى الضرر الشديد . قال : قد قصر بعضهم فى هذه المسألة ، حتى أدى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البراهمة فيها . ورأوا أن عجز أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أنْ لا مُستنصَر فيها ، ولا وجه لها ، حين رأوهم قد برعوا فى لطيف ما أبدعوا [سواها] . وانتهوا إلى الغاية فيما أحدثوا ووضعوا . ثم رأوا ما صنفوه - فى هذا المعنى - غير كامل فى بابه ، ولا مستوفىً فى وجهه ، قد أُخلَّ بتهذيب طرقه ، وأُهمل ترتيب بيانه[٣] .

ورأى العلوى أن الواجب على المتحدث فى الإعجاز أن يبين وجهه ، وأن يبرز المطاعن التى للمخالفين ، ويجيب عنها .

ثم قال : الذى يُقْضى منه العَجب ، هو حال علماء البيان وأهل البراعة فيه عن آخرهم . وهو أنهم أغفلوا ذكر هذه الأبواب فى مصنفاتهم ، بحيث إن واحدا منهم لم يذكره مع ما يظهر فيه من مزيد الاختصاص وعِظَم العُلْقة [الاتصال] ، لأن ما ذكروه من تلك الأسرار المعنوية ، واللطائف البيانية من البديع وغيره ، إنما كانت وُصْلة وذَريعة إلى بيان السر واللُّباب . والغرض المقصود - عند ذوى الألباب — إنما هو بيان لطائف الإعجاز ، وإدراك دقائقه ، واستنهاض عجائبه . فكيف ساغ لهم تركها وأعرضوا عن

---

(١) بيان ١٩ . صقر ١٣ . إعجاز الخطيب ١٥٨/١ . سويش ٢٧٣ . عبد الفتاح لاشين ٤٤٢ . عطا : أسرار ٢٤٤ . عظمة ٨٤ . أبو على ٣٧ . أبو موسى ٢٧ .

(٢) الإتقان ٣٣٧/٢ . الحمصى ٨٠ . موسى لاشين ٢٥٧ . السلامى ٥٥ .

(٣) إعجاز ٥ ، ٢٤٦ . صقر ٦٧ . اتجاهات مطلوب ١٤٢ . عبد القاهر له ٢٤٩ . شرف ٥٣ . وانظر أبو موسى ١٧٢ — ٣ .

ذكرها ، وذكروا فى آخر مصنفاتهم ما هو بمعزل عنها ، كذكر مخارج الحروف وغيرها مما ليس مهما . وإنما المهم ما ذكرناه[١] .

وإذ كان عبد الرحمن الكواكبى (١٢٦٥ – ١٣٢٠ / ١٨٤٨ – ١٩٠٢) مشغولا بنظم الحكم فى العالم الإسلامى بعامة والعرب بخاصة ، وما يعانى من خلل ، فقد توهم أن الاستبداد أخفى تاريخ الأديان ، وجعل أخبار منشئيها فى ظلام مطبق ، وحجر على العلماء الحكماء أن يفسروا قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن تفسيرا مدققا ، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض الغفل السالفين أو بعض المنافقين المقربين المعاصرين ، فيُكفرون فيُقتلون .

ورمى الدراسات الموجودة بضيق الأفق والتقصير ، وعدم إيفاء مسألة الإعجاز - وهى أهم مسألة فى الدين - حقها من البحث . فقد اقتصروا على ما قاله فيها بعض السلف قولا مجملا ، من أنها قصور الطاقة عن الإتيان بمثله فى فصاحته وبلاغته ، وأنه أخبر عن أن الروم بعد غَلَبهم سَيغلبون .

مع أنه لو فتح العلماء ميدان التدقيق ، وحرية الرأى والتأليف ، كما أُطلق عنان التخريف لأهل التأويل والحُكم ، لأظهروا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ، ولرأوا فيه كل آية تتجدد مع الزمان والحدثان ، تبرهن إعجازه بصدق قوله : ﴿ ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٢] ، ولجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان ، لا بمجرد تسليم وإذعان[٣] .

واتفق معهم محمد رشيد رضا ، الذى ذكر أن المتكلمين ومن على مذاهبهم من المفسرين صنفوا - فى بيان إعجاز القرآن - كتبا مستقلة ، ولكنهم لم يوفوه حقه من ناحية البلاغة[٤] .

واشتط الرافعى فرمى القوم بالسفسطة من أجل الفوز ، وعدم السعى وراء الحق . فقد أبعدوا فى المقايسة ، وأطالوا فى الخصومة ، ومضغوا من الكلام ماملأ أفواههم ، وجاؤوا بما هو فلسفة ومنطق . بيد أنهم إنما توافَوا على صنيع واحد من الرد بعضهم على بعض . فمن فلج [فاز] بحجته فقطع خصمه عن المعارضة ، كان الرأى فى الإعجاز ما رآه ، وكان أكبر البرهان على صوابه عجز خصمه عن تخطئته .

---

(١) الطراز ٣/٣٦٨ . الحمصى ١٣٠ .
(٢) سورة الأنعام ٥٩ .
(٣) طبائع ٤٣ – ٤ . الحمصى ٣١٠ – ١ .
(٤) المنار ١١/٣٠٤ . الحمصى ٣١٩ .

وهذه سبيل من الكلام لا يزال أذاها حاضرا ، وسالكها حائرا . فإنه ما يندفع إليها رأيان متناقضان إلا كان أقواهما معتَبرا صوابا بحتا ، لا بقوته ولكن بضعف الآخر ، وإن كان هو فى نفسه خطأ صُراحا ، وفسادا صرفا ، أو جهلا وإحالة ...

وعلى هذه الجهة رأينا كل أقوالهم فى إعجاز القرآن : لا يصنعو شيئا دون أن ينكر من ينكر ، ويدفع من يدفع . فإما أن تتعارض الحجج الكلامية ، فيسقط بعضها بعضا . وإما أن تقوى واحدة منهن فتُسقط الباقيات ، وتبقى هى كلاما من الكلام ، ولا تصلح لنفى ولا إثبات .

وليس مَن طلب الحق ليعرفه كالذى يطلبه ليُعرف به . فإن الأول ينصف من نفسه كما ينتصف لها ، ولكن الثانى خَصِم لا يريده إلا جدلا . وله - مع الجدل - قوة الحرص على المواربة ، وشدة الصريمة على المراوغة ، كيما تنتهى إليه الحجة ، ويقف عنده البرهان . فهو يعتسف - لذلك ولا جرم - كل طريق ، ويركب كل صعب ، ويتعنت بكل آية[١] ...

ولم يكرر د. صبحى الصالح النقد بالتقصير كما اعتاد غيره ، ولكنه اتجه اتجاها جديدا فيه . فقد جهر بأن العلماء بذلوا جهودا مشكورة ، وقاموا بمحاولات مضنية ، لإبراز البلاغة القرآنية فى صورة موحية ذات ظلال .

ولكنهم وقفوا - غالبا - عند النص الواحد ، فاقتطعوه اقتطاعا من الوحدة القرآنية الكبرى ، ودرسوه على حدة دراسة تحليلية جزئية ، ذهب بمعالم جمالها خلافُهم الذى لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى . فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص ، وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز[٢] .

ووصفهم - فى موضع آخر من كتابه - بأنهم شغلوا أنفسهم بمسائل كثيرة هى أبعد ما تكون عن الجو الفنى المحض . فلم يتح لهم شغفهم بالتبويب والتقسيم فرصة لإدراك الخصائص العامة المشتركة التى يصدر عنها كتاب الله فى تصويره وتعبيره . فيهز النفوس، ويحرك المشاعر ، ويفيض الدموع[٣] .

ثم اتخذ من إتقان السيوطى مثالا للدراسات القديمة ، قال عنه : نحن إذا ألقينا نظرة على كتاب من الكتب التقليدية فى علوم القرآن - كإتقان السيوطى مثلا - لنستخلص منه

---

(١) إعجاز ١٤٠ - ١ . (٢) مباحث ٣١٣ . (٣) مباحث ٣١٦ .

ما يتعلق بالأسلوب القرآني فقط باعتباره وجها من وجوه الإعجاز بالنسبة إلى السلف ، وقعنا على أبواب مختلفة ، توحى عناوينها بالكثير مما ينطق به مفهومنا الحديث للإعجاز . ولكننا حين نمضى فى قراءتها لا نستطيع أن نتملّى فيها جمال القرآن ، وإنما نكوّن بها فكرة عن ولوع علمائنا الأقدمين بالتفريع والتبويب واستنباط القواعد البلاغية الكثيرة من الشواهد القليلة . هاهو ذا السيوطى يصهر فى إتقانه جميع المباحث القرآنية البلاغية التى التقطها من عدد لا يستهان به من المصنفات السابقة ، وهو يشير إليها بأمانة وإخلاص — فيدرس تشبيه القرآن واستعارته ، وكنايته وتعريضه ، وحقيقته ومجازه ... فلا يكاد يفوته فن من فنون القرآن الأدبية ، ولا يكاد ينسى جملة مستجادة لأحد المفسرين يبرز بها موطنا من مواطن الجمال القرآنى ، ونحن مع ذلك - بإكبارنا العنصر الأسلوبى ، وإشادتنا به عنصرا أساسيا فى الإعجاز — لا نستطيع أن نكتشف فى شىء من تلك المباحث التقليدية منبع السحر الأصيل للقرآن[١] .

وعاب عبد القادر أحمد عطا القدماء والمحدثين فقال : بذل الأقدمون جهودا مشكورة فى محاولة الكشف عن وجوه إعجاز القرآن ، وألفوا فى ذلك كتبا . وقد تكلم الكثير عن هذا الموضوع فى التفسير والكتب ذات الموضوعات الأخرى . أما فى العصر الحديث فقد كتب الرافعى كتابا فى الإعجاز ، وتحدث كثيرون عنه فى كتب ليست فى موضوعه .

والذى يسترعى الانتباه أن العلماء - على ماهم من الاقتدار وسعة المعرفة — وقفوا هم الآخرون مبهورين أمام إعجاز القرآن . فراحوا يرددون وجوها عامة وغير محدودة أحيانا[٢].

وعبر داود العطار عن الفكرة نفسها بقوله : بحث العلماء إعجاز القرآن ، وصنفوا مختلف المصنفات ، ولا يزالون على الأعتاب ، على الرغم مما قدموه من مؤلفات جليلة القدر[٣] .

وركز عمر السلامى نقده على المحدثين ، حيث رأى أن الدراسات الفنية الحديثة للقرآن ، تعد امتدادا طبيعيا لفكرة النظم ، التى ركز دعائمها عبد القاهر الجرجانى . وقد سبقها تحسس فنى عند العرب يلمس معالمه عند كثير من الكتاب والنقاد ، أمثال الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وعلى بن عبد العزيز الجرجانى والآمدى . إن هؤلاء نزعوا إلى طريقة

---

(١) مباحث ٣٢١ . (٢) أسرار ٢٤٣ — ٤ . عظمة ٨٣ — ٤ . (٣) موجز ٤٧ .

التوضيح دون كشف التأثير في أغلب الأحيان . وكشف التأثير يعتمد على الذوق والعمق في تحليل النصوص .

إن القيمة الفنية وأصالتها لم تتوفر بشكل منظم ، حتى تعطى للعبارة ونظمها الصورة الكاملة الحية لأسلوب التعبير الفنى الرفيع وخصائصه . لم يتجلَّ ذلك حتى عند عبد القاهر[١] .

وعم د. شعبان محمد إسماعيل القدماء والمحدثين ، فقال : مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز . وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بطائل[٢] .

وعقب د. محمد محمد أبو موسى على اتهام من سبقوا بالتقصير قائلا : لا نستطيع أن نراجع إرث الباقلانى الذى كان بين يديه فى هذه القضية ، لأنه ليس فى أيدينا منه شيء . ودراسة الخطابى والرمانى - وهما معاصران له - فيها من الصبر والإتقان والإحكام ما ينفى عنهما التهاون ، بل إنهما ليحاذيان دراسة الباقلانى ، ولا يعدان دونها ، ولا يغضان منها . وكل له مذهب ، وكل كشف جانبا لم يكشفه غيره[٣] .

* * *

جلىٌّ أن المأخذ الذى ردده ناقدو الدراسات السابقة هو التقصير ، أو القصور عن إبانة دقائق الإعجاز فى قول الباقلانى ، أو عن الخصائص العامة التى يصدر عنها القرآن فى تصويره وتعبيره أو نبع السحر الأصيل فى قول د. الصالح . أو الصورة الكاملة الحية لأسلوب التعبير الفنى الرفيع وخصائصه فى قول السلامى .

ومن الطبيعى أن يقذف كل كاتب من سبقه بهذا العيب ، وإلا ما كان هناك داع لأن يؤلف كتابه .

كذلك نجد الرافعى عابهم بالسفسطة وكثرة الاختلافات ، ود. الصالح بالنزعة الكلامية والولع بالتبويب والتقسيم .

وانفرد الكواكبى بالخضوع لسلطان التفكير السياسى ، واتخاذه منطلقا لرؤاه فلونها بأصباغ انفرد بها .

أما د. الصالح فقد انفرد بمأخذ فنى ، حين اتهم السابقين بالعناية بجزئيات القرآن وإهمال الكل .

---

(١) الإعجاز ١٤ . (٢) المدخل ٣٢٨ . (٣) الإعجاز ١٧٣ .

وانفرد د. أبو موسى بالرد على الباقلانى .

وأعتقد أن الاتهام بالقصور نابع من تعظيم الناقدين لشأن القرآن وإيمانهم أن أحدا لن يعطيه حقه الجدير به فى استبانة وجوه التفوق . ولو نظر هؤلاء النقاد إلى الكتب التى عابوها - مع غض النظر عن كل شىء - وقدروها من حيث الوفاء بالجانب الذى اختارته للدرس لوجدوا فيها الرائق المعجب .

البلخى

عبر أبو حيان التوحيدى عن إعجابه الشديد بكتاب « نظم القرآن » لأبى زيد أحمد ابن سليمان البلخى (٣٢٢ / ٩٣٤) فقال : أما أنا فلم أر فى القرآن كتابا أبعد مرمى ، ولا أشرف معانى ، من كتاب لأبى زيد البلخى . وكان فاضلا يذهب فى رأى الفلاسفة[٢] ، ولكنه تكلم فى القرآن بكلام دقيق لطيف ، وأخرج سرائر ودقائق ، وسماه « نظم القرآن » . ولم يأت على جميع المعانى المطلوبة منه[١] .

والغريب أن ياقوتا أورد هذا القول عن التوحيدى ، منسوبا إلى أبى حامد أحمد ابن عامر بن بشر المروروذى (٣٦٢ / ٩٧٣[٢]) .

واستنتج الرافعى من هذا الخبر وتكملته أن نظم القرآن أريد به تفسير معانيه وسرائره[٣] .

الباقلانى

كان ابن العربى شديد الإعجاب بإعجاز القرآن للباقلانى ، فقال عنه : لم يُصنَّف مثلُه[٤] .

وأعلن الرافعى أن المتأخرين من بعده أجمعوا على أن هذا الكتاب باب فى الإعجاز على حدة[٥] .

ثم كشف عن رأيه الخاص فيه . فشرح ما أجمله ابن العربى وما نسبه إلى المتآخرين ، فقال : استبد كتابه بهذا الفرع من التصنيف فى الإعجاز ، واحتمل المؤنة فيه بجملتها من الكلام والعربية والبيان والنقد - ووَفَى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التى أوقع الكلام عليها ، حتى عدوه الكتاب وحده . لا يُشرك العلماء معه كتابا آخر فى

---

(١) البصائر ٨ / ٦٦ .
(٢) معجم الأدباء ٧٧/٣ . الرافعى ١٥٦ . انظر صقر ٩ .
(٣) إعجاز ١٥٦ .
(٤) الزركشى ٩٠/٢ . الإتقان ٣٢٤/٢ . إسماعيل ٣٢٧ . شرف ٥٣ . انظر الرافعى ١٥٣ . صقر ٦٧ . الحمصى ٧٣ .
(٥) إعجاز ١٥٣ . صقر ٨٩ . الحمصى ٣٣١ . فقيهى ١٤٥ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٢ - ٣ .

خَطره ومنزلته ، وبعد غوره ، وإحكام ترتيبه ، وقـوة حجته ، وبسـط عبارتـه ، وتوثيـق سَرْده . فانظر ما عسى أن يكون غيره مما سبقه أو تلاه[١] .

وقد كانت علوم البلاغـة لم تهـذب لعهـده ، ولم يبلـغ منهـا الاستنباطُ العلمـى ، ولم تُجرَّد فيها الأمهات والأصول ، ككتب عبد القاهر ومن جاء بعـده . فبسـط الرجـل مـن ذلك شيئا ، وأجمل شيئا ، وهذب شيئا . ونحا فى الانتقاد منحى الذين سبقوه من العلمـاء بالشعر . وكانت تلك العصور بهم حفيلة[٢] . وبالجملة فقد وضـع مـا لم يكـن يمكـن أن يوضع أوفى منه فى عصره[٣] .

ثم عابه بالقصور والإطناب . قال عن القصور : على أن كتاب الباقلانى ـــ وإن كـان فيه الجيد الكثير ، وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنَّع لـه ــ إلا أنـه لم يملـك فيـه بـادرة عابها هو من غيره ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجـاحظ : « لم يكشـف عمـا يلتبس فى أكثر هـذا المعنـى » . فـإن مرجـع الإعجـاز فيـه إلى الكـلام ، وإلى شـىء مـن المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ، ونوع وآخر من فنونه[٤] .

وقال عن الإطناب : حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنـثر ، ذهبـت بـأكثره ، وغمرت جملته . وعدّها فى محاسنه ، وهى من عيوبه[٥] .

وكان الباقلانى واسع الحيلة فى العبارة ، مبسوط اللسان إلى مدى بعيـد ، يذهـب فـى ذلك مذهب الجاحظ ومقلّده ابن العميد ، على بصر وتمكن وحسن تصرف . فجاء كتابه وكأنه فى غير ما وُضع لـه ، لـما فيـه مـن الإغـراق فـى الحشـد ، والمبالغـة فـى الاستعانة والاستراحة إلى النقل . إذ كان أكبر غرضه ـ فى هذا الكتـاب ــ أن ينبـه علـى الطريقـة ، ويدل على الوجه ، ويهدى إلى الحجة . وهذه ثلاثـة لـو بُسـطت لهـا كـل علـوم البلاغـة وفنون الأدب لوسعتها . وهى ـ مع ذلك ـ حَشْو ووصل[٦] .

فانتقم بذلك للجاحظ شر انتقام .

وأبدى د. محمد زغلول سلام عناية خاصة بمنهج الباقلانى . فقد ذهب إلى أن كتاباتـه امتازت بالمنهج الكلامى المنظم : لأنه اهتم بوضع المقدمات التى تنبئ عن الفكرة ثم شرح

---

(١) إعجاز ١٥٤ ــ ٥ . صقر ٩٠ . شرف ٥٣ . (٢) إعجاز ١٥٥ . صقر ٩٠ .

(٣) إعجاز ١٥٥ . صقر ٩٠ . (٤) إعجاز ١٥٣ . صقر ٨٩ . الحمصى ٧٩ . إعجاز الخطيب ٣٠٢/١ . عبد الفتاح لاشين ٤٥٣ ، ٤٦٥ .

(٥) إعجاز ١٥٣ . صقر ٨٩ . الحمصى ٧٩ ، ٣٣١ . (٦) إعجاز ١٥٤ . صقر ٨٩ ــ ٩٠.

ما جاء فيها من مسائل ، ومناقشتها من وجوهها المختلفة ، وينتهي إلى تلخيص النتائج التى توصل إليها من مناقشاته . وجهر بأن هذا المنهج متبع - بوضوح - فى « إعجاز القرآن » . ويدل ترتيبه ، وتناوله للموضوع ، على امتلاكه ناصية الجدل . ويصطنع - فى كلامه - أسلوب الحوار ، ليتدرج بالسامع فى فهم ما يريد ، متابعا ما قد يوجه إلى الرأى من حجج معارضة فيفندها واحدة واحدة ، فى ترتيب ووضوح . ومما يمتاز به صدق فهمه للنصوص ، وقوة شخصيته . ولكن له معايبه ، ذلك أنه يفرض آراءه فرضا - أحيانا - ولا يقبل التسليم بسهولة ، وإن جافى ما رأى الواقع وحقيقة الأشياء .

وقد مكنه ذلك المنهج العقلى الدقيق - فى دراساته للبيان القرآنى - من الخروج بنتائج طريفة وهامة فى الوقت نفسه . وأمكن تكوين رأى ، قد يخرج إلى منهج أو نظرية فى النقد مكتملة دقيقة إلى حد ما . فهو لم يعتمد - فى دراسته - على دراسة الألفاظ والعبارات بقدر ما اعتمد على الأسلوب والمعانى العامة التى تصورها الألفاظ والعبارات ، مستفيدا بما كتب السابقون ، معتمدا على فكر حر ، ينقد ويفحص قبل أن يقبل أو يرفض[١] .

وختم د. سلام دراسته للباقلانى بالقول بأنه تعرض لكل ما يمكن أن يتعرض له ناقد حديث ، حين يطالب بنقد نص نقدا موضوعيا على أساس فهم سليم له ، ثم التأثر بما يوحيه من المعانى والكشف عنها ، وبيان الرأى فيها بالاستعانة بدراسات اللغة ، ومقاييس الأسلوب الجميل ، ثم الأثر النفسى الذى يكمن وراء النص أو الانفعال الذى أثار قائله ، وقدرته على التعبير ، وأداء المعنى ، ثم الأثر النفسى للنص فى السامعين أو القارئين[٢] .

وذهب السيد صقر إلى ما ذهب إليه ابن العربى قبله . فكتاب الباقلانى - عنده - أعظم كتاب ألف فى الإعجاز إلى اليوم ، وإن كره ذلك بعض المتعصبين على العهد العتيق[٣] .

ولكن هذا الاعتقاد لم يمنعه من أن يعيب عليه مواقف فى كتابه . منها موقفه من وجود السجع فى القرآن . فقد وصف الفصل الذى نفى فيه هذا الوجود بأنه أخف فصول الكتاب وزنا ، وأقلها قدرا ، وأحفلها بالخطأ البين فى أصل الفكرة ، وفى كيفية

---

(١) أثر ٢٦٤ - ٥ .
(٢) أثر ٢٩٨ - ٩ .
(٣) مقدمة الإعجاز ٦٧ . فقيهى ١٤٠ .

نصرتها والدفاع عنها ، والحجاج دونها ، والرد على مخالفيها[١] .

ومنها موقفه من نقد الشعراء القدماء ، الذى ساقه إلى أن يقول : الحق أن نقد الباقلانى لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحترى من نماذج النقد الأدبى الرائعة ، وصوره الرفيعة البارعة ، غير أنه شان حسنها ، وشاب صفاءها ، بتحامله عليهما ، وإسرافه فى نقد أبياتهما[٢] .

واتفق معهم نعيم الحمصى فوصفه بأنه خير الكتب التى ألفت فى موضوع الإعجاز إلى عصره . وله شأن كبير فى تاريخ فكرة الإعجاز[٣] . وهو بعد - بحق - الحلقة الوسطى فى سلسلة الأبحاث التى تسعى لإثبات إعجاز القرآن . والتصاريف الأخرى التى تحمل أفكار سابقيه تنتهى إليه ثم تتفرع منه فى شعب مختلفة[٤] .

ولكن هذا الإعجاب لم يحجب عن عينيه أمورا عابها منه . فقد ظهر له من المقارنة بين ما ينسبه العرب إلى الجن من أقوال وبين القرآن ، ثم من قوله بفكرة التصنيف فى حروف أوائل السور ، أنه يتناول الأمور - أحيانا - تناولا سطحيا ، لم يوافقه عليه ، لأنه بعيد عن الروح العلمية التى لا تثبت لها مثل هذه الآراء .

وذهب د. صبحى الصالح فى كتاب الباقلانى إلى رأى سبقه إليه الرافعى . فهو - على الرغم من جمعه فيه كثيرا من المباحث البلاغية - لا يصور - على سعته وشموله - إلا الفكرة السائدة عن الإعجاز فى عصره ، ممزوجة بالمسائل الكلامية الكثيرة التى تُفقد الكتاب سماته فى استقصاء الجمال الفنى فى القرآن[٥] .

وعاب عبد الكريم الخطيب تذوق الباقلانى للقرآن . قال : لا نظن أننا نظلم الباقلانى إذا قلنا : إنه - مع ما فى قلبه من يقين راسخ فى إعجاز القرآن ، وفى سقوط أفصح كلام وأبلغه إذا أريد له أن يصعد إلى قمم القرآن العالية - حين يرد موارد القرآن ، ويستقى من ينابيعه لا تسعفه قدرته أن يحمل شيئا يعتد به من روائع القرآن وعجائبه ، ولا أن يقع على دلائل الإعجاز اللائحة منه فى كل قطر يمتد إليه .

فالباقلانى إذا عرض لآية من آيات الكتاب سال بيانه متدفقا بالمديح والثناء على كل حرف ، وكل كلمة ، وكل عبارة فى الآية ، فهى أفصح كلام ، وأروع بيان ، وأحلى

---

(١) مقدمة الإعجاز ٧٤ .
(٢) نفسه ٨١ .
(٣) فكرة ٧٣ .
(٤) فكرة ٧٩ .
(٥) مباحث ٣١٦ .

قول ، وأجمل صورة ، دون أن يشير إلى موطن الفصاحة ، ولا إلى مكان الروعة والجمال . وهكذا يَلْقى كل آية بما لقى به غيرها ، من تلك العبارات المحفوظة المرددة[١] .

كما عاب بعض ما استدل به على إعجاز القرآن بأن القرآن لا يختص به ، وإنما يشركه فيه كل ما أنزل الله من كتب[٢] . أو بأن كثيرا من الآيات التى استدل بها ليس فى مدلوله ما يعين على تقرير المذهب الذى يذهب إليه[٣] .

ووافق د. شوقى ضيف من سبقه فجهر بأن الباقلانى لم يزد فى كتابه عن شرحه ــ أو قل بعبارة أدق : عن محاولة شرحه ـ لما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآنى[٤] .

ولعلنا لا نُبعد إذا قلنا : إنه أول من هاجم ـ فى قوة ـ نظرية إعجاز القرآن عن طريق تصوير ما فيه من وجوه البديع ، وأيضا وجوه البلاغة التى أحصاها الرمانى . ومن هنا تأتى أهميته ، إذ أعد للبحث عن أسرار فى نظم القرآن ، من شأنها ــ حين توضح توضيحا دقيقا ـ أن تقف الناس على إعجازه . وإن كنا نلاحظ ـ فى الوقت نفسه ـ أنه لم يستطع أن يصور شيئا من هذه الأسرار ، إذ ظلت الفكرة عنده غامضة ، وظلت مستورة فى ضباب كثيف[٥] .

وأثنى البوطى على إعجاز الباقلانى ، ورأى أنه كتاب جليل ، سلك فيه مؤلفه أقرب الوسائل إلى كشف جوانب الإعجاز القرآنى وتذوقه[٦] .

وحكم د. عمر الملاحويش على آراء الباقلانى بأنها لم تكن من بنات أفكاره ، فإنما سبقه فيها من بحث الإعجاز قبله . وقد اعترف الباقلانى نفسه بذلك ، حين صدر كلامه بقوله : « ذكر أصحابنا وغيرهم[٧] » .

ثم أثنى عليه قائلا : غير أننا لا ننكر للباقلانى فضله وجهده فى إخراج هذه الأوجه فى إعجاز القرآن ، وكشفه عن حقيقتها ، وإبرازها للعيان ، بما أقام لها من الشواهد القرآنية والأدبية ، وبخاصة حين عرض لناحية النظم . ولو أن هذه الناحية قد نوه عنها الرمانى ، وسماها « نقض العادة » إلا أن الباقلانى ـ هنا ـ أخرجها بأسلوب جديد قريب

---

(١) إعجاز ١/١٨٦ ــ ٧ . وانظر عبد الفتاح لاشين ٤٦٤ .
(٢) إعجاز ١/١٧٢ ــ ٣ . (٣) إعجاز ١/١٧٣ .
(٤) البلاغة ١١٥ . (٥) البلاغة ١١٤ . سلطان ١١٥ .
(٦) من روائع ١٨٥ .
(٧) تطور ٢٨٣ . انظر عبد الفتاح لاشين ٤٥٨ .

إلى الأذهان[١] .

كذلك أشاد به عبد القهار داود العـاني إذ فضـل كتابـه علـى بقيـة كتـب الإعجـاز ، وعده أجودها وأحسنها ، لأن للباقلانى - فيما قال - حجة لا تدحض ، وبيانا لا يعـاب ، وأسلوبا لا يمل ؛ وفيما يكتب يختار من الألفاظ أنسبها بالمقام ، وألصقها بالمراد[٢] .

وختم د. عبد الفتاح لاشين حديثه عنه بقوله : مع ما فى كتاب الباقلانى مما عدوه من هفوات ، يكفيه أنه أول كتاب كامل ، وأثر باق من كتب الإعجاز . جمع فيـه البـاقلانى آراء سابقيه وحفظ لنا آثارهم (ولا تعدم الحسناء ذاما) و (يكفـى المـرء حسـنا أن تعـد معايبه)[٣] .

وشارك د. منير سلطان من عابوا الباقلانى بالوقوع فيما أخذه على الجاحظ . فقـال : يتلخص نقد الباقلانى - يريد للجاحظ - فى أن الجاحظ :

أولا : يستعين بكلام غيره للتطويل .

ثانيا : لا يحتوى نثره على نظم بديع أو كلام مليح .

ثالثا : قد جاذبه بعض الكتاب طريقته فتفوقوا عليه .

والعجيب أن يعلن الباقلانى هذا ، وكتابه متخم بنقول مـن كتـب متداولـة وغيرهـا . وعن الجاحظ نقل نقولا مصرحا باسمه مرة ، وفى أخـرى تـدل بنفسـها علـى مصدرهـا ، وثالثة حين تحدث عن الجن والشعراء الذين تحدثوا عن الغيلان . فإن كان التطويل عيبـا ، لقد اشترك فى العيب مع الجاحظ ...

والباقلانى لم ينقل من الجاحظ فقط بل إنى أذهب إلى أنه كـان متـأثرا بـه فـى أسـلوبه أيضا . وإذا عدنا إلى عرض الباقلانى لفكرته وإطالته واستدارته حـول معنـاه الـذى قصـد واستقصائه لفكرته وبخاصة فى ص١٢٤ و ١٢٥ وغيرهما من الصفحـات ، سـنجد هـذا الأثر المتصل بالجاحظ ، أو هذا الإعجاز فى أقل تقدير .

إن رأى الباقلانى فى إعجاز القرآن لا يبعد كثيرا - فى بعض تكوين هذا الـرأى ـــ عـن رأى الجاحظ فى الإعجاز . فالمعروف أن الوجه الثـالث مـن وجـوه إعجـاز القـرآن عنـد الباقلانى أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، مباين للمـألوف مـن ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتـادة .

---

(١) تطور ٢٨٣ .　　(٢) دراسات ١٧٦ .　　(٣) تطور ٤٦٥ .

وفى « البيان » بقول الجاحظ « إنه سيذكر .. كيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو موزون غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج » .

فلولا التعصب المذهبى لأكمل الباقلانى طريق الجاحظ ، ولاعترف بفضله وبما اقتبس منه ، وبما تأثره فيه . ولكل كاتب عيوب ، ولكن التعصب يفوق كل العيوب[١] .

ومع ذلك لم يسلب د. منير سلطان الباقلانى كل فضل . فقد ذكر أن له وقفات فى بيان الإعجاز ، التفت لها وفصّل القول فيها . منها كلامه :

عن التأثير النفسى للقرآن ،

وعن قوة التعبير القرآنى وصدقه لصدوره عن اللّه ، وعن الوحدة الفنية فى القرآن .

ثم تحدث عن كل واحدة من هذه الوقفات[٢] .

واقتصر أحمد حسين شرف الدين على الإشادة ، فصرح بأن كتاب الباقلانى كان — وما يزال ـ أهم وأشمل ما كتب حول إعجاز القرآن ، وعليه أثنى العديد من العلماء . امتاز عن غيره من الكتب بأنه تناول جميع مسائل الإعجاز ، ودرسها دراسة وافية ، وأورد الكثير من العلل والاستدلالات القرآنية وآيات التحدى وغير ذلك من المسائل[٣] .

* * *

على أن كل من كتب عن إعجاز الباقلانى أبدى إعجابه الكبير به ، وبخاصة فى جمعه أقوال من سبقه ومن عاصره حتى صار صورة شاملة ، وفى اقتصاره على الدفاع عن الإعجاز .

وقذفه الرافعى وضيف ومنير سلطان بما قذف به الجاحظ ، والسيد صقر ومنير سلطان بالتعصب المذهبى ، وعاب صقر ود. صبحى الصالح وعبد الكريم الخطيب حسه الفنى ، وتذوقه للنصوص الأدبية . كما عاب صقر ونعيم الحمصى والخطيب مواقف له من بعض القضايا المهمة فى كتابه .

---

(١) إعجاز ١٢١ — ٢ .

(٢) إعجاز ١١٥ — ٩ .

(٣) تأملات ١٥٣ .

الرازى

لما فرغ العلوى من عيب جملة علماء البلاغة بإهمال المسائل الجوهرية في الإعجاز ، والعناية بالمسائل الثانوية ، خص كتاب « نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز » بالنقد ، فقال : لو عذرنا من كان منهم [علماء البلاغة] بأنه ليس له حس فى المباحث الكلامية، ولا كانت له قدم راسخة فى العلوم الإلاهية ، وهم الأكثر كالسكاكى وابن الأثير وصاحب التبيان وغيرهم ممن بَرَّز فى علوم البيان ، وصبغ بها يده ، وبلغ فيها جدّه وجهده فما بال من كان له فيها اليد الطولى ، كابن الخطيب الرازى ؟ فإنه أعرض عن ذلك فى كتابه المصنف فى علم البيان . فإنه لم يتعرض لهذه المباحث ، ولا شم منها رائحة . ولكنه ذكر فى صدر كتاب « النهاية » كلاما قليلا فى وجه الإعجاز ، لا ينقع من غُله ، ولا ينفع من عِلَة[١] .

ورأى نعيم الحمصى أن نزعة علم الكلام هى الغالبة على الفخر الرازى فى مناقشاته ، وأنه لم يأت فى « المحصل » و « المعالم » بشىء جديد غير ما جاء فى « النهاية » و«التفسير » .

وعابه بأنه جمع فى « المعالم » بين القول بأمرين متناقضين ، هما البلاغة والصرفة[٢] .

الرمانى

ذكر نعيم الحمصى أنه لاحظ فى رأى الرمانى فى الإعجاز اتجاها جديدا ، وهو جمعه لكثير من النظريات التى قيلت قبله . فهو لا يأخذ بناحية ، وينقد الأخرى أو يرفضها ، بل يقبل كل ما قيل فى الأمر على علاته : فكأنه - فى هذا - يوفق بين الآراء المختلفة ، كما لاحظ أن تركه مسألة الحكم فى المفاضلة بين الأساليب إلى الذوق وحده ، دليل على نضج ذوقه فى البيان ، وحسن فهمه للأدب[٣] .

ووصم د. صبحى الصالح الرمانى بأنه لم يصدر فى كتابه عن رأى مبتكر ، ولا استشفاف أدق لأسلوب القرآن[٤] .

---

(١) الطراز ٣/٣٦٨ - ٩ .
(٢) فكرة ١٠٦ ، ١١١ .
(٣) فكرة ٦٤ .
(٤) مباحث ٣١٦ .

الخطابى

لاحظ الحمصى على الخطابى أنه جمع بين أقوال مختلفة قيلت فى القرآن ، ولكن بعضها لا يناقض بعضا . ويدل جمعه إياها على معرفة عميقة بجمال الكلام وبالبلاغة الحقيقية . وفهمه لها قريب مما نفهمه نحن الآن من صفات الأدب الرفيع :

معان سامية ،

وأسلوب محكم جميل ،

وعاطفة قوية تؤثر فى القلوب .

وقد أنقص من صفات هذا الأدب عنصر الخيال . وربما كان ينحلّ عنده ، فيدخل قسم منه فى المعنى ، وقسم منه فى الأسلوب ، فيكون مفهومه عن البلاغة قريبا من الكمال[١].

وذهب محمد حنيف فقيهى إلى أن كتاب الخطابى يمتاز على الرمانى وعلى غيره من المؤلفين فى الإعجاز ، بأنه كان فى صميم الموضوع ، ولم يتطرق به القول إلى سواه[٢] .

وعد عبد الكريم الخطيب الخطابى أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن الإعجاز بحثا علميا منظما[٣] . ورأى أن عد الخطابى صنيع القرآن بالقلوب أحد وجوه الإعجاز هو المعجزة القائمة فى القرآن أبدا ، الحاضرة فى كل حين ، التى تسع الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ، عربيهم وأعجميهم ، إنسهم وجنهم . أما الوجوه الأخرى التى عرضها الخطابى فهى وجوه لا تظهر لكل ناظر ، ولا تتجلى فى كل حين[٤] .

الجرجانى

جعل نعيم الحمصى عبد القاهر الجرجانى - فى كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة - قدوة من جاء بعده من المؤلفين فى البلاغة وإعجاز القرآن ببيانه . وعده مرن الفكر فى جعله الإعجاز فى شىء غير محسوس تماما .

وقال : ليس لنظريته قوة البرهان الرياضى الذى ينفى أو يثبت بالأدلة العقلية المشتركة بين كل الناس . وإنما يقوم الإعجاز — فى نظره — بالمعانى ، ويدرك بالذوق . وذلك بوضعه نظرية مرنة . إذا تأملناها أدركنا أنها تساعد المؤمن بإعجاز القرآن على دعم

---

(١) فكرة ٦٥ .
(٢) نظرية ١٥٥ .
(٣) إعجاز ١/١٥٥ . انظر نيازى ١٣١ .
(٤) إعجاز ١/١٦٩ .

إيمانه . ولكنها لا تقنع المنكر أو الملحد ، وذلك لأن الإقناع فيهما قائم على الذوق الأدبى الفنى ، وعلى شىء من الشعور الدينى . ومحال أن يجد الملحد أو الشاك فى القرآن من الروعة والجمال ما يجده المؤمن . وقد يكون كتاب آخر يؤيد عقيدته وأفكاره أروع عنده من القرآن . ولا يتيسر أن يتفق الناس فى تقدير الجمال فى القول كما أنهم لا يتساوون فى تقدير الجمال المدرك بالحس . ونرى أن مقاييس الجمال ، حتى ما وضع منها فى عصرنا - مهما بلغت من الدقة - لا توجد أذواق الناس .

فنظرية عبد القاهر إذن لا تحسم الخلاف ، وإن كان ما جاء به يبدو مسلما به فى تصور الكلام البليغ ، لا سيما وأنه قد أحسن عرض نظريته .

ونستطيع أن نلمس من كلامه أنه مفكر استفاد مما ذكره سابقوه ، وما كان مقلدا أو جامعا لآرائهم ، بل هو مبتكر ، ألبس نظرية النظم ثوبا قشيبا ، ونقلها من حيز الألفاظ إلى حيز المعانى . ومع أن قواعد البلاغة التى جاء بها ليست بقاطعة — كما قلنا — فى حسم النزاع ، فإنها - على كل حال — محاولة جدية مجدية تساعد على تذوق الأدب وفهمه وكتابته ومراعاة الصحة والجمال فيه .

وقد أفرغ هذه القواعد التى جاء بها عبد القاهر من جاء بعده من علماء البلاغة فى قوالب جامدة جافة ، ذهبت بعلم البلاغة عن غايته ، وأبعدته عن التجديد والابتكار ، وأخضعته للمنطق والتعنت الفلسفى العقلى ، وأهملت ما يساعد على تنمية الذوق الأدبى ، كما أنها لم تكمل ما أنقصه عبد القاهر ، ولم تكن الإعالة عليه وعلى من عاصروه أو سبقوه[1] .

وأشاد د. صبحى الصالح بعبد القاهر الجرجانى ، الذى كان - عنده - ذواقة للأسلوب القرآنى ، حتى أوشك أن يسبق عصره فى بعض لمحاته الموفقة التى نفذ بها إلى إدراك الجمال الفنى فى كتاب الله . واستدل على قوله بتحليله لقوله تعالى : ﴿ واشتعل الرأس شيبا[2] ﴾ و ﴿ وفجرنا الأرض عيونا[3] ﴾ .

وختم هذا التحليل بقوله : بدا لنا عبد القاهر — بعبارته الفياضة هذه — مشغوفا بالتصوير القرآنى ، ناعما بأخيلته البارعة ، مدركا تناسقه الجمالى الأخاذ .

---

(١) فكرة ٨٩ — ٩٠ . (٢) سورة مريم ٤ .
(٣) سورة القمر ١٢ . مباحث ٣١٤ — ٦ .

وإن كان ــ هنا ــ كسواه من بلغاء عصره ، واقفا عند لمحة من لمحات القرآن الجزئيـة ، غـير مستوف خصائصه العامـة ، ولا طريقته الموحدة ، فـى التعبير المتحـرك النـابض بالحياة[1].

وذهب د. عمر الملاحويش إلى أن بحوث عبد القاهر فى الإعجاز تعـدّ انتقـالا ضخمـا فى التفكير فى هذه الدراسة ، وكشفا لأسرار الإعجاز وتقريبها للذهن المفكر . فقد أكـد على ناحية النظم ، وهو الوجه الوحيد عنده للإعجاز .

ولما كان الأمر كذلك ، نرى الجرجانى يفصـل الكـلام فيـه مبينـا مقوماتـه وأصولـه . وبهذا فتح أمام من جاء بعده من الباحثين آفاقا جديدة فى دراسات نظم الكلام وأسـاليبه وبلاغته[2] . وربط بين الدراسات القرآنية والدراسات الأدبية ، ووضـح الصلـة بينهمـا ، بأن جعل إحداهما مكملة للأخرى[3] .

ويمتاز الجرجانى عمن سبقه بأنه لم يقبل أيـا مـن الوجـوه التـى ذكرهـا غـيره لإعجـاز القرآن سوى النظم الذى توسع فى الكلام عنه ، فقدم لنا بحوثا بلاغية قيمة ، وفتـح آفاقـا جديدة فى دراسة الأسلوب تعتمد على الذوق الفنى والنقد العلمى ، لا على التقليد .

ولم يخرج من جاء بعد عبد القاهر من الذين عنوا بدراسة الإعجاز عن آراء من سبقهم فى هذا المضمار[4] .

وذهب عمر السـلامى إلى أننـا نلمـس فـى كتبـه ــ دلائـل الإعجـاز وأسـرار البلاغـة والرسالة الشافية ــ لقطات فنية أصيلة ، تدل على عمق فى الذوق ، وإدراك أصيل للبيـان العربى . لكنها لم تكن منظمة فنيا بشكل كامل .

ويعده محمد خلـف الله صـاحب نظريـة فـى النقـد الأدبـى ، ذات طـابع سـيكولوجى وذوقى واضح ، وتصلح أن تكون أساسا لنظرية حديثة فى النقد العربى أوسع وأدق تسير فى المنهج التجريبى التحليلى والذوق العلمى ، أى أن نظرة عبد القاهر تجمـع بـين الـذوق العلمى ، والمنهج النفسى الذى يعرف طريقه إلى مسارب النفس البشرية .

وكان لنظرية النظم عند عبد القاهر صدى كبير فى نفـوس الذيـن أتـوا بعـده ، أمثـال الزمخشرى وابن الأثير ، حيث اعتمد كل منهما على الذوق فى دراساته[5] .

---

(١) مباحث ٣١٦ . (٢) تطور ٢٨٣ . (٣) تطور ٢٩٠ .
(٤) تطور ٢٩١ ــ ٢ . (٥) الإعجاز ١٤ ــ ٥ .

العلــــوى

رمى الحمصى العلوى بالمبالغة ، لأن الباحثين فى الإعجاز لم يقفوا كلهم عند مخارج الكلم كما ادعى . ورماه بأنه لم يأت بجديد يستحق الذكر ، وإنما كان جامعا لما كتبه غيره ، مستقصيا فى الجمع لا أكثر(١) .

ولكنه قدّر له حسن تنظيمه للبحث ، وطرقه له بصورة علمية منظمة ، تغلب فيها روحُ العالم روح الأديب ، وإن كانت لا تخلو من كثير من الجدل العقيم(٢) .

الرافعـــى

ذكر الحمصى أن الرافعى وصف الواسطى بأنه أول من جوّد فى مذهب أن القرآن معجز بالنظم . ثم عابه قائلا : لا ندرى علام اعتمد فى هذا القول(٣) .

ولكن الطبعة التى أعتمد عليها من إعجاز الرافعى لا تذكر هذا التجويد(٤) .

وأشاد د. صبحى الصالح بالرافعى الذى رأى أن له كلمات رائعة فى هذا المجال ، وأنه عنى عناية خاصة بالنظم الموسيقى فى القرآن ، هذا النظم الذى يشبه السحر ، والذى ألّف العرب على تعاديهم ، وكون منهم أمة واحدة ، تطرب للحن واحد ، تجتمع عليه قلوبها فى الأرض بينما ترتفع به أرواحها فى السماء ؛ وأخذ نفسه بالكشف عن أسراره(٥) .

وصرح محمد حنيف فقيهى : لم نر رجلاً تتبع الكلام تتبع الباحث ، واستقصاه استقصاء المنقّب ، كما رأينا الرافعى من الكتاب المعاصرين . وإن كان كذلك لم يسلم من الهنات التى نعدها عليه . وأقربها ذلك الأسلوب الملتوى ، والتعبير المغلق ، فى بعض عباراته(٦) .

وعلى الرغم من إعجاب عبد الكريم الخطيب بالرافعى قال عنه : ليس من شك فى أن الرافعى قد أفاد كثيرا من أولئك الرواد الذين سبقوه إلى هذا المطلب الكريم ، كالجاحظ والجرجانى والباقلانى والزركشى والبقاعى والسيوطى ، وغيرهم ممن كتبوا فى تفسير القرآن ، وفى علوم القراءات .

---

(١) فكرة ١٣٠ ، ١٣٦ . (٢) فكرة ١٣٦ ، ١٥٣ . (٣) فكرة ٦١ – ٢ .
(٤) و(٥) ١٥٣ . (٦) مباحث ٣١٧ ، ٣١٩ .

والذى نراه على الرافعى فى إعجازه أنه أراد أن يرتفع بالأسلوب إلى مستوى يليق بالموضوع الذى يعالجه ، ويتسق معه . فهو — إذ يكتب فى إعجاز القرآن ، ويقف بين يدى آيات الإعجاز فيه ، ويستقى من عيونه المتدفقة — حمله ذلك على أن يُدخل على نفسه شعورا بأنه لن ينال من القرآن شيئا ذا بال إلا إذا مد إليه يدا ملفقة فى أردية من الفصاحة والبلاغة ، وقلما مملولا من فصاحة البادية وبلاغتها ، وكان لهذا التدبير أثره فى الخروج على الطبع ، وفى استكراه كثير من الكلمات والأساليب على أن تأخذ مواضع غير مواضعها . ومن هنا كان ما يجده القارئ لكتاب الرافعى من استغلاق فى كثير من عباراته ، ومن غموض فى كثير من آرائه[١] .

ونستطيع أن نستعير هنا كلمة للرافعى قالها عن كتاب إعجاز القرآن للباقلانى ، فنقولها نحن له عن كتابه هو ، إذ يقول : « على أن كتاب الباقلانى ... لم يترك فيه بادرة عابها هو من غيره ... »[٢] .

وقد عاب الرافعى على الباقلانى وقوفه بالإعجاز القرآنى عند حد الكلام — أى النظم — والرافعى لم يخرج فى مداره حول الإعجاز عن هذا الوجه الذى ذهب إليه الباقلانى . وإن كان الرافعى قد جمّل هذا الوجه ، وألقى عليه بعض الألوان والأصباغ فى براعة ولطف ، وحسن صنعة ، فإنه لم يخرج في حديثه في إعجاز القرآن عن هذا الوجه الذى جرى عليه من سبقه من القائلين بأن النظم هو سر الإعجاز[٣] .

وقد حسب الرافعى أنه — بهذه المزايا الكثيرة التى أظهر بها ذلك الوجه — قد غيرت منه ، أو عددت فى صوره وأشكاله ، فجعلت منه وجوها . ولهذا تراه يقول : « بيد أن القرآن كتاب كل عصر ، وله فى كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز . ونحن قد قلنا فى غير الجهات التى كتب فيها من قبلنا . وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به » .

فهل قال الرافعى — حقا — فى إعجاز القرآن غير ما قال غيره ؟ وهل ذهب إلى وجه غير الوجوه التى ذهبوا إليها ؟!

لقد عرفت الجواب على هذا مما قلنا من قبل[٤] .

وذهب البوطى إلى أن الرافعى خير من كتب فى الإعجاز فى عصرنا[٥] .

---

(١) إعجاز ١/٣٠١ — ٢ .
(٢) إعجاز ١/٣٠٢ .
(٣) و(٤) إعجاز ١/٣٠٣ .
(٥) من روائع ١٨٥ .

رضـــــا

أعلن د. صبحى الصالح أن للسيد رشيد رضا لمحات موفقة فى فهم القرآن . ومثل ذلك لأستاذه محمد عبده ، يذكرها رضا له فى تفسيره[1] .

قطـــب

أشاد د.صبحى الصالح بسيد قطب ، وذكر أن له فى كتابه « التصوير الفنى فى القرآن » تخريجات ذكية ، واستنباطات سديدة ، وأفكارا ناضجة فى استلهام الجمال القرآنى بأسلوب مشرق جذاب[2] .

فلم تكن مفردات القرآن وحدها شاغلة له بموسيقاها ، ولا تراكيب القرآن وحدها مستأثرة باهتمامه بتناسقها وترابطها . وإنما كان نظره مركزا فى الأداة المفضلة للتعبير فى كتاب الله . ولقد وجدها فى التصوير . وراح يتحدث عنها بأسلوب شعرى يستهوى النفوس ، ويهديها بحق إلى جمال القرآن[3] .

وصرح البوطى بأن سيد قطب عالج نواحى خاصة من إعجاز القرآن . فأبدع فيها وأجاد . ومن خير آثاره فى ذلك « التصوير الفنى فى القرآن » و« مشاهد يوم القيامة فى القرآن » . هذا إلى جانب تفسيره « فى ظلال القرآن » فقد نهج فيه نهجا جديدا ، قد يكون بعيدا عن تحقيق المسائل والقضايا العلمية . ولكنه لامس حاجة فى نفوس كثيرين من الناس ، وهى التطلع إلى الكشف عن وجدانيات القرآن وتبسيطها وتقريبها للأفهام ، بعيدا عن التأملات العلمية والفكرية العويصة[4] .

---

(١) مباحث ٣١٧ .

(٢) مباحث ٣١٧ .

(٣) مباحث ٣١٩ .

(٤) من روائع ١٨٥ .

ومهد عبد الكريم الخطيب لاحتجاج عبد الجبار بالتصريح بأنه سلك فى الفصل الذى عقده لذاك أسلوبه المنهجى فى كتابه كله ، وهو إيراد الاعتراضات على لسان من يصح منه الاعتراض فى هذا الأمر أو غيره ثم يتولى دفع هذا الاعتراض بما يقيم له من حجج وأسانيد .

وعبد الجبار – فى إيراد الاعتراض – أمين أمانة تامة على الدعوى التى بين يديه : يشرح وجهة نظر خصومه فيها ، ويقيم لهم حججهم عليها ، بالقوة وبالروح التى يقيم بها حججه هو لدفع هذه الدعوى .

وهذا أسلوب بارع من أساليب البحث عن الحقيقة وتجليتها . وذلك بجلب كل الفروض الممكنة لبنائها ، حتى إذا استكملت حظها وبلغت غايتها ، سلط عليها ما بيده من حجج ، فنقضها حجرا حجرا .

ولا تنس أن عبد الجبار معتزلى ، أى أنه من علماء الكلام . وذلك هو أسلوب المعتزلة ، وتلك هى طريقة المتكلمين فى لقاء خصومهم ، وفى دفع ما يوردون عليهم من اعتراضات على آرائهم[1] .

وختم د. عبد الفتاح لاشين دراسته لآراء عبد الجبار بالقول : عبد الجبار بهذا التمهيد كان الهادى لعبد القاهر . وتلك البداية كانت المنارة التى اهتدى بها عبد القاهر الجرجانى ، وأخذ منها فكرة النظم الذى يقوم على معانى النحو .

وقد كان عبد الجبار فى استطاعته متابعة فكرته تلك حتى تظهر بالصورة التى ظهرت عند عبد القاهر أو تكاد ، لولا أنه شغل بقضايا مذهبه الكلامية التى كرس جهده وحياته لها[2] .

---

(١) إعجاز ٤٧٥/١ . من قضايا ٢١١ – ٢ .
(٢) بلاغة ٤٨٤ .

تعقيـــــــــب

تكشف هذه الجولة بين ما وجهه العلماء الكاتبون فى الإعجاز القرآنى وعلوم القـرآن إلى زملائهم فى هذا الشأن من نقود ، تكشف مدى ضيق هذا الحقل عند اقتصادنـا علـى هؤلاء ، ومدى اتسـاعه الفسيح إذا تجاوزنـاهم إلى الفئات الأخـرى مـن العلمـاء الذيـن تعرضوا لآرائهم بالنقد .

فإن من بين من تعرضنا لهم أدباء كبارا مثل الجاحظ والرافعى وسيد قطب ، وبلاغيـين كبارا مثل الجرجانى والزمخشرى والعلوى ، وممثلين كبارا لمذاهـب ثريـة فـى علـم الكـلام كالباقلانى وعبد الجبار .

وكل من كتب عن هذه الحقول العلميـة تعـرض لآرائهـم بـالتحليل والنقـد ، بـل مـن هؤلاء الرجال أفراد ــ يقف فـى صدارتهـم الجـاحظ والجرجـانى ــ دار مـن حولهـم مـن الكتب ما يؤلف مكتبة ضخمة .

وفى حدود الحقل الذى التزمنا به نجد العيب بالتقصير أشيع النقود . وهو أمـر طبيعـى بإزاء ما يحيط بالإعجاز القرآنى من غلائـل الإبهـام والمهابـة والشـعور بـالعجز ، والرغبـة الكامنة ــ عند المسلمين ــ فى مدارسة (كتابهم) واستخلاص ما يحمل أسماءهم منه .

وإذا كان العيب بالتقصير الذى قذف به النقاد عجزا عن الكشف عن وجـه الإعجـاز كشفا مقنعا ، فقد أخذ شكلا مختلفا عند د. صبحى الصالح ، إذ صار اقتصارا على تناول الجزئيات ، وإهمالا فى النظر للكل .

كذلك كثر العيب بالاتجاه الذى غلب على الكاتب ، وأثّر على ما كتب ، سواء كان هذا الاتجاه هو النزعة الكلامية التى أثرت فـى العقـول والأذواق ، فحجبـت عنهـا مجـالى الجمال فى النص القرآنى أو بعضها ؛ أو كان الاتجاه الأدبى الذى دفع بعض الكـاتبين إلى الإفاضة فى القول ــ بل الاندفاع فى تياراته ــ إفاضة جعلت ما قالوا فضفاضـا لا يحتـوى من المضمون إلا القليل الذى يكاد يتيه ، أو يقع فى شىء من الغموض .

وهناك اعتراف شامل بفضل كتب الجاحظ والبـاقلانى والجرجـانى والرافعـى علـى مـا بعدها من كتابات ، حتى ذهب الخطيـب وضيـف إلى أن الكتـاب جميعـا لم يخرجـوا عـن عباءة الجاحظ .

وقفـــــة

حان الوقت ليتوقف القلم ، ويسكن الفكر ، مدة ، نتطلع إلى الـوراء نتـأمل ونجمـل ، ونستشرق إلى الأمام فى تأهب وأمل . فإذا كنت قد أنجزت كتابا ، فمـا أنجزتـه ليـس إلا مبدأ رحلة طويلة مع الفكر العربى فى الإعجاز القرآنى .

وترينا النظرة الخلفية التوفيق الذى حظى به المفكـر العربـى فـى سـعيه إلى إثبـات هـذا الإعجاز .

فقد استهل بحثه بإثبات وقوع التحدى ، وصحته ، وكونه فى مجال وصل فيـه العربـى إلى الغاية ، وتوضيح كل ما يتصل بـه ، ليبـين معرفـة العـرب قديمـا وحديثـا بـه ، معرفـة يقينية .

ثم أبان توفر دواع كثيرة ، من شأنها أن تدفع العرب القادرين إلى تلبية هــذا التحـدى والمجىء بمـا يمـاثل القـرآن قـدرا أو يفوقـه . و لم يقـف عنـد حـد فـى الكشـف عـن هـذه الدواعى ، بل أدعى أنه أحاط بها جميعها ، وأفاض فى إضاءة أركان كل واحد منها .

ثم أثبت ـ على الرغم من كل هذه الظروف المستحثة ـ أن العرب لم يجيئوا بالمعارضة المنشودة ، التى يمكن الادعاء بأنها مماثلة للقرآن أو قريبة من مستواه . وهوى بمعوله علـى المعارضات المزعومة ، فانهارت لأنها لم تبن على قواعد سليمة ، وظنت أن الأمر لا يعدو القشـور البديعيـة . و لم يقنعـوا بمـا فعلـوا ، بـل خشـوا أن يدعـى مـدع أن الكفـار أتـــوا بمعارضات للقرآن ، ولكن السـلطة التـى غلبـت علـى الخلافـة الإسـلامية محـت آثارهـا ، وكتمت أخبارها ، فأتوا من الأدلة بما ينقض هذا الادعاء من أساسه .

ثم أثبت بالأدلة المقنعة والكثيرة أن ترك المعارضة كان بسبب العجـز عنهـا . وأحسـن الرد على كل حجة يمكن أن يتعلل المتعللون لنفى العجز عن العرب ، فينتفى الإعجاز .

وعندما استوى له ذلك ، كانت الثمرة المحتومة إعجــاز القـرآن ، وهـى الثمـرة المبتغـاة وراء كل كلمة سطرها .

وحينئذ انفسح أمامه الوقـت ليقـوم بدراسـات مضافـة ، تزيـد إعجـاز القـرآن تجليـا ، وتؤكد احتواءه على جميع أركان المعجزات ، وتبين مكانه من معجزات الأنبياء الآخرين ،

وإمكان أدراكه أو إدراك بعضه وتطور التأليف فى الإعجاز ونقد ما سبق من دراسات وما أشبه ذلك .

وترينا هذه النظرة الفِرق التى اضطلعت بالعبء الأكبر فى هذا المضمار : المعتزلة والأشعرية ، كما ترينا العمالقة من الرجال الذين اهتدوا إلى الأفكار الأساسية ، وكانوا محاور جذبت نحوها كل من جاء بعدها ، مثل الجاحظ والباقلانى وعبد الجبار والجرجانى والعلوى فى العصور القديمة ، والزرقانى والحمصى والخطيب فى العصر الحديث . ويجدر بى أن أخص الجاحظ بالإكبار ، لأنه كان من أقدم المفكرين ، ولكنه شارك فى كل مجال ، وأتى فيه بما لا يزال متبعا إلى اليوم .

حقا اشتط بعض المفكرين ، ولكن مثل هذا الشطط متوقع فى الدراسات الدينية . وحقا لم أستطع أن أوافق بعض ما جاء به بعض هؤلاء المفكرين .

ولكن هذا وغيره لا يفقد التفكير - فى قضية الإعجاز - شيئا من توهجه وتميزه وإفلاحه .

المصادر والمراجع

الآلوسى ، شهاب الدين محمود بن عبد الله (١٢١٧ — ١٢٧٠ / ١٨٠٢ — ١٨٥٤): روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ بيروت — دار الفكر — ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

ابن أبى الإصبع ، عبد العظيم بن عبد الواحد العدوانى (٥٩٥ — ٦٥٤ / ١١٩٨ — ١٢٥٦) : بديع القرآن ـ ط ١ ـ مصر ـ مطبعة الرسالة ـ ١٣٧٧ / ١٩٥٧ .

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ ـ ٧٢٨ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨) : التفسير الكبير ط١ ـ لبنان ـ بيروت ـ دار الكتب العلمية ـ ١٤٠٨ / ١٩٨٨ .

النبوات ـ دار الفكر.

ابن جزى ، أبو القاسم محمد بن أحمد (٦٩٣ — ٧٤١ / ١٢٩٤ — ١٣٤٠) : التسهيل لعلوم التنزيل ـ مصر ـ دار الكتب الحديثة .

ابن حزم ، أبو محمد على بن أحمد (٣٨٤ ـ ٤٥٦ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤) : الفصل فى الملل والأهواء والنحل — المملكة العربية السعودية — شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ـ ط ١ ـ ١٤٠٢ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ ـ ٨٠٨ / ١٣٣٢ — ١٤٠٦) : مقدمته ـ لجنة البيان العربى ـ ط ٢ ـ ١٣٨٤ / ١٩٦٥ .

ابن عطية الأندلسى ، أبو محمد عبد الحق (٤٨١ — ٥٤٢ / ١٠٨٨ — ١١٤٨) : المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز — الدوحة — ط ١ — المحرم ١٣٩٨ — ديسمبر ١٩٧٧ .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (٧٠١ — ٧٧٤ / ١٣٠٢ — ١٣٧٣) : تفسيره ـ لبنان ـ بيروت ـ دار المعرفة ـ ١٤٠٥ / ١٩٨٤ .

ابن كمال باشا ، شمس الدين أحمد بن سليمان (٩٤٠ / ١٥٣٤) : رسائله : تركيا — مطبعة إقدام — ١٣١٦ .

ابن النقيب ، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان البلخى (٦١١ / ٦٩٨ / ١٢١٤ — ١٢٩٨) : مقدمة تفسير ابن النقيب فى علم البيان والمعانى والبديع وإعجاز القرآن — مصر — مطبعة الخانجى — ط ١ — ١٤١٥ / ١٩٩٥ .

ابن هشام المعافرى ، أبو محمد عبد الملك (٢١٣ / ٨٢٨) : السيرة النبوية — مصر مطبعة مصطفى البالى الحلبى وأولاده — ١٣٥٥ / ١٩٣٦ .

أبو حمدة ، محمد على : من أساليب البيان فى القرآن الكريم — الأردن — عمان — جمعية عمال المطابع التعاونية — ط ١ — ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

أبو حيان الأندلسى ، محمد بن يوسف (٦٥٤ — ٧٤٥ / ١٢٥٦ — ١٣٤٤) : البحر المحيط — المملكة العربية السعودية — الرياض — مكتبة ومطابع النصر الحديثة .

أبو الخشب ، إبراهيم على : القرآن الكريم : دراسة — دار الفكر العربى — د . ت .

أبو زهرة ، محمد : المعجزة الكبرى القرآن — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

أبو سليمان ، صابر حسن محمد : مورد الظمآن فى علوم القرآن — مصر — الدار السلفية — ط ١ — ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

أبو على ، د . محمد بركات حمدى : فى إعجاز القرآن الكريم — مؤسسة الخافقين ومكتبتها محمد مفيد عزة الخيمى — ط ١ — ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

أبو فرحة ، د . الحسينى : مأدبة الله : دراسات فى علوم القرآن — القاهرة — الفاروق الحديثة للطباعة والنشر — ط ٣ — ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

أبو موسى ، د . محمد محمد : الإعجاز البلاغى : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم — مصر — مطابع المختار الإسلامى — ط ١ — المحرم ١٤٠٥ — سبتمبر ١٩٨٤ .

أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى (بعد ٣٩٥/١٠٠٥) : الصناعتين الكتابة والشعر — طبع عيسى البابلى الحلبى وشركاه .

الأسد آبادى ، عبد الجبار بن أحمد (٤١٥ / ١٠٢٥) : شرح الأصول الخمسة — مكتبة وهبة — ١٩٦٥ .

المغنى فى أبواب التوحيد والعدل — مصر — مطبعة دار الكتب — ط ١ — شعبان ١٣٨٠ / ديسمبر ١٩٦٠ .

إسماعيل ، د . شعبان محمد : المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الإسلامية — مصر — دار الأنصار — ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

إسماعيل ، ود . عبد العزيز : الإسلام والطب — مطبعة الاعتماد — ١٩٣٨ .

الأشعرى ، على بن إسماعيل (٢٦٠ — ٣٢٤ / ٨٧٤ — ٩٣٦) : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين — استانبول — مطبعة الدولة — ١٩٢٩ .

أمين ، د . بكرى شيخ : التعبير الفنى فى القرآن — دار الشروق — ط ٢ — ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

الإيجى ، عبد الرحمن بن أحمد (٧٥٦ / ١٣٥٥) : المواقف فى علم الكلام — عالم الكتب ببيروت ومكتبة المتنبى بالقاهرة ومكتبة سعد الدين بدمشق .

الباقلانى : أبو بكر محمد بن الطيب : إعجاز القرآن — مصر — دار المعارف — ط ٣ — ١٩٧٢ .

البدرى ، على : حقائق واباطيل حول إعجاز القرآن — مصر — دار الطباعة المحمدية — ط ١ — ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

بن نبى ، مالك (١٣٢٣ — ١٣٩٣ / ١٩٠٥ — ١٩٧٣) : الظاهرة القرآنية — ترجمة عبد الصبور شاهين — الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية — ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

البوطى ، د . محمد سعيد رمضان : من روائع القرآن : تأملات علمية وأدبية فى كتاب الله عز وجل — مكتبة الفارابى — ط ٣ — شعبان ١٣٩٢ — أيلول ١٩٧٢ .

التوحيدى ، على بن محمد (٤١٤ / ١٠٢٣) البصائر والذخائر — دار صادر ببيروت — ط ١ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (١٦٣ — ٢٥٥ / ٧٨٠ — ٨٦٩) : حجج النبوة — انظر رسائله .

الحيوان — مصر — مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده — ط ٢ — ١٩٧٠ .

رسائله — القاهرة — المطبعة العربية الحديثة — ط ١ — ١٤١١ / ١٩٩١ .

الجرجانى ، عبد القاهر بن عبد الرحمن (٤٧١ / ١٠٧٨) :
دلائل الإعجاز — مصر — المدنى — ١٩٨٤ .
الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز — مصر — مطبعة المدنى — ١٩٨٤ .

الجندى ، عبد الحليم : القرآن والمنهج العلمى المعاصر — مصر — دار المعارف — ١٤٠٤ / ١٩٨٤ .

الجوينى ، عبد الملك بن عبد الله إمام الحرمين (٤١٩ — ٤٧٨ / ١٠٢٨ — ١٠٨٥):
العقيدة النظامية — مطبعة الأنوار — ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .
لمع الأدلة —

الجوينى ، د . مصطفى الصاوى : منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه — مصر — دار المعارف .

الحسن ، د . محمد على : المنار فى علوم القرآن — الأردن — عمان — مطبعة الشرق ومكتبتها — ط ١ — ١٩٨٣ .

حسين ، محمد الخضر (١٢٩٣ — ١٣٧٧ / ١٨٧٦ — ١٩٥٨) : بلاغة القرآن — طبع ونشر على الرضا التونسى — ١٣٩١ / ١٩٧١ .

الحمصى ، نعيم : فكرة إعجاز القرآن — بيرت — مؤسسة الرسالة — ط ٢ — ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

حميدة ، عبد الحسيب طه : مع القرآن فى آدابه ومعاملاته — مصر — دار المعارف — ط ٦ ١٣٨٩ / ١٩٧٠ .

حويش ، د . عمر الملا : تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها فى البلاغة العربية — العراق — مطبعة الأمة — ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

الخطابى ، حمد بن محمد (٣١٩ — ٣٨٨ / ٩٣١ — ٩٩٨) : بيان إعجاز القرآن — فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن . مصر — دار المعارف .

الخطيب ، عبد الكريم : إعجاز القرآن — مصر — مطابع دار الكتاب العربى — ط ١ — رمضان ١٣٨٣ — فبراير ١٩٦٤
: القرآن .

: من قضايا القرآن ـ مصر ـ دار الفكر العربى ـ ط ١ ـ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

خلف الله ، أحمد عز الدين عبد الله : القرآن يتحدى ـ مصر ـ مطبعة السعادة ـ ط١ ـ ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

خليل ، السيد أحمد : دراسات فى القرآن ـ مصر ـ دار المعارف .

الخياط ، أبو الحسن عبد الرحيم بن محمد (نحو ٣٠٠/ ٩١٤) : الانتصار ، والرد على ابن الروندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم ـ بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ـ ١٩٥٧ .

داود ، أحمد محمد على : علوم القرآن والحديث ـ الأردن ـ عمان ـ دار البشير ـ ١٩٨٤ .

الدباغ ، مصطفى : وجوه من الإعجاز القرآنى ـ الأردن ـ عمان ـ مطابع الدستور التجارية .

دراز . د . محمد عبد الله : النبأ العظيم : نظرات جديدة فى القرآن ـ الكويت ـ دار القلم ـ ط ٣ ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

دوح ، حسن : حوار مع الشباب حول القرآن ـ مصر ـ دار النصر للطباعة الإسلامية ـ ١٩٨٦ .

الذهبى ، د . محمد حسين : الوحى والقرآن الكريم ـ مصر ـ مكتبة وهبة ـ ط ١ ـ ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

الرازى ، فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤ ـ ٦٠٦ / ١١٥٠ ـ ١٢١٠) :

التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ـ بيروت ـ دار إحياء التراث العربى ـ ط ٣ .

محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بمصر .

نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ـ ط ١ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥ .

الرافعى ، مصطفى صادق (١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ / ١٨٨١ ـ ١٩٣٧) : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مطبعة الاستقامة ـ ط ٤ ـ ١٣٥٩ / ١٩٤٠ .

رضا ، محمد رشيد (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ / ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) : تفسير القرآن الكريم ـ مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٢ .

الرماني ، على بن عيسى (٢٩٦ ـ ٣٨٤ / ٩٠٨ ـ ٩٩٤) : النكت فى إعجاز القرآن ـ فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ـ مصر ـ دار المعارف ـ د . ت .

الرومى ، د . فهد بن عبد الرحمن : خصائص القرآن الكريم ـ ط ٤ ـ شوال ١٤٠٩ .

الزرقانى ، محمد عبد العظيم (١٣٦٧ / ١٩٤٨) : مناهل العرفان فى علوم القرآن ـ دار إحياء الكتب العربية ـ د . ت .

الزركشى ، بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٤٥ ـ ٧٩٤ / ١٣٤٤ ـ ١٣٩٢) : البرهان فى علوم القرآن ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ط ١ ـ ١٣٧٦ / ١٩٥٧ .

الزمخشرى ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (٧٤٥ ـ ٧٩٤ / ١٣٤٤ ـ ١٣٩٢) :

أساس البلاغة ـ دار الكتب .

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ ط ١ ـ ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

الزملكانى ، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (٦٥١ / ١٢٥٣) : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ـ بغداد ـ مطبعة العانى ـ ط ١ ـ ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

السكاكى ، يوسف بن أبى بكر (٥٥٥ ـ ٦٢٦ / ١١٦٠ ـ ١٢٢٩) : مفتاح العلوم ـ بغداد ـ مطبعة الرسالة .

السلامى ، عمر : الإعجاز الفنى فى القرآن ـ تونس ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ ١٩٨٠ .

سلطان ، منير : إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ـ الإسكندرية ـ مركز الدلتا للطباعة ـ ١٩٨٦ .

سلاّم ، د . محمد زغلول : أثر القرآن فى تطور النقد العربى ـ مصر ـ دار المعارف ـ ط ٢ ـ ١٩٦١ .

السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (٨٤٩ — ٩١١ / ١٤٤٥ — ١٥٠٥) :

الإتقان فى علوم القرآن — مكتبة المعارف بالرياض ودار إحياء العلوم ببيروت — ط ١ — ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

معترك الأقران فى إعجاز القرآن — مصر — دار الثقافة العربية للطباعة ١٩٦٩ .

شاكر ، محمود محمد : مقدمة لكتاب بن نبى .

شحاتة ، د . عبد الله محمود : علوم التفسير — الهيئة المصرية العامة للكتاب — سلسلة المكتبة الثقافية — العدد ٣١٦ — السنة ١٩٧٥ .

شرف الدين ، أحمد حسين : تأملات فى تراثنا الإسلامى — ط ١ — ١٤٠٤ / ١٩٨٣ .

شرف الدين ، د . صالحة عبد الحليم : القرآن الحكيم : إعجازه وبلاغته وعلومه — رجب ١٢٠٤ — أبريل ١٩٨٤ .

الشريف ، عبد الله : انظر كفافى .

الشوكانى ، محمد بن على (١١٧٣ — ١٢٥٠ / ١٧٦٠ — ١٨٣٤) : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير — جدة — دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع — ط ١ — ١٤١٥ / ١٩٩٤ .

الصابونى ، محمد على : التبيان فى علوم القرآن — مكتبة الغزالى بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت ط ٢ — ١٤٠١ / ١٩٨١ .

الصالح ، د . صبحى : مباحث فى علوم القرآن — بيروت — دار العلم للملايين — ط ٨ — كانون الثانى (يناير) ١٩٧٤ .

الصباغ ، محمد : لمحات فى علوم القرآن واتجاهات التفسير — بيروت — المكتب الإسلامى — ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

صبيح ، محمد : بحث جديد عن القرآن — القاهرة - ط ٢ — ٢٢ / ٢ / ١٩٦١ .

صقر ، السيد أحمد : مقدمة لإعجاز القرآن للباقلانى .

الصنعانى ، عباس بن على : الرسالة العسجدية فى المعانى المؤيدية ــ ليبيا ــ تونس ــ الدار العربية للكتاب ــ ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

الصواف ، محمد محمود : القرآن ــ بيروت ــ مؤسسة الرسالة ــ ط ٣ ــ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

ضيف ، د . شوقى : البلاغة : تطور وتاريخ ــ مصر ــ دار المعارف ــ ١٩٦٥ .

طبارة ، عفيف عبد الفتاح : روح الدين الإسلامى ــ لبنان ــ بيروت ــ دار العلم للملايين ــ ط ١١ .

الطبرسى ، الفضل بن الحسن (٥٤٨ / ١١٥٣) : مجمع البيان لعلوم القرآن ــ لبنان ــ بيروت ــ دار إحياء التراث العربى .

الطبرى ، محمد بن جرير (٢٢٤ ــ ٣١٠ / ٨٣٩ ــ ٩٢٣) : تاريخ الرسل والملوك ــ مصر ــ دار المعارف ١٩٦٢ .

: جامع البيان عن تأويل القرآن ــ مصر ــ دار المعارف ــ ط ٢ ــ ١٩٦٩ .

طلبة ، حسين فؤاد : القرآن كتاب الله الخالد ــ سلسلة دراسات فى الإسلام يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ العدد ٢٢٢ ــ السنة ١٨ ــ مطابع الأهرام التجارية ــ ١٥ من رمضان ١٣٩٩ ــ ٨ من أغسطس ١٩٧٩ .

الطوسى ، أبو جعفر محمد بن الحسن (٣٨٥ ــ ٤٦٠ / ٩٩٥ ــ ١٠٦٧) : التبيان ــ النجف الأشرف ــ مطبعة النعمان .

د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق ــ ط ٢ ــ مصر ــ دار المعارف ــ ١٩٧٧ .

العانى ، عبد القهار داود : دراسات فى علوم القرآن ــ بغداد ــ مطبعة المعارف ــ ط ١ ــ ١٩٧٢ .

العباسى ، عبد الرحيم بن عبد الرحمن (٨٦٧ ــ ٩٦٣ / ١٤٦٣ ــ ١٥٥٦) : معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص .

عبد الجبار بن أحمد : الأسدآبادى .

عبد الحميد — محسن : الآلوسى مفسرا — بغداد — مطبعة المعارف — ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .

: الرازى مفسرا — بغداد — دار الحمدية للطباعة ١٣٩٤ / ١٩٧٤ .

عبد العزيز — د . أمير : دراسات فى علوم القرآن — دار الفرقان بعمان — ومؤسسة الرسالة ببيروت — ط ١ — ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

عبده ، محمد : (١٢٦٦ — ١٣٢٣ / ١٨٤٩ — ١٩٠٥) : رسالة التوحيد — مصر — دار المعارف — ١٩٦٦ .

عتر ، د . حسن ضياء الدين : بينات المعجزة الخالدة — سورية — حلب — دار النهضة ط ١ — ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

عرجون ، محمد الصادق : القرآن العظيم : هدايته وإعجازه فى أقوال المفسرين — دار الاتحاد العربى للطباعة — ١٣٨٦ / ١٩٦٦ .

عطا ، عبد القادر أحمد عطا : دراسة مع أسرار الكرمانى .

: عظمة القرآن — لبنان — بيروت — دار الكتب العلمية — فبراير ١٩٨٤ . وهو الدراسة السابقة نفسها .

العطار ، داود : موجز علوم القرآن — ط ٢ — ١٣٩٩ / ١٩٧٩ .

العلوى ، يحيى بن حمزة (٦٦٩ — ٧٤٥/ ١٢٧٠ — ١٣٤٤) : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز — لبنان — بيروت — دار الكتب العلمية — د . ت .

عليان ، د . رشدى وقحطان عبد الرحمن الدورى وكاظم فتحى الراوى : علوم القرآن — العراق — مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر — ١٩٨٠ .

العمارى ، على : حول إعجاز القرآن — سلسلة الثقافة الإسلامية — العدد ٤٤ — القاهرة — دار الثقافة العربية للطباعة — جمادى الآخرة ١٣٨٣ — نوفمبر ١٩٦٣ .

عياض = اليحصبى .

الغزالى ، محمد : نظرات فى القرآن — مصر — مطبعة حسان — ط ٥ .

فقيهى ، محمد حنيف : نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجانى عن كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز — ط ١ — ١٤٠١ / ١٩٨١ .

فودة ، د . محمود بسيونى : المرشد الوافى فى علوم القرآن ـ مصر ـ مطبعة الأمانة ـ ١٤٠٢ / ١٩٨٢ .

القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٦٧١ / ١٢٧٣) : الجامع لأحكام القرآن ـ مصر ـ دار الكتب .

قصاب ، د . وليد : التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى ـ قطر ـ الدوحة ـ ١٤٠٥ / ١٩٨٥ .

قطب ، سيد (١٣٢٤ ـ ١٣٨٧ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦)

: فى ظلال القرآن ـ دار الشروق ط ١٢ ـ ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

القطان ، مناع خليل : مباحث فى علوم القرآن ـ الرياض ـ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ـ ط ١ ـ ١٤١٣ / ١٩٩٢ .

قمحاوى ، محمد الصادق : الإيجاز والبيان فى علوم القرآن ـ القاهرة ـ مكتبة عالم الفكر ـ ١٩٨٠ .

: شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها ـ ط ١ ـ ١٣٨٩ / ١٩٧٨ .

الكرمانى ، تاج القراء محمود بن حمزة : أسرار التكرار فى القرآن ـ القاهرة ـ دار العلوم للطباعة ـ ط ٣ ـ ١٣٩٨ / ١٩٧٨ .

كفافى ، د . محمد عبد السلام وعبد الله الشريف : فى علوم القرآن دراسات ومحاضرات ـ لبنان ـ بيروت ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ ١٩٨١ .

الكواكبى ، عبد الرحمن بن أحمد (١٢٦٥ ـ ١٣٢٠ / ١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ـ حلب ـ المطبعة العصرية ـ ١٩٥٧ .

الكومى ، د . سامى عبد العزيز : الإعجاز القرآنى فى مجال الإعلام ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة ـ ط ١ ـ ١٤١١ / ١٩٩٠ .

لاشين ، د . عبد الفتاح : بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغية ـ مطبعة دار القرآن ـ ١٩٧٨ .

لاشين : موسى شاهين : اللآلئ الحسان فى علوم القرآن ـ مصر ـ دار التأليف ـ ١٣٨٨ / ١٩٦٨ .

الماوردى ، على بن محمد (٣٦٤ — ٤٥٠ / ٩٧٤ — ١٠٥٨) : أعلام النبوة — لبنان — بيروت — دار الكتب العلمية — ط ١ — ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

مطلوب ، د . أحمد : اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الرابع للهجرة — الكويت — نشر وكالة المطبوعات — ط ١ — ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

: عبد القاهر الجرجانى : بلاغته ونقده — بيروت — ط ١ ١٣٩٣ / ١٩٧٣ .

: مناهج بلاغية — الكويت — نشر وكالة المطبوعات — ١٩٧٣ .

نيازى ، عبد الكريم عبد الله ، القرآن الكريم : معجزة وتشريع — مطبوعات نادى مكة الثقافى الأدبى — ط ٢ — ١٤١٢ .

اليحصبى ، عياض بن موسى (٤٧٦ / ٥٤٤ / ١٠٨٣ — ١١٤٩) : الشفاء — دمشق — دار الوفاء للطباعة والنشر — د . ت .

محتويات الكتاب

رقم الإيداع : ١٠٤٤٨ / ٩٩
الترقيم الدولى : 2 - 1306 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه